

الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب

# مِنْ أَيَّامِ النَّبِوَّةِ مَشَاهِدٌ وَقَصَصٌ

دار الجليل

© دار الجديد، طبعة ثانية مُنقَّحة، ١٩٩٣

📖 : ٣٤٣٧٥٢ - 📧 : ٥٢٢٢ / ١١ - نضد النص: علي حمدان - ضبَّطه بالشكل على  
أصوله: محمود عسّاف - خطّ الخطوط: علي عاصبي - رَسَم الغلاف: محمد شمس الدين -  
صورة الغلاف مُقتبسة من: *L'Islam nelle Stampe*, BE-MA Editrice, Milano, 1988

## مَنْبَهَةٌ... لهذه الطبعة

---

أَبَتْ هَذِهِ الدَّارُ الْكَرِيمَةُ إِلَّا أَنْ تَجْعَلَ مِنْ بَعْضِ قَدِيمِي جَدِيداً  
كَأَسْمِهَا، فَأَخَذْتُ بِأَسْبَابِ نَشْرِ هَذَا الْكِتَابِ، بِخُلَّةِ قَشِيَّةٍ فِي  
حَوَاشِيهَا إِغْرَاءً، شَأْنَهَا فِيمَا تَنْشُرُ.

وَأَقْتَرَحْتُ عَلَيْهَا أَنْ يُمَثَّلَ لِلنَّاسِ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِعُتْوَانِ جَدِيدٍ،  
كَوَلِيدِ تَقْمُصَ فِي يَوْمِهِ غَيْرِ ثَوْبِ أَمْسِهِ... أَوْ تَنَاسَخَ فِي خَلْقِهِ  
خَلْقُهُ الْبَدِيءُ، وَأَنْتَظِمَتْهُ أَمْشَاجُ تَكْوِينِهِ الْأَوَّلِ. فَأَكْبَرُ فُصُولِ  
الْكِتَابِ تَدَوُّرُ عَلَى أَسْمِهِ هَذَا الْمُسْتَحْدَثِ: مِنْ أَيَّامِ النُّبُوَّةِ - مَشَاهِدُ  
وَقَصَصُ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ دَفَعْتُهُ إِلَى الْقَارِئِ مِنْ قَبْلِ سَنَةِ ١٩٤٧ عَنْ  
دَارِ الْعِلْمِ لِلْمَلَايِينِ أَيَّامَ يَفَاعِيهَا وَحَبْرِهَا، إِبَّانَ كَانَتْ تَثَاقُلُ بَيْنَ  
الْحَبْوَةِ وَالْحَبْوَةِ، وَتَتَشَنَّى بَيْنَ الْخُطْوَةِ وَالْخُطْوَةِ، بِأَسْمِ: أَيَّامِ  
الْحُسَيْنِ.

وَلَمْ أَبْعُدْ بِالتَّسْمِيَةِ الْخَاضِرَةِ الْعَتِيدَةِ عَنْ تِلْكَ الْقَدِيمَةِ  
الْعَهِيدَةِ، فَالْحُسَيْنُ (ع)، فِي جَوْهَرِهِ وَحَقِيقَتِهِ، يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ النُّبُوَّةِ،  
وَهَذَا أَكْبَرُ لَهُ وَأَزْحَبُ وَأَغْنَى وَأَحَبُّ.

وَجَاءَ اقْتِرَاحُ الدَّارِ، دارَ الجَدِيدِ، عَلَيَّ، بَعْدَ إِبْلَالِي مِمَّا أَلَمَّ بِي  
وَأَدْخَلَنِي الْمُسْتَشْفَى. وَاتَّفَقَ لِي لِلْأَوْنَةِ أَنْ رَأَيْتُ الَّذِينَ  
بَلَوْتُهُمْ مِنْذُ سَنَةِ ١٩٣٥، أَعَانِيهِمْ وَأَعَانِي مَعَهُمْ إِلَى أَغْوَامي هَذِهِ  
الْأَخِيرَةِ، عَلَى حَقَائِقِهِمْ. فَكَانَتْ حَصِيلَةُ بِيَادِرِي مِنْهُمْ، فِي أَكْبَرِ  
شَأْنِهَا، زُؤَانًا إِلَّا بَقِيَّةً هِيَ الْكَرَائِمُ مِنَ الْحُبِّ وَاللُّبَابِ، شَفَعْتُ بِمَا  
كَانَ اجْتَمَعَ عِنْدِي مِنْ أَكْدَاسٍ «غَرَابِيبَ سُودٍ».

فَكَانَ فِي مُقَدِّمَةِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الْكَرِيمِ الَّذِينَ ذَكَرُونِي أَيَّامَ  
تَفَطَّرْتُ أَلْمًا حَوْبَائِي وَسُوَيْدَاءُ نَفْسِي، مِنْ أَصْحَابِ السَّمَاخَةِ الشَّيْخِ  
مُحَمَّدٍ مَهْدِي شَمْسِ الدِّينِ الَّذِي قَالَ، وَلَمْ يَتَوَرَّغْ، عَلَى مَسْمَعٍ  
وَمَزَائٍ، وَلَكِنْ بِتَغْيِيرٍ يَتَضَمَّنُ مَعْنَاهُ: مَا اتَّفَقَ لِي وَشَهِدْتُ ظَلِيمًا مِنْ  
ذَوِيهِ كَالْعَلَايِلِيِّ، وَلَا رَأَيْتُ ظُلُومًا كَقَوْمِهِ، وَالشَّيْخِ الصَّدِيقِ ابْنِ  
الشَّيْخِ الصَّدِيقِ مُحَمَّدٍ رَشِيدٍ رَاغِبٍ الْقَبَانِي الْقَائِمُ بِأَعْبَاءِ  
الْفَتْوَى... وَمِنْ أَصْحَابِ الدَّوْلَةِ سَلِيمِ الْحُصَّ وَرَشِيدِ الصُّلَحِ  
وَشَفِيقِ الْوَزَّانِ... وَمِنْ أَصْحَابِ أَلْمَعَالِي مِيشَالِ إِدَّه، وَمِنْ سُورِيَّةِ  
تَفَضَّلَ بِمَنْ نَابَ عَنْهُ الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّؤُوفِ الْكَسْمِ حَامِلًا بَاقَةَ زَهْرٍ.  
وَحَصَصْتُهَا بِالذِّكْرِ إِذْ كَانَ لِي فِيهَا أَيَّامٌ وَأَيَّامٌ فِي الْأَرْبَعِينَاتِ  
وَالْخَمْسِينَاتِ، وَلَا سِيَّما يَوْمُ الْمِهْرَجَانِ التَّائِبِيَّ الْأَوَّلِ لِعَدْنَانَ  
الْمَالِكِيِّ وَكَانَ عَرَبِيًّا جَامِعًا، يَوْمَ ٥ آبِ سَنَةِ ١٩٥٥. وَأُكْتَفِي  
لِتَعْرِفَ مَا كَانَ مِنْ وَقْعِي عَلَى النَّاسِ أَنْ تُرَاجَعَ الصَّحَافَةُ فِيهَا  
يَوْمَئِذٍ، وَبِخَاصَّةِ مَجَلَّةِ الْجَيْشِ السُّورِيِّ نَفْسِهِ. وَلَكِنِّي أَتَعَزَّى بِمَا  
قَالَ ابْنُ الْمُقَرِّيِّ صَاحِبُ نَفْحِ الطَّيِّبِ:



سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْخُطُوبَ فَلَا عِتَابَ وَلَا مَلَامَةَ  
أَغْمَى، وَأَغْشَى، ثُمَّ ذُو بَصَرٍ وَزَزَقَاءُ أَلْيَمَامَةٍ  
وَتَوَجَّ عِيَادَتِي، أَنَّهُ أَقْبَلَ مُهْزُولاً صَاحِبُ الْفَخَامَةِ رَئِيسُ  
الْجُمْهُورِيَّةِ، وَلَا تَظُنُّهُ مَنْ قَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى ذِهْنِكَ أَوْ مَنْ تَعْرِفُ، بَلْ  
هُوَ الْأَزْفَعُ وَالْأَكْرَمُ وَالْأَحَبُّ، إِنَّهُ فَخَامَةٌ رَئِيسِ جُمْهُورِيَّةٍ عَبْقَرٍ،  
الْإِبْدَاعِيُّ سَعِيدُ عَقْلٍ.

وَلَا تَأْسَ أَوْ تَبْتَئِسْ مِنْ قِلَّةِ الرَّعِيَّةِ فِي جُمْهُورِيَّتِكَ، فَقَدِيمًا  
قَالَ رَصِيفُكَ السَّمَوَالُ:

تُعَيِّرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلُ

وَكَانَ سَبَقَ دُخُولِي الْمُسْتَشْفَى، بِادِرَةِ مُوَاسِيَةٍ عَلَى غَيْرِ  
أَنْتِظَارٍ، بَلْ عَلَى تَيْفَةٍ، أَيْ عَلَى حِينِ بَغْتَةٍ، مِنْ أَلْقِيَمَةِ الْمُشْرِفَةِ عَلَى  
مَسَاعِ إِنْسَانِيَّةٍ فِي صَيْدَا، أَخْتَصَّصْتَنِي بِدِرْعِ مَوْسَسَاتِهَا، وَلَأَنَّهَا بَاتَتْ  
آلَانَ فِي مَكَانٍ مَسْئُولِيَّةٍ أَتَجَاوَزُ وَأَطْوِي الْأَسْمَ، لِئَلَّا تَنْقَلِبَ كَلِمَةُ  
الشُّكْرِ كَلِمَةً زُلْفَى... وَأَنَا مَا تَعَوَّدْتُهَا وَأَنَا بَعْدُ فَتَى، فَكَيْفَ بِي وَأَنَا  
الْثَّمَانِيْنِي...

فَكَانَ هَوْلَاءِ «مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي»، وَهُمْ عَلَى أَيْ  
حَالٍ أَهَمُّ وَأَجَلُّ مِنْ مِجَنِّ ابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ «ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ  
وَمُعْصَرُ».

وَالْغَرِيبُ أَنَّهُ فِي شَرِيطِ هَذِهِ الثَّرَائِيَاتِ، تَبَدَّى لِي حَامِلُ قَلَمٍ  
كَانَتْ كَلِمَتِي فِي رِثَاءِ أَبِيهِ وَخَدَهَا شَافِعَةً لِيَذْكُر... وَحِينَ أُنَوِّهَ

## بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ أُشِيرُ إِلَى أَنَّهَا كَلِمَةٌ<sup>(١)</sup> كَانَ يَحْفَظُ وَيُرَدِّدُ أَكْثَرَ

(١) أُلْبِتْ نَصَهَا الْكَامِلَ هُنَا لئَلَا يَذْهَبَ بِهَا ذَهْرُ الدُّهَارِ، وَتَلْتَفُّهَا دَوَامَةُ الْأَعَاصِيرِ كَأَكْثَرِ مَا كُنْتُ كُتِبْتُ. فَلَمْ تُنْشَرِ إِلَّا فِي جَرِيدَةِ الْحَيَاةِ لِمُصَاحِبِهَا الْمَرْحُومِ كَامِلِ مَرْوَةِ، وَذَلِكَ بِتَارِيخِ ٢١/٢/١٩٤٧ عَدَدِ ٤٩٦ وَهَذَا نَصُّهَا:

«أَيُّهَا الْفَقِيدُ الْكَبِيرُ: هُنَيْهَةٌ وَتَغْضُّهَا كَانَ لِي مِنْ عُمْرِكَ، يَوْمَ مَشَى الْقَدَرُ عِنْدِي بِحَظِّ سَعِيدٍ، فَعَرَفْتُكَ وَمَا كَانَ طَوِيلًا وَلَقَيْتُكَ وَمَا كَانَ كَثِيرًا.

وَفِي حَسَنِ الْقَلْبِ، أَيُّ شَأْنٍ لِلزَّمَنِ الَّذِي يُخْتَصِرُ بِجَبَرُوتِهِ عِنْدَ غَتَبِيهِ، فَقَدْ أَنْقَلَبْتُ وَكَأَنَّ أَمْسِي مَا اتَّسَعَ إِلَّا لَكَ، وَكَأَنَّ يَوْمِي لَيْسَ يَعْنِي إِلَّا ذِكْرَكَ.

هِيَ هُنَيْهَةٌ، وَلَكِنْ مِمَّا تَرَكْتُ فِي حَسَنِ نَفْسِي بَتْ أَشْعُرُ لَكَأَنَّمَا هُوَ عُمْرِي كُلُّهُ جَاءَ فِي مِقْدَارِ هُنَيْهَةٍ.

عَرَفْتُكَ إِنْسَانًا، وَلَا أَزِيدُكَ، بِصِفَاتٍ أَنْتَ قَلِيلُكَ أَكْرَمَهَا، فَلَيْسَ قَلِيلًا فِي دُنْيَايَ وَدُنْيَاكَ، أَنْ نَعْرِفَ إِنْسَانًا يَعِيشُ حَقًّا بِقَلْبِهِ، بِكِبَرِيَاءٍ قَلْبِهِ؛ إِنْسَانًا يَعِيشُ بِحَقَائِقِهِ؛ بِغُرْيٍ حَقَائِقِهِ، إِنْسَانًا يَعِيشُ بِقِيَمِهِ، بِوُغْيٍ قِيَمِهِ فِي نَاسٍ، دَعِ الْمَعْنَى الْإِنْسَانِيَّ، ثُمَّ قُلْ: إِنَّهُمْ يَعِيشُونَ بِمَا تَشَاءُ أَنْ تَقُولَ، وَلَا أُحَاوِرُكَ، بَلْ لَعَلِّي أَجَارِيكَ.

قَرَأْتُكَ فَحَبَبَكَ إِلَيَّ مَا قَرَأْتُ، ثُمَّ عَرَفْتُكَ فَأَحْسَسْتُ مَا قَرَأْتُ لَكَ حَيَاةً، فَالْحَرْفُ مَا كَانَ يَنْحَدِرُ عَنْ قَلَمِكَ، إِلَّا بِحَرْفٍ مِثْلِهِ أَنْحَدَرَ إِلَيْهِ مِنْ مَغْنَاكَ.

فَمَا أَكْثَرْتُ مِنْكَ وَلَا غَيْرَكَ عِنْدِي، بَلْ لَكَأَنِّي يَوْمَ عَرَفْتُكَ أَقْرَأَكَ أَيْضًا، وَلَكِنْ فِي نَبْرَةٍ هِيَ أَكْثَرُ أَشْيَعَالًا، وَمَا كَانَ لِهَذَا الْوَرَقِ أَنْ يَنْهَضَ بِكُلِّ حَرَارَتِهَا.

فَكُنْتُ، فِيمَا تَخْطُ وَتَقُولُ، تَتَقَدَّمُ إِلَى هَيْكَلِ هَذَا الْوَطَنِ بِذُورِكَ وَقَرَابِينِكَ... كَأَلَّذِي يُصَلِّي، وَمَعْنَى اللَّهِ فِي صَلَاتِهِ أَكْبَرُ صَلَاتِهِ، فَوْقَ آخَرِينَ أَكْبَرُ مَعْنَى اللَّهِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَظُّ أَنْفُسِهِمْ، فَصَلَاتُهُمْ فِي مَغْبَدِ الْوَطَنِ رَجَسٌ، وَصَلَاتُكَ فِي مَغْبَدِ الْوَطَنِ قُدْسٌ...

وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الزُّفْرَةِ الَّتِي أَنْطَوَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ، حُرُوفٌ اسْتَوَتْ فِي الْفَاظِ، مِثْلَمَا تَعَوَّدُ أَنْ يَجِدَ النَّاسُ فِي كَلِمَاتٍ دُمُوعِهِمْ وَأَفَانِينَ دُمُوعِهِمْ... وَإِنَّمَا هِيَ حُشَاةٌ أَزْفَضْتُ قَطْرَاتِهَا، وَجَرَتْ فِي حُرُوفٍ رَسَمْتُهَا، ثُمَّ جَمَعْتُ فِيهَا.

مَقَاطِعِهَا، وَلَعَلَّكَ تَسْتَغْرِبُ وَلَا تُصَدِّقُ، أَمِينُ نَخْلَةِ الَّذِي كَانَ، فِي  
الْعَرَبِيَّةِ، الْأَدَبِ، الْأَدَبِ الدَّمَقَسِ الْحَرِيرِ.

وَأَرَدْتُ مَعَ شَاعِرِنَا الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ لَبِيدِ قَوْلَهُ:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَْتُ فِي خَلْفِ كَجَلْدِ الْأَجْرِبِ

وَقَوْلِ الْآخِرِ الْعَبَّاسِيِّ:

قُمْ فَاسْقِيْنِي بِالْكَبِيرِ وَغَشِّي ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ

وَالْأَغْرَبُ الْأَغْرَبُ فِي هَذَا الزَّمَنِ، الزَّمَنِ ذِي التَّعَاجِبِ، أَنَّ  
الْقَدَرَ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ سَيِّدًا مِنْ أَجَلَّةِ  
الْعِلْيَةِ الَّذِي اخْتَفَى فَجَاءَةً، إِلَّا قَنْطَرَةً غُبُورٍ لِشَيْءٍ لَا أَذْرِي مَا أَسْمُهُ،  
لِيُضَبَّحَ وَخَدَهُ الدُّنْيَا، كُلُّ الدُّنْيَا، وَبِكُلِّ حَذَافِيرِهَا أَيْضًا...

وَيَنْقَطِعُ عَجَبِي كُلُّهُ، أَنَّنِي فِي مِضْمَارِ عَرَضٍ بَعْضٍ مِنْ أَيَّامِ  
النُّبُوَّةِ، وَسَبَقْتُ بِأَنَّ الْحُسَيْنَ مِنْ أَكْبَرِ أَيَّامِهَا، فَلَا بَدْعَ أَنْ أَبْلِسِمَ

---

وَأَنَا، عَلِمَ اللَّهُ، مَا كُنْتُ لِأَجْرِي حَرْفًا عَلَى قِزطاس، لَوْ أَنَّ مَنْ أَكْتُبُ عَنْهُ يَفْرَأُنِي، أَوْ يَفْرَأُ فِي  
يَوْمِهِ عَنْ أَمْسِهِ.

وَلَكِنْ هِيَ ذِكْرَاهُ الَّتِي أَكُنْتُ عَلَيَّ، يَوْمَ بَاتَتْ أَكْبَرُ مِنْ حُدُودِ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ، وَأَوْسَعَ مِنْ وَاِئِهَا  
فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ.

أَيُّهَا الرَّاحِلُ الْكَرِيمُ: لَقَدْ أَبْطَلَيْتَ شَأْنَ النَّاسِ هُنَا، فَانْزِلْتَ الْغُرْبَةَ، وَلَكِنْ مَنْ كَانَ يَذْرِي أُنْكَ  
سَتَطُوبُهَا غُرْبَةً إِلَى غُرْبَةٍ، هِيَ قَرِيبَةٌ حَتَّى لَكَائِهَا عِنْدَ مُنْخَدَرِ يَدِكَ، وَبَعِيدَةٌ حَتَّى لَكَائِهَا وَرَاءَ  
مُنْخَدَرِ الشَّمْسِ.

فَيَا أَيُّهَا الْقَرِيبُ الْبَعِيدُ لَنْ نَفْقِدَكَ، فَأَنْتَ يَوْمًا ذَهَبْتَ تَهْدِي وَتَبْنِي، وَهَذَا مِيرَاثُكَ.

وَأَنْتَ الْيَوْمَ تُبَارِكُ وَتُشِيرُ، وَهَذَا هَمْسُكَ هَمْسُ ذِكْرَاكَ....

بُرَحَاءَ بَلَوَايَ بِالْعِظَائِمِ مِنْ بُرَحَاءِ بَلَوَاهُ الَّتِي تَحْمِلُ فِي ثَنَائِهَا  
الْعِزَاءَ، لِبَاطِفَةِ الْمُعَذِّبِينَ، وَالطَّمَانِينَةَ كُلَّ الطَّمَانِينَةِ لِلْمَفْجُوعِينَ  
الْمَكْرُوبِينَ، مِنْ دَهْرِهِمْ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ...

عَلَى أَنِّي أَتَأَسَّى بِقَوْلَيْنِ لِشَاعِرَيْنِ سَبَقَا فِي أَدْبِنَا الزَّاهِرِ،  
أَحَدُهُمَا أَبُو الْحَسَنِ الْجُرْجَانِيُّ يَوْمَ أَخَذَ عَلَيْهِ النَّاسُ عُزْلَتَهُ فَأَجَابَ  
مُتَعَلِّيًا:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ أَنْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَنْزِلِ الدُّلِّ أَحْجَمًا  
إِلَى أَنْ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ مُتَلَوِّمًا:

أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً إِذَا فَاتَّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَخْزَمًا  
ثُمَّ أَخَذْتُ نَفْسِي بِمَا أَخَذَ بِهِ صَاحِبُنَا أَبُو ذُوَيْبٍ الْهَذَلِيُّ الَّذِي  
رَاضَ مُيُولَ هَوَاهُ، وَكَبَّحَ جَمَاحَ صَبَوَاتِهِ فِي قَدَرٍ وَحَدٍّ:  
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وَكَانَ عُقْبَى كُلِّ أَوْلَيْكَ أَنِّي سَعِدْتُ سَعَادَةً بَوَذَا بِمَعْنَى لَقْبِهِ  
فِي السَّنْسِكْرِيَّةِ: الْمُسْتَنِيرِ.

أَيْسْتُ بِوَخْدَتِي وَرَضِيْتُ بُغْدِي فَطَابَ الْجَوُّ لِي وَدَنَا الشُّرُورُ  
وَأَخْكَمَنِي الزَّمَانُ، فَلَا أُبَالِي ... أَسَارَ الْجَيْشِ أَمْ رَكِبَ الْأَمِيرُ



## الفاتحة

---

هذه فُصولٌ من حياةٍ تَمَجَّدَتْ فيها أُحْلَامُ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَاتَّصَلَتْ  
فِي الْوَاقِعِ بِقَدْرِ غَيْرِ مَحْدُودٍ مِنْ رَوْعَةِ الْأُحْلَامِ...

فَلَمْ تَعُدْ تَحْمِلُ أَسْمَهَا التَّقْلِيدِيَّ «الْأُحْلَامُ النَّائِيَّةُ» الَّذِي أَعْطَاهُ أَقْدَمُ  
نَاطِقٍ بِالشُّعْرِ، مُنْذُ فَجَرِ الْإِنْسَانِيَّةِ، يَوْمَ غَدَتْ وَاقِعاً حَيّاً لِكَائِنٍ حَيٍّ...

\*

وَكَانَ هَذَا الْفَجْرُ قَدْ أَنْبَثَ فِي الْغَابِ، وَاتَّصَلَ بِأَلْأَلِيهِ فِي الْمَغَاوِرِ  
وَالْكُهُوفِ، حَيْثُ أَطَلَّ الْإِنْسَانُ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، إِلَى الْأُفُقِ مُتَأَمِّلاً، وَشَعَرَ  
بِوُجُودِهِ...

وَلَكِنْ لَمْ يَشْقُطْ مِنْ وُجُودِهِ إِلَّا عَلَى أَشْبَاحِ وَرُمُوزٍ، ثُمَّ لَمْ يَفْهَمْ...

\*

اتَّصَلَتْ حَيِّزَةُ الْإِنْسَانِ بِكُنْهِهِ إِنْسَانِيَّتِهِ فِي مَرَاكِحِ النُّشُوءِ الْعَقْلِيِّ، وَمَدَّ  
الْخَيَالَ فِي مَعْنَى الْحَيِّزَةِ...

ولم يَزَلْ يَلِجُ، مَعْصُوبَ الْعَيْنَيْنِ، هَيْكَلُ الْوُجُودِ الْأَصَمِّ، حَيْثُ لَا  
يَكُونُ لِلصَّوْتِ رَجْعٌ وَلَا صَدَى، إِلَّا حَفِيفاً خَافِئاً وَلَغْطاً يَنْبِعْثُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ،  
يَعِدُّ أَنَّهُ مُبْهَمٌ كَنَعْمَةِ الْوَتْرِ الْمُقْطُوعِ، أَوْ رَجْفَةِ الْحَنَنِ الشَّارِدَةِ الدَّائِيَةِ...

\*

يَمُرُّ شَرِيطُ الْوُجُودِ سَرِيعاً كَاللُّمَحَةِ الْمُضْمَحِلَّةِ. وَمَا يَنْبُتُ مِنْهُ إِلَّا  
رُؤْيَى يَمُدُّهَا الشَّرَابُ وَالْآلُ، كَتَلَكِ الرُّؤْيَى الَّتِي تَتَرَاقَصُ عَلَى الْقِمَمِ فِي عَيْنِ  
الْفَجْرِ وَأَغْتِمَاضِ الْغُرُوبِ...

إِنَّ إِنْسَانَ الْيَوْمِ، حِينَ يَلْتَقِي، فِي بَعْضِ مُنْحَدَرَاتِ (\*) الطَّرِيقِ، بِإِنْسَانِ  
التَّارِيخِ الْبَعِيدِ، لَنْ يَجِدَ لَدَيْهِ، بَعْدَ رِحْلَةِ الزَّمَنِ الطَّوِيلَةِ بِهِ، مَا يُخْبِرُهُ عَنْهُ...

\*

وَأَخِيرًا ثَبَتَ فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ أَنَّ بَحْثَ الْوُجُودِ يَحُولُ دُونَ تَذَوُّقِهِ،  
فَانْكَفَأَ عَلَيْهِ، وَنَسَجَ أَحْلَامَهُ عَنِ السَّعَادَةِ وَالْخَيْرِ وَالْجَمَالِ...

وَكثِيراً مَا كَانَ يَمُرُّ بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ، فِي جَوْ الْإِنْسَانِ، كَوَاكِبُ  
مُلْتَمِعَةٍ تُضِيءُ جَوَانِبَ هَذَا الْوُجُودِ، وَهِيَ تُجَنِّحُ أَحْيَاناً وَتَذْهَبُ صُعُداً أَحْيَاناً،  
لِتَنْقُلَ الْبَشَرَ مِنَ الْحَيْرَةِ إِلَى التَّأَمُّلِ، مَأْخُودِينَ بِنَشْوَةِ خَفِيَّةٍ تَظَلُّ الذِّكْرَى تُشِيعُهَا  
أَبْداً...

وإلى هذه الذِّكْرَى، الَّتِي تَحْمِلُ مَعْنَى أَرْلِيَّاً، قَصَدْنَا فِي عَرْضِ ذِكْرَى

---

(\*) كِنَايَةٌ عَنِ الْقَبْرِ.



النُّبُوَّةُ التَّارِكَةُ أَلْوَانَهَا الْمِثَالِيَّةَ تُشِيرُ إِلَى الْخُلُودِ، وَتَنْسَدِلُ بِشَفَقِهَا الْمُسَيَّعِ عَلَى  
الْبَقَاءِ...

## مُقدِّمة

---

لم أقصِدُ في هذه المُشهِدِيَّاتِ إلى التَّاريخِ، إلَّا فيما يَدْخُلُ في حَدِّ تَصْحيحِ الرِّوايةِ أوِ الحَبَرِ، وأمَّا ما وَرَاءَ ذَلِكَ فَقَدْ أَوْسَعْتُ تَحْقِيقَهُ وَدَرَسَهُ في تاريخِ الحُسين: نقدٌ وتحليلٌ الَّذِي خَصَّصْتُهُ بِالوَجْهِ التَّاريخيِّ المَحْضِ، وما يَدْخُلُهُ مِنْ قُرْبٍ أوِ بُعْدٍ، لَكِنِّي يَتَسَنَّى لِلْمُطَّلِعِ أَنْ يَتَّصِلَ بِالشَّخْصِيَّةِ، الَّتِي يَدُورُ البَحْثُ عَلَيْهَا، اتِّصَالاً تامّاً يُحَوِّلُهُ أَنْ يُضَدِّرَ حُكْماً، بِسَلْبٍ أوِ إيجاب.

وحاولنا، هناك، أَنْ نَتَفَهَّمْ حَرَكَاتِ النُّبُوَّةِ والنَّبِيِّ، بِالإِضافةِ إلى عَوامِلِ العَصْرِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تُقَيَّدَ مَجاريِ التَّاريخِ، إِنَّ لِلْجَماعَةِ أوِ للأَفْرادِ.

وهذه العَوامِلُ، الَّتِي هِيَ مَصْدَرُ أَلْوَانِ الزَّمَنِ، نُسَمِّيها تاريخاً حينَما تَقَعُ في المَكانِ، وتُحَرِّكُ الجُمُوعَ على ما آسَتَتْ مِنْ أَتْجَاهاتٍ وَحَدَّدَتْ مِنْ مَذاهِبٍ. وبدُونِها لَا نَفْهَمُ مِنَ التَّاريخِ إلَّا أَنَّهُ تَكَرَّرَ لِحَرَكَاتِ مُبْهَمَةٍ لَا تُعَبِّرُ لَنَا عَنْ شَيْءٍ يَدْخُلُ في حَدِّ فائِدَتِنا.

وَيَكُونُ الغَرَضُ مِنَ التَّاريخِ قَدْ ضاعَ، حينَ لَا يَتَسَنَّى لَنَا أَنْ نَصِلَ الجانِبَ الواقِعِيَّ مِنَ الحِياةِ الَّتِي نَعِيشُها بِالجانِبِ التَّاريخيِّ، فَإِنَّ الحِياةَ كَلِمَةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنَ الواقِعِ والتَّاريخِ جَمِيعاً، وَإِنَّ الجُزْءَ الأَهَمَّ فِينا، جَماعاتٍ كُتِّا أوِ أَفراداً، تاريخيِّ مَحْضٍ. وما دُمنا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَصِلَ ما آسَتَوَى فِينا مِنَ الواقِعِيَّةِ بما آسَتَوَى فِينا مِنَ التَّاريخيَّةِ،

فلن تكون لنا فائدة من التاريخ.

بيد أننا نشعر بالحاجة إلى التاريخ. حتى ليخيل إلينا أن لدى الإنسان، طفلاً وشيخاً، حاسة سادسة تاريخية تلح فيه بحاجتها، وتُشيع في دحيته أطمئناناً مشفوعاً بتلبس للقصّة، كأنما هو يسمع حكاية نفسه، أو كأنما أنتقل، عبر الزمن، إلى حيث يكون الزمان الموهوم، وتقوم وقائع الماضي.

وهذا الميل في الإنسان يزعج، عندي، إلى ما استوى في مزاج النفس ووَخَدَتِها من الجزء التاريخي، فإذا صادف ما يبعثه تحرك بقوته، وأخضع المشاعر لمدّه في نوع من الهيام والحنين، وفي نوع من الإحساس العميق بأنه شيء يتصل به اتصالاً ذاتياً، كأنما مرّ عليه منذ بعيد.

وهذا يُبيح لنا أن نستنتج أن الإنسان الفطري - أو بعبارة أشمل، الإنسان الذي لم يُكوّن له تاريخاً - يفقد هذا الجزء، ولذلك هو لا يتحسّس بهذا الميل أو النزوع.

وعليه ففقر القصّة، أو عدمها، في أدب أمة ما، يزعج إلى ضعف هذا النزوع، إلى عدم توافي الجزء التاريخي فيها وآستوائه. وهذا ظاهر لدى عرب الجاهليّة الذين لم تكن القصّة تستهويهم آستهواء يجيء في درجة شهوات النفس أو الجسد الأخرى؛ بينما نجد القصّة بدأت تبرز في أدب العرب الذين آستقروا وكونوا لهم تاريخاً نوعاً ما، كالخيريّين في عهد المناذرة، والشاميّين في عهد الغساسنة، فتولّد لديهم الميل إلى قصص التاريخ. ولعلّ في الظاهرة الآتية ما يقطع كلّ ريب في صحّة هذا الرأى، وهي أن القصّة المركّزة لا تكون إلا حيث يكون للأمة تاريخ مُنوّع.

فالعرب عادوا، بعد التاريخ، إلى تذوق القصّة، لأنّه توافرت فيهم لذة

الاستماع التي يبعثها الجزء التاريخي في النفس، وقد قويت هذه اللذة إدراكاً مع التاريخ، وتقوى كذلك في كل أمة وقبيل.

ونحن نلتمس، في عصرنا الحالي، ميلاً أشد إلى القصة، حتى كادت تتمييز بأسم الأدب وتستبد به عما سواها، ولقد قال بعض الناقدين: إن الأدب هو القصة في القرن العشرين.

وأما الشعور بكلية الحياة، والشعور بأن التاريخ والقصة يعبران عن معانٍ مشتركة، هما اللذان يعلل بهما، عادة، الميل إلى القصة، فقد تولد، بلا ريب، بعد التاريخ. فإن هذين الشعورين نتيجة تجربات ومقارنات قام الإنسان بها بين نفسه وبين الماضين، وأدرك هذه الصلة وتحقق من كلية الحياة بعدها. فتغلب الميل إلى التاريخ والقصة، بهذا الشعور التجريدي الكلي، تغلب بالسبب المتفعل دون السبب الفاعل الحقيقي.

وهذا الرأي، الذي نعطيه من بواعث القصة ولذتها وتعلق الجمهور بها، حتى وصلت إلى درجة أن تصبغ الأدب وتسيطر عليه بصبغتها، حقيقي جداً... وأنا أشعر بحاجة إلى الزيادة من إيضاحه، لأنه يصحح جملة الأوهام، وطائفة الأخطاء الشائعة في الموضوع.

لا ريب في أن الإنسان، الذي أسلمه التاريخ إلى العصور، يمتاز بحاسة تاريخية خاصة، تفصله عن الإنسان الذي أسلمته الطبيعة الأولى، والذي أنبت من يد الله. وهذه الحاسة تزداد عملاً في الإنسان بآزدياد عمل التاريخ فيه، وتنبيه العصور في أعماقه. والميل إلى التاريخ أو القصص وليد وجود الحاسة المذكورة وتوافرها، وهو - أي الميل - يتفاوت على مقدار تفاوت الجزء التاريخي في الكائن البشري. ومن الخطأ الظن بأن ميل الإنسان إلى القصص فطري أو عقوي، بل هو نتيجة تلبد أجيال من التاريخ في جوهره النفسي ومدّه بإيحائها. وهذه الحاسة

التاريخية الحية تَتَطَلَّبُ غِذاءَهَا، وتَكُونُ في بَعْضِ مِنَ الشُّعُوبِ نَهْمَةً، وَنَهْمَةً إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، وَلَكِنَّ هَذَا النَّهْمَ لَيْسَ مَثْرُوكاً لِلْعَفْوِ والطَّبِيعَةِ العِرْقِيَّةِ، بَلْ هُوَ خَاضِعٌ لِسُنَّةِ نُشُوءِيَّةٍ خَالِصَةٍ، مَا دَامَتِ الْأُمَّةُ قَدْ اتَّصَلَتْ بِالتَّارِيخِ وَاتَّخَذَتْ خُطُواتِهَا فِيهِ.

وهذا الرَّأْيُ يَنْتَهِي بنا إِلَى تَفْسِيرٍ: لِمَاذَا كَانَ أَدَبُ الْيُونَانِ فَقِيراً مِنَ الْقِصَّةِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ؟

ولِمَاذَا أَثَرُوا بِالْقِصَّةِ بَعْدَ التَّارِيخِ؟

ولِمَاذَا كَانَ أَدَبُ الْعَرَبِ كَأَدَبِ الْيُونَانِ فَقِيراً مِنْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ أَثَرَى بِهَا بَعْدَ التَّارِيخِ، حَتَّى بَلَغَتْ قِمَّتَهَا فِي أَلْفِ لَيْلَةٍ؟

ولِمَاذَا بَلَغَ نَهْمُ الْحَاسَةِ التَّارِيخِيَّةِ، بَعْدَ ذَلِكَ، فِي الْجُمْهُورِ الْعَرَبِيِّ إِلَى دَرَجَةٍ لَمْ يَثْبُتْ أَمَامَهَا نَحْوُ مِنَ الْأَدَبِ وَالْفَنِّ، كَمَا تَشْهَدُ بِهَذَا قِصَّةُ حُبِّ عَلِيِّ بْنِ آدَمَ، وَالبَخْلَاءُ لِلجَاحِظِ، وَرِسَالَةُ الْغُفْرَانِ لِلْمَعْرِيِّ، وَالتَّوَابِعُ وَالزَّوَابِعُ لِأَبْنِ شُهَيْدٍ، وَحَيِّ ابْنِ يَقْظَانَ لِأَبْنِ طُفَيْلٍ، وَالْمَقَامَاتُ لِلحَرِيرِيِّ، وَأَحَادِيثُ ابْنِ دُرَيْدٍ الْأَزْبَعُونَ، وَمَصَارِغُ الْعُشَاقِ لِأَبْنِ السَّرَّاجِ، وَأَعْطَتْ عُصُورُ النَّهْمِ قِصَصَ عَنَتَرَةَ، وَأَبِي زَيْدٍ الْهَلَالِيِّ، وَالْمَلِكِ سَيْفٍ؟

ولِمَاذَا زَادَ الْمَيْلُ إِلَى الْقِصَّةِ، فِي الْأَدَبِ الْأُورُوبِيِّ الْحَدِيثِ، عَنْهُ فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى؟

وَنَحْنُ إِنَّمَا نَحْصُرُ نَظَرَنَا فِي الْأَدَبِ، دُونَ أَنْ نَلْتَمِسَ أَنْحَاءَ أُخْرَى، لِأَنَّ الْأَدَبَ أَكْثَرُ اسْتِجَابَةً إِلَى رَغَبَاتِ الْجُمْهُورِ وَتَطَلُّعِ الْحُيَظِ، وَهُوَ، إِلَى ذَلِكَ، يَتَلَوَّنُ بِمُخْتَلِفِ الْأَلْوَانِ، وَيَحْفَظُ بِتَلَوْنِهِ تَرَاوُحَ الْعَوَامِلِ الَّتِي أَثَرَتْ فِيهِ.

فَعَدَمُ وُجُودِ أَدَبِ الْقِصَّةِ، فِي أَدَبِ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيِّ، مَعْنَاهُ عَدَمُ مَيْلِ الْجُمْهُورِ إِلَيْهَا، أَوْ ضَعْفُ هَذَا الْمَيْلِ عِنْدَهُ، التَّابِعُ لَضَعْفِ الْجُزْءِ التَّارِيخِيِّ فِي مِزَاجِ النَّفْسِ

وَوَحَدَتِهَا.

فما ذَهَبَ إِلَيْهِ إِذَا مُؤَرِّخُو الْآدَابِ، مِنْ إِسْنَادِ خَصَائِصَ وَاسْتِعْدَادَاتٍ مِزَاجِيَّةٍ لِبَعْضِ الشُّعُوبِ دُونَ بَعْضٍ آفَقَتَصَتْ ذَلِكَ، خَطَأً مَحْضٌ؛ نَاهِيكَ أَنَّهُ تَعْلِيلٌ غَارِقٌ بِ «أَوْهَامِ الْكَهْفِ وَالسُّوقِ»<sup>(١)</sup> عَلَى مَا يُسَمَّى ذَلِكَ بِيَكُونٍ فِي مَنْطِقِهِ الْجَدِيدِ، كَمَا أَنَّهُ تَعْلِيلٌ يُعْطِي فِي كُلِّ مِثَالٍ<sup>(٢)</sup> رَأْيًا، وَلَا يَقُومُ فِي قَانُونٍ يُبَيِّنُ الْعِلَاقَةَ الْمُوَحَّدَةَ بَيْنَ حَادِثِ السَّبَبِ وَحَادِثِ الْأَثَرِ.

وَالْقِصَّةُ، عَلَى أَيِّ حَالٍ وَبِإِطْلَاقٍ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْشَأَ إِلَّا فِي أُمَّةٍ اجْتَمَعَ لَهَا تَارِيخٌ مُنَوَّعٌ، وَمَرَّ بِهَا زَمَنٌ كَانَ كَفِيلًا بِتَزْوِيدِ الْأَفْرَادِ بِحَاسَّةٍ تَارِيخِيَّةٍ تَجْعَلُهُمْ يَتَذَوَّقُونَهَا، وَيَمِيلُونَ إِلَيْهَا.

وهذا الرَّأْيُ الَّذِي نُقَرَّرُهُ يَكْشِفُ، عَدَا الْخَطَأِ الْمَذْكُورِ، عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْهَامِ التَّزْوِيَّةِ الَّتِي جَنَحَتْ إِلَى الْقِصَّةِ، كَأُسْلُوبِ لِلْأَطْفَالِ بِتَغْمِيمِ خَاطِيءٍ. بَلْ لَا بُدَّ لِسَلَامَةِ التَّطْبِيقِ مِنْ مُرَاعَاةِ مُرُورِ الزَّمَنِ، وَقِيَمَةِ هَذَا الزَّمَنِ فِي تَوْفِيرِ الْحَاسَّةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الْوَسْطِ الْمُشْتَرَكِ لِلطُّفْلِ وَتَفَاوُتِهَا. وَقَدْ يَنْتَهِي بِنَا هَذَا الرَّأْيِ إِلَى إِخْضَاعِ الْأُسْلُوبِ التَّزْوِيَّةِ لِلْقِصَّةِ لِمَنْ هُمْ فَوْقَ الطُّفُولَةِ، إِذَا كَانَتِ الْحَاسَّةُ فِيهِمْ أَكْثَرَ تَحْكُمًا وَاقْتِيَادًا.

كَمَا يَدُلُّنَا عَلَى السَّبَبِ الصَّحِيحِ لِإِخْفَاقِ أَدَبِ الْقِصَّةِ لَدَى بَعْضِ الشُّعُوبِ، وَالسَّبَبِ فِي عَدِّهَا نَسِيجًا أَعْلَى عِنْدَ بَعْضِ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى، وَأَيْضًا يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ

---

(١) يَغْنِي بِالْكَهْفِ شَخْصِيَّةَ الْفَرْدِ الَّتِي تُكَوِّنُهَا الطَّبِيعَةُ وَالْبِيئَةُ وَالتَّغْذِيَةُ وَالتَّزْوِيَّةُ. وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الْعَوَائِلُ مُخْتَلِفَةً بِاخْتِلَافِ الْأَفْرَادِ كَانَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَزْعُهُ الْخَاصَّةُ وَأَخْطَاؤُهُ الْخَاصَّةُ. وَيَغْنِي بِالسُّوقِ عَقْلِيَّةَ الْوَسْطِ، وَلَهَا أَوْهَامٌ تَنْحَلُّ فِي تَفْهَمِ الْأَفْرَادِ وَتَعْقُلِهِمْ.

(٢) مِنْ مِثْلِ قَفْرِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ بِعَدَمِ اسْتِعْدَادِ الْعَرَبِ الطَّبِيعِيِّ لَهَا، وَتَعْلِيلِ الْقَصَصِ عِنْدَ بَعْضِ الْأَدْبَاءِ الْعَرَبِ فِي الْعَهْدِ الْعَبَّاسِيِّ بِالتَّأَثُّرِ الْأَدَبِيِّ وَالذَّمِّيِّ، وَتَعْلِيلِ ظُهُورِ أَلْفِ لَيْلَةٍ بِالْمِزَاجِ الْأَدَبِيِّ الْحَلِيطِ، وَتَعْلِيلِ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ فِي الْقِصَّةِ عِنْدَ الْأُمَمِ الْمُسْتَعِدَّةِ لَهَا، فِي مَزْعَمِهِمْ، بِتَعَالِيلَ شَتَّى لَا تَسْتَيِدُّ إِلَى تَعْلِيلٍ يَقُومُ عَلَى مُؤَثَّرٍ وَاحِدٍ.



العناصر، التي تُلزَمُ لِتَذَوُّقِ القِصَّةِ، تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الحَاسَّةِ المَذْكُورَةِ. والقِصَّةُ، في نظري، لا فَنٌّ لها ولا عناصرَ قَاعِدِيَّةٍ إِلَّا نِسْبِيَّةٌ فَقَطْ، فَهِيَ مَحْدُودَةٌ بِالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْكَائِنِ. والمُحاكاةُ أَوْ الاِخْتِذاءُ وَهَمٌّ وَبُعْدٌ عَنِ فَهْمٍ مَا ثَبَّتَ فِي جَوْهَرِ النَّفْسِ الْمُتَحَوِّلِ، الَّذِي يَمْسَحُ الْفَنَّ بِتَهَاوِيلِهِ، وَيُمَدُّ الْأَدَبَ بِالْحَيَاةِ وَالرُّوحِ.

فَالدَّاعِيَةُ الْخَفِيَّةُ فِينَا إِلَى التَّارِيخِ وَالْقَصَصِ الَّتِي نُحِسُّ بِهَا ظَامِئَةً عَلَى الدَّوَامِ، مُتَطَلِّعَةً عَلَى الدَّوَامِ، هِيَ وَلِيدَةٌ مَا آسْتَحَالَ فِي جَوْهَرِ النَّفْسِ مِنْ أَشْيَاءِ الْمَاضِي الْمُتَلَبِّدِ، وَتَمَدَّدَ فِي بِنَائِهِ كَهَلَامِيَّاتٍ عَامِلَةٍ حَيَّةٍ. وَإِذَا ثَبَّتَ أَنَّ فِينَا جَانِباً تَارِيخِيّاً، فَلَا مُنْقَلَبَ لَنَا عَنْ أَنْ نَتَفَهَّمْ وَقَائِعَ الْمَاضِي كِتَارِيخِ، وَأَنْ نَتَّصِلَ بِالمُشَاعِرِ الَّتِي سَيَّطَرَتْ فِيهِ كَعَرُوضٍ وَقَصَصِ، وَبِذَلِكَ يَظَلُّ التَّارِيخُ مَادَّةً حَيَّةً شَاعِرَةً.

وَأَسْتَوَاءُ الْحَيَاةِ فِي الْحَاضِرِ إِمَّا يَقُومُ عَلَى دَوَائِعِ الْمَاضِي وَجَوَازِبِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَتْ بِنَا حَاجَةً إِلَى التَّارِيخِ التَّعْلِيلِيِّ مِنْ حَيْثُ نَتَّصِلُ بِالمُؤَثَّرَاتِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَدَاعِيَّةً إِلَى التَّارِيخِ الوَصْفِيِّ، مِنْ حَيْثُ نَرَى الصُّوَرَ الْمُخْتَلِفَةَ الَّتِي طَفَتْ عَلَى سَطْحِ الْحَيَاةِ الْمُحْتَجِبَةِ.

وَنَحْنُ، هُنَا، نُحَاوِلُ عَرَضَ مَا آتَّصَلَ بِالنُّبُوَّةِ بِشَيْءٍ مِنَ الْقَصَصِ الْوَاقِعِيِّ، الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يُبَيَّنَّ فِينَا كَامِنَ الْحِسِّ بِمَا يَبُتُّ مِنَ الْإِيحَاءِ الصَّامِتِ، وَيُهَيِّئُ جَوْهَرَ النَّفْسِ لِمَا سَمَاهُ تُولَسْتُوِي «عَدْوَى الشُّعُورِ»، وَهُوَ ذُو أَثَرٍ بَعِيدٍ، فَعَالٍ فِي تَكْوِينِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُتَنَازَةِ.

وَقِصَّةُ عَصْرِ النُّبُوَّةِ لَا تَدْعُنَا نَخْرُجُ بِتَأْمُلٍ سَلْبِيِّ تَخْتَلِطُ فِيهِ الدَّهْشَةُ بِالْإِعْجَابِ فَقَطْ، بَلْ تُزَوِّدُنَا بِمَا يَدْعُونَهُ «الاشْتِرَاكُ فِي الْوَعْيِ» أَيْ، بِتَأْمُلٍ إِيْجَابِيِّ، يَجْعَلُ فِينَا أَشْتِرَاكاً فِي الصُّفَةِ الشُّعُورِيَّةِ.

وَكَذَلِكَ تَسْتَحِيلُ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ آسْتِحَالََةً أُخْرَى بِمَا أُسَمِّيهِ «عَدْوَى التَّارِيخِ». فَعَلَيْنَا لِذَلِكَ أَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ نَسْتَثْمِرُ التَّارِيخَ مِثْلَ قُوَّةٍ تَنْصِبُ فِي شَرَايِينَا وَغُرُوقِنَا، وَكَيْفَ نُحَوِّلُ تَيَّارَهُ الْمُبْعَثَرَ فِي اللَّجِّ الْبَاهِتِ لِيَزِيدَ حَيَاتِنَا حَرَكَةً، وَحَاضِرِنَا

آندفاعاً ومضاء.

وتابع الثبوة شخصية إيمان ومبادئ، وشخصية دعة وسلام. فهو يُرينا في كُلِّ جانبٍ من جوانب الحياة ألوانا وألوانا.

فَيَكُونُ جُزْءٌ من تاريخه عقيدة، والجزء الآخر جهاداً، فَيُكْتَبُ الخلودُ له، وَيُكْتَبُ عَلَيْنَا أَنْ نَأْتَمَّ بِهِ لِنَجْرِبَ إيماننا في الجهاد، وجهادنا في الإيمان.

وَأَيُّهُ شَخْصِيَّةٌ هِيَ أَحْفَلُ مِنْ شَخْصِيَّتِنَا الَّتِي نُدِيرُ الْحَدِيثَ عَلَيْهَا، بِمَعْنَوِيَّاتِهَا وَفَعَالِيَّاتِهَا، وَأَيُّهَا أَخْطَى بِأَثَارِهَا، فَلَمْ يَكُنْ لَنَا مَعْدِلٌ عَنْ أَنْ نَتَوَخَّاهَا وَنَسْتَفِيدَ مِنْهَا فِي الذُّكْرِ، كَمَا آسْتَفِدُّهَا مِنْهَا فِي الْحَيَاةِ.

وَلَسْتُ أَزْعُمُ لِنَفْسِي شَيْئاً مِنَ الْفَضْلِ، وَإِنْ جَهِدْتُ فِي تَفْقَهُمِ الْمُسْلِمِ الْمُحَمَّدِيِّ زَمَناً غَيْرَ يَسِيرٍ، فَإِنِّي كَلَّمَا أَوْغَلْتُ فِيهَا رَأَيْتُنِي أَخْرَجَ مَا أَكُونُ إِلَى آبِتْدَاءِ دَرْسِهَا مَرَّةً أُخْرَى بِمَعْنَى جَدِيدٍ. وَكَذَلِكَ سَتَظَلُّ يَنْبُوْعاً يَرِدُّهُ الصَّادِي، وَهُوَ يَجِدُ فِي كُلِّ رَشْفَةٍ مَعْنَى وَلَذَّةً وَنَكْهَةً، ثُمَّ لَا يَحَوُرُ مَعْنَاهَا وَلَذَّتُهَا وَنَكْهَتُهَا فِي مَذْهَبِ إِحْسَاسِهِ وَشُعُورِهِ.

## يوم المدينة

---

كُنْتُ تَرَى النَّاسَ فِي الْمَدِينَةِ يَرُوحُونَ أَفْوَاجاً وَيَعُدُّونَ أَفْوَاجاً، وَالْغِبْطَةُ تَمْلَأُ  
جَوَانِحَهُمْ بِهَذَا الْحَدَثِ الْمَجِيدِ. وَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَنْصُبُوا «قَوْسَ النَّصْرِ» حَقّاً، فَقَدْ كَانَ  
مَعْنَاهُ فِي قُلُوبِهِمِ الطَّافِحَةُ بِكِبْرِيَاءِ الْعَقِيدَةِ وَكِبْرِيَاءِ الْمَعْنَى، وَفِي عَزَائِمِهِمِ الطَّافِحَةُ  
بِكِبْرِيَاءِ الذَّاتِيَّةِ وَكِبْرِيَاءِ الْمَعْجِدِ. وَكَانَ النَّاسُ يَخْتَلِطُونَ وَيَتَحَلَّقُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ،  
وَعَلَى أَفْوَاهِهِمْ كَلِمَاتٌ ضَاحِكَةٌ بِسِرِّ الْمَرْحِ الْمُنْشُورِ، فَقَدْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ يَوْمَ الظَّفَرِ  
يَبْدُرُ<sup>(١)</sup>.

غَدَتِ الْمَدِينَةُ، مُنْذُ هَذَا الْيَوْمِ، بِلَدِّ الدَّوْلَةِ، بَعْدَ أَنْ لَبِثَتْ زَمَناً وَهِيَ بِلَدُّ  
الْعَقِيدَةِ، وَفَازَتْ بِتَجْرِبَتِهَا الرَّائِعَةِ، وَخَطَّتْ أَبْهَى سَطْرٍ فِي مَعْجِدِ الْعَرَبِ وَمَعْجِدِ  
الْإِنْسَانِيَّةِ جَمِيعاً. فَلَمْ يَكُنْ هَذَا النَّصْرُ تَسْجِلاً لِهَزِيمَةِ فَرِيقٍ وَظَفَرِ آخَرٍ، بَلْ كَانَ  
تَسْجِلاً لظَفَرِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَدِيدَةِ الْمُحْرَّرَةِ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّجْعِيَّةِ الْعَتِيقَةِ، إِنْسَانِيَّةِ  
الْأَغْلَالِ وَالْقِيُودِ، وَإِنْسَانِيَّةِ الْاسْتِغْبَادِ الْوَحْشِيِّ الْمُنْكَرِ.

كَانَ هَذَا الظَّفَرُ، فِي حَقِيقَتِهِ، ظَفَرُ الْفِكْرَةِ الْجَدِيدَةِ وَالْعَقْلِيَّةِ الْمُتَطَلِّعَةِ، وَظَفَرُ  
الْمِثَالِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ عَلَى الْمَادِّيَّةِ الصَّارِمَةِ وَالْإِبَاحِيَّةِ الْجَامِحَةِ، وَكَانَ يَوْمَ تَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ

---

(١) الْمَعْرَكَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْكُبْرَى ضِدَّ الْمُشْرِكِينَ.

مِنْ شَتَّى الْعُبُودِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ، وَيَوْمَ تَجْدِيدِ الْإِنْسَانِ وَإِنْشَائِهِ إِنْشَاءً آخَرَ.  
عَدَتْ الْمَدِينَةُ، فِي أُبْهَاتِهَا وَأَمْجَادِهَا الْحَفِيلَةِ، بَلَدًا جَدِيدًا، فَلَمْ تَعُدْ «يَثْرِبَ الْقَدِيمَةَ» الَّتِي كَانَتْ، كغِيرِهَا، وَكُرًّا مِنْ أَوْكَارِ الْفِكْرِ الْهَالِي وَالْعَقْلِيَّةِ الْجَامِدَةِ، الَّتِي لَا لَوْنَ لَهَا سِوَى ذَلِكَ اللَّوْنِ الْقَاتِمِ، وَكَانَ يَشِيْعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَمْ تَعُدْ أَلْبَتَّةَ، بَعْدَ الْيَوْمِ، مَرْكَزًا لِلنَّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْمُتَأَخِّرِ الْمَوْرُوثِ مِنْ شَرَائِعِ الْغَابِ، وَفِيهِ الطَّبِيعَةُ الْبَرْبَرِيَّةُ، وَكَانَ يَشِيْعُ بِشَتَّى مَظَاهِرِهِ فِي كُلِّ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ. فَالشَّعْبُ ضَحِيَّةُ الطَّبَقَاتِ، وَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا ضَحَايَا فَرْدٍ مُسْتَبَدٍّ يُلَاشِي كِيَانَ الْأُمَّةِ فِي كِيَانِهِ، وَيُحَوِّلُ تَيَّارَ النَّشَاطِ فِي الشَّعْبِ إِلَى مَا يُغْذِّي أَطْمَاعَهُ وَيُشْبِعُ مُيُولَهُ وَرَغْبَاتِهِ.

عَدَتْ الْمَدِينَةُ، مِنْذُ هَذَا الْيَوْمِ، مَرْكَزَ الْفِكْرِ النَّاهِضِ الْمُشِيْعِ، وَالنَّظَامِ الْإِصْلَاحِيِّ فِي كُلِّ حَقْلٍ مِنْ حُقُولِ الْاجْتِمَاعِ، وَمَرْكَزَ الدَّوْلَةِ الْحَيَّةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي بَدَأَتْ تَنْزِعُ الْأَغْلَالَ السَّابِغَةَ عَنْ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَكَذَلِكَ أَمْتَدَّتْ وَأَنْطَلَقَتْ، كَمَا يَمْتَدُّ وَيَنْطَلِقُ خَيْطُ التَّوَرِ سَرِيعًا سَرِيعًا، حَتَّى أَنْتَظَمَتْ مُعْظَمَ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ.

لَبِثَتِ الْمَدِينَةُ أَيَّامًا مَدِيدَةً وَهِيَ غَارِقَةٌ بِيَهْجَاتِهَا، مُنْتَشِيَّةٌ بِمَا أُحْرَزَتْ مِنْ نَجَاحٍ، فَقَدْ حَمَلَتْ شُعْلَةَ الْإِصْلَاحِ، وَغَدَتْ رَسُولَ الْمَدَائِنِ وَالْأَمْصَارِ، وَهِيَ لَنْ تَتَنَازَلَ عَنْ رِسَالَتِهَا إِلَى الْعَالَمِ مَهْمَا كَلَّفَهَا تَبْلِيغُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ مِنْ تَضَحِيَّاتٍ دَامِيَةٍ وَوَثْبَاتٍ حُمْرَاءَ.

إِخْتَضَنْتِ الْمَدِينَةُ عَقِيدَةً خَالِدَةً وَنِظَامًا إِصْلَاحِيًّا خَالِدًا، ثُمَّ أَلْفَتْ حِزْبًا خَلَاقًا، فَدَوْلَةً مُحَرَّرَةً. وَكَانَ مِنْ حَظِّ بِلَادِ الْعَرَبِ أَنَّهَا شَهِدَتْ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، تَجْرِبَةَ نِظَامِ مُحَمَّدٍ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَقَدْ نَجَحَتْ فِي حُدُودِهَا وَنَجَحَتْ خَارِجَ حُدُودِهَا، وَفِيهَا الْقُدْرَةُ عَلَى النَّجَاحِ دَائِمًا.

كَانَ فِي أَفْوَاهِ النَّاسِ حَدِيثٌ وَاحِدٌ كُلُّهُ الإِعْجَابُ، مُنْذُ تَسَنَّى لِفَيْعَةٍ قَلِيلَةٍ مُؤْمِنَةٍ أَنْ تُحْطَمَ حَمَلَةٌ كَامِلَةٌ جَهَّزَتْهَا مَكَّةُ وَتَمَزَّقَتْ شِعَاعاً. وَخُطُورَةُ النَّصْرِ تَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الْمَعْرَكَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ نَوْعِ الْمَعَارِكِ الَّتِي تَحْدُثُ كَثِيراً وَتَقَعُ كَثِيراً، وَإِنَّمَا كَانَتْ صِرَاعاً بَيْنَ مَبْدَأَيْنِ وَعَقْلِيَّتَيْنِ وَحَيَاتَيْنِ، وَقَدْ آتَتْهُي بَغْلَبَةُ الْأَصْلَحِ مِنْهُمَا فِي كُلِّ أَوَّلِكَ جَمِيعاً، فَشَاعَ فِي النَّاسِ كَافَتِهِمْ نَوْعٌ مِنَ الْفَرَحِ الْعَقْلِيِّ كَالَّذِي يُحْسِنُ بِهِ رَجُلُ الْفِكْرِ، وَهُوَ يَجْهَدُ جُهْدَهُ بِسَبِيلِ الْمَعْرِفَةِ، وَنَوْعٌ مِنَ الْفَرَحِ النَّفْسِيِّ كَالَّذِي يَسْتَخِفُّ الْمَكَافِحَ الظَّافِرَ وَالْآمِلَ الْوَاحِدَ.

وَكَانَ يَمُزُّ بَيْنَ جُمُوعِ النَّاسِ رَجُلَانِ يَهُودِيَّانِ مُطْرِقَيْنِ فِي تَأْمُلٍ، فِي أَكْثَرِ تَطَوُّفِهِمَا، وَأَحْيَاناً يَأْخُذَانِ بِأَطْرَافِ الْحَدِيثِ الْخَفِيزِ الْهَامِسِ، وَهُمَا: مُخَيَّرِيقُ<sup>(٢)</sup> وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ.

قَالَ مُخَيَّرِيقُ: لَشَدَّ مَا يُدْهِشُنِي وَيَرُوعُنِي هَذَا الظَّفَرُ الَّذِي أَخْرَزَهُ مُحَمَّدٌ وَجِزْبُهُ، فَقَدْ كَانَ ظَفَراً سَرِيعاً وَنَاجِحاً، وَلَا يَنْشَبُ أَنْ يَتَخَطَّى حُدُودَهُ الضَّيِّقَةَ، وَيَشْمَلَ الْجَزِيرَةَ كُلَّهَا بِنِظَامِهِ الْإِصْلَاحِيِّ الْقَوِيمِ، وَتَعَالِيمِهِ الْوَاعِيَةِ الْأَخَذَةِ، حَتَّى لَقَدْ بَلَغَ مِنْ مَدَى فَاعِلِيَّتِهَا أَنَّهَا تُحَقِّقُ لِنَفْسِهَا الْإِنْتِشَارَ السَّرِيعَ دُونَ مَا دِعَايَةِ وَتَبْشِيرِ.

قَالَ آبْنُ سَلَامٍ: لَكَأَنَّكَ - يَا مُخَيَّرِيقُ - تُحْسِنُ بَمَا فِي نَفْسِي وَتَنْطِقُ عَنْ لِسَانِي، فَإِنِّي دَهِشْتُ كَدَهْشَتِكَ وَمَرُوعٌ كَارْتِيَاعِكَ، وَمَا أَحْسَبُ مُحَمَّدًا إِلَّا مُفْضِياً إِلَى مُنْتَهَى عَظِيمٍ جَلَلٍ، وَكُلُّ مَا يَبْدُو لِي يُنْذِرُنِي بِهَذَا الْمُنْتَهَى، إِنْ لَمْ يَكُنْ أَقْلٌ مَا سَيَبْلُغُ إِلَيْهِ.

(٢) هُوَ مُخَيَّرِيقُ النَّصْرِيِّ الْإِسْرَائِيلِيُّ. قِيلَ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَقِيلَ مِنْ بَنِي الْقَيْطُونِ. وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ وَالْبَلَادُرِيُّ أَنَّهُ كَانَ عَالِماً وَأَسْلَمَ. قَالَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ أُحُدٍ: أَلَا تَنْصُرُونَ مُحَمَّدًا؟ وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّ نُصْرَتَهُ حَقٌّ عَلَيْكُمْ بِمُقْتَضَى الْمَعَاهِدَةِ. فَقَالُوا: الْيَوْمَ يَوْمَ السَّبْتِ. فَقَالَ: لَا سَبْتَ. وَأَخَذَ سَيْفَهُ وَلَحِقَ بِالنَّبِيِّ فَجَرَحَ جِرَاحاً قَاتِلَةً، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ: أُنْوَالِي إِلَى مُحَمَّدٍ يَضَعُهَا حَيْثُ شَاءَ. رَاجِعِ الْإِصَابَةَ لِآبْنِ حُجْرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ، ج ٦،



ومحمدٌ واثقٌ كأشدَّ ما يكونُ، فقد أوجدَ مادَّةَ حَيَّةً، وصَحَّحَها تَصْحِيحاً مَعْنَوِيّاً، وَوَلَّدَ فيها قُوَى لا حَدَّ لها، وَغَدَّها بَتَعَالِيمَ تفاعَلَتْ مَعَ نَفْسِيَّاتِ العربِ تفاعلًا يَكْفِي أَنْ يُكَوَّنَ بَيْنَهُم وَحْدَةٌ في الصِّفَةِ العقلِيَّةِ والشُّعُورِيَّةِ، كما غَرَسَ في قُلُوبِهِم طَبِيعَةَ الإِيمَانِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَزْدَرِي هَبَّةَ العاصِفَاتِ، وَحَرَّرَ أَفْعِدَتَهُم مِنَ الأساطيرِ والأوهامِ، وَبَلَّوَرَ عَلَيْهِمُ الْفِكْرَ، وَعَوَّدَهُم النُّظَامَ، وَأَلْزَمَهُم الطَّاعَةَ وكَلِمَةَ التَّقْوَى، فَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا. وَلَيْسَ يُخْطِئُنِي ظَنِّي فِي أَنَّهُ لَنْ تَقُومَ لَشَرِيعَتِهِ شَرِيعَةٌ، وَلَنْ يَثْبُتَ لِقَوْمِهِ قَوْمٌ.

قال مُخَيَّرِيْقُ: هَيَّجْتُ، وَائِمُّ اللّٰهِ، فِي نَفْسِي حَدِيثًا طَالَمَا كُنْتُ أَذُوْدُهُ عَنْ لِسَانِي ذِيادًا، حَتَّى لَا يَجْرِي بِهِ، وَلَا أَرَانِي إِلَّا مُفْضِيًّا بِهِ إِلَيْكَ:

نَظَرْتُ فِي شَرَائِعِ الْعَالَمِ وَنُظُمِهِ، عَلَى آخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا، وَقَلَّبْتُهَا عَلَى شَتَّى وُجُوْهِهَا، فَانْتَهَيْتُ إِلَى أَنَّهَا تَتَنَاصَرُ عَلَى سَحْقِ قُوَى الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ وَاسْتِغْلَالِهِمْ اسْتِغْلَالًا أَنَانِيًّا صَارِمًا. وَهَذِهِ الشَّرَائِعُ وَالنُّظُمُ مُتَعَاوِنَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا، مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْغَايَةِ الَّتِي لَا تَتَّفِقُ بِحَالٍ وَالْحُرِّيَّةَ الدَّائِيَّةَ لِلْبَشَرِ، فَسَبِيلُهَا الْقَضَاءُ عَلَى الْكِفَايَاتِ وَالْقَابِلِيَّاتِ الَّتِي هِيَ عُتْوَانُ آمْتِيَّازِ الْإِنْسَانِ، لِيُحَوَّلُوا دُونَ أَنْ يُتِمَّ النُّشُوءُ دَوْرَتَهُ، وَبِذَلِكَ يَسْتَسْلِمُ لَهُمُ الْقَطِيعُ.

وَلَقَدْ بَاتَ الْجَمْعُ الْبَشَرِيُّ، مِنْ تَأْثِيرِ هَذِهِ الْأَدْوَارِ، فِي رُوحِيَّةٍ جِدًّا مَرِيضَةٍ، وَانْكَفَأَتِ الْجَمَاعَاتُ تَهْوِي فِي أَتُونِ التَّنَازُعِ السَّاحِقِ، حَتَّى لَكَأَنَّ الْبَشَرِيَّةَ فِي دَوْرِ اخْتِضَارٍ، لَا تَلْبَثُ مَعَهُ طَوِيلًا أَنْ تَنْقَلِبَ هَامِدَةً لَا حَرَكَاتٍ فِيهَا.

فَلَمْ يَعْذُ فِي الْأُذْيَانِ مَا يَزْوي ظَمًا النُّفُوسِ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ، غَدَّتِ الْأُذْيَانُ مَادَّةَ الظَّمِّ، كَطَالِبِ الرِّيِّ بِالْحَنْظَلِ، فَإِنَّهُ لَا يَزْوي، وَلَكِنَّهُ يَزِيدُ شُعُورًا بِالْحَاجَةِ إِلَى الرِّيِّ. فَالْأُذْيَانُ الدَّائِيَّةُ الْكَسِيفَةُ، وَالْهَرَطَقَاتُ الْمُسْتَطِيرَةُ، وَالْأَوْضَاعُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الْفَاسِدَةُ، وَالنُّظُمُ الْاِقْتِصَادِيَّةُ الَّتِي أَذَكَّتْ نِضَالَ الطَّبَقَاتِ بِشَرَّتِهِ الْمُفْطِئَةِ، وَالتَّدَاعِي



الأخلاقي، وَيَقْظَةُ الإِبَاحِيَّةِ الطَّامِسَةِ، كُلُّ ذَلِكَ أَعَدَّ الْعَالَمَ، بِقَصْدٍ، وَدُونَ قَصْدٍ، إِلَى  
أَنْتِظَارِ كَلِمَةِ الْبِنَاءِ الْعَالَمِيِّ. وَلَا أَظُنُّ مُحَمَّدًا إِلَّا ذَلِكَ الْبِنَاءَ الْعَالَمِيَّ الْأَعْظَمَ، وَلَا أَظُنُّ  
دَوْلَتَهُ الصَّغِيرَةَ، فِي حُدُودِ الْمَدِينَةِ، إِلَّا نَوَاةَ تِلْكَ الدَّوْلَةِ الْعَالَمِيَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي سَتَضْهَرُ  
فِي بَوْتَقَتِهَا الْفَوَارِقِ الْمِلِّيَّةِ، وَتَسْتَغْلِي عَلَى الْأَجْناسِ وَالشُّعْبِ، فَالْإِسْلَامُ عَقِيدَةٌ وَدَوْلَةٌ  
وَأَنْتِمَائِيَّةٌ.

عَرَفَ مُحَمَّدٌ سِلْسِلَةَ الْأَرْبَابِ الْمُتَرَابِطَةِ فِي نَسَقٍ، وَعَرَفَ أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ لَنْ  
تَتَحَرَّرَ مِنْ هَذِهِ الْعُبُودِيَّاتِ الْمُرْكَبَةِ الْمُتَدَاخِلَةِ، الَّتِي تُؤَلَّفُ خَطَرًا عَلَى الْفِكْرِ الْبَشَرِيِّ،  
وَبَوَارِزِ الْاِمْتِيَازِ الْإِنْسَانِيِّ، وَتَعْلُ النَّشَاطَ الْحَيَوِيَّ بِمَا تَزْرُحُ بِهِ كَكَابُوسٍ ضَاغِطٍ  
وَجَاثُومٍ مُرَوِّعٍ إِلَّا بِعَمَلٍ عَنِيفٍ، وَعَرَفَ أَنَّ حَجَرَ الْأَسَاسِ فِي بِنَايَةِ الْعُبُودِيَّاتِ  
الشَّامِخَةِ هِيَ الطَّبَقَةُ الرُّوحِيَّةُ الَّتِي تَسُوقُ الْجُمُوعَ طَائِعَةً بِمَا تُسَيِّطِرُ بِهِ عَلَى مَنَاطِقِ  
الْأَوْعِي وَمَرَائِزِ اللَّاشُعُورِ. فَأَعْمَلَ مِغْوَلَهُ الْأَقْدَسَ فِي بِنَايَةِ الْعُبُودِيَّاتِ الرَّاسِخَةِ،  
الَّتِي شَهِدَتْ، مِنْ نَوْعِ تِلْكَ الْعَوَاصِفِ، شَيْئًا كَثِيرًا، فَمَزَّقَتْ رِيَاحُهَا الْمُتَنَاضِحَةَ  
الْمُزْمَجِرَةَ، وَبَقِيَتْ فِي مَحَلِّهَا شَامِخَةً رَاسِخَةً. لَكِنْ مُحَمَّدًا عَرَفَ سِرَّ ثَبَاتِهَا فَسَدَّدَ  
ضَرْبَتَهُ الْأُولَى الْمَاضِيَّةَ إِلَى هَذِهِ الطَّبَقَةِ وَرُبُوبِيَّتِهَا<sup>(٣)</sup>، وَتَحَدَّاهَا فِي نَوْعٍ مِنَ الشُّخْرِيَّةِ  
وَالِاسْتِفْزَازِ الْمُثِيرِ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَرْزُلَ حَجَرُ الْأَسَاسِ، وَخَرَّتْ صُرُوحُ الرُّبُوبِيَّاتِ،  
الَّتِي سَخِرَتْ بِالزَّمَنِ مَذْرُورَةً، مُتَنَائِرَةً فِي حَالَتِي تَبْعُثٍ وَتَرَاكُمٍ.

ثُمَّ وَقَفَ مُحَمَّدٌ فَوْقَ أَطْلَالِهَا شَامِخًا، يُعْلِنُ حُرِّيَّةَ الْإِنْسَانِ<sup>(٤)</sup> وَحُقُوقَهُ فِي

---

(٣) قَالَ تَعَالَى: «تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا  
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (آل عمران ٣: ٦٤).

(٤) قَالَ تَعَالَى: «فَحَشَرَ فَنَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى» (الذاريات ٧٩: ٢٥).  
وَقَالَ: «فَأَنشَخَفَ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ» (الزخرف ٤٣: ٥٤). وَقَالَ «لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضْطَرٍ» (الغاشية ٨٨: ٢٢).  
وَقَالَ: «رَبُّنَا إِنَّا أطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا» (الأحزاب ٣٣: ٦٧).

الاستقلال<sup>(٥)</sup> الذاتي، ويُعْلِنُ حُرِّيَّةَ<sup>(٦)</sup> العمل والإنتاج والجُهد، ويُقرِّرُ مَبْدَأَ<sup>(٧)</sup> المسؤولية الشخصية في الحقوق والجزاء ونظريَّةَ الجزاء للحقِّ العام<sup>(٨)</sup>، وَيَنْزِعُ أَغْلَالَ الفِكر. فمحمَّد حارب الرُّبوبيَّةَ في شخص الأوثان الجامدة، وحارب الرُّبوبيَّةَ في شخص الأوثان الاجتماعية الحيَّة، وبذلك حرَّرَ الفِكرَ وحرَّرَ المُجتمَعَ.

والمُدْهَشُ - يا آئِنَ سَلامٍ - في مَنهجِ محمَّد الإصلاحِي أَنَّهُ قامَ على الزَّلْزَلَةِ الفِكرِيَّةِ، لِيُعِدَّ النَّفْسَ الَّتِي خَلَصَتْ<sup>(٩)</sup> من وراثاتها إلى آغْتِناقِ كُلِّ مَبْدَأٍ صالحٍ، مَهْمَا بدا نايباً والمبادئ السائدة، وَيَفْسَحُ للأفراد والجماعات سَبِيلَ التَّفْكيرِ المنطَقيِّ الهادِيءِ الخالي مِنْ شَوَائِبِ الأفكارِ الأولى ونَزَغَاتِهَا. وكذلك لم يَعمِدْ إلى تَصْحيحِ الأوضاعِ القائمةِ وتَغيِيرِها فقط، كما عَمَدَ المُصلِحونَ مِنْ قَبْلُ، بَلْ قَصَدَ إلى تَصْحيحِ فِكرَةِ الحَيَاةِ أَوَّلًا، لِيُضْمَنَ رُوحِيَّةً جَدِيدَةً يَتَوَقَّى مَعَهَا الرَّدَّةُ والانتِكَاسُ اللَّاشعوريَّينَ، وكانا آفةً كُلِّ إصلاحٍ خَرَجَ عَنْ يَدِ المُصلِحِينَ السَّالِفِينَ.

أولئك كانوا يُصَحِّحُونَ الأوضاعَ وَيُشِيعُونَهَا في المُجتمَعَ، وروحيَّةُ الجماعةِ لم تَزَلْ غارقةً في الأُوْحَالِ والأمراضِ، ولم تَزَلْ تالِفَةً أَشَدَّ ما يَكُونُ التَّلَفُ. فلا تَلَبَّثُ

(٥) قَالَ تَعَالَى: «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» (البقرة ٢: ٢٨٦). وَيَتَّبِعِي أَنْ يُلَاحِظَ أَنَّ القانونَ العامَّ يَخُضَعُ للقانونِ الأدْبِيِّ.

(٦) قَالَ تَعَالَى: «وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْخِزَاءُ الْأَوْفَى» (النجم ٥٣: ٢٩، ٤٠، ٤١).

(٧) قَالَ تَعَالَى: «وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ» (سورة الإسراء ١٧: ١٣). وَقَالَ: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» (الإسراء ١٧: ١٥).

(٨) قَالَ تَعَالَى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (سورة البقرة ٢: ١٧٩).

(٩) قَالَ تَعَالَى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَقُولُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ» (البقرة ٢: ١٧). وفي هذه الآية تحريرٌ للعقل من الوراثة، ودعوة إلى تفديدها على ضَوْءِ المنطَقيِّ والفِكرِ المجرَّد، وبذلك قَضَى القرآنُ على الوراثة كَأَسَاسٍ للفِكرِ وحَكَمَ العقلَ بِهَا، فَلَمْ يَشْجِبِ القَدِيمَ الموروثَ مرَّةً واحدةً، بَلِ القَدِيمُ الَّذِي يَضْطَلِمُ بالمنطَقيِّ في سُنَّةِ النُّشوءِ، وجاءَ تحريره للعقل من حيثُ إِنَّهُ قَضَى عَلَيْهَا كَأَسَاسَ للفِكرِ.

الأوضاع أن تفسد بفساد روجية الجموع ويقع الانتكاس في المجتمع وتعاودة الحمى، ويكون المصلح لم يزد عن أنه نجم التمتع فجأة، ثم ابتلعه خضم الليل الحالك... ولكن محمداً لم يكن من طراز هؤلاء، فقد صحح فكرة الحياة وروحية الجماعة أولاً، ثم صحح التظلم والأوضاع، وبذلك ضمن سلامة المجتمع أبداً، ووقى الكائن الاجتماعي من الانتكاس والحمى.

فمحمداً لم يصنع أمة في عداد الأمم، بل صنع أمة في عداد الرسل إلى كل الأمم، وأكبر ظني أن أمة ستنطلق في جسم العالم المتداعي، كما تنطلق العصاره، وفيها الحرارة والحياة والحركة. فهذا اليوم - يا آبن سلام - بداءة دنيا جديدة، وأول يوم من تاريخ عالم جديد، فقد استدار الزمان وبدأ يخط دورة أخرى كما أراد محمداً أن تكون، وكذلك يفرض المصلح نفسه على الزمن.

قال آبن سلام: أراك - يا مخيريق - تتكلم بكلام من استهوتته رسالة محمد، وما أبرئتك، ومع ذلك فإني أنصفك بأنك لم تجاوز المنطق في دائرة أولها الفكر وأخرها الحس. ولقد شئت لي الظروف أن أجمع ببعض من أتباعه، وهو، وإن لم يكن له جلاء منطقك، ودقة تحليلك، فقد غمرتني روحيته ولعبت بي تياراتها، وما أحسب نفسي أقل أنجذاباً منك.

وأذكر أنني سمعت آية<sup>(١٠)</sup> تدعو إلى الإيمان العقلي من قرآن محمد، وما هي إلا أن تمددت في قلبي وعقلي جميعاً. فتمددت لها نفسي وأخذت طريقها إلى ما وراء القوى الواعية، ومضت تفعل فعلها، تارة في الفكر، وتارة في مذاهب الشعور، حتى انتهت بتوكيز فلسفتها علي وتركيزي عليها، وإذا بي أحس إحساساً وجدانياً بأنها فلسفة، ينبغي أن أعهد لها في أول ما أعهد من قضايا العقل، وإذا بي أحس إحساساً عقلياً بأنها كل المنطق، حتى لم يغد لي تعديل عن أن تكون مقدمة

---

(١٠) قال تعالى: «قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» (يوسف ١٢ : ١٠٨).

الفكر.

والعجب - يا مخيريق - أن مُحَمَّدًا عالجَ قضايا الدين والعقل والحياة والاجتماع، وأعطى حلولاً هي ما ظلت الإنسانية تائهة عنها وعبتاً تنشدها. ولعلَّ أعظم ما يستوقفني ويغريني حلهُ لمعضلة الأديان، فهو لم ينقضها بل صَحَّحها من الطفيليات العالقة عليها، فإنَّ في كلِّ دينِ قضايا الحقِّ الأولى، وقد تناولها كلُّ قبيلِ بنوع عقليته، وما ثبتَ فيها، فلَوَّنها بلَوْنِه، وما زالَ يلبسُها، ويضيفُ إليها، ويحملُ عليها، حتَّى آخَتَفَتْ قضايا الحقِّ وراءَ أستارِ صفيقة، وغَدَتْ كاللُّبابِ تحجُّبُهُ قُشُورُ قاسية. والذي يثبتُ في عقلِ الجماعةِ مظاهرُ الأشياءِ دونَ حقائقِها المحجوبة، فَوَقَفَ إيمانُ الجُمُوعِ عندَ حدِّ المظاهرِ، وعَمِلَ التاريخُ عَمَلَه في هذا الإيمانِ فتَحَجَّرَ عليها، برغمِ أنَّ هذه المظاهرَ والأشكالَ ليستْ سوى انعكاسٍ من وراثتِ القبيلِ.

ولكنَّ مُحَمَّدًا استطاع، بإعجاب، أن يكشفَ قضايا الحقِّ الأولى، وأنَّ يُنصِرَ مكانها في كُلِّ دين، رُغمَ كُلِّ الأستارِ الصفيقة، فأعلنَ للنَّاسِ، على اختلافِهِم، وَحدةَ الأديانِ، وأنَّ قضايا الحقِّ الأولى واحدةٌ في كُلِّ دين، وهي لا تتغيَّرُ إلَّا إذا تَسَنَّى لناموسِ الطبيعةِ أن يتغيَّرَ، وأعلنَ أنَّ ما يتوهَّمُهُ النَّاسُ لباباً هو قُشُورٌ فقط، وبضربةِ حَطَمِها، وأعطى تحديدهُ الدقيقَ للدينِ الجديدِ. فكانَ عَمَلُهُ وجهادُهُ فقط في تجريدِ قضايا الحقِّ بما رانَ عليها وعَلِقَ بها، أو رَدَّ النَّاسِ إلى حقائقِ دياناتهم التي أفسدَها النُّضالُ الطبقي والقومي، وأفسدَ كُلَّ مجتمعٍ من ورائها، رُغمَ أنَّ الأديانَ ما جاءتْ إلَّا لِمَحْوِ هذا النُّضالِ.

وكما قُلْتُ - يا مخيريق - ليس من المُمكنِ للمُصلِحِ، إذا أرادَ البناءَ المكينَ، أن يَتَّجِهَ إلى العقلِ الملوَّثِ المُتَحَرِّفِ، والفكرِ الغارقِ بالأوهامِ، ويَحْمِلُهُ رسالَتُهُ، بل لا بُدَّ من مُهاجمةِ هذا العقلِ، وهذا الفكرِ، حتَّى إذا تَطَهَّرَا اتَّجَهَ إليهما من جديدٍ وذَهَبَ يَبْنِي، وبعبارةِ أَصَحَّ، ذَهَبَ يَخْلُقُ، وكذلك فَعَلَ مُحَمَّدٌ، وكانَ له ميزةٌ على



المُصلِحين، وَيَتَّبِعِي أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ مُغَامِرًا يَتَسَتَّرُ بِخُطَّةِ الإِصْلَاحِ، وَإِنَّمَا كَانَ مُصْلِحًا دَفَعَ الْمُغَامَرَةَ فِي طَرِيقِ الإِصْلَاحِ. وَبَيْنَهُمَا أَنَّ أَوْلَهُمَا أَنَانِيٌّ بَلَحْمِهِ وَدَمِهِ، يُطْلِقُ الْعَاصِفَةَ كَعِمْلَاقٍ وَيَدْفَعُ الْجُمُوعَ إِلَى التَّوَاتُبِ فَوْقَ الْقِمَمِ، وَزَلَّةٌ فِي الْعَاصِفَةِ تَتْرُكُ الْجُمُوعَ فِي فَضَاءِ الْهَازِيَةِ طُيُورًا تَحُومُ فِي الْمُنْحَدِرِ السَّرِيعِ السَّحِيقِ، وَدَائِمًا يَنْتَهِي بِالتَّهْدِيمِ لِيَقِفَ، مِنْ بَعْدُ، عَلَى أَطْلَالِ الْأَشْلَاءِ مَسْحًا جَاحِظًا مُتَقَلِّصًا؛ وَثَانِيَهُمَا غَيْرِيٌّ فِي شُعُورِهِ وَضَمِيرِهِ، يَضْبُطُ الْعَاصِفَةَ وَيَصْرِفُ مَخْزُونَهَا فِيمَا يَعُودُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ بِالْإِنْشَاءِ وَتَوْفِيرِ الْقُوى وَالطَّاقَاتِ، وَدَائِمًا يَنْتَهِي بِالْبِنَاءِ لِيَقِفَ، وَاتِّبَاعُهُ مِنْ بَعْدُ، عَلَى الْقِمَمِ.

قَالَ مُخَيَّرِيْقُ: لِلَّهِ كَمْ تَفْعَلُ الْعَقِيدَةُ فِي النَّفُوسِ، فَإِنَّهَا تَصْنَعُ مِنَ الضَّعْفِ قُوَّةً، وَقُوَّةً لَا حَدَّ لَهَا. أَلَا تَرَى أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ كَيْفَ غَدَّوْا، بِفَضْلِ الْعَقِيدَةِ الْخَلَاقَةِ، قُوَّةً لَا تَتَّصِلُ بِالضَّعْفِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا ضَعْفًا لَا يَتَّصِلُ بِالْقُوَّةِ... وَهَذَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الْفِكْرَةَ تَصْنَعُ الْحَيَاةَ، وَالْحَيَاةَ تَصْنَعُ الْقُوَّةَ، فَلَا قُوَّةَ بَدُونِ فِكْرَةٍ تَقْدِفُ الطَّاقَةَ وَالْحَيَاةَ جَمِيعًا.

بَلَّغْنِي، وَأَنَا إِذَا بَلَّغْنِي فِي عَجَبٍ، إِخَالُكَ تَعْرِفُ فَتَى قَرِيشٍ، وَطَالَمَا شَاهَدْتُهُ هُنَا فِي الْمَدِينَةِ، وَهُوَ مَنْ يَنْعَتُونَهُ بِحَامِي الْإِسْلَامِ، عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ، بَلَّغْنِي أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَسْتَبْسَالِهِ، وَتَفَانِيهِ فِي نَصْرَةِ مَبَادِيءِ هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ، مَا جَعَلَهُ، فِي بَدْرِ الْكُبْرَى، أُمَّةً مِنَ الْأَبْطَالِ كَأَنَّهَا تَنْطَلِقُ فِي كُلِّ مَجَالٍ إِذَا أَنْطَلَقَ، فَمِنْ كُلِّ وَجْهِ عَلِيٍّ، وَمِنْ كُلِّ صَوْبٍ عَلِيٌّ نَفْسُهُ، حَتَّى لَا جِدُّ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ: إِنَّ فَتَى قُرَيْشٍ هَزَمَ الْجُمُوعَ مِنْ قُرَيْشٍ.

قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: أَذْكُرُ أَتَى أَعْرِفُهُ، وَأَذْكُرُ أَنَّ لَهُ سِيْمَاءَ نَاطِقَةٍ بِالصَّلَابَةِ وَالْعَزَمِ الْقَصِيِّ، وَرُغْمَ حَدَائِثِهِ فَقَدْ قَذَفَ فِي رُوعِي مِنَ التَّجَلَّةِ، وَأَنْوَاعًا مِنَ الْأَسْرِ، حَتَّى لِأَحْسَبُنِي بَتُّ مَاخُودًا عَنْ نَفْسِي سَاعَةً بِشَيْءٍ لَا أَفْهَمُ كُنْهَهُ، وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ سِحْرَ

## الشخصية.

وأذكر أنّ حديثه اليوم على كلّ لسان، وهم يشفعونه بإعجاب طائيف  
ممدود: «أليس الذي فعل الأفاعيل بقريش»، هذه عبارتهم التي لا تكاد تسقط من  
حديث أحد عنه، حتى غدت تقليدية وطبيعية. قال هذا، وسكت مطرقاً، ويده  
تداعب جبهته كالذي يريد أن يتذكّر شيئاً قدّر أنّه خطير، وعلى فجأة نقر جبهته  
نقرة شاع سرورها في مقلتيه وأساريه.

قال: يا مخيريق سأخبرك خبر فتى قریش، يوم تزمل في فراش محمد، ليلة  
الهجرة، إيهاماً عنه... قال مخيريق: أذكر أنّي سمعت شيئاً من ذلك... ومضى ابن  
سلام في حديثه: إنها مغامرة يظنّها البسطاء دون استيسال في معركة بدر، لكنها  
عندي، من وجهة العقيدة، أعظم شأنًا وقد لا يعدلها موقف. فإن الاستيسال قد  
تولّد حماسه الشهيد، وأصوات الجموع المائجة، وقد تولّد خيلاء الذاتية في موقف  
لا مفرّ من الظهور فيه، وكثيراً ما بدلت هذه المشاهد نفسية الجبان، كما لا تدلّ  
على أثر العقيدة دائماً.

ولكنّ تلك، هي مغامرة العقيدة المجسّمة، فقد كانت تعريضاً للنفس دون  
تذرع بأسباب الدفاع، وبكلّ هدوء، فليس فيها آنفعال عنيف يُنسي المرء ذاته،  
ويُدفعه إلى عدم المبالاة دفعاً قسرياً، وهي مغامرة، إنّ كانت تُعبّر عن شيء فإنما تُعبّر  
عن نسيان الذات على كلّ حال، بفاعلية العقيدة وحدها، التي طغت على كلّ  
المشاعر واستبدت بها. إنّ التضحية رهبة، يا مخيريق، دائماً، ولكنها أرهب ما  
تكون في المواقف الهادئة التي لا تُثير الأعصاب بشعور غير عادي.

إنّ محمداً عرف كيف يجعل النفس العربية مؤمنة ذات آفاق في الإيمان،  
فكانت بذلك قويّة ذات آفاق في القوة. خصوصاً وإيمان محمد يجعل المرء لا يرى  
شيئاً في حدود الإيمان، ويرى الإيمان في حدود كلّ شيء، كتلك الفراشة التي



أَسْلَمَهَا الْمِصْبَاحُ إِلَيْهِ، فَهِيَ لَا تَحُولُ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا تَحُولُ عَنِ الْحَيَاةِ. وَبِهَذَا صَغُرَتِ الدُّنْيَا وَالْحَيَاةُ، وَفِكْرُهُ مَتَاعِيهِمَا، فِي قَلْبِ أَصْحَابِهِ، لِأَنَّ عَقْلَهُمْ لَمْ يَعُدَّ يَنْبَغِي مِنْ لِحْدِ غَرَائِزِهِمْ بَلْ مِنْ لِحْدِ تَعَالِيهِمْ. وَالْإِعْتِقَادُ نَفْسُهُ غَرِيزَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، وَبَيْنَ الْغَرَائِزِ، كَمَا بَيْنَ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ، تَنَاحُزٌ عَلَى الظُّهُورِ وَالْبُرُوزِ، وَأَكْثَرُ مَا تَتِمُّ الْعَلَبَةُ لِلْغَرَائِزِ الدُّنْيَا لِأَنَّهَا أَدْخُلُ، غُضُوبِيًّا، فِي تَرْكِيبِ الْكَائِنِ الْحَيِّ، وَلَا تَتِمُّ الْعَلَبَةُ لِهَذِهِ الْغَرَائِزِ أَلْبَتَّةَ، إِلَّا وَتَشُدُّ إِلَيْهَا الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ، فَيَفْسُدُ الْعَقْلُ، وَيَنْحَطُّ الْقَلْبُ.

فَعَمَلُ الْمُصْلِحِ يَنْحَصِرُ فِي تَنْشِيطِ غَرِيزَةِ الْإِعْتِقَادِ، لَكِي تُسَيِّطَرَ بِرُوحِ الْإِيمَانِ الْجَدِيدِ، وَهِيَ تَشُدُّ الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ إِلَيْهَا، فَيَصْلُحُ الْعَقْلُ وَيَتَسَمَّى الْقَلْبُ، حَتَّى الْغَرَائِزُ الدُّنْيَا تُصْبِحُ دُنْيَا، بِمَعْنَى جَدِيدٍ. فَهِيَ لَا تَنْبَغِي فِي شَهْوَةِ الْجَسَدِ، بَلْ فِي شَهْوَةِ الرُّوحِ الْمُرَكَّزَةِ بِالْإِيمَانِ، وَإِنَّ شَهْوَةَ الرُّوحِ الشُّعُورُ بِذَاتِيَّتِهَا الْعُلْيَا فِي الْفِطْرَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْاجْتِمَاعِ، وَلَا يَزَالُ الْإِيمَانُ يَعْمَلُ عَمَلَهُ، حَتَّى يَجْعَلَ فِي الْغَرَائِزِ عَقْلًا، وَفِي الشَّهَوَاتِ إِرَادَةً وَأَخْلَاقًا. فَمُحَمَّدٌ صَحَّحَ نَفُوسًا، وَأَوْجَدَ مَادَّةً مُؤَمَّنَةً، تَنْطَلِقُ، كَمَا يَنْطَلِقُ الْقَدَرُ الْوَاقِعُ، إِلَى مَصِيرِهَا وَغَايَتِهَا، وَهِيَ بِهَذَا الشُّعُورِ مُجْتَمِعَةٌ كَمِثْلِهَا مُتَفَرِّقَةٌ، فَقَلْبُ الْجَمَاعَةِ شُعُورٌ مُتَجَاوِبٌ بَيْنَ قَلْبٍ وَقَلْبٍ.

وَيُعْجِبُنِي فِي قَتَى قُرَيْشٍ أَنَّهُ يَمْلِكُهُ إِيْمَانُهُ، حَتَّى فِي أُخْرَجٍ مَا تَكُونُ رَهْبَةً النَّفُوسِ، وَقَلِيلٌ هُمْ الْأَفْرَادُ الَّذِينَ يَمْلِكُهُمُ الْإِيمَانُ، وَهَذِهِ مِيزَةُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، بَيْنَمَا الْآخَرُونَ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَمْلِكُوا الْإِيمَانَ، وَفَاتَهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ كُلُّ شَيْءٍ فِي النَّفْسِ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ شَيْئًا فِيهَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يُصَرِّفُهُ الْإِيمَانُ، وَبَيْنَ مَنْ يَتَصَرَّفُ بِهِ.

قَالَ مُخِيرِي: لَشَدِّ مَا تَفْعَلُ الْعَقِيدَةُ فِي النَّفُوسِ، وَلِلَّهِ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ كَمْ هِيَ أَخَاذَةُ تَعَالِيْمُكَ... قَالَ هَذَا، وَسَكَتَ يُفَكِّرُ فِي أَمْرِ يَبْدُو مُهِمًّا، وَلَبِثَ طَوِيلًا يُحَاوِلُ أَنْ يَجِدَ النُّقْطَةَ الَّتِي يَبْتَدِئُ مِنْهَا الْحَدِيثَ، فَاطَّرَدَ مُعِينًا، يَقُولُ:

يُسْرُنِي أَنَّنَا مُتَّفِقَانِ فِي الْفِكْرَةِ وَالْمَيْلِ، وَلَكِنْ مَا الَّذِي يَحُولُ بِالْيَهُودِ عَنْ مُحَمَّدٍ، عَلَى رُغْمِ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ سَيَغْمُرُهُمْ لَا مَحَالَةَ؟ فَإِذَا طَاوَلُوهُ كَانَ لَهُمْ مِنْهُ يَوْمٌ كِيَوْمِ بَخْتَنْصَرٍ... وَكَانَ مُجَرَّدُ ذِكْرِ بَخْتَنْصَرٍ كَافِيًا لِبَعْثِ آلَامِهِ الْقَوْمِيَّةِ الدَّفِينَةِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ حُزْنٍ، وَلَكِنَّهُ وَاصَلَ حَدِيثَهُ:

أَعْرِفُ أَنَّ قَوْمَنَا شَرُّدُوا مَرَّاتٍ، وَأَضْطَّهِدُوا كَرَّاتٍ، وَمِنْ شُعُوبٍ مُخْتَلَفَةٍ، فَحَقَّدُوا عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ وَتَأَمَّرُوا بِكُلِّ مُجْتَمَعٍ، وَبَثُّوا رُوحَ الْإِنْتِقَامِ فِي كُلِّ تَصَارُيفِهِمْ، مُتَّخِذِينَ كُلَّ شَعْبٍ هَدَفًا، غَيْرَ مُفَرِّقِينَ بَيْنَ قَبِيلٍ وَقَبِيلٍ، وَبِذَلِكَ أَخْطَأُوا فِي عَدَمِ تَحْدِيدِ التَّبَعَةِ، الَّذِي أَكْسَبَ نُفُوسَهُمْ صِفَةَ الْغِلِّ السَّحِيقِ، وَأَفْقَدَهُمْ رَغْبَةَ التَّعَاوُنِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَصِفَةَ التَّبَادُلِ الْمُخْلِصِ، حَتَّى مَعَ قَوْمٍ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ، كَهَوْلَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ آخِطَضْنَا بَيْنَهُمْ، وَأَحْلَلْنَا مَحَلَّ أَنْفُسِهِمْ، وَآخِطَضْنَا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَطْفِ، فِي هَجْرَتِنَا الْأُولَى<sup>(١١)</sup> وَالثَّانِيَةِ إِلَى جَزِيرَتِهِمْ.

قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: إِنَّ مَا ذَكَرْتَهُ سَبَبٌ، وَلَكِنْ وَرَاءَهُ أَسْبَابٌ أَكْثَرُ فَاعِلِيَّةٌ فِيمَا أُعْتِقْتُ، حَتَّى لَقَدْ جَعَلْتُ رُوحِيَّةَ الْيَهُودِ، مِنْ سُوءِ أَثَرِهَا الْبَارِزِ فِي كُلِّ دَوْرٍ، مُعْضِلَةً أَجْتِمَاعِيَّةً، وَعُنَاصِرُ هَذِهِ الرُّوحِيَّةِ كَمَا أُحِسُّ:

أ - الْمَادِّيَّةُ: الَّتِي آسَتْهُوَتْهُمْ آسَتْهُوَاءَ فِطْرِيَّةً، وَتَخَلَّلَتْ مَعْنَوِيَّتَهُمْ إِلَى دَرَجَةٍ جَعَلَتْهُمْ لَا يَتَوَرَّعُونَ عَنِ اسْتِخْدَامِ أَسْمَى مِثَالِيَّاتِهِمْ وَمِثَالِيَّاتِ مَنْ يَحِلُّونَ بَيْنَهُمْ بِسَبِيلِ الْمَطَامِعِ، وَلَا يَعُوقُهُمْ وَيُنْأَى بِهِمْ عَنْهَا أَنَّهَا دَنِيَّةٌ أَحْيَانًا. فَكَانَ لِهَذَا أَثَرٌ فِي تَوَلِيدِ صِفَةِ الْجَشَعِ وَالشَّرِّهِ وَالْإِفْتِرَاصِ، وَحِينَ تَكُونُ الْمَادِّيَّةُ هِيَ مِثَالِيَّةَ الْأُمَّةِ فَقَدْ بَاتَتْ خَطَرًا، وَشَكَلَتْ مُعْضِلَةً دَائِمًا.

ب - طَبِيعَةُ التَّطَفُّلِ: حَقٌّ لِلْفَرْدِ أَنْ يَجْنِيَ ثَرْوَةً كَذَجِهِ، وَحَقٌّ لِلْجَمَاعَةِ أَنْ

---

(١١) راجع كتاب: تاريخ اليهود في جزيرة العرب، للدكتور ولفنستون.

تَجْنِي ثَمَرَاتِ جُهِودِهَا، وَأَمَّا أَنْ يَجْنِيَ الْمَرْءُ ثَمَرَةَ جُهِدِ الْآخَرِينَ فَبِهَذَا عُذْوَانٌ مُنْكَرٌ.  
وَالْحَيَاةُ قَائِمَةٌ عَلَى الْجُهِدِ، فَمَنْ لَا يَجْهَدُ لَا يَحْيَا. هَذَا مَنْطِقُ الطَّبِيعَةِ، وَخَفَّفَ  
المُصْلِحُونَ مِنْ حِدَّتِهِ بِالتَّعَاوُنِ الَّذِي يَحْفَظُ تَوَازُنَ الطَّبَقَاتِ، عَلَى شَكْلِ مَا تَرَى فِي  
تَعْلِيمِ مُحَمَّدٍ الْجَدِيدِ، فِي نِظَامِ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ. وَالْيَهُودِيُّ، مِنْ  
طَبِيعَتِهِ أَنَّهُ لَا يَتَذَلُّ جُهِدًا يُوَازِي الْفَائِدَةَ، بَلْ يَسْعَى إِلَى أَنْ يَسْتَحْوِذَ عَلَى أَكْبَرِ فَائِدَةٍ  
بِأَقَلِّ مَجْهُودٍ. وَهَذَا لَا يَأْتِي إِلَّا عَنْ طَرِيقِ التَّطَفُّلِ عَلَى جُهِدِ الْآخَرِينَ وَاسْتِغْلَالِهِمْ.  
فَقَوَّلْتُ بَيْنَهُمْ طَبَقَاتُ الْمُرَايِنِ وَالْمُضَارِبِينَ وَمَا شَاكَلَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا يُشْكِلُونَ،  
فِي النَّظَرِ الاجْتِمَاعِيِّ، بِيئَةٌ طُفَيْلِيَّةٌ شَدِيدَةٌ الْخَطَرِ عَلَى سَلَامَةِ أَيِّ مُجْتَمَعٍ كَانَ.

فَالْيَهُودُ طُفَيْلِيُونَ يَمْتَصُّونَ الْمُجْتَمَعَ بِشَتَّى الطَّرِيقِ وَالْوَسَائِلِ، كَالِهَوَامِ الَّتِي تَطْلُبُ  
حَيَاتَهَا عَلَى جِسْمِ حَيٍّ، وَلَذَلِكَ لَهُمْ هَذَا الطَّرِيقُ الْهَيْنُ فَالْفَوْهُ وَافْتَنُوا فِي أَشْكَالِهِ  
مُسْتَفِيدِينَ مِنَ الْوَسَائِلِ الْخَاصَّةِ بِكُلِّ عَصْرٍ.

ج - الْفَوْضُويَّةُ: عَرَفَ الْيَهُودُ أَنَّ وَسَائِلَهُمْ لِلْإِمْتِصَاصِ لَا بُدَّ أَنْ تَنْكَشِفَ مَا دَامَ  
الْمُجْتَمَعُ فِي حَالَةٍ مِنَ الْهُدُوءِ، فَأَخَذُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِيجَادِ أَشْبَابِ الْاضْطِرَابِ  
وَالْفَوْضَى، تَارَةً بِاخْتِرَاعِ مَذَاهِبٍ دِينِيَّةٍ وَمَحَافِلٍ سِرِّيَّةٍ، وَأَوْنَةً يَبْتَغِي مَبَادِيءَ اجْتِمَاعِيَّةٍ  
حَدِيثَةٍ، وَأُخْرَى بِتَزْيِينِ الْحُرُوبِ. وَثَبَّتَتْ هَذِهِ الْفَوْضُويَّةُ فِيهِمْ طَبِيعَةً حَتَّى غَدَوْا مَادَّةَ  
الْفَوْضَى وَالثُّورَاتِ فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ.

مِنْ هَذِهِ الْعُنَاصِرِ تَأَلَّفَتِ الرُّوحِيَّةُ الْيَهُودِيَّةُ.

وَالْيَهُودِيُّ قَدْ يَصْلُحُ إِذَا آرْتَدَّ إِلَى الْأَرْضِ، وَفَارَقَ صِفَةَ التَّجَوُّبِ الَّتِي تَجْعَلُهُ  
لَا يُخْلِصُ لَأُمَّةٍ مَهْمَا عَاشَ بَيْنَهَا، وَاسْتَرَدَّ مِثَالِيَّتَهُ الضَّائِعَةَ. أَلَسَتْ تُلَاحِظُ مَعِيَ أَنَّ  
بَنِي قُرَيْظَةَ الْمُرَارِعِينَ أَكْثَرُ مَيْلًا لِلتَّعَاوُنِ مَعَ مُحَمَّدٍ وَدَوْلَتِهِ الْجَدِيدَةِ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعِ  
الْمُرَايِنِينَ؟

قال مُخَيَّرِي: بلى نَعَمْ ما تُلاحظُ... وَمَضَى آبْنُ سَلَامٍ فِي حَدِيثِهِ: وَلَسْتُ أَتَرَدَّدُ أَلْبَتَّةَ فِي أَنَّ هَذِهِ الرُّوحِيَّةَ البَغِيضَةَ هِيَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْيَهُودِ وَمُحَمَّدٍ الَّذِي حَارَبَ هَذَا الْخَلِيطَ الْمُتَكَرِّرَ فِي رُوحِيَّتِهِمْ.

قال مُخَيَّرِي: أَلَا تُجِيبُنِي إِلَى أَمْرٍ قَدْ يُحَقِّقُ فِكْرَةَ إِنْقَاذِ الشَّعْبِ الْيَهُودِيِّ النَّائِيهِ، وَأَنْتِشَالِيهِ مِنْ أَوْحَالِ المَادِّيَّةِ الصَّارِمَةِ الَّتِي لَا تَلَبُّثُ أَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ وَتُحَطِّمَهُ؟ فَأَنْتِ حَبْرُ الْيَهُودِ وَلَكَ مَحَلُّكَ وَمَقَامُكَ، وَلِي مَنَزَلِي وَمَكَانِي، فَتَنْضَمِّ وَأَنْضَمِّ إِلَى حِزْبِ مُحَمَّدٍ، فَتَضْعِضَ مِنْ قُوَّةِ مَوْقِفِهِمُ السَّلْبِيِّ تِجَاهَ الْحَرَكَةِ التَّخْرِيرِيَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلَا بُدَّ أَنْ نَتْرَكَ بَيْنَهُمْ أَثْرًا يَكْفُلُ لَنَا عَدَدًا، إِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْبَرَ عَدَدٍ، خُصُوصًا وَنَفْسِيَّةَ الْجَمَاعَةِ سَرِيعَةُ التَّرَدُّدِ سَرِيعَةُ الاسْتِثْلَامِ.

قال آبْنُ سَلَامٍ: هَذَا مَا فَكَّرْتُ فِيهِ، وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ الْقَدَرَ سَاقَلَكَ لِتَشْجِيعِي...

وعلى ذلك أَفْتَرَقَا... فَمَضَى مُخَيَّرِي فِي الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْمَسْجِدِ، مَرْكَزِ الدَّعْوَةِ وَالِدَوْلَةِ... وَتَمَهَّلَ آبْنُ سَلَامٍ حَتَّى يَجْعَلَ لِدُخُولِهِ صَدَى أَوْسَعَ أَنْتِشَارًا وَأَشَدَّ وَقَعًا. وَلَكِنَّهُ ظَلَّ شَاخِصًا فِي إِكْبَارِ لَتَضَمِيمِ مُخَيَّرِي الَّذِي هُوَ دَلِيلُ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ، وَفِي إِعْجَابٍ بِمَنْطِقِهِ الدَّقِيقِ الَّذِي هُوَ دَلِيلُ الْفِكْرِ النَّابِغِ...

\*

الإسلامُ عَقِيدَةٌ وَعَمَلٌ وَحَيَاةٌ وَنِظَامٌ...

وله فِي الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ تَفَاعُلَاتٌ عَلَى أَنْحَاءِ أَرْبَعَةٍ:

تَتَفَاعَلُ الْعَقِيدَةُ فِيهِ مَعَ الْأَوْهَامِ الْعَالِقَةِ بِالْفِكْرِ، فَيَعْدُو فِكْرًا جَدِيدًا بِمَنْطِقِي

جَدِيد...

وَيَتَفَاعَلُ الْعَمَلُ فِيهِ مَعَ الْجُهْدِ الْمُبَدَّدِ، فَيَعْدُو جُهِدًا مُنْتِجًا...

وَتَتَفَاعَلُ الْحَيَاةُ فِيهِ مَعَ الْحَيَاةِ الْمُغَلَّلَةِ الْكَاسِفَةِ، فَتَعْدُو طَلْقَةً شَامِخَةً...  
وَيَتَفَاعَلُ النُّظَامُ فِيهِ مَعَ التَّرَائِبِ الْمَحْمُومِ، فَيَعْدُو إِنْسَانِيًّا صَحِيحًا...  
وَالْإِسْلَامُ، بَعْدَ ذَلِكَ، فِكْرَةٌ وَإِعْدَادٌ،  
وَبَيْنَهُمَا تَتَوَلَّدُ، عَلَى الدَّوَامِ، الْأُمَّةُ وَالْدَّوْلَةُ وَالْمُجْتَمَعُ...

\* \* \*

## يوم القِران

مَضَى، بَيْنَ يَوْمِ الْمَدِينَةِ وَهَذَا اللَّيْلِ الَّذِي آسَتَيْقَظَ فِيهِ النَّبِيُّ عَلَى ذِكْرِى نَاعِمَةٍ  
كَرَجَعَ الْحَنِينَ، وَمُنْعَشَةٍ كَلَمَسَةِ الْحُبِّ، وَشَائِقَةٍ كَوَقْعِ الْأَمَلِ، أَيَّامٌ إِنْ شِئْتَ تَحْسُبُهَا  
بِأَسَابِيعٍ<sup>(١)</sup> فَذَاكَ، وَإِنْ شِئْتَ تَحْسُبُهَا بِأَشْهُرٍ فَقَدْ تُصِيبُ.

إِنْجَرَدَ النَّبِيُّ مِنَ اللَّيْلِ، وَيَدُهُ تَمْسُحُ التَّوَمَ عَنْ جُفُونِهِ الَّتِي أَخَذَهَا رُقَاذُ هَنِيءٍ  
رَافَةٍ بِأَحْلَامِ الْغَدِ، وَكَانَتْ نَفْسُهُ تَجِيشُ بِذِكْرِى مُحَبَّبَةٍ إِلَيْهِ، قَرِيبَةٍ مِنْهُ، حَتَّى لَكَأَنَّهَا  
تَرْجِعُ إِلَى أَمْسِ النَّهَارِ الَّذِي لَمْ يَفْصِلْ عَنْهُ يَوْمٌ وَغَدٌ.

وَهِيَ ذِكْرَى مَا كَانَتْ تَمُرُّ فِي خَاطِرِهِ إِلَّا وَتَجِيشُ بِهَا نَفْسُهُ، وَيَشْمَلُهَا  
أَطْمِئْنَانٌ وَرِضًا، عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَغْبِرُّ مَجَازَهَا فِي خَيَالِهِ إِلَّا وَتَتْرُكُ عَلَى مُقْلَتَيْهِ دَمْعَةً  
مُتَبَخَّرَةً، وَأُخْرَى تَذُوبُ فِي خَفَقَةِ رَقِيقَةٍ، وَزَفَرَةٍ غَيْرِ طَوِيلَةٍ. ذِكْرَى يُحَرِّكُهَا عِنْدَهُ  
طَيْفُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي كَانَ يَتَرَاءَى لَهُ، وَيُلْتَمُّ بِهِ أَحْيَانًا، وَغَدًا، بَعْدَ يَوْمِ الْمَدِينَةِ، كَثِيرًا  
مَا يُرَاوِحُهُ. وَكَانَ الطَّيْفُ يَبْدُو، بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ، مُزْدَهِيًا تَلْفُهُ مِنْ نَوَاحِيهِ نَشَوَاتٍ،  
وَمُتَلَفِّعًا بِإِشْرَاقَةٍ تَشِيْعُ عَلَيْهِ مِنْ أَقْطَارِهِ، وَهِيَ تُعَبِّرُ عَنْ زَهْوِ الْمَكَافِحِ الْمَيِّتِ بِمَجْدِ  
الْمَكَافِحِ الْحَيِّ.

كَانَتْ تَمُرُّ عَلَيْهِ، فِي طَيْفِ أَبِي طَالِبٍ، صُورٌ مُتَحَرِّكَةٌ سَرِيعَةٌ، تَتَّصِلُ بِغَارِ

(١) سَكَنَتِ الرُّوَايَاتُ عَنْ تَقْدِيرِ الْمُدَّةِ بَيْنَ وَقْعَةِ بَدْرِ وَاقْتِرَانِ عَلِيٍّ بِفَاطِمَةَ.



حراء، ومكة، ودار الإغداد والدعوة (بيت الأرقم) فيحس بالحنين العميق.  
وتمرّ به صور الأوثان المتضدة التي تحدّها في سُخْرِيَّة، وهاجمها في تحطيم،  
فيحرق الأرم.

وتمرّ به صور ما لاقى من عنّت إجماعي، وهو ماضٍ في كفاجه لا يحفل  
ولا يتشنى ولا يتردّد، مُعْتَقِداً الظفر رُغم الجموع، والنجاح رُغم تأشّب الباطل  
وسورته. وكذلك المصلح الحقّ ينقطع الفكر بينه وبين العقبات، ليقول كلمته  
ويسمع صداها، ودائماً يكون مُزَلْزلاً مُزعِداً.

ويتندو أبو طالب، من ورائه، يدفع عنه، ويشدّ أزره، ويحمي حماه، فيشمّله  
رضاً بأنّه أدّى رسالته وشهد نجاحها في الخلق والإنشاء.

وتمرّ به خديجة في هالة الحبّ الزوجيّ الأقدس، وفي صورة من مقام المرأة  
وأثرها في حرّكات البعث والانقلاب، فيغروه حُزن صامت، وتقدير خفي، وإكبار  
يظهر أثرهما في مركز المرأة من التشريع الخالد... وتزوي تلك الصور وتثبت هذه  
الحقيقة:

نجاح الحرّكات الخلاقة بدعائم ثلاث: رجل المبادئ الذي يعمل بقواه  
المعنويّة والفكريّة مُجتمعة، والمرأة التي تعمل بروحيّتها المشعّة وعواطفها الواعية،  
ورجل الدفاع الذي يعمل بكلّ وسائله بإخلاص...

وتنتقل به الذكرى ولا تنقطع، إلى الهجرة، فيمرّ به عليّ وتضحيتُه الرهيبة  
في التزمّل عنه، فيزّنون في دهشة مُكبّرة.

ويمرّ به غاز أبي ثور، وصاحبه الباسل أبو بكر، والطريق المروّع، وهما ينهبان  
الأرض نهباً، فيشعُر بأسى، وينكمش على خاطر أن يغدو صانع المجد، طريد المهّد.  
وتمرّ به يثرب وجهوده في تثبيت العقيدة واستثمارها في بناء قواعد الدولة

الجديدة، فيُتَغَرَّ في آيِسَامَةِ عَرِيضَةِ هَادِئَةٍ.

وَتَمُرُّ به سِلْسِلَةُ المَعَارِكِ الَّتِي كَانَ أَهَمُّهَا بَدْرٌ، وَيَرَى الجَمْعَيْنِ وَقَدْ تَصَافَا  
لِلْقِتَالِ، وَيَرَى أَبْطَالَه عَلَى دَرَجَاتِهِمْ، وَيَرَى عَلِيًّا، صَاعِقَتَهُ المُدَّخِرَةَ، تَنْقُضُ فِي كُلِّ  
مَجَالٍ، وَيَشْهَدُ النِّهَايَةَ الظَّافِرَةَ، فَيَهْزُهُ فِي مَظْهَرِهِ الوَقُورِ سُورُورٌ بَعِيدُ الغُورِ... وَتُزَوِّي  
تِلْكَ الصُّورُ أَيْضًا، وَتَثْبُتُ هَذِهِ الحَقِيقَةُ:

إِنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ أَسَدَ مُحَمَّدٍ، وَرِسَالَتُهُ فِي دَوْرِ التَّأْسِيسِ، وَلَمْ يَنْقُضْ يَدَهُ  
مِنَ الحَيَاةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ، فِي فَتَاهُ عَلِيٍّ، أَسَدَ مُحَمَّدٍ وَرِسَالَتُهُ فِي دَوْرِ التَّشْيِيدِ  
وَالِإِعْلَاءِ...

قَامَ النَّبِيُّ، وَقَدْ عَزَمَ عَلَى أَمْرِ أَرْضِي بِهِ ضَمِيرُهُ وَحُبُّهُ مَعًا، وَخَرَجَ وَهُوَ يَشْعُرُ  
أَنَّهُ أَدَّى حَقًّا. وَمَرَّتْ به فَاطِمَةُ، وَهِيَ تَخْطُرُ لِبَعْضِ شَأْنِهَا، فَقَبَّلَهَا قُبْلَةً آجَتَمَعَ فِيهَا  
شُعُورٌ جَدِيدٌ أَحْسَتْ مَعْنَاهُ غَامِضًا مُبْهِمًا، وَلَكِنَّهُ اسْتَنْبَهَ فِيهَا شَيْئًا لَمْ تَدِرْ كُنْهَهُ إِلَّا  
أَنَّهُ مُبْهِجٌ عَلَى أَيِّ حَالٍ.

لَمْ يَفْصِلِ النَّبِيُّ عَنْ مُحْجَرَاتِهِ بَعِيدًا حِينَ أَقْبَلَتْ مَيْمُونَةُ أُخْتُ بَنَاتِ عُمَيْسٍ  
عَلَى فَاطِمَةَ تَزْوُرُهَا، فَأَنَسَتْ إِلَيْهَا كَمَا لَوْ كَانَتْ تَنْتَظِرُ لِقَاءَهَا بِلَهْفَةٍ وَصَبْرٍ نَافِدٍ...  
وَالْمَرْأَةُ تَتَكَشَّفُ إِلَى الْمَرْأَةِ بِحَقِيقَتِهَا العَارِيَةِ، وَتَظْهَرُ الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ بِكُلِّ ذَاتِيَّتِهَا،  
وَلَيْسَتْ تُعْطِي الرَّجُلَ إِلَّا نِصْفَ مَعْنَاهَا، وَيَبْقَى النِّصْفُ الْآخَرُ مَجْهُولًا غَامِضًا  
وَيَذْهَبُ فِي غُمُوضِهِ أَبَدًا. فَحَنُّ نَفْسِ الْمَرْأَةِ نِصْفٌ فَهْمٌ لَأَنَّهَا لَا تَتَكَشَّفُ لَنَا إِلَّا  
نِصْفَ أَنْكِشَافٍ، وَلَا يُخْرِجُهَا مِنْ صَدَفَتِهَا لِلْعَرَاءِ إِلَّا الْحُبُّ، وَالْمَرْأَةُ، إِذَا تَفَقَّحَتْ  
أُنُوثَتُهَا وَنَضَجَتْ، حَنَّتْ حَنِينًا مُبْهِمًا، فَإِنَّهَا تَجِدُ نِصْفَ مَعْنَاهَا فِي الرَّجُلِ، وَالنِّصْفَ  
الْآخَرَ فِي الْوَلَدِ، وَهِيَ تُرِيدُ أَنْ تَحُلَّ لُغْزَهَا فَيَأْخُذُهَا هَذَا الحَنِينُ.

أَقْبَلَتْ مَيْمُونَةُ إِقْبَالَ مَنْ فَهِمَتْ شَيْئًا وَتُرِيدُ المَزِيدَ، وَقَالَتْ لَهَا: مَرَرْتُ بِالنَّبِيِّ،

وهو في بهجة ضاحكة زادت شعاعاً على ما كنا نعهده بعد يوم المدينة، وإن كانت لا تفارقه، حتى لقد خيل إلي أنه عزم على أمر فشاع سروره على محياته البهي. ولا ينعُد بي ظني أنك وقفت عليه، فقد أعلم أنه يستروح فيك روح النبوة، وما هو بغريب، فإنك ولدت له بعد مبعثه، وقد استحالت النبوة في معناه، وغدت له ذاتية، فأنت ذكرى من ذكريات الوحي الأولى.

استوت فاطمة، وقد تألقت في عينيها إشراقة من خلاوة هذه الملاحظة، فقد كانت تغزو ما يلقاها به النبي من احتفاء واحتفال إلى محض الحنان الأبوي، وألقت في آيسامة مفترية: إذا فأنا شيء منه كالوحي أو كالنبوة، وطيف سماوي في خيال أبي عندك يا ميمونة.

قالت ميمونة: وأنا وإيم الله، ما جلست إليك إلا شعرت بروحانية هذا الطيف المتألق وجماله، وشمكتني سكينته لا أهدأها إلا بما تترك في نفسي من أطمئنان لأذ رغب. ولا تحسبيني، من هذا الشعور، كما قيل: «تخيل ثم خال» بل هو واقع نفسي كالرأي على الظما، أو كالأمل اللذي.

قالت فاطمة: يسرني أنك تحببني هذا الحب، ولكن ما وجه الأمر الذي عزم عليه أبي، على ما انتهى إليه حديثك؟ فقد طاف بنفسي شيء كالذي طاف بنفسك، وأنه عراني إحساس غامض حين قبلني أبي في هذا الصباح قبلة جديدة المعنى، وبث في قبليته، إلى جانب الحنان الذي عودني، شعور من يخشى فراقه، وكان في بهجته المشرقة نفسها التي لم تزايله حين مررت به.

وكانت حجرات النبي تُشرف على المسجد فرأتا شبحاً لم تتبيناه جديداً، يدخلُ مُسرِعاً ويخرجُ سريعاً، فأشربت ميمونة تنظراً وأطلت من قريب، وعلمت أنه أبو بكر عرض عليه شيئاً فلم يتبسّط إليه. ولم يغادر بعيداً ويتوارى حتى جاء عمر فساره بشيء لم تتبينه ميمونة أيضاً، فلم يتبسّط إليه، وظهرت عليه حركة

إِعْرَاضٍ غَيْرِ خَافِيَةٍ. وَمَا جَاوَزَ الْمَسْجِدَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيَّ فَتَلَقَّاهُ بِتَهَجُّتِهِ الَّتِي لَحَظْتُهَا عَلَيْهِ سَاعَةً أَبْصَرْتُهُ أَوَّلَ النَّهَارِ، فَسَارَهُ طَوِيلًا وَالنَّبِيُّ يَنْبَسِطُ إِلَيْهِ وَيَحْتَفِلُ بِهِ، فَقَامَ وَعَلَى ثَغْرِهِ آبَتْسَامَةٌ عَرِيضَةٌ لَمْ يَجْتَهِدْ فِي إِخْفَائِهَا، وَإِنَّمَا تَرَكَهَا تَنْطَلِقُ إِلَى مُنْتَهَاهَا.

فَانْقَلَبْتُ إِلَى فَاطِمَةَ تَقْصُّ عَلَيْهَا مَا رَأْتُ، وَمَرَّ بِخَاطِرِهَا، وَقَدْ ضَمَّتْ قَدَمَيْهَا لِلْجُلُوسِ، شَيْءٌ أَطْمَأْنَنْتُ إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ مَا شَهِدْتُ وَعَغْمَمْتُ: لَعَلَّ... لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ.

وَعَرَضَ لَهَا مَا ثَبَّتَ هَذَا الْخَاطِرَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا: لَذَلِكَ... لَذَلِكَ لَمْ يُكَاشِفْهَا بِالْأَمْرِ الَّذِي عَزَمَ عَلَيْهِ.

وَرَأْتُ مَيِّمُونَةَ أَنَّهَا أُخْرِجَتْ حِينَمَا قَالَتْ لَهَا فَاطِمَةُ: لَعَلَّكَ وَقَفْتَ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى جَلِيَّتِيهِ أَوْ عَلَى مَا يَتَّصِلُ بِهِ. فَأَدَارَتْ الْحَدِيثَ بِلَبَاقَةٍ إِلَى وَجْهِ آخَرَ أَلْبَسَتْهُ شَكْلَ الْمُفَاجَأَةِ، لِتَكْسِبَ أَهْتِمَامَهَا بِمَا تُرِيدُ أَنْ تَضَرِفَهَا إِلَيْهِ.

فَقَالَتْ: نَسِيتُ شَيْئًا كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِهِ وَقَدْ ذَكَرْتُهُ الْآنَ. فَبَدَأَ الْاهْتِمَامُ عَلَى وَجْهِ فَاطِمَةَ، وَأَصْغَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ التَّلَهُّفِ وَالشُّوقِ إِلَى هَذَا النَّبِيِّ الْجَدِيدِ... فَوَاصَلْتُ تَقُولُ:

سَمِعْتُ النَّاسَ فِي طَرِيقِي هَذَا الصَّبَاحَ يَقُولُونَ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ حَبَّرَ الْيَهُودَ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ وَكَاشَفَ بِهِ. وَكَانَ نَبَأً شَدِيدَ الْوَقْعِ عَلَى الْيَهُودِ حَتَّى لَقَدْ بَاتُوا يُخَاطَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَةٍ، آمْتِحَانًا لِحَوَاسِهِمُ الَّتِي بَدَّوْا يَشْكُونَ فِي سَلَامَتِهَا، فَإِنَّ آبْنَ سَلَامٍ رَمَزَ دِينِي مِنْ رُمُوزِ الْيَهُودِ، وَعَجِيبٌ أَنْ يَمِيلَ إِلَى دِينِ أَيْلِكَ. وَتَوَقَّعَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الصَّدَى الَّذِي أَحْدَثَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي الْإِضْعَافِ مِنْ سَلْبِيَّةِ مَوْقِفِهِمْ إِزَاءَ الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَةِ، كَمَا تَدَارَكَ الْيَهُودَ خَوْفٌ عَمِيقٌ مِنْ أَنْ يَفْضَحَ لِأَيْلِكَ سِرُّ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي يَجْتَهِدُونَ فِي جَعْلِهَا لُغْزًا. وَلَكِنْ بَرُّعٌ مَا أَحْدَثَهُ آغْتِنَافُهُ

الإسلام من صدئ عكسيّ عَنيف، وَوَقَّع مُزَلْزِل، لَنْ يُؤَثَّرَ فِي سَلْبِيَّةِ الْيَهُودِ إِلَّا أَثَرًا ضَعِيفًا، عَلَّلَهُ آبْنُ سَلَامٍ بِمَا فِي طَبِيعَتِهِمْ مِنْ «الْبُهْت».

كَمَا أَنَّ الْقَوْمِيَّةَ الْيَهُودِيَّةَ وَحَدَّهَا قَامَتْ عَلَى الدِّينِ الْمَوْرُوثِ، وَالْكَنِيسِ الرَّمْزِيِّ فِي هَذَا الشَّكْلِ حَسْبُ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ أَنَّ الْقَوْمِيَّةَ الْيَهُودِيَّةَ كَنِيسٌ فَقَطْ، وَلَا شَيْءَ وَرَاءَ هَذَا التَّقْلِيدِ الدِّينِيِّ. فَهَمْ لَا يَتَمَسَّكُونَ بِدِينِهِمْ، رُغْمَ الْكَوَارِثِ، بِحُكْمِ صِحَّتِهِ، بَلْ بِحُكْمِ أَنَّهُ قَاعِدَةٌ قَوْمِيَّةٌ تَكْفُلُ وَحَدَّتْهُمْ، فَالْيَهُودِيُّ لَا يَرْفُضُ مَبْدَأًا لِأَنَّهُ فَاسِدٌ أَوْ لَيْسَ بِصَحِيحٍ، بَلْ لِأَنَّهُ لَا يَتَّفِقُ وَمَثَلُهُ الْقَوْمِيُّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقْبَلَهُ بِدُونِ مَنَاقِشَةٍ. وَهُوَ قَدْ يَعْتَقِدُ عَدَمَ صِلَاحِيَّتِهِ كَطَبِّ لِلرُّوحِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ يَقْبَلُهُ عَلَى أَيِّ حَالٍ، لِأَنَّهُ الضَّمَانَةُ الْأَكِيدَةُ لِسَلَامَةِ الْوَحْدَةِ الْيَهُودِيَّةِ. فَالْيَهُودِيُّ لَا يُعْمَلُ عَقْلُهُ فِي مَثَلِهِ، بَلْ لَا يَجِبُ أَنْ يُعْمَلَ عَقْلُهُ، مَا دَامَتْ هَذِهِ الْمَثَلُ تَحْفَظُ عَلَيْهِ وَحَدَّتْهُ الْعَامَّةُ الَّتِي تَتَّصِلُ بِبَقَائِهِ، فَلَوْ فُرِضَ وَاتَّسَعَ الْيَهُودُ كَمَجْمُوعٍ بَشَرِيٍّ يَعِيشُ أَشْتَاتًا عَلَى الْأُمِّ لِاتِّبَاعِ أَيِّ الْمَبَادِيءِ الَّتِي تَرُوقُ لَهُمْ لَذَابُوا وَغَمَزَتْهُمْ اللَّجَّةُ. فَمُعْتَقَدُهُم الدِّينِيُّ الْمَوْرُوثُ حَفِظَ وَحَدَّتْهُمْ وَبَقَاءَهُمْ كَأَمَّةٍ أَوْ كَقَبِيلٍ مِنَ الْبَشَرِ يَمْتَّازُ بِخَصَائِصِهِ، وَحَفِظَ اتِّصَالَ تَارِيخِهِمْ، وَبِذَلِكَ كَانَ لَهُمْ غُنْصُرًا أَوْلِيَاءَ كَالْأَرْضِ بِالنَّسَبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ مِنْ ذَوِي الْقَوْمِيَّاتِ الْوَطِيدَةِ فِي الزَّمَنِ.

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: بِهَذَا يُعَلَّلُ آبْنُ سَلَامٍ سَلْبِيَّةَ الْيَهُودِ الصَّلْبِيَّةَ، وَلَيْسَ إِزَاءَ الْإِسْلَامِ خَاصَّةً، بَلْ إِزَاءَ كُلِّ الْمَبَادِيءِ وَكُلِّ الْأَدْيَانِ، حَذَرًا مِنْ تَفْسِيخِ وَحَدَّتِهِمْ وَتَبْعُثِهِمْ فِي الْأُمِّ... قَدْ يُرَى يَهُودِيٌّ يُرَوِّجُ لِمَبْدَأٍ وَآخَرُ يُرَوِّجُ لِمَبْدَأٍ ثَانٍ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يُؤْمِنَا أَلْبَسَتْهُمَا بِمَا يُرَوِّجَانِ لَهُ، وَإِنَّمَا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ بِمَا فِي طَبِيعَتِهِمْ مِنْ غُنْصُرِ الْفَوْضُوِيَّةِ وَمَحَبَّةِ إِشَاعَتِهَا فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ، لِيَتَسَنَّى لَهُمُ الْعَمَلُ وَالنَّجَاحُ.

وَبَيْنَا هِيَ فِي حَدِيثِهَا دَخَلَ النَّبِيُّ فَهَبَّتْ إِلَيْهِ فَاطِمَةُ، وَتَبِعَتْهَا مَيْمُونَةُ، وَوَجَدَتْ إِذْ ذَاكَ فُرْصَةً مَكْنَنَتُهَا مِنْ أُذُنِهَا، فَانْطَلَقَتْ قُدَمَاءَ وَرَاءَ خَاطِرٍ سَنَحَ لَهَا عِنْدَ



الخروج، بأن أنسا، خادم النبي الذي لا يكاد يفارقه، عنده من خبر المسجد هذا الصباح شيء كثير. فقصدت إليه، وكانت أمه إحدى صوئجاتها، وما ظهرت في الباب حتى استقبلتها أم أنس بالخبر كبشري فذة، وكان فيما روت لها عن ابنها: «أن أبا بكر أقبل إلى النبي فقعد بين يديه، فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام، وأني... وأني...»

قال: وما ذاك؟

قال: تزوجني فاطمة، فسكت عنه... فرجع أبو بكر إلى عمر، وهو يقول: هلك.

قال عمر: وما ذاك؟

قال: خطبت فاطمة إلى النبي فأعرض عني.

قال: مكانك حتى آتية فأطلب مثل الذي طلبت.

فأتى عمر النبي فقعد بين يديه، فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام وأني... وأني...

قال: وما ذاك؟

قال: تزوجني فاطمة، فسكت عنه...

فرجع إلى أبي بكر، فقال: إنه ينتظر أمر الله بها... فم بنا إلى علي نستحيه أن يطلب مثل الذي طلبنا.

فأتياه وهو يعالج فسيلاً له، فقالا: إنا جئناك من عند ابن عمك بخطبة... فقام يجر رداءه حتى أتى النبي فقعد بين يديه.

فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام وأني...

وأنتي...

قال: وما ذاك؟

قال: تُزَوِّجُني فاطمة... فَأَشْرَقَ وَجْهُ النَّبِيِّ، وقال: فما عندك؟

قال: فَرَسِي وَبَزَّتِي.

قال: أَمَا فَرَسُكَ فَلَا بُدَّ لَكَ مِنْهَا، وَأَمَا بَزَّتُكَ فَبِعْهَا.

فغادرَ وباعها بأَرْبَعِمِائَةٍ وَثَمَانِينَ، وجاءَ بها حتَّى وَضَعَهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ، فَقَبَضَ مِنْهَا قَبْضَةً.

فقال: أَيُّ يَلَالٍ، آبِغْنَا بِهَا طِيًّا<sup>(٢)</sup>.

شاعَ الْخَبَرُ فِي الْمَدِينَةِ سَرِيعاً كَمَا يَشِيعُ الْأَرِيحُ الْعَابِقُ فِي كُلِّ مَكَانٍ مَعَ النَّسَمِ الْنَدِيِّ، فَكَانَتْ مَيْمُونَةُ لَا تَمُتُ بِمَحَلَّةٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَتَرَى الْمَرْأَةَ تَمِيلُ إِلَى الْمَرْأَةِ، وَتَقُولُ لَهَا فِي بَشَرٍ ظَاهِرٍ:

أَمَا بَلَغَكَ النَّبَأُ؟ عَلَيَّ خَطَبَ فاطمة، وَبَارَكَ النَّبِيُّ الْعَقْدَ، وَإِنَّهُ لِنِعْمِ الْحَدَثُ. لَيْسَ لِهَذِهِ السَّيِّدَةِ الْمُصْطَفَاةِ إِلَّا هَذَا السَّيِّدُ الْمُصْطَفَى. وَهِيَ رَبِيبَةُ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَهُوَ رَبِيبُ الْوَحْيِ وَبَطَلُ الرَّسَالَةِ.

وَفِي آسْتِدَارَتِهَا صَوَّبَ مَنْزِلُهَا سَمِعَتْ رَجُلًا يَشْمَرُ إِلَى آخَرٍ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْحَيِّ وَيَقُولُ:

إِنَّ النَّبِيَّ لَمْ يُزَوِّجْ عَلِيًّا، وَإِنَّمَا كَرَّمَ الْبَطُولَةَ الْخَالِدَةَ الْمُظَفَّرَةَ فِي شَخْصِ الْبَطَلِ الْخَالِدِ الْمُظَفَّرِ، وَإِنَّ مِنْ حَقِّ الْبَطُولَةِ تَكْرِيمَهَا، وَمَا فَاتَ النَّبِيَّ أَنْ يُكَرَّمَ الْبَطُولَةَ بِأَعَزِّ مَا عِنْدَهُ وَأَقْرَبِ مَا هُوَ إِلَى قَلْبِهِ، فَإِنَّ فاطمةَ قَلْبُ النَّبِيِّ مُصَوَّرًا فِي إِنْسَانٍ مَلَائِكِيٍّ أَوْ مَلَائِكٍ إِنْسَانِيٍّ. وَلَيْسَ فِي هَذَا مَعْنَاهُ بَلْ مَعْنَى التَّكْرِيمِ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا، فِي حَقِيقَتِهِ،

---

(٢) راجع كتاب: الرِّيَاضُ النَّصِيرَةُ فِي مَنَاقِبِ الْعَشْرَةِ الْمُحِبِّينَ الطُّبْرِي، ج ٢، ص ١٨٠ إلى ١٨٤.

رِسَالَةٌ وَدَعْوَةٌ وَهُوَ الْمُبْتَدَأُ، وَإِنْ عَلَيَّا، فِي حَقِيقَتِهِ، إِيْمَانٌ وَإِجَابَةٌ وَهُوَ الْخَبَرُ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ فَاطِمَةَ رَابِطَةُ الْإِسْنَادِ.

وَمَا فَاتَ مَيْمُونَةَ أَنْ تَسْمَعَ مَا رَدَّ بِهِ الْآخَرُ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، كَمَا تَقُولُ: وَأَيْضاً لَقَدْ كَرَّمَ النَّبِيُّ بِهَذَا الْقِرَانِ بَطُولَةَ أُخْرَى هَائِثَةً فِي أَبْدِيَّتِهَا الْمُشْرِفَةِ الْوَاعِيَةِ، إِنَّهُ كَرَّمَ أَبَا طَالِبٍ التَّصِيرَ الْبَرَّ وَالْمُجَاهِدَ الْأَوَّلَ.

قَالَ الْأَنْصَارِيُّ: فَهَذَا الْقِرَانُ إِذَا تَكْرِيماً مُزْدَوِجٌ ضَاعَفَ مَعْنَاهُ، وَأَخْلَدَ بِهَذَا الْيَوْمَ يَوْمَ تَكْرِيمِ الْبَطُولَاتِ، إِنَّهُ لَيَسْتَخِفُّنِي بِمَعْنَاهُ الْكَبِيرِ... رَنْتُ مَيْمُونَةَ فِي الظَّلَامِ وَأَحَدْتُ بَصَرَهَا كَمَنْ رَأَى شَبَحاً، فَإِذَا شَخْصٌ يُقْبَلُ عَلَيْهِمَا، وَإِذْ تَبَيَّنَا هَتَفَا جَمِيعاً: أَهْلًا بِكَ سَلْمَانُ.

وَكَانَ سَمِعَ بَعْضَ الْحَدِيثِ، وَوَقَفَ مِنْذُ حِينَ عَلَى الْخَبَرِ، فَقَالَ:

إِنَّهُ جَدِيرٌ أَنْ يَسْتَخِفَّكَ يَا هَذَا، إِنَّهُ تَكْرِيماً لِأَكْبَرٍ مِمَّا كُنَّا نَصْنَعُ، نَحْنُ الْفُرْسَ، فِي جَاهِلِيَّتِنَا، مِنْ إِقَامَةِ تِمْنَالٍ جَامِدٍ تَخْلِيداً لِلْبَطْلِ. فَإِنَّ مُحَمَّدًا مَنَحَ تِمْنَالاً حَيًّا أَسْمَى، تَخْلِيداً لِلْبَطُولَةِ الْحَقِّ، فَكُلُّ مَا فِي عَمَلِ الْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ تَخْلِيدٌ بِمِقْدَارِ مَا فِي الْحَجَرِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْبَقَاءِ، وَلَكِنَّ الْفَنَاءَ فِي طَبِيعَتِهِ. وَهَذَا تَخْلِيدٌ بِمِقْدَارِ مَا فِي الرُّوحِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْبَقَاءِ، وَلَكِنَّ الْأَبَدِيَّةَ فِي طَبِيعَتِهَا... وَأَغْرَقَ ثَلَاثَتُهُمْ فِي تَأْمُلِ صَامِتٍ طَالَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ مَيْمُونَةَ لَا تَنْتَظِرُ وَتَلِجُ الْمَنْزِلَ.

أَخَذَهَا اللَّيْلُ بَنَوْمٍ هَادِيٍّ تَخَلَّلَتْهُ أَحْلَامٌ بِهِجَّةٍ آسْتَيْقَظَتْ مِنْهُ عَلَى لَذَّتِهَا، فَخَفَّتْ إِلَى حُجَرَاتِ النَّبِيِّ بِقَدَمِ شَاعِرَةٍ تَحْتِ قَصْدٍ غَيْرِ شَاعِرٍ، وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَتَحَيَّنُهَا أَيْضاً وَتَنْتَظِرُ مِنْهَا شَيْئاً. فَإِنَّ أَبَاهَا اللَّيْلَةَ أَخَذَ بِهَا فِي أَحَادِيثَ شَتَّى كَمَا تَشَاءُ الْأُبُوَّةُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُفْصِحْ لَهَا عَنْ شَيْءٍ يَضَعُ حَدًّا لَتَسْأُلُهَا، بِيَدِ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ، وَمَنْ لَهَا غَيْرُ مَيْمُونَةَ؟

بَدَرَتْهَا فَاطِمَةُ: لَعَلَّكَ أَتَيْتَنِي الْيَوْمَ بِخَبَرِ إِسْلَامِ كَعْبِ الْأَشْرَافِ وَفُلَانِ  
وَفُلَانٍ؟ فَأَبْتَسَمَتْ مَيْمُونَةُ، وَأَدْرَكَتْ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ عِلْمَ مَا كَانَ بِالْأُمْسِ.

فَقَالَتْ: كَأَنَّهُ لَا يَهْمُكَ كَثِيرًا إِسْلَامُ هَؤُلَاءِ...

قَالَتْ: بَلَى، يَهْمُنِي وَلَكِنِّي لَحَظْتُ بِالْأُمْسِ أَنَّكَ جِئْتَ عَنْ حَدِيثٍ  
بِحَدِيثٍ.

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: كَانَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِأَبْنِ عَمِّكَ عَلِيٍّ... وَأَفَاضَتْ فِي إِطْرَائِهِ مِثْلَ  
مُعْجَبَةٍ آتَصَلَ بِهَا إِعْجَابٌ وَحُبٌّ.

قَالَتْ فَاطِمَةُ، وَقَدْ شَعَرَتْ أَنَّهَا تَحِيدُ أَيْضًا: وَمَا أَنَا مِنْ هَذَا الْآنَ؟

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: أَوَلَسْتَ تُحِبُّنَهُ وَتُعْجَبِينَ بِهِ؟ وَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ، الْيَوْمَ، إِلَّا وَهُوَ  
يُحِبُّهُ وَيُعْجَبُ بِهِ، ثُمَّ لَا يَمَلُّ الْحَدِيثَ عَنْهُ؟

قَالَتْ فَاطِمَةُ: بَلَى، إِنِّي لِأُحِبُّهُ بِحُبِّ أَبِي لَهُ وَأُعْجَبُ... فَقَاطَعَتْهَا مَيْمُونَةُ:  
وَإِنَّكَ سَوْفَ تُحِبُّنَهُ بِحُبِّ قَلْبِكَ وَحُبِّ أَبْنَائِكَ أَيْضًا.

جَمَدَتْ فَاطِمَةُ سَاعَةً، وَصَبَغَهَا لَوْنٌ قَدْ يَكُونُ أَزْهَرَ، وَقَدْ يَكُونُ نَاطِقًا، ثُمَّ  
قَالَتْ بَعْدَ لَأَيٍّ: حَسْبُكَ، لَقَدْ فَهِمْتُ الْآنَ، فَهِمْتُ كُلَّ شَيْءٍ. إِنَّهُ يُحِبُّهُ، وَيُحِبُّهُ إِلَى  
حَدِّ كَبِيرٍ وَلَكِنْ... وَضَغَطَتْ عَلَى كَلَامِهَا وَأَخَذَتْهَا إِطْرَاقَةٌ مُفَكَّرَةٌ لَمْ تُحَاوِلْهَا مَيْمُونَةُ  
صَرَفًا عَنْهَا، وَرَأَتْ حَسَنًا أَنْ تَنْصَرِفَ وَتَتْرُكَهَا إِلَى خَوَاطِرِهَا وَأَفْكَارِهَا.

بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ جِوَارِهِمَا أَدْنَاهَا النَّبِيُّ إِلَيْهِ، وَأَعْلَمَهَا فِي أَحَادِيثَ بَيْنَ الْحَنَانِ  
وَالِإِشْفَاقِ، فَمَرَّتْ فَاطِمَةُ فِي سُبَاتٍ وَاجِمٍ، وَكَانَ طَوِيلًا غَالَبَتْ فِيهِ عَوَاطِفُهَا مُغَالَبَةً  
شَاقَّةً، وَقَالَتْ فِي جُحْدٍ مِنْ مَشَاعِيرِهَا:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ! زَوَّجْتَنِي بِرَجُلٍ فَقِيرٍ لَا شَيْءَ لَهُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ: أَمَّا تَرْضَيْنَ يَا فَاطِمَةُ أَنْ اللَّهُ آخْتَارَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ رَجُلَيْنِ، جَعَلَ أَحَدَهُمَا أَبَاكَ، وَالْآخَرَ بَعْلَكَ»<sup>(٣)</sup>.

وَكَانَ لِكَلِمَةِ النَّبِيِّ فِي أُذُنِ فَاطِمَةَ مَعْنَى كَمَا تَحْمِلُ الْأَلْفَاظُ، وَفِي قَلْبِهَا مَعْنَى آخَرُ هَذِهِ الْأَفَظَةُ: إِنَّ الْغِنَى لَيْسَ شَيْئاً فِي الْمَالِ، وَهُوَ أَصْطِلَاحٌ زَائِفٌ آخْتَرَعَهُ مَكْرُ الشَّهَوَاتِ فِي عَقْلِ الْمَدَنِيَّةِ الْمَدْخُولِ، وَإِنَّمَا الْغِنَى شَيْءٌ فِي الْمَعْنَى الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي هُوَ نَامُوسٌ خَالِدٌ يَدُورُ عَلَيْهِ التَّفَاضُلُ فِي ظِلِّ الْوُجُودِ. فَالزَّهْرَةُ تَكُونُ أَبْهَى وَأَحَبَّ وَأَغْنَى بِمَا فِيهَا مِنَ الْمَعْنَى الزَّهْرِيِّ، الَّذِي هُوَ الْجَمَالُ وَالْعَبِيرُ، وَلَيْسَ بِمَا يَتَلَقَّى عَلَيْهَا وَهُوَ خَارِجٌ عَنْ مَعْنَاهَا. وَالضُّوءُ يَكُونُ أَغْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الضُّوئِيِّ كَذَلِكَ، وَالْأَسَدُ يَكُونُ أَغْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الْأَسَدِيِّ، وَهَكَذَا كُلُّ شَيْءٍ غِنَاهُ عَلَى مِقْدَارِ مَا فِيهِ مِنْ مَعْنَاهُ... فَالْغِنَى ذَاتِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ ثَابِتَةٌ، وَالْمَالُ نِسْبِيَّةٌ مُضْمَحَلَّةٌ، وَلَا تَكُونُ شَيْئاً إِذَا لَمْ تَكُنِ الشَّهَوَاتُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا تَجِدُ قِيَمَتَهَا إِلَّا فِي مَدَى مَسَافِ الْغَرَائِزِ وَمَسَاقِطِهَا.

وَالْمَرْأَةُ تَسْتَكْمِلُ مَعْنَاهَا بِإِنْسَانِيَّةِ الرَّجُلِ دُونَ بَهِيمِيَّتِهِ وَمَا يَزِينُ هَذِهِ الْبَهِيمِيَّةَ وَيُكْمِلُهَا، كَمَا يَسْتَكْمِلُ الرَّجُلُ مَعْنَاهُ بِإِنْسَانِيَّةِ الْمَرْأَةِ دُونَ بَهِيمِيَّتِهَا وَمَا يُكْمِلُهَا. وَالْمَالُ مُكْمِلٌ لِلْبَهِيمِيَّةِ الطَّائِشَةِ، وَلَيْسَ شَيْئاً وَرَاءَهَا أَوْ بَعِيداً عَنْهَا. وَلَنْ تَشْعُرَ الْمَرْأَةُ بِذَاتِيَّتِهَا، وَتَعْتَدَّ بِكِبَرِيَاءِ مَعْنَاهَا، إِذَا كَانَ الْمَالُ شَارِياً وَالرَّجُولَةُ، مِنْ وَرَائِهِ، كَسِيفَةً خَائِبَةً وَبَائِرَةً مُتَوَارِيَةً، وَإِنَّمَا يَأْخُذُهَا إِحْسَاسٌ عَمِيقٌ بِأَنَّهُ لَمْ يَضُمَّ بِهِ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى بَلْ حَيَوَانِيَّةٌ مَبْدُولَةٌ وَجَدَتْ ضَعْفَهَا إِلَى حَيَوَانِيَّةٍ بَادِلَةٍ وَجَدَتْ قُوَّتَهَا، فَتَذْهَبُ تِلْكَ ذَاوِيَّةٌ وَيَأْخُذُهَا تَلَاشٌ سَرِيعٌ، وَتَذْهَبُ هَذِهِ مُنْتَفِخَةٌ وَيَأْخُذُهَا جَبَرُوتٌ سَرِيعٌ، وَيَنْتَهِي الْمَالُ وَقَدْ عَمِلَ بِأَنْ أَلْصَقَ عَبْدًا بِرَبِّ، وَلَمْ يَضُمَّ إِنْسَانِيَّةً إِلَى إِنْسَانِيَّةٍ تَجْدَانِ وَخَدَتَهُمَا، بَلْ تَبَايُنٌ عَلَى مِثْلِ الطَّيْرِ فِي مِخْلَبِ الطَّيْرِ تَكُونُ الدَّعَابَةُ مِنْهُ نَهْسَةً يُشْعِرُهُ فِيهَا بَهْوَانِهِ، وَإِنَّهُ فِي مَكَانِ التَّهَابَةِ مِنْ فَمِهِ؛ وَتَكُونُ نِهَابَةُ زَوَاجِ الْمَالِ اسْتِزْقَاقاً أَوْ

(٣) راجع كتاب: الرِّيَاضُ الثُّخَيْرَةُ فِي مَنَاقِبِ الْعَشْرَةِ الْمُنِجِبَةِ الطَّبْرِي، ج ٢، ص ١٨٢.



أفتراساً في شعور القلب، وتكون في شعور المجتمع اختلالاً في توازن الأسرة  
يُصيبها بالفساد، ويتجاوزُ بآثره إلى توازن الجماعة فتختل وتضطرب. وفي  
كَلِمَتَي: زواج وقران رايحة هذا المعنى، بيد أن الأولى قُصِدَ فيها إلى الروح  
وأحاسيسها، والثانية قُصِدَ فيها إلى الواقع الاجتماعي وأرتساماته. فزواج المال ليس  
فيه مَعْنَاه، وإنما فيه معنى العقد الذي هو آخِتيال بقانون.

والأنثى إذا لم تُنِرَ فضاء الرجل النفسي فَمَا تَزِيدُ عن أنها جَسَدٌ فقط.  
والرجل إذا لم يُنِرَ فضاء المرأة النفسية فَمَا يَزِيدُ عن أنه جَسَدٌ فقط، والزواج في  
حِسِّ الروح فَضِيلَةٌ تُكْمِلُ فَضِيلَةً، ونورٌ يَكْمِلُ نور.

وكان معنى اختيار عليٍّ إلى جنب النبي جَمْعُ كُلِّ الْإِنْسَانِيَّةِ فيه، وجاء معه  
عَلَامَةٌ على أن الإنسانية بأكمل ما ثَبَتَ فيها، لَنْ تَنَحْرِفَ عن النَّبُوَّةِ الْجَدِيدَةِ بكل ما  
ثَبَتَ فيها. فكانت فاطمة منهُما بين مَصْدَرِ إِشْرَاقِ النُّورِ ومَجْلَى أَنْعِكَاسِهِ،  
ومَوْجَاتِ الشُّعَاعِ تَمُورُ مُتَأَلِّقَةً في جَوْ نَفْسِهَا الْمُتَسَامِيَةِ أَبَداً.

ومَرَّ في نَجْوَى قَلْبِهَا: إِنَّ أَبِي يَقُولُ في تَعْبِيرٍ آخَرَ، ظَهَرَتْ حَقِيقَةُ الْخَلْقِ في  
عَالَمِ الْإِبْدَاعِ الْإِلَهِيِّ بِمَظْهَرَيْنِ: مَظْهَرِ النَّبِيِّ الْكَامِلِ، وَمَظْهَرِ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ،  
وحَبِيبٌ إلى نَفْسِي أَنْ يَكُونَ حَظِّي هَذَا الْإِنْسَانِ.

«وأمر النبي أن يُجَهَّزُوا فاطمة فَحَمَلَ لها سَريراً مُشَرَّطاً بِالشُّرْطِ، وقال لعلِّي:  
إذا أَتَيْتُكَ فَلَا تُحَدِّثُ شَيْئاً حَتَّى آتِيكَ... فجاءت مَعَ أُمِّ أَيْمَنَ حَتَّى قَعَدَتْ في جَانِبِ  
الْبَيْتِ وَعَلَيٌّ في جَانِبِ، وجاء رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ:

— هُنا أَخِي؟

قَالَتْ أُمُّ أَيْمَنَ: أَخُوكَ وَقَدْ زَوَّجْتَهُ أَبْنَتَكَ!

قال: نعم...

وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ الْبَيْتَ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَقَالَ فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَدَعَا  
فَاطِمَةَ فَجَاءَتْ خَرِقَةً مِنَ الْحَيَاءِ تَعْتُرُ فِي مِرْطِهَا، فَتَضَحَّ عَلَيْهَا وَقَالَ لَهَا:  
- إِنِّي لَمْ آلُ أَنْ أُنِكَحَكَ أَحَبَّ أَهْلِي إِلَيَّ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ  
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ...

وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ سَوَاداً وَرَاءَ الْبَابِ، فَقَالَ:

- مَنْ هَذَا؟

قَالَتْ: مَيْمُونَةُ.

قَالَ: مَيْمُونَةُ أُنَحْتُ بِنْتِ عُمَيْسٍ؟

قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ: أَمَعَ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ جِئْتَ كَرَامَةً؟

قَالَتْ: إِي وَائِمُ اللَّهُ... فَدَعَا لِي دُعَاءَ أَنَّهُ لَا وَثِقُ عَمَلِي، ثُمَّ خَرَجَ فَمَا زَالَ  
يَدْعُو لَهَا حَتَّى ضَمَّهُ مَنْزِلُهُ<sup>(٤)</sup>.

\*

يَظَلُّ الزَّمَانُ حَقِيقَةً مَوْهُومَةً، لَوْلَا بَعْضُ الْأَعْمَالِ الْخَالِدَةِ الَّتِي تُؤَرِّخُهُ...

وَتَكُونُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ أَكْبَرُ مِنَ الزَّمَنِ، لِأَنَّ حَقِيقَتَهُ بَعْضُ هِبَاتِهَا...

فِيَوْمِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ أَكْبَرُ مِنَ الزَّمَنِ، وَأَخْلَدُ مِنَ التَّارِيخِ!...

أَثْبَتَتِ النَّبُوَّةُ مَعْنَاهَا الْخَالِدَ فِي رُوحِيَّةِ الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ...

وَأَثْبَتَتِ النَّبُوَّةُ ذَاتِيَّتَهَا الْخَالِدَةَ فِي دَمِ الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ...

---

(٤) راجع كتاب: الرياض التضرعة، في مناقب العشرة للمحب الطبري، ج ٢، ص ١٨١ و ١٨٢.

فيوم علي وفاطمة، بداءة حياة النبوة الخالدة في الدماء!...

\*

كانت النبوة ستظل ذكرى فقط...

ولكن شاء الله أن تكون حياة أيضاً...

فيوم علي وفاطمة، إبقاء حياة النبوة على الدهور!...

\*

تضع الحقيقة الكبرى خصائص معناها في النواة، لأنها تريد البقاء...

والنواة لا تختلف في خصائصها إلا إذا كان لناموس الوراثة الطبيعي أن  
يختلف...

فيوم علي وفاطمة، يوم بروز النواة عن مثل خصائصها في شكل آخر!...

\*

تذهب النواة التي هي مخزون الخصائص، تبتدئ دورتها وتغطي أشياءها...

والنبوة فكرة السماء المصلحة في محيط البشر...

فيوم علي وفاطمة، طبع لعقلية النبوة في عقل الناس!...

\*

اجتمعت في علي قابليات لا حد لها...

واجتمعت في فاطمة إشراقات لا حد لها...

فيوم علي وفاطمة، يوم نظر النبوة إلى نفسها في المرأة!...

\* \* \*

## يوم الإيمان الشامخ(\*)

جَمَدَتْ في مآقي النَّاسِ دَمْعَةٌ حَزَى لَمْ يَكُنِ الْحُزْنَ كُلَّ مَعْنَاهَا، كَمَا لَمْ تَخُلُ مِنْ بَعْضِ مَعْنَاهُ، فَقَدْ آتَصَلَتْ بِكُلِّ قَلْبٍ أَسْبَابُ حُزْنٍ مَرِيرٍ، حِينَ اسْتَفَاقَ النَّاسُ بَعْدَ أُحُدٍ<sup>(١)</sup> عَلَى مَشْهَدِ الْبُطُولَةِ الْكَلِيمَةِ الْجَرِيحَةِ.

وَجِرَاحُ الْبُطُولَةِ لَا تَقْدِفُ فِي الثُّفُوسِ ضَعْفَ الْأَلَمِ بَلْ كِبْرِيَاءَهُ، وَلَا تُلْفِيهَا بِذِلَّةِ التَّجَرِبَةِ وَلَكِنْ بِتَجْدِيدِهَا فِي عَزِيمَةِ تَضَاعَفَتْ حَقِيقَتُهَا، وَتَمَدَّدَتْ فِي كُلِّ أُمُورٍ الْحِسِّ. فَإِنَّ الْأَلَمَ، مَعَ الْإِيمَانِ، ظُهُورٌ لِذَاتِيَّةِ الْوُجُودِ بِقُوَّتِهَا، كَمَا يَكُونُ الْأَلَمُ، مَعَ الْجُحُودِ، ظُهُوراً لِذَاتِيَّةِ الْعَدَمِ بِتَلَاشِيهَا.

وإِنَّ الْأَلَمَ فِي غَايَتِهِ تَحَدٍّ، وَتَحَدِّي الْقُوَّةِ مُبَالَغَةُ الْقُوَّةِ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهَا وَمَعْنَاهَا، وَتَحَدِّي الضَّعْفِ مُبَالَغَةُ الضَّعْفِ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهِ وَمَعْنَاهُ. وَتَرَاوَى الْقُوَّةُ إِذَا أُصِيبَتْ زَيْرَ الْقُنْبُلَةِ إِذَا أَنْفَجَرَتْ، وَهِيَ تُعَبِّرُ عَنْ أَنَّ فِي بَعْضِ

---

(\*) أُلْقِيَ هَذَا الْقَضْلُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ سَنَةَ ١٩٤٢ فِي قَاعَةِ الْوَسْطِ هَوَلِ بُمُنَاسَبَةِ حَفْلِ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ، وَكَانَ مُقْصُوراً عَلَيَّ وَعَلَى الدَّكْتُورِ عُمَرَ الدَّسُوقِيِّ الَّذِي أُلْقَى قَصِيدَةً، وَكَانَ عَرِيفَ الْحَقْلِ الدَّكْتُورِ جَمِيلِ عَرْدَاتِي أَسْتَاذَ الطَّبِّ فِي الْجَامِعَةِ الْأَمِيرِكِيَّةِ.

(١) جَبَلٌ فِي الْحِجَازِ قُرْبَ الْمَدِينَةِ، كَانَتْ فِيهِ مَعْرَكَةٌ شَهِيرَةٌ بَيْنَ النَّبِيِّ وَأَتْبَاعِهِ، وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَشَنَاهَا الْمُشْرِكُونَ كَمَعْرَكَةِ ثَارِيَّةٍ بِمَعْرَكَةِ بَدْرٍ الْكُبْرَى، وَوَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ فِي صُفُوفِ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا الْمَوَاقِعَ السَّتْرَاتِيَّةَ الَّتِي عَيْنُهَا لَهُمُ النَّبِيُّ قَبْلَ نِهَايَةِ الْمَعْرَكَةِ، حِينَ ظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ الظُّفْرِ أَوَّلًا فِي جَانِبِهِمْ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَالتَّارِيخِ.

الكسر ما هو انطلاق لأعمق القوات الكامنة. وتزعّد إزعاد الأسد إذا خائنه الموقف، وهو يُعبّر عن أنه الأسد بطبيعته المخزونة التي شاء الموقف أن يُطلقها به. وتلك القوات وهذه الطبيعة لا تنطلقان إلا بكسر أو جرح، وهما تُحسنان به إحساس المادة الملتهبة بالنار، لا تميل بها إلى ضمور العدم بل إلى كبرياء الوجود، ثم لا تدفعها إلى استسلام كسيف، وضموت طامس، بل إلى اعتداد رهيب ورّد مضم، ويكون الكسر، أو الجرح، قد أضاف إلى معناها معنىً جديداً، أو سمح لكل طبائعها بالظهور.

وكذلك يكون شعور القوي بالألم إغراء لقوته على أن تنطلق وتنقض ظمئة، كما يكون شعور الضعيف بالألم إغراء لضعفه على أن يترز ويثدو في انعس أشكال العبوديات الدليّة<sup>(٢)</sup> مهانة وخوراً.

والإيمان قوة تصنع البطولات المستهينة. ويوم أحد يوم أصيبت البطولة فيه، فكان آتداء إحساسها بالألم آتداء شموخها الذاهب في السماء والمتحدّب مع الآفاق... والدّماء الصبيّة لا تلهيهم الأبطال روعة الدّم الرهبة بل رجفة الدّم النايضة، ولا تثر بهم إلا وقد استحالوا قوئاً مُزعدة مُنقضة في مسافات أشواطها، لا يحول دونها إلا ما قدير له أن لا يكون.

والألم للإيمان كالحركة للحياة، يُمرّيان الحرارة فيهما، وكما تذهب الحياة بدون الحركة في ضمور، يحور الإيمان بدون الألم في تلاش، ويأخذ همود سحيق. والإيمان قوة، ولكن سرعان ما تتقلل حرارته في أعماق النفس، إذا لم يُركّزها الألم ويُقرّبها من عمليّة الحياة.

وإن حركات التاريخ، برُمته، تقع بين جواذب الألم ودوافعه، بل تُخطئ

---

(٢) العبوديات الدليّة هي عبوديّة الإنسان للإنسان على أشكالها. وأما العبوديّة لله التي جاءت بها الأديان فإنها تحرير للنفس الإنسان من سنى العبوديات، وإشعارها بكبرياء الذات.



النُشوءُ للكلِّ الاجتماعيِّ تَنْتَظِمُ بينَ هذا الدَّفْعِ وهذا الجَذْبِ، وكانتْ أَكْبَرُ الحَرَكَاتِ لا تَزِيدُ، في جَوْهَرِها، عَنْ أَنَّها إِيْمَانٌ بِفِكْرَةٍ وَأَلَمٌ في الإِيْمَانِ، وأَبْدَأُ لا يَشْتَدُّ الإِيْمَانُ وَيَخْطُو ضَعْفاً إِلَّا إِذَا قَدَحَ الأَلَمُ زِنَادَهُ، وطَايَرَ بالشرِّ. وفي مُحِيطِ المادَّةِ، في مُحِيطِ الرُّوحِ، نَفْسُ النَّامُوسِ، فَإِنَّ الجِسْمَ المادِّيَّ الضَّعِيفَ يَلِينُ على الأَلَمِ، بَيْنَمَا الجِسْمُ القَوِيُّ يَشْتَدُّ وَيَهْيِجُ حَتَّى يَمَلَأَ الفَضَاءَ، مُشِيراً إلى قُوَّتِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يَهُنْ.

فَإِذَا كَانَ في يَوْمٍ بَذَرَ بَعْضُ الظَّفَرِ، ففي يَوْمٍ أُحْدِ كُلُّ الظَّفَرِ لَأَنَّ الإِيْمَانَ أَحْسَنَ بِقُوَّتِهِ، وَأَنَّهُ شَيْءٌ، وَبَدَأُ يَخْطُو في ذَاتِيَّةٍ وَأَعْتِدَادٍ.

إِنْدَفَعَ النَّاسُ إلى النَّاسِ «يُهْنِئُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً» بَأَنَّهُمْ، وَإِنْ خَسِرُوا المَعْرَكَةَ، فَقَدْ رَبَحُوا الإِيْمَانَ بالمَبَادِيءِ، وَرَبَحُوا العَقِيدَةَ الَّتِي ظَهَرَتْ سَلَامَتُهَا، وَأَنَّها رَبَاطٌ تَسْتَنِي لَهُ أَنْ يَجْمَعَ قَلْباً إلى قَلْبٍ وَيَمْزِجَ نَفْساً بِنَفْسٍ، وَأَنَّهُ لَنْ يَتَفَلَّلَ على الضَّغْطِ، مَهْمَا كَانَ عُنفُوَانُهُ، وَمَهْمَا جَاءَ مِنْهُ.

ظَهَرَ أَنَّهُمْ لا تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ مِنْ شَهَوَاتِ الأَرْضِ بِمَا آكَتْظَتْ بِهِ مِنْ أَهْوَاءٍ، وَآخَتْفَلَتْ بِهِ مِنْ مَطَامِعٍ، وَإِنَّمَا تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ مِنْ رَغَبَاتِ السَّمَاءِ، وَرَغْبَةُ السَّمَاءِ في تَطْهِيرِ ما على الأَرْضِ مِنْ شَهَوَاتٍ وَأَرْجَاسٍ تَمُورُ مَوْرَاناً، وَتَسْوِقُ الجُمُوعَ الإِنْسَانِيَّةَ بِعُنفٍ وَقَسْرٍ إلى حَيْثُ لا تَكُونُ إِنْسَانِيَّتُهَا، وَتَخْسَرُ مَعْنَاهَا... وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ تَجْرِبَةً سَعِيدَةً لاختِيارِ بِنَايَةِ مُحَمَّدٍ الجَدِيدَةِ في أعْمَاقِ النُّفُوسِ، فَقَدْ ثَبَّتَتْ على العاصِفَةِ الَّتِي تَمَزَّقَتْ رِيَاخُها على صَخَرَاتِ الإِيْمَانِ الشَّامِخِ.

ما الشَّهَوَاتُ النَّهْمَةُ؟

ما اللَّذَائِدُ الدُّنْيَا؟

ما البَلَهْنِيَّةُ والتَّرَفُ؟

إنَّها لا شيء في مذهب رَغَبَاتِهِم الكبيرة، إنَّها لا تَمُتُ بِأَفْعِدَتِهِم التي بَلُورَها السُّمُوءُ بِمَعْنَاهُ الْقُدْسِيَّ، وحَاطَهَا حتَّى لا تَهْوِي مُسِفَّةً، وتَزْتِطِمُ بِالْأَوْحَالِ، إنَّها أَوْحَالٌ من سَفْسَافِ الْأَرْضِ، فهم يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا بِتَقَرُّزٍ وَآسْتِغْلَاءٍ.

هم فِكْرَةٌ مِنَ التَّطْهِيرِ، وفِكْرَةٌ مِنَ الإِصْلَاحِ والعُمُرَانِ، وصَيَّرَهُمُ الْجِهَادُ فِكْرَةً مِنَ التَّنْظِيمِ، فكانوا مُعَلِّمِينَ أَطْلَقَهُمُ الْإِيمَانُ الْجَدِيدُ لِيُحَلُّوا فِي عَقْلِ الْمُجْتَمَعِ الْمَحْمُومِ، كما يَحُلُّ الْإِكْسِيرُ الَّذِي يَحْمِلُ فِي مَعْنَى الدَّوَاءِ أَبَدِيَّةَ النَّشَاطِ، وتُحْلُوهُ الْحَرَارَةُ وَالْحَرَكََةُ وَالْحَيَاةُ.

لم يَكُنْ فَسَادُ الْمُجْتَمَعِ بِمَعْنَى ذَاتِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ بِفِكْرَةِ أَهْوَائِهِ الَّتِي نَفَذَتْ إِلَى مَحَلِّ الضَّمَائِرِ وَتَمَدَّدَتْ، فَوَقَفَ الْفَرْدُ لِلْفَرْدِ، وَالْجَمَاعَةُ لِلْجَمَاعَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَقَدْ تَمَلَّؤُوا بِضَرَاوَةِ وَخَشِيَّةٍ كَالْحِجَةِ، وَذَهَبَ كُلُّ حَيٍّ يُكَافِحُ التَّيَّارَ، وَالْمُجْتَمَعُ يَطْفُو وَيَرْتُسِبُ فِي فَوْضَى اللَّجَّةِ الْعَاتِيَةِ النَّكْرَاءِ.

لَوْ تَأَتَّى لِأَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ الظَّفَرِ دَائِمًا لَتَحَوَّلَ الْإِيمَانُ، بِدُونِ شُعُورٍ، إِلَى فِكْرَةٍ مَادِّيَّةٍ مِنَ الْغَنَائِمِ وَالْأَسْلَابِ، وَتَبَخَّرَ عَلَيْهِمْ مَعْنَاهُ، وَلَكِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ جِهَادُهُمْ جِهَادَ إِيمَانٍ فَقَطْ، فَكَانَ فِي ظَفَرِهِمْ وَإِخْفَاقِهِمْ ظَفَرٌ لِفِكْرَةِ الإِصْلَاحِ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا، ذَاكَ فِي التَّفَوُّقِ وَحَيِّزُهُ الْوَاقِعُ، وَهَذَا فِي التَّرْكِيزِ وَحَيِّزُهُ النَّفْسُ.

وَقَدْ أَظْهَرُوا أَنَّهم مُؤْمِنُونَ فَقَطْ، آسَتْهُوَتْهُمُ الْفِكْرَةُ وَأَخَذَتْ عَلَيْهِمُ أَحَاسِيسُهُمْ، وَتَفَجَّرَتْ فِي خَلَايَا نُفُوسِهِمْ يَنَابِيعٌ، فهم لا يَنْدَفِعُونَ بِدَافِعٍ مِنْ شَهْوَةِ النَّاسِ فِي لَذَّةِ الْحَيَاةِ، بَلْ بِدَافِعٍ مِنْ تَطَلُّعِ الْعَقْلِ وَشُعُورِ الْقَلْبِ فِي لَذَّةِ الْإِيمَانِ. وَقَدْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يُلَقِّنَهُمْ دَرْسًا بِالِغَا فِي أَنَّ الْإِيمَانَ لَا تَظْهَرُ حَقِيقَتُهُ إِلَّا فِي الْأَلَمِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ فِي مَظْهَرِ الْغَضَارَةِ الرَّخِيَّةِ إِيمَانٌ بَلِيدٌ مُنْحَلٌّ، أَوْ لَيْسَ شَيْئًا خَالِدًا فِي شُعُورِ النَّفْسِ.

«أَذِّنْ مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللَّهِ، غَدَاةً مُنْصَرِفِهِ مِنْ أُحُدٍ، بِالْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ،  
وَأَنْ لَا يَخْرُجَ إِلَّا مِنْ حَضَرٍ مَعْرَكَةِ الْأُمَسِ، وَأَتْبَاعُهُ مُتَخَنُونَ بِالْجِرَاحِ.

قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ لِأَخِيهِ: أَتَفَوُّنَا غَزْوَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ؟...  
وَوَاللَّهِ مَا لَنَا دَابَّةٌ نَرْكَبُهَا، وَمَا مِنَّا إِلَّا جَرِيحٌ ثَقِيلٌ. فَخَرَجْنَا وَكُنْتُ أَيْسَرَ جُرْحاً مِنْهُ،  
فكَانَ إِذَا غَلِبَ حَمَلَتْهُ عُقْبَةٌ وَمَشَى عُقْبَةٌ، حَتَّى آتَيْنَاهَا إِلَى مَا آتَاهَا إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ.  
وَكَانَ النَّبِيُّ قَدْ آتَاهَا إِلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ، وَهِيَ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ، وَأَقَامَ  
بِهَا الْإِثْنَيْنِ، وَالثَّلَاثَاءَ وَالْأَرْبَعَاءَ»<sup>(٣)</sup>.

كَانَ رَجْعُ الْأَلَمِ فِي الْإِيمَانِ هَبَّةً لَا تَعْرِفُ الْوَنَى، وَلَا تَتَّصِلُ بِالْفُتُورِ  
وَالِاسْتِخْذَاءِ، إِنَّهَا أَنْطَلَقَتْ أَشَدَّ مَضَاءً وَأَكْثَرَ آتِدَاعاً، فَقَدْ أَحَسَّتِ الْقُوَّةُ  
بِاعْتِدَادِيَّتِهَا، وَعَمَرَتْهَا مَوْجَةُ الْكِبَرِيَاءِ لِأَتْنَمِ تَحَدُّوْهَا وَاسْتِثَارِوْهَا، وَالْقُوَّةُ، إِذَا  
آسْتُثِيرَتْ، تَنْتَشِرُ طَاقَاتٍ فِي أُخْرَى أَكْبَرَ مِنْهَا، حَتَّى تَشُدَّ الْآفَاقَ وَتَمْلَأَ أَقْطَارَ  
الْفَضَاءِ، كَمَا دَاةُ الْفَحْمِ فِيهَا مَخْزُونٌ مِنَ الْقُوَّةِ، تَعْلُقُ بِهَا شَرَارَةً وَتَتَّصِلُ حَتَّى تُؤَجِّجَ  
بِالشَّرَرِ.

قَالَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْجَدِيدَةُ، بَعْدَ التَّحَدِّيِّ وَاتِّظَارِ الرَّجْعِ، (أَنَا) وَهِيَ شَامِخَةٌ  
بِمَعْنَاهَا، وَوَلَّتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعَتِيقَةُ الْمُتَهَرِّتَةُ مُتَسَاقِطَةً مُتَوَارِدَةً إِلَى أَوْكَارِهَا، وَهِيَ  
شَامِخَةٌ بِخَيَالِ الْمَعْنَى الضَّائِعِ وَالْمُصَادَفَةِ الْعَارِضَةِ، كَالَّذِي تَعْتُرُ بِهِ قَدَمُهُ فَيَهْوِي إِلَى  
حَفِيرٍ فِيهِ كَنْزٌ، فَإِنَّهُ يُحِسُّ بِالْإِزْتِيَاكِ إِلَى مَا صَادَفَ مِنَ الثَّرْوَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُحِسُّ أَبَدًا  
بِفَخَارِ الثَّرْوَةِ، لِأَنَّهَا لَا تَتَّصِلُ بِذَاتِهِ اتِّصَالَ الْإِبْجَادِ، وَإِنَّمَا تَتَّصِلُ بِأَطْمَاعِهِ اتِّصَالَ  
الرَّغْبَةِ بِمَا يُبِيرُهَا وَيُحَرِّكُهَا.

وَكَانَ الْفَرْقُ بَيْنَ الشَّاعِرِ بِمَعْنَاهُ، وَالْغَائِضِ فِيهِ مَعْنَاهُ، كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يَسْقُطُ

(٣) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٠.

في حفير فينسى الألم، ويشتد في إحساس أنه لم يزل حياً وسعيداً التجربة، أو يطمئن في إحساس أنه حي بحياة المبدأ الذي قضى دونه... وبين من يسقط في حفير فينسى الحياة والقوة، ويهون في إحساس جراحاته وكسوره، أو يئأس في إحساس أنه مُضعف بين فكّي العدم الصامت. فأولهما يطرّد ضعفاً بقوة، وثانيهما يضيف ضعفاً إلى ضعف... ومَرَّ على مسرح أحد صورة هذين الرجلين:

«أرسل النبي من يتحث عن سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو، أم في الأموات؟... فنظر فوجد جريحاً وبه رمق في القتل.

فقال له: إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات. قال: أنا في الأموات. فأبلغ رسول الله عني السلام، وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته. وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعداً يقول: ألا إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف»<sup>(٤)</sup>.

كلمات كلها يقين وطمأنان ورضاً بهذا المصير، وهذه النهاية التي يحس أنها كبيرة خالدة.

«قاتل قُزَمان قتالاً شديداً فقتل، وحده، ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة. فأحتمل إلى دار بني ظفر، فجعل رجال من المسلمين يقولون له:

والله لقد أبليت اليوم يا قُزَمان فأبشِر.

قال: بماذا أبشِر، فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي... فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه»<sup>(٥)</sup>.

(٤) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٦.

(٥) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٢.

وسَدَلَ التَّارِيخُ مِنْ دُونِهِمَا سِتَارَهُ وَأَعْلَنَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ: قَضَى أَوَّلُهُمَا دُونَ  
فِكْرَةِ الْعَقِيدَةِ فَكَانَ بَطْلًا وَتَلَفَّعَ بِالْخُلُودِ؛ وَقَضَى ثَانِيَهُمَا دُونَ فِكْرَةِ الْأَحْقَادِ وَنَزَغَاتِ  
الْأَعْصَابِ فَانْحَلَّ بِأَنْحِلَالِهَا، وَتَلَفَّعَ بِالْعَدَمِ.

وَقَفَ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ فِي حَمْرَاءِ الْأَسَدِ وَقَفَّةَ الْأَسَدِ فِي وَثْبَتِهِ الْحَمْرَاءِ،  
وَتَحَدَّى طَوِيلًا، وَرَجَّعَ الْفَضَاءَ دَوِيَّةَ الرَّهِيْبِ، وَصَمَتَ كُلُّ شَيْءٍ، وَبَقِيَ الصَّدَى  
يُعْلِنُ غَلَبَةَ الْإِنْسَانِ الْجَدِيدِ.

لَقَّتِ الْمَدِينَةَ أَيَّامٌ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ سَوَادِ الْأَسَى أَثَرٌ كَبِيرٌ، وَهِيَ إِلَى أَنَّهَا أَيَّامٌ  
تَأْيِينَ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى أَنَّهَا أَيَّامٌ أَحْزَانٍ وَدُمُوعٍ، عَلَى أَنَّ مِنَ الْحُزْنِ مَا هُوَ بِهِيْجٌ وَلَيْدٌ  
شُعُورٍ بِالْإِعْجَابِ، وَمِنْ الدَّمْعِ مَا هُوَ ضَاحِكٌ وَلَيْدٌ شُعُورٍ بِالْأَمَلِ.

حِينَ شَاعَ الْإِيمَانُ، بِمَعْنَاهِ الْهَيَامِيُّ فِي النَّاسِ، شَاعَتِ الْبُطُولَةُ بِمَعْنَاهَا الرَّائِعُ فِي  
الرُّجَالِ وَالنِّسَاءِ جَمِيعًا، وَأَعْطَوْا صُورًا خَالِدَةً تُضَافُ إِلَى أَشْيَاءِ التَّارِيخِ الْكَبِيرَةِ.  
فَكَانَ لَنَا مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، أَبْطَالٌ فِي شَخْصِ الشُّهَدَاءِ كَحَمْرَةَ، وَأَبْطَالٌ فِي شَخْصِ  
الْأَحْيَاءِ كَعَلِيٍّ، وَأَبْطَالٌ فِي شَخْصِ النِّسَاءِ كُنُسَيْبَةَ الْمَازِنِيَّةِ<sup>(٦)</sup>، حَتَّى الطُّفُولَةُ<sup>(٧)</sup> لَمْ  
يَقُتْهَا نَصِيبٌ مِنَ الْبُطُولَةِ...

فِي ظِلَالِ التَّخِيلِ الَّتِي بَدَتْ وَاجِمَةً فِي إِطْرَاقَةِ الْحَالِمِ، كَانَ الشَّاعِرُ يَسْتَوْحِي  
وَيَسْتَلْهِمُ، وَجَرَتْ عَلَى خَدَّيْ حَسَّانٍ بَيْنَ ثَابِتٍ عَبْرَاتُ الْإِعْجَابِ الَّذِي آتُصَلَ

---

(٦) كَانَ مِنْ قِصَّتِهَا أَنَّهَا خَرَجَتْ، فِي يَوْمِ أُحُدٍ، وَمَعَهَا سِقَاءٌ تَشْقِي مِنْهُ الْجُرْحَى وَالزَّيْجَ لِلْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا  
هَبَّتْ عَلَيْهِمْ أَنْحَازَتْ إِلَى النَّبِيِّ، وَبَاشَرَتْ الْقِتَالَ عَنْهُ تَذُبُّ بِالسَّيْفِ وَتَزْمِي عَنِ الْقَوْسِ، حَتَّى حَصَلَتْ الْجِرَاحَةُ  
لَهَا، وَفِيهَا قَالَ النَّبِيُّ: «مَا آتَفْتُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا يَوْمَ أُحُدٍ إِلَّا وَرَأَيْتُهَا تُقَاتِلُ دُونِي، رَاجِعُ: السِّيرَةُ الْحَلِيَّةُ،  
ج ٢، ص ٢٣٠.

(٧) قُتِلَ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ لَمَّا رَدَّهُ النَّبِيُّ يَوْمَ أُحُدٍ لِصِغَرِ سِنِّهِ، وَأَجَازَ رَافِعُ بْنُ خَدَّيْجٍ، قَالَ لِرُؤُوسِ أُمِّهِ: أَجَازَ  
النَّبِيُّ رَافِعًا وَأَنَا أَضْرَعُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ: تَضَارَعَا فَضْرَعُهُ، فَأَجَازَهُ وَضَعَهُ إِلَى الْجَيْشِ. رَاجِعُ: السِّيرَةُ الْحَلِيَّةُ، ج ٢،  
ص ٢٢٠.



بعاطفة مُلتاعة مَحزونة، وكانت نَفْسُهُ مُكْتَظَّةً بِمَشَاعِرِ شَتَّى، آكُتِظَاطَ اليَوْمِ الغابرِ  
بالرَّوائِعِ الخالِدةِ، ومَرَّتْ به نَسَمَاتٌ أَجَاشَتْ عَلَيْهِ شاعِرِيَّتُهُ، فَأَطْلَقَهَا عَلَى هَيْئَتِهَا فِي  
كُلِّ مَجَالٍ.

لَقَدْ كَانَ هَذَا اليَوْمُ مَادَّةَ المَلْحَمَةِ العَرَبِيَّةِ المَفْقُودَةِ، لَوْ تَأَتَّى لِشَاعِرِ خَالِدٍ أَنْ  
يَسْتَلْهِمَهُ، وَيُفَرِّزَ مَا قَدْ طَفَا عَلَى سَطْحِهِ مِنْ رَوَائِعَ، يَنْقُلُهَا نَقْلًا أَمِينًا لَا تَقِلُّ عَنْ رَوْعَةِ  
وَأَقِيعِهَا. فَإِنَّ مَلْحَمَةً تَكُونُ مَادَّتُهَا هَذَا اليَوْمُ تَظَلُّ، بِدُونِ رَيْبٍ، أَدَاةَ بَعْثٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ  
مِنْ أَيَّامِ العَرَبِ والمُسْلِمِينَ، وَتَتَجَدَّدُ كُلَّمَا جَدَّدَ العَرَبُ والمُسْلِمُونَ حَرَكَاتِ الانْبِعَاطِ  
وَعَزَمَةَ التُّهُوِضِ، وَكَانَ أَفْزَرُ مَا تَرَكَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ هَذِهِ الحَقَائِقُ:

إِنَّ نَجَاحَ الأعْصَابِ فِي الكِفَاحِ عَلَى مِقْدَارِ نَجَاحِ الإِيمَانِ مِنَ السَّيْطَرَةِ، وَإِنَّ  
قِيَمَةَ الكِفَاحِ عَلَى مِقْدَارِ قِيَمَةِ الفِكْرَةِ الَّتِي يَحْتَدِمُ مِنْ أَجْلِ تَوْكِيزِهَا، وَإِنَّ الكِفَاحَ  
الظَّافِرَ لَا يَكُونُ إِلَّا حَيْثُ تَكُونُ العَقِيدَةُ الصَّلْبِيَّةُ، وَإِذَا لَمْ يَكُنِ الإِيمَانُ فَلَا يَزِيدُ  
الْكِفَاحُ عَنْ أَنَّهُ فَوْرَةٌ مُتَرَاجِعَةٌ، وَحَرَكَةٌ مُحْتَضِرَةٌ، وَلَا يَزِيدُ هَذَا البَعْثُ عَنْ أَنَّهُ بَعْثٌ  
فِيهِ بُرُودَةُ المَوْتِ وَمَغْزَى الانْجِلَالِ.

وَطَلَعَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي لَذَّةِ إِنْشَائِهِ وَإِنْشَادِهِ، الْحَجَّاجُ بْنُ عَلَاطٍ السَّلَمِيُّ، وَكَانَ  
شَاعِرًا مَفْتُونًا الشَّاعِرِيَّةَ بِبُطُولَةٍ عَلِيٍّ يَوْمَ أُحُدٍ، فَرَاخَ يَفْتَنُّ بِأَلْوَانِهَا وَيَتَغَنَّى بِآيَاتِهَا.  
فَأَوْسَعَ لَهُ حَسَنًا فِي مَجْلِسِهِ، وَقَالَ:

كُنْتُ أَشْتَهِي لِقَاءَكَ مُنْذُ اليَوْمِ، وَأَحْسَبُ مَا يُقَالُ، مِنْ أَنَّ فِي قُلُوبِ الأَخْلَاءِ  
آذَانًا تَتَّصِلُ بِكُلِّ مَا فِي النُّفُسِ مِنْ رَغَبَاتٍ وَخَلَجَاتٍ، وَتُحِسُّ بِهَا لَحِينَهَا، حَقِيقِيًّا  
جِدًّا.

فَقَالَ السَّلَمِيُّ فِي دُعَابَةِ مُفْتَرَّةٍ: وَلَا سِيَّما إِذَا كَانَ الأَمْرُ بَيْنَ شَاعِرَيْنِ  
شَيْطَانَاهُمَا المَعْيَانِ.

فَلَمْ يَبْدُ عَلَى حَسَنانٍ مَا كَانَ يَنْتَظِرُ مِنْ أَثَرِ الدُّعَابَةِ العَارِضَةِ، وَإِنَّمَا أَخَذَهُ إِطْرَاقُ

خاشع، حتى لقد أحسَّ السلمي أنه لا يُشاركه المجلس والحديث.  
فقال له: ما بك؟ أراك كالمأخوذ عن نفسه!

قال حسّان: تعاطمني يوم أُحْدِ بَهاويله، حتى لقد ضاقت شاعريتي ببعض  
ما جَمَعَ، وأحسب أن القول فيه إلهام من الإلهام، وليس شِعْراً من الشُّعْرِ. أما بَلَّغَكَ  
نبأ مُخْيريق؟

قال السلمي: أنبأ إسلامه الذي فاجأ به منذ حين غير بعيد؟  
قال حسّان: كلا، ولكن نبأ استشهاده الرائع الذي جعل نفسي، وكل  
نفس، تذهب في الدهشة كل مذهب.  
قال السلمي: ماذا تقول؟!

قال حسّان: نعم! إنه استبسل دون العقيدة التي عهدا جديدة في قلبه،  
استشهاد من يريد الموت أو الحياة في دنيا الفكر الجديد.

قال السلمي: عجيب أنت يا مُحَمَّد. وعجيب إيمانك الذي يقتل ريس  
النفس، بل النفس، من أقطارها ونواحيها حتى لا يحس المرء بشيء وراء مغناه.  
ونهض الرجلان في استغراق الشاعر حتى أفضيا إلى الحي، وما انتبها إلا  
على حديث الناس «إن النبي لما انتهى إلى أهله ناوَل سيفه أبنته، فقال: أغسلي عن  
هذا دمه يا بُنَيَّة فوالله لقد صدقني اليوم... وناولها علي بن أبي طالب سيفه، فقال:  
وهذا أيضاً فأغسلي عنه دمه فوالله لقد صدق اليوم رسول الله... فقال النبي:  
وصدق اليوم القتال سهل بن حنيف وأبو دجانة».

كانت فاطمة تمرُّ بها هذه الأحداث وهي بمزأى ومسمع، وفي أخشائها<sup>(٨)</sup>

(٨) لا يُظن أن هذا القول يَدْخُلُ في حدّ الخيال الشعري، بل هو حقيقة نفسية تثبت على البحث الجديد،  
فقد قرّر العلماء وراثّة الجنين لكل ما يَخْتَلِفُ ويَتَرَاوَحُ على الأم في دور الحمل من تأثرات ومشاعر  
واخساسات.

رُوحٌ جَدِيدَةٌ تَتَأَلَّفُ أَمْشَاجُهَا، فَكَانَ فِي مُجْمَلَةِ عَنَاصِرِهَا، بَلْ أَكْثَرَ عَنَاصِرِهَا، غُنْصُرُ  
التَّضَحُّيَةِ الدَّامِيَةِ لِلْفِكْرَةِ وَالْعَقِيدَةِ.

وَقَفْتُ فَاطِمَةُ تُزِيلُ أَثَرَ الدِّمَاءِ وَقَدْ ضَمَّتْ سَيْفًا إِلَى سَيْفٍ، أَيْ<sup>(٩)</sup> قُوَّةً إِلَى  
قُوَّةٍ، فَإِنَّ السَّيْفَ رَمْزُ الْعَزْمِ عَلَى الْعَمَلِ، وَكَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ سَيْفَ الْعَقِيدَةِ مُضَلَّتْ فِي  
مَدَى سَيْفِ الْمَبَادِيءِ، وَأَنْتَهُمَا مَعًا يَنْجَحَانِ جَمِيعًا. فَأَحَدُهُمَا سَيْفُ الْمَبَادِيءِ، وَفِعْلُهُ  
فِي الْفِكْرِ، وَثَانِيَهُمَا سَيْفُ الْعَقِيدَةِ، وَفِعْلُهُ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَبِهِمَا تَتَكَوَّنُ الرُّوحِيَّةُ الْعَامَّةُ  
الظَّافِرَةُ، فَكُلُّ مِنْهُمَا يَكُونُ فِي حَاجَةِ الْآخَرِ، وَهُمَا جَمِيعًا فِي حَاجَةِ الْأُمَّةِ إِذَا أُريدَ  
خَلْقُهَا أَوْ بَعْثُهَا مِنْ جَدِيدٍ. فَالنَّبِيُّ حِينَمَا خَلَقَ الْأُمَّةَ جَرَى عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ، وَنَحْنُ  
حِينَمَا نُرِيدُ تَجْدِيدَ الْأُمَّةِ، نَجْرِي عَلَى نَفْسِ الطَّرِيقِ.

ضَمَّتْ فَاطِمَةُ سَيْفًا إِلَى سَيْفٍ، وَكَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ حَرَكَاتِ الْخَلْقِ لَا تَنْجَحُ إِلَّا  
بِقُوَّةِ الْفِكْرَةِ وَقُوَّةِ التَّضَحُّيَةِ لَهَا. وَكَانَ مَعْنَى إِضْلَاطِ النَّبِيِّ سَيْفَهُ أَنَّ صَاحِبَ الْفِكْرَةِ  
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا، وَالْمُكَافِحِينَ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَوْ عَلَى أَمْرٍ صُورَةٍ.

فَتَحْنُ نُجُلٌ مُحَمَّدًا لِرِسَالَتِهِ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، وَنُجُلٌ مُحَمَّدًا لِكِفَاحِهِ وَآسْتِيسَالِهِ  
وَأَلَامِهِ فِي سَبِيلِهَا، إِجْلَالًا غَيْرَ مَحْدُودٍ، فَإِنَّ الَّذِي يُعْطِي فِكْرَةً وَلَا يُوقِفُ كُلَّ أَشْيَاءِ  
حِسِّهِ وَنَفْسِهِ عَلَيْهَا، جِهَادًا وَتَضَحُّيَّةً، يُبْلِلُ فِكْرَ الْجَمَاعَةِ ثُمَّ لَا يُنْقِذُ الْمُجْتَمَعَ، بَلْ  
يَزِيدُ فِي مَعْنَى دَائِهِ، فَإِنَّ فِكْرَةَ الْإِصْلَاحِ لَا تَكُونُ شَيْئًا نَبِيلًا إِذَا لَمْ يَجْعَلْهَا الْكِفَاحُ  
كُلَّ شَيْءٍ.

إِنَّ الْفِكْرَةَ قَدْ تُشِيرُ إِلَى آمْتِيَاظٍ مُلْهِمِهَا، وَلَكِنَّهَا لَا تُشِيرُ إِلَى خُلُودِهِ إِلَّا إِذَا  
تَحَمَّلَ آلَامُهَا. وَقَدْ بَارَكَ اللَّهُ آلَامَ مُحَمَّدٍ الْخَالِدِ حِينَ أَدَّى رِسَالَتَهُ، وَحَمَلَ ثِقْلَ الْكِفَاحِ

---

(٩) إِنَّ السَّيْفَ فِي كَلَامِنَا رَمْزِيٌّ بَحَثٌ، يُشِيرُ إِلَى الْقُوَّةِ، فَسَيْفُ النَّبِيِّ رَمْزٌ لِقُوَّةِ الْمَبَادِيءِ، وَسَيْفُ عَلِيٍّ رَمْزٌ  
لِقُوَّةِ الْعَقِيدَةِ. وَلَا يَتَوَهَّمَنَّ أَنَّ كَلَامَنَا يَدُورُ عَلَى السَّيْفِ، الْآلَةِ الْمَحْدَدَةِ، بَلْ نَعْنِي الْقُوَّةَ الْأَدَبِيَّةَ. هَذَا التَّنْبِيهُ لِكِي  
لَا يَتَوَهَّمُ السُّطَاءُ أَنَّ الْإِسْلَامَ كَانَتْ قَاعِدَتُهُ السَّيْفَ، وَإِنَّا نُهَيِّبُ بِالنَّاسِ إِلَى نَهْضَةِ السَّيْفِ قَاعِدَتُهَا.

والجهاد «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ»...  
والوزر في الآية بمعنى الثقل، وهو ثقل آلام الكفاح بسبيل الرسالة الجديدة.  
وكان وضع الثقل عنه إعلاناً بأن إنسانية محمد أخذت طريق نجاحها،  
وقامت على قاعدتها، ونفت مرارة الدواء أَلَمْ الداء المصيبة الجهاد...  
بعد حين، تراءى أحد للنبي من بعيد، فثار فيه ذكريات عذبة بأشائها  
الكبيرة، وأطياها اللامعة الرائعة...

وكانت هذه الذكريات قد استحالت إلى حين فحُب، جعله رمزاً من  
رموز الانبعاث والانقلاب والتجديد في ضمير المؤمنين الشعيرين...  
فقال النبي يُكْرِمُهُ «إِنَّ أَحَدًا جَبَلٌ يُجِبُّنَا وَنُجِبُّهُ»، يُجِبُّنَا لَأَنَّهُ رَضِيَ عَنِ  
اسْتِيسَالِنَا وَتَبَاتِنَا، وَنُجِبُّهُ لَأَنَّهُ رَمَزُ هَذَا الاسْتِيسَالِ وَهَذَا الثَّبَاتِ...  
وكان النبي «دَشَنَ» بهذا المقال في أحد تمثال الإيمان الشامخ...

\*

كَانَ يَوْمُ أَحَدِ يَوْمِ الشُّهَدَاءِ...  
والشهيد، في سبيل أمة، ذكرى حية في ضميرها، ومادة هامة في كبرياء  
مجدها...  
فيوم أحد يوم الذكريات الحية الخالدة، ولذلك أحبه النبي، ونحن نُحِبُّهُ وَلَا  
نَنْسِي عِظَتَهُ النَّاطِقَةَ فِي الضَّمِيرِ!...  
استحال يوم أحد إلى ذكرى من الروائع...  
واستحالت الذكرى إلى حُب وهيام بالأمجاد، ما دام على الأرض عزب أو  
مُسْلِمُونَ...

وأبرز الغيب، بعد ذلك، روحاً جديدةً، جمعت طائفة هذه المعاني وسمّاها  
النبيّ حسّيناً...

ودار الزّمنُ دورةً قصيرةً، وثار الحسينُ وصوت الحقّ يُدوي في صوته  
المُرسل...

وأنطلقَ الناسُ يقولُ بعضهم لبعض:  
تحرّك اليوم أحدٌ مرّةً أخرى، وثار بُركانُ الإصلاح يُزلزلُ بالحِمَم!...

\* \* \*



## يوم الميلاد

تَنَادَتْ نِسَاءُ الْحَيِّ أَنَّ فَاطِمَةَ جَاءَهَا الْمَخَاضُ، وَكُنَّ يُلْمِئْنَ بِدَارِهَا كَوُكَبَاتِ  
كَوُكَبَاتٍ، وَيَنْتَظِمْنَ هُنَا وَهُنَاكَ كَمَا شَاءَ الْمَجْلِسُ لَهُنَّ. وَمَرَّتْ لَحَظَاتُ أَخَذَتْ  
عَلَيْهِنَّ كُلَّ مَا كَانَ يَبْدُو مِنْ حَرَكَاتٍ شَاءَهَا الظَّرْفُ وَالْبِشْرُ، وَشَمَلَهُنَّ صُمُوتٌ  
خَاشِعٌ فِيهِ بَادِيَةُ الْحَذَرِ، حَتَّى لِيَخَيَّلُ لِلنَّظِيرِ أَنَّهِنَّ دُمَيَّ مُجَنِّحَةٌ تَطْمَحُ إِلَى شَيْءٍ فِي  
غَيْرِ مَرَأَى الْعَيْنِ.

وَكَانَتْ مَيِّمُونَةُ أَخْتُ بِنْتِ عُمَيْسٍ وَخَذَهَا تُرَى غَادِيَّةً رَائِحَةً، وَمَرَّ خَاطِرُ  
أَنْكَرَتْ مَعَهُ مَوْضِعَهَا. فَقَدْ تَرَأَى لَهَا أَنَّهَا فِي مَعْبِدٍ آكُتْظُ بِالْمُجَنِّحَاتِ الَّتِي تُطِلُّ فِي  
صُورِهَا مَلَائِكُ فِي فَرْحَةٍ خَاشِعَةٍ.

وَسَبَّحَتْ مَعَ خَاطِرِهَا وَرَاحَتْ فِي مَقْعَدِ الْأَحْلَامِ، حَتَّى لَقَدْ آنْفَصَلَتْ فَوْقَ  
حُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فَكَانَ لَهَا عَالَمُهَا الْجَدِيدُ الَّذِي يُغَادِيهَا بُرُؤَى يَقْظَى عَلَى  
خُيُوطِ النَّوْرِ.

حَسِبَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَاقِعًا، وَحَسِبَتْ أَنَّهَا تَغْدُو وَتَرُوحُ فِي عَالَمٍ مَا تَرَى. إِنَّهَا  
أَحَسَّتْ بِلَذَازَاتِهِ طَافِحَةً حَتَّى لَقَدْ غَمَرَتْهَا.

لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حُلْمًا، إِنَّهُ لِأَكْبَرُ مِنَ الْحُلْمِ فِي مَذْهَبِ الْحِسِّ  
الْبَادِي... هَكَذَا تَنَاجَتْ فِي حَدِيثِ نَفْسِهَا حِينَمَا أَنْبَهَتْهَا زَغَرْدَاتُ النِّسَاءِ الَّتِي

بَدَأَتْ هَمَسَاتٍ حُلُوءَةً نَاعِمَةً:

فَقَدْ أَسْلَمَتْ فَاطِمَةُ وَلَيْدَهَا...

ولكن أين ما كُنْتُ أرى؟ أين هو أو أين أنا؟! لَسْتُ، لَسْتُ أَذْري. أَحْسَبُنِي  
في مَعْرِضِ الْعَجَائِبِ. أَحْسَبُنِي فِي غُرْسِ الْأَمْلاكِ. حَقًّا إِنَّ لِلْإِنْسَانِ عَوَالِمَ شَتَّى،  
وهو يَعِيشُ فِي أَقْلَهَا تَطَرِيَّةً، أَوْ يَجْعَلُهَا وَاقِعَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ أَقْلَ تَطَرِيَّةً وَبَهْجَاتٍ.  
هُنَاكَ فِي غَيْرِ وَاقِعِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ يُحِسُّ الْإِنْسَانُ بِالْأَشْيَاءِ مُكَبَّرَةً، وَيَتَّصِلُ بِكُلِّيَّاتِ  
مَعَانِيهَا لِأَنَّهُ يُحِسُّ بِكُلِّ نَفْسِهِ، وَأَمَّا هُنَا فَإِنَّهُ يُحِسُّ بِبَعْضِ نَفْسِهِ عَلَى مِقْدَارٍ مَا يَسْغُ  
الوَاقِعَ الْجَامِدُ، وَيَبْقَى كُلُّ النَّفْسِ ظَامِئًا.

لَمْ يَكُنْ مَا رَأَيْتُ حُلُمًا؟ إِنَّهُ خَالَطَنِي حَتَّى لَأَلْمُسُهُ. نَعَمْ. نَعَمْ. لَقَدْ أَدْرَكْتُ  
الآنَ، وَالآنَ فَقَطْ، سِرَّ النُّبُوتِ، وَسِرَّ الْقَدَاسَاتِ، وَسِرَّ الْإِلْهَامِ وَالْهُيَامِ فِي الْفِكْرِ  
وَالْفَنِّ وَالْأَشْيَاءِ... وَإِنْ يَكُنْ حُلُمًا فَلَيْتَنِي أَظْلُ حَالِمَةً، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَكُونَ فِي  
كُلِّ يَوْمٍ مِثْلُ وَلِيدِ فَاطِمَةَ، أَرَى عَلَى وَجْهِهِ أَوْ أَحْلُمُ... هَكَذَا كَانَتْ تَقُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ  
نَفْسِهَا قَبْلَ أَنْ أَنْطَلَقَتْ وَغَابَتْ فِي الْجُمُوعِ الْمَائِجَةِ الْفَرِخَةِ، وَضَاعَ وَقَعَ خُطَاهَا فِي  
الرَّيْنِ الضَّاحِكِ...

كَانَ جَمِيلًا كَخَفَقَةِ الضَّوءِ، وَبَهِيًّا كَقَطْرَةِ النَّدى وَقَدْ تَحَاضَّتْهَا أَكْمامُ الزَّهْرِ،  
حَتَّى لَكَأَنَّهَا فِي جَوْ أَحْلَامٍ ذَابَتْ فِيهِ النَّسَوَاتُ، وَاسْتَحَالَتْ إِلَى أَرِيحٍ تُهْدِيهِهُ أَيْدِي  
النَّسِيمِ، وَكَانَ لِأَلَاءِ كَرْزُبَقَةِ الْغُورِ وَقَدْ مَصَّتْ إِشْرَاقَةَ الْغُرُوبِ الَّتِي خَلَفَتْ فِيهَا  
الشَّمْسُ ذِكْرَهَا السَّعِيدَةَ إِلَى اللَّيْلِ، وَكَانَ مِلءُ الْعَيْنِ وَالْهَوَى، حَتَّى لَقَدْ قُلْنَ: إِنَّ  
الْجَمَالَ آخِضِرَ بِهِ، أَوْ إِنَّ سَنَا الْوُجُودِ الْمَفْرُوقَ جَمِيعَ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ تَحُوطُهُ، إِلَى ذَلِكَ،  
هَالَةً مُشِعَّةً، فِيهَا جَلَالُ الثَّبُوءِ وَجَمَالُ الطُّهْرِ الْبَرِيِّ، وَكَانَ عَابِقًا كَأَنَّ السَّمَاءَ  
أَطْلَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ بِالْأَرِيحِ.

خَرَجَ الحُضُورُ عَنْ صُموثِيهِم، وَغَمَرَتِ الأَثِيرَ مَوْجَةُ بِشْرِ ظَاهِرَةٍ خَفَقَ لَهَا  
خَفَقَاتٍ كَانَتْ مُؤَذِّنَةً بِالوَلِيدِ السَّعِيدِ...

بَرَزَ النَّبِيُّ (ص) وَسَطَ الجُمُوعِ كَمَا تَبْرُزُ المَنَارَةُ وَسَطَ الضُّبَابِ، هَادِيَةً  
بُشْعَاعَتِهَا المُسْتَطِيلَةَ فِي آنِبَتَايِ وَتَدْفُقِي، وَأَخَذَ وَلِيدُهُ السَّنِيَّ يَدَيْهِ كَانَتْ حَرَكَاتُ  
أَنَامِلِهِمَا تُعَبِّرُ عَنْ قَوَظِ الشُّرُورِ، وَحَنَا عَلَيْهِ حُخُوَ المُرْضِعِ يَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ كَلِمَةَ  
الإِسْلَامِ الشَّامِخَةَ «اللَّهُ أَكْبَرُ! اللَّهُ أَكْبَرُ!».

وِغَامَ عَلَى مَيِّمُونَةٍ، فَقَدْ كَانَتْ اليَوْمَ فِي حَسَابِيَّةٍ جَدِّ نَافِذَةٍ. وَشَعَرَتْ حِيَالُ  
هَذَا المَشْهَدِ أَنَّ الأَحْيَاءَ بَنَزَعَاتِهِمْ هُمْ ضَبَابُ الحَيَاةِ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مُطْبِقًا دَاكِئًا،  
حَتَّى لَتَبَدُو الحَيَاةُ نَفْسُهَا كُرَّةً مِنَ الضُّبَابِ، تَدُورُ فِي مِثْلِ حَرَكَةِ الإِعْصَارِ هَادِرَةً بِمَا  
فِيهَا مِنَ الأَهْوَاءِ. وَلَكِنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ وَرَائِهَا فَتُبْخِرُ مَا آسَتَوَى فِيهَا وَتَرَكَبَ  
عَلَيْهَا وَعَلِقَ بِأَنْحَائِهَا، وَتَمُدُّهَا بِمَعْنَى الضِّيَاءِ فَتَغْدُو مُزْدَهِيَّةً مُتَأَلِّقَةً، وَيَخْشَعُ الإِنْسَانُ  
عِنْدَهَا فِي مِخْرَابِ اللَّهِ الأَزَلِيِّ. إِنَّهُ خَرَجَ مِنَ التِّيهِ، وَنَفَضَ غُبَارَ البَيْدَاءِ، وَآسْتَعْلَى  
عَلَى السَّرَابِ.

أَفْ... لِلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الحَيَاةَ ضَبَابٌ مُتَشَتِّرٌ فِي آفَاقِ هَذَا الوجودِ، وَالإِنْسَانُ  
يَطْفُو وَيَرْسُبُ مُغْمَضَ العَيْنَيْنِ... إِنَّ وُجُودَهُمْ لَمْ تُشْرِقْ عَلَيْهِ هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي  
تَغْمُرُنَا بِشُعَاعِهَا، إِنَّ صُورَةَ الحَيَاةِ فِي خِيَالِ الأَعْمَى مَلَأَى بِالظُّلَامِ، وَفِي خِيَالِ  
الأَعْمَى مَلِئَةٌ بِالرَّمَادِ أَوْ الضُّبَابِ، وَلَكِنْ هَلِ الحَيَاةُ كَمَا تَنعَكِسُ فِي مَرَائِيهِمِ  
المُتَحَجِّبَةِ؟ إِنَّ شَمْسَ النُّبُوَّةِ، وَفِيهَا المَعْنَى الأَتَمَّ المُشْرِقُ لِلإِنْسَانِيَّةِ وَالحَيَاةِ، لَمْ تَسْطَعْ  
فِي سَمَاوَةِ فُضَائِهِمْ.

هَنَا، وَفِي هَذَا المَكَانِ، أَجَدُ حَقِيقَةِ الحَيَاةِ العَارِيَّةِ تَحْتَ يَنْبُوعِ النُّبُوَّةِ وَشُعَاعَتِهَا  
الْخَالِدَةِ... هُنَا، وَفِي هَذَا المَكَانِ، حَيْثُ يُبَارِكُ النَّبِيُّ إِنْسَانِيَّةً جَدِيدَةً وَيَتَفَرَّغُ مِنْهُ رَافِدٌ  
نَمِيرٌ وَتَمُدُّ فَوَازٍ فِي صُلْبِ الإِنْسَانِيَّةِ الْحَيَّةِ، فِي دِمَائِهَا المُنْصَبَّةِ إِلَى بُحَيْرَةِ المُسْتَقْبَلِ

البعيد القرار، يجدُ الظَّماءُ ما يُبْرِدُ حرارةَ عُقولِهِم وقلوبِهِم، يجدونَ التَّبوعَ الذي حَجَبَهُم عنه سَرابُ الفِكرِ المدخول... .

قالَ قائلٌ في الظُّلام - والنَّاسُ يَخْرُجُ أَحَدُهُم في إثرِ الآخرِ - إيه أبا رافع... .  
ورَبَّتْ على كَتِفِهِ: أَرَأَيْتَ أَعْجَبَ مِنَ اليَوْمِ، النَّبِيُّ يُسِرُّ في أُذُنِ الوليدِ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ شيئاً!... .

قالَ أبو رافع: نَعَمْ. إِنَّهُ «أَذَنَ في أُذُنِهِ كَمَا يُؤَذِّنُ للصَّلَاةِ».  
قالَ الرَّجُلُ: ولكنْ أترى أنَّ لَهُ نَفْساً مُدْرِكَةً تَعِي ما يُقالُ لها وما تُخاطَبُ

به؟

قالَ أبو رافع: نَعَمْ. وماذا تَظُنُّ أَنْتَ؟ لَعَلَّكَ أَنْصَرَفْتَ بِظَنِّكَ إلى أنَّ نَفْسَ الوليدِ خَلَاءٌ مِنَ القُوَى، إنَّ كانَ ذاكَ فَبُعْدَ ما تَظُنُّ. إِنَّها واعيَّةٌ كَأَنَّما ما تَكُونُ نَفْسٌ مِنَ الوَعِيِّ، ولكنها غائِمَةٌ بما في التَّركيبِ العُضُويِّ مِنَ الوَهْنِ وَضَعْفِ الحَسَاسِيَّةِ.  
والنَّبِيُّ تَوَجَّهَ إلى هذا الوَعِيِّ وهو في أَكْمامِهِ ليَضَعَ فيه شيئاً خالِداً، ليَضَعَ فيه كَلِمَةَ اللَّهِ، فلا يَحُولُ عنها ولا يَزُولُ مهما أَضْطَرَّتْ عليه بَواعِثُ الشَّبَابِ، وَأَضْطَرَمَّتْ فيه نَزَواتُهُ، لأنَّها سَوَفَ تَأْسِرُهُ بِحَنِينِ الرَّجَعِ البعيدِ.

إنَّه وَضَعَ، في آخِرِ مَرَحَلَةِ التَّحَلِّيِّ وَأَوَّلِ مَرَحَلَةِ التَّفَتُّحِ والازْدِهارِ، عَبَقَ المَثَلِ الإلهيَّةِ، عَبَقَ الحَقِيقَةِ المُطْلَقَةِ، الَّذِي يَنْفُخُ ولا يَنْقَطِعُ، الَّذِي يَفِيضُ ولا يَغِيضُ... تَمَرُّ به الأهُويَّةُ الهادِرَةُ آلهابُهُ فلا تُغَيِّرُ فيه وإِنَّمَا يُغَيِّرُ فيها، بما يُحْمَلُها من أريجِ الفَوَاحِ، فَتَعْدُو وقد فَقَدَتْ ما تُنذِرُ به بما تُبَشِّرُ، إِنَّها حَمَلَتْ رُوحَ الزَّهْرَةِ في الحَقْلِ... .

إنَّ النَّبِيَّ، لَنَا اليَوْمَ، زَهْرَةُ الحَقْلِ، وهو يَمُدُّ يَدَهُ في أَحْشاءِ الزَّمانِ بِزَهْرَةِ حَقْلِ المُسْتَقْبَلِ، فَعَسَى أَنْ يَثْرُكَها الإنسانُ تُضْمَخُ فضاءَ العُورِ في عَيْنِ الشُّروقِ والغُروبِ، ولا تَلْتَفُّ عَلَيْها أَفْعَى الشَّهَواتِ فَتَقْضُمُها، إِنِّي لَحَذِرٌ، إِنِّي... تَلْعَثُ، وَوَضَعَ يَدَهُ

على قلبه مخافة الشقوط، وأغمض عينيه في خيال رهيب.

وكان أبو رافع مولى للنبي، فلم يطق ما مرّ بخياله، وتحامل على صاحبه مدة ظلّ فيها صامتاً صموت الليل الذي تزيد في رهبتيه أصوات متقطعة للذئاب.

وشمل الرجل تيار أبي رافع فاستغرق في وجوم، وسارا يقطعان الليل في خطوات تعبّ عن أنها ذاهلة لا تقصد إلى شيء ولا تتصل بما تنتهي إليه. وما استفاقا إلا على صوت الإنسان في الغلس ينادي بكلمة الله الأرواح الشاردة الهائمة. واختلط الصوت بشكون الليل فعبر عن أنه قال كلمته، واستحال صدى فيه شروء الشكون.

خفّ الناس من كل مكان، وفي أعينهم بقايا الحلم السادر، متوافدين مع النداء إلى حيث يمتزجون بالجهول، إلى حيث يصحّحون ضمائرهم في عمل الحياة، إلى حيث يجددون عقودهم مع الله على الخير والحب والمثل، بجعلها مبدأ عمل وواقع حياة... مدّ الرجل خطاه وهبّ يطلب ما يطلب سائر الناس.

قال أبو رافع: على رسلك يا هذا، إننا لم نزل في صلاة منذ خطونا!

قال الرجل: والآن نصلي صلاة بصلاة<sup>(١)</sup>.

---

(١) لا ريب في أن الصلاة عقد (كونترا)، بين الله والإنسان. وإذا تأملنا الفاتحة نجد فيها شروط عقد متبادل. وعلى ضوء هذه الملاحظة يتكشف لنا سرّ تكرار الصلاة اليومية، على الشكل المعروف في الإسلام، وجعلها ليلية ونهارية. وهذا السرّ هو تجديد العقد وتوكيده، حتى لا تضعف فعاليته، وحتى لا تمرّ بالمزى ساعات فتور واسترخاء يجعل فيها بأحكام العقد، فيظلّ بذلك دائماً طرّفاً في عقد جديد. وكما هو معروف على البحث أن الضمير والوجدان والعقائد تتولد من التكرار والتلقين، والصلاة صيغة تلقين وعملية تكرار معاً. هذا فهمنا للصلاة في الإسلام من ناحية عملية. وأما هي من ناحية فلسفية فإنها أصح طريقة وأسلوب، وأصح شكل وصيغة لما يُسميه ساندerson، أحد علماء النفس التطبيقي، معتد الرؤية، هذا المعتقد الذي يتأمل فيه المرء منفرداً، ويخشع مستغرقاً متفكراً، وهو يرى أنه لا صلاح للفرد، وبالتالي للجماعة، إلا بمعتقد الرؤية، أو ساعة التأمل اليومية، وقد ضمنها الإسلام على شكل مذهبي من التكرار في صخب النهار وفي هدوء الليل، وكان الإسلام بصلاة النهار ينزع الإنسان آنزاعاً ليفرقة في التأمل والإشراق ولو للخطاب.



قال أبو رافع: نعم. ولكن رُوِيْدَكَ، فإن النبي رأى جماعةً تتراكمُ إلى الصلاة، فقال: «ليأت أحدكم الصلاة هُوناً». وهو يُشيرُ بهذا إلى أن الصلاة لا تكون واعيةً إلا إذا تلبَّستَ فكرَ فاعِلِها ونَفْسَه، فهي ليستَ عملاً خالصاً بل فكراً في العمل، وبذلك يكون لها عملٌ في الفكر، والإعجالُ يُضِيعُ على الفكرِ أطْراده وأنسجامه. والنبي يُريدنا أن نبدأها صلاةً بالفكر، صلاةً بالروح، وإلا فهي صلاةٌ شاردةٌ غَيْرُ واعيةٍ، لروح أكثرِ إمعاناً في الشُّرود.

قال الرجلُ: إن حديثك ملكٌ عليّ نفسي منذُ الليل، ولقد مازجتني حشرةٌ حينَ قَطَعَ الوجومُ عليك الحديث.

قال أبو رافع: لعلَّ صلةَ الحديث، الذي آنقَطَعَ بيننا، تجرُّ الشُّجونَ إلى استِدراكِها يوماً منَ اليوم.

قال الرجلُ: ولكنني أجدُ في نفسي أَسْرَ الحديثِ ومدَّ الداعيةِ إليه، ولعلَّ نفسي لا تجتمعُ كما اجتمعتُ عليّ الليلةُ منَ أقطارها. وأجدني أشدَّ ما أكونُ أنصرفاً إلى مغزى الأذانِ في أذنِ الوليدِ، ومغزى الأذانِ الذاهِبِ كُلَّ يومٍ، مرَّاتٍ فوقَ ضجيجِ الحياةِ وصخبِها، الأذانِ القارعِ في دُنْيا الأباطيلِ.

قال أبو رافع: إنني لم أزلُ أخشعُ تحتَ ذكري الرناتِ الهامِسةِ التي أرسلها النبي في أذنِ وليده، لتكونَ كلمةُ الله أوَّلَ شيءٍ يتمدَّدُ في فضاءِ تلكَ الروح، وأوَّلَ شيءٍ تتموَّجُ به وتشتَمِلُ عليه. وبذلك يبقى فضاءُها خالياً منَ الضبابِ، فلا تمرُّ به حلُكةٌ قائمةٌ، ولا تجثمُ فيه ظلاميةٌ أو دُجنةٌ، فيتكوَّرُ فضاءُ الروحِ تكوُّرَ الفلكِ على الشمسِ.

والأذانُ الذي يُقصدُ به إلى الروح لا تكونُ فيه ألفاظُ الأذانِ بل روحانيَّتهُ، لأنها تسمو، بمحلِّها ومُسْتَوَاهَا، عن الألفاظِ ومذاهبِها في التعبيرِ، هذه الألفاظُ التي

تُؤَلَّفُ كائناً آلياً لا حِسَّ فيه، وَاسْتَأْتَى بِهِ الْإِنْسَانُ إِلَى إِكْمَالِ آيَةِ الْحَيَاةِ وَحَرَكَاتِهَا الرُّتَبِيَّةِ. وَلِذَا ظَلَّ كَائِنُنَا الدَّاخِلِيُّ الْمَجْهُولُ أَكْثَرَ أَنْفِعَالاً بِالْمَعَانِي الْمُطْلَقَةِ عَنِ الْأَدَاءِ، كَالْأَلْحَانِ الَّتِي هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا مَعَانٍ لَمْ تَسْتَحْجِزْ، فَتَتَّجِهْ إِلَى إِحْسَاسِ الرُّوحِ قُدُماً فَتَمَوَّجُ بِهَا سَرِيعاً، بَيْنَمَا الْأَدَاءُ الْآلِيُّ (الْأَلْفَاظُ) يَمُرُّ فِي الْفِكْرِ وَمَا وَرَاءَهُ مِنْ مَعَايِرَ، حَتَّى يَتَجَرَّدَ<sup>(٢)</sup> وَيَسْتَحِيلَ مَعْنَى مُطْلَقاً فِي إِحْسَاسِ الرُّوحِ.

فَهَذِهِ الرُّوحُ الْجَدِيدَةُ، الَّتِي لَمْ تَحُلَّهَا آيَةُ الْحَيَاةِ الْمُخْتَرَعَةُ بَعْدُ بِأَشْيَائِهَا، وَالَّتِي لَا تَزَالُ غَضَّةً، لَمْ تَتَحَجَّزْ أَطْرَافُهَا، تَمَوَّجَتْ أَوَّلَ مَا تَمَوَّجَتْ، وَاتَّسَعَتْ أَوَّلَ مَا اتَّسَعَتْ، لِكَلِمَةِ اللَّهِ الْخَالِدَةِ. فَمَهْمَا مَرَّ بِهَا مِنَ الْعَوَاصِفِ الْمُتَنَازِلَةِ لَنْ تَنْطَلِقَ مَعَ الْهَوَى. إِنَّهَا بِجَاذِبِيَّةِ الْكَلِمَةِ الْأُولَى، وَهِيَ، إِذَا رَمَتْ بِالزَّبَدِ، فَلَنْ يَكُونَ إِلَّا حَبَابَ الْمُثُلِ الْمُتَرَكَبِ، فَإِنْسَانِيَّةُ هَذَا الْوَلِيدِ السَّعِيدِ جَاءَتْ كَمَا شَاءَتْ النَّبُوءَةُ.

إِنِّي لَا تَمُرُّ بِي ذِكْرَى الْأَذَانِ فِي أُذُنِ الْوَلِيدِ إِلَّا وَأُنْخَشِعُ مَعَهَا، إِنَّهَا تَفْعَلُ بِي فِعْلاً عَنِيفاً وَعَمِيقاً، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ أُطَوِّعُ أَلْفَاظَ اللُّغَةِ لَتُعَبِّرَ عَنْهَا...

فَصَلْتُ مُنْذُ بَعِيدٍ وَأَنَا دَهْشُ بِالْأَذَانِ الَّذِي يَغْلُو لِي مُذَكِّراً الْحَيَاةَ بِقَاعِدَتِهَا، وَالْإِنْسَانِيَّةَ بِأَنْبِلِ مُثْلِهَا الْخَوَالِدِ، وَيُضْغِي الْوُجُودَ إِلَى كَلِمَةِ اللَّهِ فِي فَمِ الْإِنْسَانِ كَأَنَّهُ يَشْهَدُ.

وَعَلَا ضَجِيجُ النَّاسِ بِالتَّكْبِيرِ، وَكَانَا قَدْ بَلَّغَا بَابَ الْمَسْجِدِ فَانْتَضَمَا فِي صُفُوفِ الْمُصَلِّينَ، وَعَادَ الْكَوْنُ إِلَى صُمُوتِهِ يُضْغِي إِلَى صَوْتِ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ فِي أُذُنِ الْفَجْرِ يَقْرَأُ:

(٢) تَوَجَّدُ أَلْفَاظُ فِي اللُّغَةِ لَمْ تَسْتَحْجِزْ بِمَا أَغْدَقَ عَلَيْهَا الشُّغُورُ، حَتَّى لَتَتَّصِلُ بِمَا وَرَاءَ الْقُوَى الْوَاعِيَّةِ، وَتَعْرُكُهَا رَأْساً بِدَوْنِ أَنْ تَمُرَّ فِي الْفِكْرِ، كَأَلْفَاظِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْحُبِّ. وَهُنَاكَ أَلْفَاظُ تَتَّصِلُ بِمَوَاطِنِ الْحَيَاةِ وَتُؤَثِّرُ مُتَخَطِّئَةً الْفِكْرَ أَيْضاً، أَوْ تَمُرُّ بِهِ مَرّاً سَرِيعاً، وَهِيَ أَلْفَاظُ الْغَرَائِزِ وَمَا إِلَيْهَا، وَنُسَمِّيَهَا لُغَةً حَيَوِيَّةً. وَمَا بَقِيَ مِنْ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ الْأُخْرَى فَهِيَ أَلْفَاظُ فِكْرٍ، لِأَنَّهَا تُؤَثِّرُ عَنْ طَرِيقِهِ، وَنُسَمِّيَهَا لُغَةً آيَةً مُسْتَحْجِرَةً.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ  
الدُّعَاءِ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ».

\*

في حَقْلِ الْبَشَرِيَّةِ الشَّائِكِ، غَرَسَ النَّبِيُّ نَوَاةً...  
عَمِلَتْ فِيهَا التَّوَامِيصُ، فَبَرَزَتْ زَهْرَةٌ لَمْ تَتَفَتَّقْ عَنْهَا الْأَكْمَامُ...  
وَمَسَحَهَا النَّبِيُّ بِيَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا، فَتَوَرَّتْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ...  
وَمَاسَتْ فَوَاحَةً تَمْلَأُ الْحَقْلَ بِالْعَبِيرِ، حَتَّى لِيُخَيَّلُ أَنَّ الْحَقْلَ زَهْرٌ كُلُّهُ!...

\*

قَصَدَتْ إِلَيْهَا، مِنْ بَعِيدٍ، أَفْعَى فَاحِمَةٌ لَمَّا عَةُ الْأَدِيمِ...  
وَكَانَتْ تَفُحُّ فَحِيحاً لَاهِباً، وَيُؤْجُّ مِنْ فِيهَا الْحِمَمُ...  
وَالْتَفَّتْ عِنْدَ أَصْلِ الزَّهْرَةِ، وَتَكَوَّرَتْ كَعُقَدِ الْقَضَاءِ...  
وَفِي هَذَاةِ اللَّيْلِ، حِينَ كَانَ الْكَوْنُ فِي سُباتٍ قَصَمَتْهَا...  
وَعَادَتْ وَقَدْ عَادَ الْحَقْلُ شَوْكاً مُلْهِباً، وَغَدَتْ زَهْرَةُ الْحَقْلِ ذِكْرَى رَمَزٍ  
سَعِيدٍ!...

زَهْرَةٌ كَانَتْ مِنْ صُنْعِ الثُّبُوءِ فِي آفِتْنَانِهَا وَسُمُوءِهَا...  
وَالثُّبُوءُ شُعْلَةٌ فِي الْحَيَاةِ، وَشَفَقٌ فِي الْفِكْرِ لَا يَتَنَاهَى مَدَاهُ...  
وَزَهْرَةُ الْحَقْلِ نَثْرَهَا بَاطِلُ الْإِنْسَانِ، وَلِكِنَّهَا آجَتَمَعَتْ فِي الذِّكْرَى الْخَالِدَةِ...  
فَقَدْ غَرَسَتْهَا ثُبُوءُ صَنَاعٍ، وَالثُّبُوءُ لَا تَحُورُ!...

\*

زَهْرَةٌ وَضَعَتْ فِيهَا اللَّانْهَيَّةُ أَسْرَارَهَا...  
فَلَبِثْتُ رُغْمَ بَاطِلِ الْإِنْسَانِ وَلَنْ تُدْرِكَهَا نِهَايَةٌ...  
وَحَارَ الْبَاطِلُ إِلَى رَمَادٍ فِي زَوْبَعَةِ الرِّيَّاحِ!...

\*

تَحَوَّلَ الْبَاطِلُ، فَكَانَ ظِلَالُ الْحَيَاةِ...  
وَتَحَوَّلَ الْحَقُّ، فَكَانَ شَمْسُ الْحَيَاةِ...  
وَأَخِيرًا، وَبَعْدَ حِينٍ، ضَاعَ الظُّلُّ فِي الشَّمْسِ!

\* \* \*

## مشاهد

مَضَى، بَيْنَ يَوْمِ الْمِيلَادِ وَهَذَا الْيَوْمِ الَّذِي تَقَاطَرَتْ فِيهِ زَرَافَاتُ النَّاسِ مِنْ كُلِّ  
مَكَانٍ، أُسْبُوغٌ مُتَأَلِّقٌ وَضِيءٌ كَأَنَّمَا تَنْفَسَتْ فِي جَوْهِ السَّعَادَةِ، وَطَفَرَتْ مِنْ أَعْمَاقِ  
الْحُلُمِ لَتَمُوجَ فِي وَاقِعِيَّةِ الْجُمُوعِ وَدُنْيَا الْحَيَاةِ.

كَانَ الْبَصَرُ يَذْهَبُ مَذَاهِبُهُ ثُمَّ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى أَوْزَاعِ مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ،  
فَقَدْ حَفَلَ النَّبِيُّ بِسَابِعِ أَيَّامٍ وَلِيدِهِ وَعَقَّ عَنْهُ.

إِفْتِدَاهُ بِكَبْشٍ ذَهَبَ خَيْرُهُ فِي أَشَابَةِ الْفُقَرَاءِ، وَكَانَ مَغْزَاهُ أَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمِثَالِيَّةَ  
السَّامِيَّةَ، أَوَّلُ مَا تَقُومُ عَلَيْهِ هُوَ إِهْرَاقُ النَّزَوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَنَزَعَاتِ ضَرَاوَتِهَا، مُجْتَمِعَةً  
فِي حَيَوَانٍ يُهْرَاقُ. فَإِذَا كَانَ فِي نَحْرِ الْحَيَوَانِ مِنْ أَجْلِ الْغِدَاءِ مَعْنَى الْجَسَدِ وَتَوْكِيدُ  
أَنَّهُ حَيَوَانٌ قَرِيمٌ، فَإِنَّ فِي نَحْرِ الْحَيَوَانِ مِنْ أَجْلِ الْغِدَاءِ مَعْنَى الرُّوحِ الْمُتَسَامِيَّةِ إِلَى  
الْعَلَاءِ، وَكَانَ وَحْيٌ وَإِشَارَةٌ لَشَيْءٍ آخَرَ مُتَرَتِّبٍ تَرْتَّبُ النَّتَائِجُ عَلَى الْمُقَدِّمَاتِ: الْحَيَوَانُ  
يُقْدَى بِهِ الْإِنْسَانُ الشَّاعِرُ بِمَعْنَاهُ، لِيَتَعَلَّمَ هَذَا الْإِنْسَانُ كَيْفَ يَقْدِي فِكْرَةَ الْإِنْسَانِيَّةِ  
وَكَيْفَ يُضْحِي بِسَبِيلِ مِثَالِيَّاتِهَا.. وَلِذَا لَمْ يَجِدِ<sup>(١)</sup> الْمُكَافِحُونَ الْمُسْتَبْسِلُونَ، إِلَى

(١) كَانَ مِنْ عَادَةِ الْجُنُودِ فِي الْقَدِيمِ نَحْرُ حَيَوَانٍ تَحْتَ الْعَلَمِ، وَعَلَى مَرَأَى مِنَ الْجُنْدِ، وَيَقِيْتُ هَذِهِ الْعَادَةَ حَتَّى  
رَمَنِي مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ بِأَشَا خِدْيَوِي بِضَرِّهِ.



زَمَنٍ قَرِيبٍ، رَمَزاً لَصِدْقِ الْكِفَاحِ الدَّامِي وَلِلْأَرْتِكَاضِ إِلَى الْمَوْتِ سِوَى إِهْرَاقِ حَيَوَانٍ  
بَيْنَ يَدَيِ الصُّرَاعِ، مُشِيرِينَ إِلَى الْمَصِيرِ وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ.

وَطَبِيعَتُهُ جُمُوعُ الْفُقَرَاءِ لِيَكُونَ مَعْنَاهُ أَنَّ تَضَحِيَّةَ الْإِنْسَانِ جَانِبَ الْحَيَوَانِيَّةِ فِيهِ،  
كَيْ يَمْلَأَ الْفَرَاغَ فِي هَذَا الْجَانِبِ بِجَمَاعَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْمَحْرُومَةِ، فَيَجِدَ فِي شُعُورِهِمْ  
شُعُورَهُ، وَفِي آلَمِهِمْ أَلَمَهُ، وَفِي سَعَادَتِهِمْ سَعَادَتَهُ. فَقَدْ مَرَّجَهُمْ بِنَفْسِهِ وَخَلَطَهُمْ  
بِهَوَاهُ، وَقَامَتْ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ عَلَى ثُنَائِيَّةٍ مِنَ الْفَرْدِيَّةِ الْمُهَذَّبَةِ وَالْغَيْرِيَّةِ النَّبِيلَةِ،  
يَجِدُ فِي طَبِيعَتِهِ سِرَّ الْجَمَاعَةِ، وَفِي الْجَمَاعَةِ سِرَّهُ، وَبِهَذَا يَتِمُّ التَّوَاضُّلُ الْإِنْسَانِي  
الصَّحِيحُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ خَيَالِيًّا، وَكَانَ فِي وَلِيدِ النَّبِيِّ وَاقِعًا.

طَبِيعَةُ سَمَتْ عَنِ الْأَنَانِيَّاتِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ اسْتَطَاعَ، فِي مُجْتَمَعِهِ، أَنْ يُذَيِّبَ «أَنَا»  
فِي «نَحْنٍ»، وَحَارَبَ طَوَالَ جِهَادِهِ الَّذِينَ أَذَابُوا بِأَحَابِيلِهِمْ «نَحْنُ» فِي «أَنَا»، فَكَانَ  
لِكُلِّ أَمْرٍ فِي مُجْتَمَعِ مُحَمَّدٍ أَنْ يَقُولَ «نَحْنُ» وَلَيْسَ فِيهَا كِبَرِيَاءُ الْفَرْدِيَّةِ وَغُثُوها،  
وَأَمَّا فِيهَا نُفُلُ الْغَيْرِيَّةِ وَوَحْدَتُها، وَأَشْتِرَاكِتُها وَتَعَاوُنُها.

وَقَدْ تَرَكْتُ ذِكْرَ هَذَا الْفِدَاءِ فِي طَبِيعَتِهِ، بَعْدَ أَنْ اسْتَوَى رَجُلًا، رَمَزَهَا  
الْإِنْسَانِيَّةُ وَمَعْنَاهَا النَّبِيلُ. فَلَمْ يُبَالِ تَحْتَ ذِكْرَاهُ أَنْ يُحَقِّقَ فِي ذَاتِهِ مَعْرَاهُ، وَأَنْ يُقَدِّمَ،  
فِي نَفْسِهِ، فِدَاءَ الْفِكْرَةِ الَّتِي إِذَا تَجَرَّدَ الْإِنْسَانُ مِنْهَا عَادَ مَخْلُوقًا بَغِيضًا، يَنْحَطُّ عَنْ أَنْ  
يَكُونَ فِدَاءَ الْحَيَوَانِ ذِي الطَّبِيعَةِ السَّاذِجَةِ، وَفِيهَا إِثَارٌ دُونَ قَصْدٍ، وَفِيهَا قَنَاعَةٌ دُونَ  
شُعُورٍ، وَفِيهَا رَغَبَاتٌ<sup>(٢)</sup> قَاصِرَةٌ.

---

(٢) نَقِي بِالرَّغَبَاتِ الْقَاصِرَةِ أَنَّ الْحَيَوَانَ يَنْفَعِلُ بِبَاعِيَةِ الْغَرِيَّةِ كَالْجُوعِ، فَإِذَا سَقَطَ عَلَى طَعَامٍ تَنَاوَلَ مِنْهُ  
حَاجَتَهُ، وَغَفَّ عَنِ الْبَاقِي، بَيْنَمَا الْإِنْسَانُ يَتَنَاوَلُ حَاجَتَهُ، ثُمَّ تَتَحَرَّكُ فِيهِ رَغْبَةُ النَّهْمِ حَرَكَتُهَا فَتَحْمِلُهُ عَلَى  
أَدْخَالِ مَا فَضَّلَ عَنْهُ دُونَ الْآخَرِينَ. فَلَدَى الْحَيَوَانِ إِثَارٌ دُونَ شُعُورٍ، وَبِالْجُمْلَةِ تَكُونُ رَغَبَاتُهُ قَاصِرَةً، بَيْنَمَا  
رَغَبَاتُ الْإِنْسَانِ سَرِهَةٌ مُسْتَحْوَذَةٌ. وَالتَّنَاحُرُ لَدَى الْحَيَوَانِ عَلَى الْمُقَوِّمَاتِ الْحَيَوِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا حِينَ الشُّعُورِ  
بِبَاعِيَةِ الْغَرِيَّةِ وَالْحَاجَةِ، وَلَكِنَّ التَّنَاحُرَ لَدَى الْإِنْسَانِ عَلَيْهَا قَائِمٌ عَلَى أَدْخَالِهَا شَرَهَا وَآحْتِيَازًا، فَكَانَ الْحَيَوَانُ  
بِالطَّبِيعَةِ أَفْضَلَ مِنَ الْإِنْسَانِ.

أَشْرَفَ النَّبِيُّ فِي هَئَاءِ الْجُمُوعِ وَبِهَاءِ الْحَفْلِ، قَالَ:

«أَرُونِي آئِنِّي مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟»

قَالَ عَلِيٌّ: سَمَّيْتُهُ حَرْبًا.

فَقَالَ: بَلْ هُوَ حُسَيْنٌ!».

تَهَامَسَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ: سَمَاءُ النَّبِيِّ حُسَيْنًا، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي سَمِيَّتِهِ وَنَفْسِهِ.

قَالَ عِمْرَانُ بْنُ سُلَيْمَانَ: هُوَ كَذَلِكَ حُسَيْنٌ، وَلَكِنْ فِيهِ مَعْنَى التَّكْبِيرِ.

فَقَالَ قَائِلٌ لَهُ: لَكَأَنَّ النَّبِيَّ كَرِهَ أَسْمَ حَرْبٍ.

قَالَ عِمْرَانُ: نَعَمْ. إِنَّ الْحَرْبَ شُدُودٌ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ يُصِيبُهَا بِالْإِنْتِكَاسِ، وَالنَّبِيُّ نَصِيرُ الْإِنْسَانِيَّةِ، يَكْرَهُ مَا هُوَ مِنَ الْحَرْبِ وَلَوْ بِمَنْزِلَةِ الْأَسْمِ، لِأَنَّهُ جَاءَ لِتَقْيِيمِ الْإِنْسَانَ عَلَى قَاعِدَةِ الْإِحْسَانِ.

قَالَ الرَّجُلُ: فَفَيْمَ حَرْبُنَا إِذَا؟

قَالَ عِمْرَانُ: إِنَّ الْحَرْبَ هُوَ الْعُدَاوَانُ طَمَعًا وَعُتُوًّا وَأَضْطِهَادًا، وَهُوَ رُجُوعٌ إِلَى الْحَيَوَانِيَّةِ الضَّارِيَةِ الَّتِي تَسْتَضْيِقُ، عَلَى رَحَابَةِ الْوُجُودِ، بِغَيْرِ ذَاتِهَا فَتَسْتَجِيبُ إِلَى الْعُدَاوَانِ وَتُنَازِعُ الْأَمِينَ عَلَى بَقَائِهِمْ. وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّا نُكَافِحُ هَذَا الْعُدَاوَانَ لِنُخْلَصَ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ أَذْرَانِ الضَّرَاوَةِ الْبَاغِيَّةِ، فَلَسْنَا نُحَارِبُ مُنَازَعَةً عَلَى الْبَقَاءِ بَلْ تَعْمِيمًا لِحُرِّيَّةِ الْبَقَاءِ، وَهَذَا لَيْسَ حَرْبًا بَلْ نِضَالٌ ضِدَّ الْحَرْبِ، وَإِنَّ النُّضَالَ مِنْ أَجْلِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَدُونِهَا إِحْسَانٌ.

فَالنَّبِيُّ جَاءَ بِالْإِحْسَانِ مَبْدَأً عَلَى شَتَّى وُجُوهِهِ وَمِنْ أَقْطَارِهِ، لِيُطْفِئَ نَارَ الْحَرْبِ فِي السَّلَمِ الظَّالِمِ وَفِي الصَّرَاحِ الْعَاتِي، وَلِيَرُدَّ ذُنَابَ الْبَشَرِ إِلَى الذُّنَابِ بِتَمْزِيقِ

أَقْنَعْتِهِمْ فَيَسْلَمَ الْإِنْسَانُ.

وبهذا كَانَ النَّبِيُّ أَوَّلَ مَنْ حَارَبَ الْحَرْبَ، وَأَلْغَى مَشْرُوعِيَّتَهَا، وَأَعْلَنَ حُرْمَةَ الْإِنْسَانِ أَيَّاماً كَانَ، وَرَوَى التَّارِيخُ نُبْلَ الْجِهَادِ. وَكَانَ فِي تَسْمِيَّتِهِ الْوَلِيدَ مُحْسِنًا، بَعْدَ تَسْمِيَّتِهِ حَرْبًا، إِعْلَانٌ بِأَنَّ طَبِيعَةَ الْحَرْبِ لَنْ تَتَحَرَّكَ عَلَيْهِ إِلَّا إِحْسَانًا، وَفِي سَبِيلِهِ. وَفِي تَهَامُسِ النَّاسِ، أَنَّ الْوَلِيدَ أَنَّهُ أَلَمَ زَاهِقَةً، كَانَتْ إِيْدَانَا بِخِتَانِهِ. وَكَانَ مَغْزَى الْخِتَانِ، فِي إِشْرَاقِ الرُّوحِ، أَنَّ فِي طَبِيعَةِ الْغَرَائِزِ زَائِدَةٌ تَذْهَبُ فِي شُدُودِهَا وَآلَتِوَائِهَا حَدًّا تَضَعُهَا فِي مَسَافٍ الْمَسَاقِطِ وَمَاتِيهَا. فَلَا بُدَّ مِنْ تَشْذِيبِ الْغَرَائِزِ لِسُمُومِ الرُّوحِ وَكَمَالِهَا، وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْلِيمِ الْغَرَائِزِ لِدَرْكِ الْمِثَالِيَّةِ وَنَبَالَتِهَا الَّتِي، بِهَا جَمِيعًا، يَمْلِكُ الْبَشَرِيُّ إِنْسَانِيَّةً صَحِيحَةً تَضَعُهُ فَوْقَ الْوَاقِعِ وَدُونَ الْأَحْلَامِ...

\*

بَعْدَ حِينَ، كَثِيرًا مَا كَانَ يُرَى هَذَا الْوَلِيدُ السَّعِيدُ يَمُوجُ فِي حِجْرِ جَدِّهِ الْعَظِيمِ...

وَهُوَ يَوْمِي بَعِثَيْنِ سَادِرَتَيْنِ، أَرْحَتْ عَلَيْهِمَا الْجُفُونَ كِلَاهُمَا فَلَا تَرْخُزُ إِلَّا بِفُتُورٍ...

ضَجَعَةٌ فِي جَوْ الْأَحْلَامِ، كَانَ يَوْتَضِعُ فِيهَا الْوَلِيدُ «إِبْهَامَ جَدِّهِ» الْبَطْلِ النَّبِيِّ...

وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الرِّضَاعِ مَعْنَى الثَّدْيِ بَلْ مَعْنَى الْقَلْبِ، فَلَا يَدْعُ إِنْ كَانَ لَهُ مِنَ التَّبَوُّةِ طِبَاعُهَا، وَمَنْ الْبَطُولَةَ تَضْجِيأُهَا...

\*

ضَجَعَةٌ كَأَنَّهَا ضَجَعَةُ الْمَلَائِكَةِ فِي هَالَةِ الثُّورِ، أَوْ ضَجَعَةُ النُّجُومِ فِي الْأَفْقِ

المشهور!...

أَغْفَى فِيهَا إِغْفَاءَةَ الْحِشْفِ عَلَى تَذِي الْأُمُومَةِ الْحَانِيَةِ...  
وَأَزْتَسَمَتْ ظِلَالُ هَذَا الْمَشْهَدِ عَلَى لَوْحٍ، كَانَ صُورَةً لِبَطُولَةٍ تُغَذِّيها نُبُوَّةٌ!...  
إِنْهَامٌ كَانَ صِلَةً مَعْنَى بَمَعْنَى، وَشَرِيطاً تَسْرِي عَلَيْهِ رُوحٌ إِلَى رُوحٍ...  
فَلَمَّا آسَتَوَتْ نَفْسُ الْوَلِيدِ تَأَلَّقَتْ، وَكَانَتْ بَطُولَةً مُضِيَّةً مِنْ وَرَائِهَا نُبُوَّةٌ  
تَمُدُّهَا بِالضِّيَاءِ...

\*

هُنَاكَ فِي وَادِي الْعَقِيقِ<sup>(٣)</sup> كَانَتْ جُمُوعُ السَّمَارِ تَنْتَظِمُ حَلَقَاتٍ حَلَقَاتٍ كَمَا  
شَاءَ الْهَوَى فِي عَقْوٍ وَدُونَ تَكَلُّفٍ، وَكَانَ هَذَا النَّوْعُ مِنَ السَّمَرِ مُحِبِّباً إِلَى أَهْلِ  
الْمَدِينَةِ، بِمَا فِي طَبِيعَتِهِمْ مِنْ رُوحٍ مَرِحَةٍ، لَا خَرَجَ فِيهَا وَلَا تَعْقِيدَ. وَلَمْ يَكُنْ مَرَحُهُمْ  
أَثَرُ رُوحٍ مَكْدُودَةٍ عَرَاهَا تَطْيِيرٌ وَتَشَاوُؤٌ بِالْحَيَاةِ وَأَسْبَابِهَا، فَهِيَ تَفِرُّ إِلَى الْخَلَاءِ، إِلَى  
الْفَضَاءِ الرَّحْبِ، وَهِيَ تَضْطَنُجُ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْمَرَحِ لِتَنْسِيَ هُمُومَهَا الْمُشْتَعِلَةَ وَضَنَاهَا  
اللُّغُوبَ، وَهِيَ تَنْضُو أَثَوَابَهَا الثَّقِيلَةَ وَأَغْلَالَهَا الْآسِرَةَ الْعَانِيَةَ لِتَنْسِيَ ذَاتِيَّتَهَا، بِمَا فِيهَا  
مِنْ غُنْصَرِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ الْمُرْهَقَيْنِ، لِتَعْبَثَ، لِتَلْهُوَ هَارِبَةً مَذْعُورَةً... تِلْكَ طَبِيعَةُ  
رُوحٍ مُعَقَّدَةٍ حَجَّرَهَا الْجِدُّ الْحَشِينُ، فَهِيَ لَا تَفْتَأُ شَاعِرَةً بِالْحُشُونَةِ فَيَشِيْعُ فِيهَا التَّجَهُُّمُ  
وَالْتَّقْطِيبُ.

لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ تَتَّصِلُ بِطَبِيعَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، مِنْ قُرْبٍ أَوْ  
مِنْ بُعْدٍ، وَإِنَّمَا بُنِيَتْ طَبِيعَتُهُمْ، أَوَّلَ مَا بُنِيَتْ، عَلَى مَرَحٍ كَادَ يَكُونُ مُجَوَّناً دُونَ قَيْدٍ،

---

(٣) إِنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ لِكُلِّ مَسِيلٍ يَشُقُّ الْأَرْضَ وَيُوسِعُهَا عَقِيقاً. وَفِي يَلَادِ الْعَرَبِ أَرْتَعَةُ أَعِيقَةٍ، وَمِنْهَا الْعَقِيقُ  
الَّذِي هُوَ بِنَاجِيَةِ الْمَدِينَةِ فِيهِ غَيُونٌ وَنَخِيلٌ وَقُصُورٌ وَدُورٌ وَمَنَازِلُ. رَاجِعْ: مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ، لِيَاقُوتَ، ج ٦،  
ص ١٩٨.

وعلى يُشِير كَادَ يَكُونُ أَنْطِلَاقًا مِنْ كُلِّ قَيْدٍ، فَشَاعَتْ فِيهِمْ سَمَاحَةٌ مُشْرِقَةٌ،  
وَأَنْطَبَعَتْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ بَسَمَاتٌ مُشِيعَةٌ تَمُدُّهَا نُعُومَةٌ فِي الطَّبَعِ تَأْتِي إِلَّا أَنْ تَظْهَرَ فِي  
دُعَابَةٍ مُنْطَلِقَةٍ عَارِضَةٍ، وَهِيَ إِنْ جَدَّتْ تَكُونُ مُتَكَلِّفَةً فِي الْجِدِّ، كَمَا تَكُونُ تِلْكَ  
الطَّبِيعَةُ مُتَكَلِّفَةً فِي الْمَرْحِ.

وَأَيُّ شَيْءٍ هَذِهِ الْحَيَاةُ إِذَا كَانَتْ لَا تَمْنَحُنَا قَلْبًا سَعِيدًا لَمْ تَتَحَجَّرْ فِيهِ السَّعَادَةُ،  
وَالْجِدُّ لَا يَصِلُ الْمَرْءَ بِالسَّعَادَةِ، لِأَنَّهَا أَنْطِلَاقٌ، وَهُوَ جُمُودٌ يُحَجِّرُهَا كَمَا يُحَجِّرُ كُلُّ  
شَيْءٍ وَيَتَّصِلُ بِهِ، فَيُضِيعُ فِيهِ حَيَوِيَّتَهُ وَيَعْرِضُهُ مِنْ رُوحِهِ... هَكَذَا كَانَ يَتَحَدَّثُ، فِي  
مَجْمَعِ وَادِي الْعَقِيقِ، نُعَيْمَانُ<sup>(٤)</sup>، طُرْفَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، الَّذِي لَوْلَا مَا دَخَلَهُ مِنْ غُنْصَرٍ  
الْمَادَّةِ الْحَيَّةِ لَكَانَ رُوحَ النَّادِرَةِ الْمُبْدَعَةِ.

لَيْلَةٌ كَانَتْ مِنْ هِبَاتِ الْقَمَرِ، وَهُوَ يَذْنُو فِيهَا كَثِيرًا، وَيَشْغُ كَثِيرًا حَتَّى لَيَخِيلُ  
أَنَّهُ يَتَحَدَّى الشَّمْسَ فِي بَهَاءٍ وَطَرَاوَةٍ يُشْعِرَانِ بِالْجَمَالِ. وَدَعَاهَا الْعَرَبُ «أُضْحِيَانَةً»،  
كَأَنَّمَا جُمِعَ فِيهَا الضُّحَى أَوْ جُمِعَتْ فِيهِ، وَالضُّحَى إِغْرَاءٌ بِالْيَقْظَةِ، بَيِّنٌ أَنَّ ضُحَى  
الشَّمْسِ إِغْرَاءٌ بِحَيَاةِ التَّكَالُيفِ وَالذُّكْرَى وَالْيَقْظَةُ عَلَى الْجَسَدِ وَالْوَاقِعِ الْقَطُوبِ،  
وَضُحَى الْقَمَرِ إِغْرَاءٌ بِحَيَاةِ وَرَاءِ الْحَيَاةِ، كُلُّهَا حُرِّيَّةٌ وَأَنْطِلَاقٌ، وَكُلُّهَا نِشْيَانٌ وَوِلَادَةٌ  
مِنْ جَدِيدٍ فِي اللَّحْظَاتِ.

إِنَّ الذُّكْرَى، وَفِيهَا غُنْصَرُ الثَّبَاتِ وَالْجُمُودِ، تَجْعَلُ الْحَيَاةَ ضَرْبَةً لَازِبٍ فِي  
مَرَارَتِهَا وَسَامَتِهَا وَمَلَالِهَا، وَالنِّشْيَانُ سَيْلٌ مِنَ التَّجَدُّدِ وَالصِّيُورَةِ، يَجْعَلُ الْحَيَّ فِي  
كُلِّ الْآنَاتِ مَوْلُودًا جَدِيدًا يَنْقَلِبُ فِي أَسْبَابِ الطُّفُولَةِ النَّاعِمَةِ الْهَائِتَةِ. فَمَدَارُ الشَّمْسِ  
دُنْيَا مِنَ الْعَمَلِ وَالْوَعْيِ الْجَهِيدِ، وَمَدَارُ الْقَمَرِ دُنْيَا مِنَ النَّشْوََةِ وَاللَّوْعِي الْحَالِمِ... كَذَا

(٤) هُوَ نُعَيْمَانُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ بَنِي النَّجَّارِ. تُوفِّيَ فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ. كَانَتْ تَغْلِبُ عَلَيْهِ رُوحُ الْفُكَاهَةِ  
وَالنَّادِرَةِ، وَكَانَ يُدَاعِبُ النَّبِيَّ. ذَكَرَهُ الزُّبَيْرِيُّ بْنُ بَكَّارٍ فِي كِتَابِ: الْفُكَاهَةِ وَالْمَزَاحِ، وَذَكَرَهُ أَبُو الْحُوَظِيِّ فِي  
كِتَابِ: الظُّرَافِ وَالْمُتَمَاجِنِينَ، وَتَرَجَمَ لَهُ بِتَوْشِيحِ أَبِي حُجْرٍ الْعَشْقَلَانِيِّ فِي كِتَابِ: الْإِصَابَةِ، ح ٦، ص ٢٥٠



قال نُعَيْمانُ وهو يَتَدَفَّقُ في تَنَدُّرِهِ، وكان يُسَمِّي لِيالي القَمَرَ ضُحى الأُحلامِ، لأنَّها صَحواتٌ في أَعَمِّ سُكْرِ، ولَحَظَاتٌ شِعْريَّةٌ تَفِرُّ من عَتَباتِ الأَبديَّةِ التي أَذنانا القَمَرُ المَسحورُ من آفاقِها المِطْلَّةِ القَريَّةِ.

قالَ رَجُلٌ من الحُضورِ: لو شاءَ نُعَيْمانُ حَدَّثنا حَدِيثَ هَدايا<sup>(٥)</sup> التي سَتَبَقى رَمَزَ خُلودِهِ، وإنَّ كانَتْ تَطْفِلاً في الكَرَمِ يُشْبِهُ، في المَعْنى، التَّطْفِيلَ في النِّهَمِ وَلَيْسَتْ تَفْضُلُهُ، وعلى أيِّ حالٍ فإنَّها سَخاءٌ مُضِحُّكٌ، وهو مَعها ضُحْكَةُ الأَسْخِياءِ. فَسَرَتْ بَيْنَ الجُمُهورِ رَنَّةٌ مُفَهِّقَةٌ، أَنْطَلَقَتْ وَتَرَامَتْ أَبْعَدَ ما تَتَرامى الأَصْداءُ في مَطارِحِ الخُلطاءِ.

قالَ نُعَيْمانُ: أَمَّا أَنْتَ فَضُحْكَةُ البَحَلَاءِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّكَ أَكْثَرُ من بَخِيلٍ. وَأنا يَسُرُّني أَنْ أَكونَ، كما تَقولُ، أَكْثَرُ من كَرِيمٍ، وإِنِّي لا أراكَ في طَبِيعَتِكَ إِلَّا كَمِثْلِ زَهْرَةِ الحَنْظَلِ. فَارْتَفَعَتِ الأصْواتُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ: وما مِثْلُ الزَّهْرَةِ الَّذِي ذَكَرْتَ؟ قالَ نُعَيْمانُ: رَعَمُوا أَنَّ فَراشَةَ مُلَوَّنَةً تُخالُ كأنَّها زَهْرَةُ حَيَّةٍ طائِرَةٍ، مَسَّها نَصَبُ التَّرْنيقِ وَلَغَبُ الطَّنِينِ الَّذِي هو نَشِيدُ أمانِي الفَراشِ، وهي قاصِدةٌ إلى الحُقُولِ. فَحَطَّتْ مُغْتَبِطَةً على زَهْرَةِ حَنْظَلٍ كانَتْ تَمِيسُ بَيْنَ أَيْدِي الرِّياحِ في غُضارَةٍ وَتَمَلُّو حَتَّى لَتَحَسَبُ أَنَّها تَفِيضُ غُضارَةً ومائِيَّةً، فدارَتْ عليها الفَراشةُ دَوْرانٍ يائِسَةً كظامِيٍّ سَقَطَ على آلٍ حَفِيٍّ، فَمَدَّتْ جَنَاحَيْها وَخَفَّتْ تَطِيرُ.

قالَتِ الزَّهْرَةُ: إذا عُدَّتِ بَعْدَ حينٍ فَسَأَسْقِيكَ مِنْ ماءٍ ثِماري الوَفيرِ.

قالَتِ الفَراشةُ: إذا كُنْتُ وَأَنْتِ زَهْرَةٌ من بَناتِ السَّرابِ، فإنَّ ماءَكَ، وَأَنْتِ

---

(٥) ذَكَرَ خَتَرها آئِنُ حُجْرٍ في: الإِصابة، قالَ: كانَ لا يَدْخُلُ المَدِينَةَ طُرُقَةً إِلَّا اسْتَرى بِها ثُمَّ جاءَ بِها إلى النَّبِيِّ، فيقولُ ها أَهْدَيْتُهُ لَكَ. فإذا جاءَ صابِغُهُ يَطْلُبُ نُعَيْمانَ بِمَعْنِيهِ أَحْضَرَهُ إلى النَّبِيِّ وقالَ: آعِطْ هذا ثَمَنَ مَناعِهِ، فيقولُ النَّبِيُّ: أَوْلَمْ تُهْدِهِ لي؟ فيقولُ: إِنَّه وَاللَّهِ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي ثَمَنُهُ، وَلَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَأْكُلَهُ، فيَضْحَكُ وَيَأْمُرُ لصابِغِهِ بِالثَّمَنِ، وَذَكَرَها آئِنُ الحَوْزِيِّ في كِتاب: الظُّرافِ والمُتَمَاجِينِ، وغيرِ واجِدٍ مِنَ المُؤَلِّفِينَ في التُّوايِدِ.

ثَمَرَةً، غُصَارَةٌ مُسْتَنْقَعٌ كَرِيهٌ، فَزَهْرُكَ بَاطِلٌ بَيْنَ الزَّهْرِ وَثَمَرِكَ بَاطِلٌ بَيْنَ الثَّمَرِ، فَإِنَّ  
الرُّوزَ إِذَا اسْتَحَالَ فَإِنَّمَا يَسْتَحِيلُ إِلَى زُورٍ أَكْبَرَ.

وهداياي التي كُنْتُ أَسوقُها إلى النَّبِيِّ إِنْ كَانَتْ تُعَبِّرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا تُعَبِّرُ  
عَنْ مَكَانِ التَّدْيِ وَالسَّمَاخَةِ مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ الْكَبِيرِ، وَهُوَ لَا يَفْتَأُ يَأْخُذُنَا بِالْوَانِ مِنْهُ،  
وَيَمْلَأُ جَوْ حَيَاتِنَا بِطَرَاوَتِهِ، وَقُصَارَاهُ أَنَّهُ أَخْرَجَنَا مِنْ بَدَاوَةِ الطَّبْعِ، وَزَوَّدَنَا بِقَلْبِ  
الْإِنْسَانِ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَكَانَ أَحَدَ الْحُضُورِ: إِنَّ الْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ، وَقَدْ أَذْكَرْتَنِي  
بَلَحْنِ حَدِيثِكَ وَاقِعَةً شَهِدْتُهَا. كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ «وَقَدْ أَخَذَ وَلِيدُهُ الْحُسَيْنَ يَدْلَعُ لَهُ  
لِسَانُهُ فَيَرَى الصَّبِيَّ حُمْرَتَهُ فَيَهْشُ إِلَيْهِ، وَغَيْبَتُهُ بَيْنَ بَدْرِ حَاضِرٍ فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ تَصْنَعُ هَذَا بِهَذَا، فَوَاللَّهِ إِنْ لِيَ الْوَلَدَ وَمَا قَبْلَتْهُ قَطَّ.

قَالَ النَّبِيُّ: مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ».

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَكَانَ حَكِيمًا: كَمْ كُنْتُ جِدًّا مُحْسِنٍ يَا نَعِيمَانُ بِقَوْلِكَ  
«وَقُصَارَى النَّبِيِّ أَنَّهُ زَوَّدَنَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ»، فَقَدْ جَمَعْتَ غَايَةَ مَا يُقَالُ فِي أَخْصَرِ  
مَقَالٍ، وَإِنَّهُ لِيُوحِي بِشَيْءٍ كَثِيرٍ. ثُمَّ أَطْرَقَ فِي تَأْمُلٍ لَمْ يَطُلْ بِهِ كَثِيرًا وَلَكِنَّهُ مَسَّ  
الْجَمْعَ، فَنَقَلَهُمْ مِنْ جَوْ أَنْفُسِهِمْ فِي مَرْجِهِ إِلَى جَوْ نَفْسِهِ فِي تَأْمُلِهِ. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ  
أَطْرَدَ يَقُولُ: لَا أَذْرِي مَاذَا تَرَكَ فِي أَنْفُسِكُمْ خَبَرُ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَإِنَّهُ أَيْقَظَ نَفْسِي عَلَى  
السِّرِّ الْإِلَهِيِّ فِي مُحِيطِ الْكَوْنِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ مَا فِيهِ مِنْ تَنَاسُقٍ وَنِظَامٍ، وَجَمَالٍ  
وَتَنَاضُجٍ. وَإِذَا كَانَتْ قِصَّةُ الْمَثَلِ<sup>(٦)</sup> تُعَبِّرُ عَنْ وَاقِعِيَّةٍ كَوْنِيَّةٍ فَإِنَّهُ يَقَعُ عَلَى قِمَّتِهَا،  
وَذَلِكَ السِّرُّ هُوَ الرَّحْمَةُ، فَإِنَّهَا الْمَعْنَى الْأَزَلِيَّةُ الَّذِي أَنْبَتَتْ مِنْهُ الْحَقَائِقُ، وَكَانَ  
الْوُجُودُ إِحْدَى ظَاهِرَاتِهَا، وَهِيَ فِيهِ مِقْيَاسُ الْقِيَمِ، وَنَحْنُ لَنْ نَتَّصِلَ بِالْحَقِيقَةِ

(٦) أَيِ قِصَّةِ الْمَثَلِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُ الْحَيَرَ رَأْسَ الْمَثَلِ.

الأخلاقية والطبيعية، وننقذ إلى أغوار المطلق إلا من طريقها، وعلى أضواؤها  
الملتزمة، على أن الخير الذي اعتبرت قصته المثل رأساً ليس في حقيقته إلا امتداد  
الرحمة، وظاهرة من تحركها، والجمال تجسّد للرحمة بأكثر مما هو تجسّد للخير،  
فهي ألفة الحقائق التي بها نفهم الكونية والأخلاقية فهما مطلقاً، ونضع اليد على  
مقياس القيمة الحق.

وميزة الإسلام أنه جعل الرحمة دعامة وقام عليها، ولعلّه الدين الوحيد  
الذي تهّدى بها إلى فهم الوجود، ومقياس الأخلاق، وتركيز القانون والاجتماع،  
وجعلها نظرية فلسفية الأولى. فقد سمى الإسلام الله أحياناً رحيماً وأحياناً رحماناً،  
وحين تحدّث عن الكون قال في مقام «وسعت رحمتي كل شيء». وفي مقام آخر  
قال: «كتب ربكم على نفسه الرحمة». وحين تحدّث عن المجتمع العام قال: «وما  
أرسلناك إلا رحمة للعالمين». وعن الأسرة قال: «وجعل بينكم مودة ورحمة». وقال  
النبي يصف نفسه: «أنا الرحمة المهداة». وحين تحدّث عن الأخلاق قال:  
«الراحمون يرحمهم الرحمن، إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».  
وما حدّثكم به أبو هريرة الآن «من لا يرحم لا يرحم» ففلسفة الإسلام قامت على  
قاعدة الرحمة التي عالج بها نظام الحياة من شتى وجوهه وجوانبه، وبثها في قانونه  
وأناظيمه، ودخل بها إلى الهيكل المستعرق الخاشع، والمجتمع الصاحب الدّوي،  
وكسر بها شرة الأنانيات الضارية، وحدّ بها من مدّ الرغبات النّهمة.

وبالرحمة عالج الإسلام طبيعة الإنسان المعقّدة، ليبلغ بها مبلغ المثل الأعلى  
الذي عبّر عنه بقوله: «رحماء بينهم»، وليحقّق بها مبدأ التّأخي العام «إنما المؤمنون  
أخوة».

وليس هناك كلمة كفيلة بأن تدلّ على روح الإسلام الشائعة في كل  
أوضاعه وتعاليمه سوى الرحمة، فهي رمز جامع لمجموعة حقائقه؛ كالمحبة التي هي

الرَّمْزُ الجامع للمسيحية من أقطارها وخواشيها، وفَرْقُ ما بَيْنَهُمَا أَنَّ في طبيعة الرِّحْمَةِ تَوَازُنَ القانون، وفي طبيعة الثانية خيالية التجريد.

وعلى أساس من الرِّحْمَةِ يُقيمُ النَّبِيُّ التَّزْيِيَةَ، وَيَضَعُ مناهج الرِّبَاةِ<sup>(٧)</sup> السَّمْحَةِ التي تَأْذُنُ لِكُلِّ الطَّبَائِعِ بالنَّماءِ في تَقْدِيرِ مَوْزُونٍ، دونَ ما كَتَبَتْ يورثُ آنِيكاساً والِتِواءُ في الطَّبِيعَةِ الْمُتَفَتِّحَةِ. ولِذا ذَهَبَ وَلِيدُهُ بِحَنَانِهِ، ولا يَفْتَأُ يُغَادِيهِ بِشَأْيٍ حُبِّهِ النَّمِيرِ.

قالَ شَدَّادُ بَنِ الهادي: لِيهِ دَرْكُ أبا الدَّرْداءِ، فَإِنَّ فيما أَذْكَرُهُ الآنَ شاهِداً على ما تَقُولُ: «إِنَّ رَسولَ اللَّهِ خَرَجَ عَلَيْنَا في إِحْدَى صَلَاتِي العِشاءِ وهو حَامِلٌ حُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ فَوَضَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ، فَأَطَالَ سُجُودَهُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فإذا الصَّبِيُّ على ظَهْرِ رَسولِ اللَّهِ وهو ساجِدٌ، فَرَجَعْتُ إلى سُجُودي، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قِيلَ: يا رَسولَ اللَّهِ إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرِي صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطْلَتْهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ أو أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ، قالَ: كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنْ آتَنِي آزَتْحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حاجَتَهُ».

فقالَ أَسامَةُ بَنِ زَيْدٍ: «طَرَقْتُ النَّبِيَّ ذاتَ لَيْلَةٍ في بَعْضِ الحاجَةِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ وهو مُشْتَمِلٌ على شَيْءٍ لا أَدرِي ما هُوَ. فَلَمَّا فَرَعْتُ من حاجَتِي، قُلْتُ: ما الَّذِي أَنْتَ مُشْتَمِلٌ عَلَيْهِ؟ فَكَشَفَهُ فإذا حَسَنٌ وحُسَيْنٌ على وَرِكَيهِ، فقالَ: هذانِ ابْنائِي وآبائِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا».

وَأَسْتَأْنَفَ أَبُو الدَّرْداءِ حَدِيثَهُ فقالَ: إِنَّ الرِّحْمَةَ في العُضُويَّاتِ - وَمَظْهَرُها الرِّقَّةُ والحَدْبُ - هي سِرُّ كِيانِ المَوْجُودِ الاجْتِماعِيِّ وبقائِهِ، وَإِنَّ الطُّفُولَةَ إذا لَمْ تُؤْخَذْ بِرَحْمَةِ الكَبِيرِ فلا بُدَّ أَنْ تَقَعَ هَوَّةٌ بَيْنَ الطُّورَيْنِ، تَذْهَبُ مُتَسِعَةً كُلَّما ذَهَبَتْ الأَيَّامُ مُتَدَّةً، وَتَمْتَلِئُ وتُطْفَحُ بالأَحقادِ، فَتَحْبُو النَّشَواتُ المُعْرِيةَ بالحِياةِ، لأنَّ الطُّفْلَ لَمْ يَعُدْ

(٧) مِنْ وَضَعِنا الحَدِيدَ بِمَعْنَى تَزْيِيَةِ الطُّفْلِ، مِنْ ثَلَاثِي: رَت.

يَجِدُ حَاضِرَهُ اللَّادِّ فِي الْكَبِيرِ، وَلَآنَ الْكَبِيرَ لَمْ يَعُدَّ يَجِدُ فِي الطُّفْلِ مُسْتَقْبَلَ وُجُودِهِ  
كَحُلْمِ الْخَمْرَةِ فِي الْعُنُقُودِ.

فَمِثْلُ نَظَرَةِ عُيَيْنَةٍ بِنِ بَدْرِ إِلَى الطُّفْلِ تُؤَزِّتُ الْبُغْضَ الْخَفِيِّ، وَتُذَكِّي الصَّرَاعَ  
بَيْنَهُمَا عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مَشْعُورٍ بِهِ، فَلَا تَتَجَاذَبُ أَجْزَاءُ الْكَائِنِ، بَلْ تَتَدَافَعُ، وَلَا  
تَتَجَانَسُ بَلْ تَتَنَافَرُ، وَبِذَلِكَ يَنْدَثِرُ حُبُّ الذَّاتِ فِي مَظْهَرِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتَبْهَتُ  
أَحْلَامُهُ فَتَبْدُو خَائِيَةً.

إِنَّ النَّبِيَّ يُوْثُّ، فِي الشَّبَابِ الْمُسْتَوِي، الرَّحْمَةَ عَلَى شَتَّى أَطْوَارِهَا:  
بِالشَّيْخُوخَةِ لِأَنَّهَا الْمَاضِي، فَهُوَ يَسْتَمِيلُنَا بِالْحَنِينِ، وَبِالطُّفُولَةِ لِأَنَّهَا الْمُسْتَقْبَلُ، فَهُوَ  
يَسْتَهْوِينَا بِالْأَمَلِ، فَتَتَوَاصَلُ أَطْرَافُ الْكَائِنِ وَتَتَّحِدُ فِي بَقَاءٍ طَوِيلٍ، وَمَحَالٌّ أَنْ يَقُومَ  
مُجْتَمَعٌ عَلَى الْقَسْوَةِ. فَتَحْنُ وَأَبَاؤُنَا وَأَبْنَاؤُنَا أَطْوَارُ كَائِنٍ كُرُويٍّ وَاجِدٍ، يَدُورُ وَيُرِينَا  
فِي كُلِّ وَضْعٍ وَحِينٍ وَجْهًا، وَكُرَةً هَذَا الْكَائِنِ إِنَّمَا تَدُورُ بِالرَّحْمَةِ، فَإِذَا نَفَدَتْ  
جَمَدَتِ الْكُرَةُ وَذَوَتْ فِيهَا الرُّوحُ. وَالْحَيَاةُ لَا بُدَّ أَنْ تَتَفَسَّخَ وَتُجْتَوَى إِذَا لَمْ تَكُنْ دُنْيَا  
مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهَذَا مَا حَقَّقَهُ النَّبِيُّ فِي فِرْدَوْسِهِ الَّذِي تَزْهَوُ بِهِ أَرْضُ الْعَرَبِ، وَيَلْتَمِصُ  
إِلَى بَعِيدٍ فِي إِغْرَاءِ.

إِنَّ الطُّفْلَ حَيَوَانٌ يَعِيشُ بِالْغَرِيزَةِ، وَبِالرَّحْمَةِ يُسْتَطَاعُ جَعْلُهُ إِنْسَانًا يَعِيشُ  
بِالْقَلْبِ.

قَالَ نُعَيْمَانُ، وَلَمْ تُفَارِقْهُ دُعَابَتُهُ: لَا غَرَوْ أَنْ كَانَتْ كُلُّ أَضْرَاسِكَ - أبا  
الدُّرْدَاءِ - ضِرْسَ عَقْلٍ، أَوْ لَعْلَ لَكَ، وَحَدَّكَ مِنْ بَيْنِنَا، ذَلِكَ الضُّرْسُ... فَضَحِكُوا  
وَهُمْ يَتَنَادَوْنَ مُتَوَاتِبِينَ إِلَى الرَّوَّاحِ... «وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِيحُ»...

\*

فِي بِلَادِ الْعَرَبِ الْمُتَبَدِّلَةِ وَضَعَ النَّبِيُّ تَصْمِيمَ مَدِينَةٍ فَاضِلَةٍ...



وما إن آسَتَوَتْ على قَوَاعِدها، حتَّى وَجَدَ فيها الظُّمَاءُ التَّائِهُونَ هَيْكَلَ  
السَّعَادَةِ الشَّارِدِ...

وَدُحِيتْ لِبَنَاتِهَا من كُلِّ مِثَالِيَّةٍ آتَقَى فيها الفِكْرُ والعَمَلُ، فَلَمْ تَعْلُ بِالمِثَالِيَّةِ  
فَتَطِيرَ بها اللَّبَنَاتُ وتَذْهَبَ في سُروِدِ...  
وكانتِ الرَّحْمَةُ ناموسَ تَماسِكِها وتَجاذِبُها...

\*

في هياكِ هذه المَدِينَةِ السَّعِيدَةِ كان حُسَيْنٌ يَحْبُو...  
وهو يَتَسامى في مُنْبَثِقِ إِشراقِها يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، كما تَتَسامى اللَّالِيَةُ في  
رَقارِقِ النَّميرِ العَذْبِ...

فكانَ كائناً كالأَلماسِ، صَقَلَتْهُ الأَضواءُ وآنطَبَعَتْ فيه...  
وغداً، بَعْدَ حينٍ، مِشْكَاةٌ مُتَأَلِّقَةٌ، تَمِيسُ في فضاءِ الهَيْكَلِ السَّعِيدِ...  
وتَهْبُ الحائِرِينَ طُمَأْنِينَةُ النُّفوسِ، وأَحلامُ السَّعْداءِ!...

\* \* \*

## يوم الدولة

أَصْبَحَ النَّبِيُّ وَقَدْ جَمَعَ إِلَيْهِ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ إِلَّا قَلِيلاً، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْقَلِيلَ كَانَ ذَاهِباً أَيْضاً فِي طَرِيقِ سَائِرِهَا، كَمَا تَذْهَبُ الرَّحَى رَاسِمَةً خَطَّ دَائِرَتِهَا فِي غَيْرِ تَوَقُّفٍ. وَكَانَ لَا بُدَّ لِهَذِهِ الرَّحَى، وَفِيهَا أَنْيْلَاقٌ وَفِيهَا حَيَاةٌ، أَنْ تَرْسُمَ دَوَائِرَهَا وَاحِدَةً فِي أُخْرَى أَوْسَعَ مِنْهَا، حَتَّى تَتَّصِلَ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ الْأَفْقُ الْمُطْبِقُ، الَّذِي هُوَ، فِي نَفْسِهِ، أَقْصَى الدَّوَائِرِ فِي طَاقَةِ الْحَيَاةِ.

وَالنَّبِيُّ، إِلَى هَذِهِ الْآوِنَةِ مِنَ الزَّمَنِ، كَانَ قَدْ قَذَفَ الدِّينَ فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ رُوحاً، وَسَوَّى الدَّوْلَةَ قُطْبَ الرَّحَى فِي حَرَكَةِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ، فَأَنْطَلَقَتْ وَلَمْ تَقِفْ، وَتَفَرَّجَتْ وَلَمْ تَنْكَمِشْ. وَأَبْدَأَ يَقْعُ مِقْيَاسُ الْحَيَاةِ الشَّامِخَةِ فِي الْحَرَكَةِ، بِمِقْدَارِ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخُطَّ خُطُوطاً جَدِيدَةً دَائِماً، وَتَنْشُرَ فِي مَدَى خُطُوطِهَا حَيَوَاتٍ لَا تَغِيضُ دَفَقَاتِهَا، وَلَا تَخْبُو إِشْعَاعَاتِهَا، وَلَا تَبْهَتُ أَلْوَانُ أَحْلَامِهَا...

كَانَتْ سَنَةٌ سَبْعٍ، وَكَانَ النَّاسُ يَسْتَقْبِلُونَ بِهَا عَهْداً جَدِيداً، فَقَدْ هَيَّأَ النَّبِيُّ الْأَسْبَابَ لِلإِعْلَانِ عَنْ وِلَادَةِ دَوْلَةٍ فِي الْمُنَايَ الْبَعِيدِ الْمَجْهُولِ الْقَوَى، وَالْمَمْدُودِ الرَّغَبَاتِ. فَتَنَظَّمُ طَائِفَةٌ مِنَ الرُّسُلِ إِلَى تَمَالِكِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، تَحْمِلُ رِسَالَةَ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ جَمِيعاً، فَقَدْ أَضْحَى نَبِيٌّ فِكْرَةً وَزَعِيمٌ دَوْلَةً.

وَكَانَتْ الْفِكْرَةُ الَّتِي أَنْبَجَسَتْ مِنْ يَنْبُوعِ النُّبُوَّةِ، قَدْ أَمْتَدَّتْ وَهِيَ تَمْتَدُّ، فَكَانَ

لا بُدَّ للدَّولةِ، وَقَدْ تَرَكَّزَتْ، أَنْ تَتَحَرَّكَ لِتَمْتَدَّ أَيْضاً. ودائماً تَظَلُّ الفِكرَةُ في إحساسِ التاريخِ هزيلةً، إذا لم تُرافِقْها الدَّولةُ الَّتِي تَجْعَلُهَا خَلَاقَةً وَمُغَيِّرَةً، والفِكرَةُ لا تَكُونُ قابِلَةً لِتَقُومَ على أساسِها الدَّولةُ دائماً، وإِنَّمَا هي فَقَطُ الفِكرَةُ الَّتِي آجَتَمَعَتْ<sup>(١)</sup> فيها كُلُّ قُوى التاريخِ وقابليَّاتِهِ الرَّاكِدَةِ، وَاِنْبَعَثَتْ فيها على شَكْلِ مِنَ الحَيَاةِ، وبذلكَ تَكُونُ في آعْتِيارِ الزَّمَنِ أَنَّها مِنْهُ، وَمَصِيرُ الأَفْكارِ الأُخْرى أَنَّها تَسْتَحِيلُ إلى نَأْمَاتٍ خَافِتَةٍ في أَذُنِ الدَّهْرِ، وَسَمْعِ التاريخِ.

وَمِنْ طَبِيعَةِ الفِكرَةِ، الَّتِي تَجْتَمِعُ فيها قُوى تاريخيَّةٌ كُبرى وتَنْجَحُ في إِقامَةِ دَوْلَةٍ جَدِيدَةٍ وَخَلَقِ تاريخٍ جَدِيدٍ، أَنْ تَكُونُ فيها عَنَاصِرُ الثَّورَةِ كامِلَةً، الثَّورَةُ الَّتِي هي ظاهِرَةٌ مِنْ يَقْظَةِ قُوى التاريخِ الرَّاكِدَةِ.

وَلأنَّ تَعاليمَ النَّبِيِّ مِنْ هَذَا النُّوعِ الَّذِي آجَتَمَعَتْ فِيهِ قُوى التاريخِ كَانَتْ لا تَتَّصِلُ بِمُجْتَمَعٍ إِلاَّ وَتَعْمَلُ فِيهِ عَمَلَهَا، فَتُلْهِئُهُ وَتُحْرِقُ عَلَيْهِ زُيُوفَهُ وَتُغَيِّرُهُ تَغْيِيراً تامّاً، حَتَّى كَأَنَّ ما لَيْسَ مِنْها لَيْسَ مِنَ الحَيَاةِ. بِذلكَ نَجَحَتْ نُبوَّةُ مُحَمَّدٍ وَنَجَحَتْ دَوْلَتُهُ، وفيها القُوى لِتَنْجَحَ كُلُّما حُرِّكَتْ وَانْبَعَثَتْ.

وكانتْ كُتُبُ النَّبِيِّ إلى المُلُوكِ أَوَّلَ دَعْوَةٍ مِنْ نَوْعِها في التاريخِ، دَعْوَةٌ دَوْلِيَّةٌ عامَّةٌ لِلدُّخُولِ في النُّظامِ الجَدِيدِ، وَجَّهَتْ على شَكْلِ كِتابٍ رَسْمِيٍّ. كما كانتْ إِعْلاناً بِوِلادَةِ دَوْلَةِ الإِسْلامِ والعَرَبِ، الَّتِي في ضَميرِ الزَّمَنِ عَنْها: أَنَّها كُلُّما وُلِدَتْ حَقّاً يَتَغَيَّرُ وَجْهُ التاريخِ.

---

(١) وَمَعْنَى آجَتِمَاعِ قُوى التاريخِ الرَّاكِدَةِ في الفِكرَةِ، أَنْ تَشْتَمِلَ الفِكرَةُ الجَدِيدَةُ على كُلِّ الصُّرُورِ الإِصْلاحيَّةِ، سِواءَ في الأخلاقِ والحَيَاةِ والاجْتِماعِ، ومِثالُهُ: أَنَّ القُوى التاريخيَّةَ الَّتِي ظَهَرَتْ في دَوْلَةِ فارِسَ ثُمَّ تَخَلَّفَتْ، وَكَذلكَ في دَوْلَةِ الرُّومانِ، ودُورِ الأَرْضِ إِذْ ذاكَ، وَجَدَتْ سَبيلَ ظُهورِها وقابليَّةَ انْبِعاثِها في الفِكرَةِ الجَدِيدَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْها النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ، فَانْبَعَثَتْ فيها كُلُّ قُوى التاريخِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ رَكَدَتْ في الأُمَمِ حَبِيئاً، وَكَذلكَ كُلُّ فِكرَةٍ في كُلِّ دَوْرٍ لا تَمْلِكُ قُوَّةَ الاِمْتِدَادِ والحَيَاةِ والسَّيْطَرَةِ إِلاَّ إِذا كَانَتْ فيها قابليَّةٌ لَانْبِعاثِ القُوى التاريخيَّةِ فيها الَّتِي تَخَلَّفَتْ في أَوْضاعِ الأُمَمِ الأُخْرى.

في هذه الفترة كُنت تُحسُّ في كُلِّ نَحْوٍ من أُنحاءِ المَدِينَةِ بِحَرَكَةِ نَشَاطِ  
غَرِيْبَةٍ، وَتَسْمَعُ هَمَسَاتٍ مُسْتَطِيلَةً مُتَّصِلَةً الِهَمَمَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ حَدِيثٌ إِلَّا  
حَدِيثَ الْكُتُبِ، وَمَاذَا سَيَكُونُ رَجْعُهَا وَرَدُّ الْمُلُوكِ عَلَيْهَا؟ وَكَانَ، فِي الطَّرِيقِ الْآخِذِ  
إِلَى الْعَوَالِي، جَمَاعَةٌ آتَتْحَتْ بِنَفْسِهَا نَاحِيَةً ظَلِيلَةً تَكَاثَفَتْهَا أَوْرَاقُ الْأَغْصَانِ الْوَارِفَةِ.  
فَقَالَ قَائِلٌ: أَمَا تَرَوْنَ أَنَّهَا مُحَاوَلَةٌ خَطِرَةٌ، قَدْ تَوَلَّبَ عَلَيْنَا جَمَاعَاتُ الْأُمَمِ،  
وَهِيَ تُحِيطُ بِجَزِيرَتِنَا إِحَاطَةً السَّوَارِ بِالْمِعْصَمِ، فَإِنَّ نَفْسِي تَتَنَاشَى بِالْخَوَافِ،  
وَتَتَقَسَّمُهَا شُعَاعًا.

قَالَ الْمُقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ: لَا يَنْتَفِخُ سَحْرُكَ<sup>(٢)</sup> بِالْأَوْهَامِ، وَلَا تُرْعِ، وَسَرُّ عَنْ  
نَفْسِكَ الْخَوَافِ. إِنَّ لَنَا مِنْ قُوَانَا الْجَمِيعَةِ مَا يَجْعَلُنَا كُتْلَةً مِنَ الصُّلْبِ، مِنْ وَرَائِهَا  
الْإِيمَانُ يَشُدُّنَا، وَمِنْ وَرَاءِ الْإِيمَانِ اللَّهُ وَاهِبُ الْقُوَى وَالْقَدَرِ، فَلَسْنَا نَرْهَبُ عَاتِيًا مِنْ  
الْبَشَرِ. وَإِنَّ النَّفْسَ الَّتِي رَأَتْ وُجُودَهَا فِي اللَّهِ، تَتَطَاوَلُ بِهَا الْقُوَى، وَتَتَقَاصِرُ فِي  
مَدَى آغْتِبَارِهَا آيَةُ قُوَى أُخْرَى، فَتَنْقَذِفُ، وَهِيَ قِلَّةٌ رَاغِدَةٌ، مِنْ مَصْدَرِ الْقُوَّةِ  
الْكُبْرَى. وَحَظُّ الْإِنْسَانِ مِنَ الْحَيَاةِ، كَمَا هُوَ فِي مِرَاةِ نَفْسِهِ الَّتِي هِيَ يَنْبُوْعُ الْمَطْلَقِ،  
وَلَيْسَ كَمَا هُوَ فِي مِرَاةِ الْوُجُودِ الَّتِي لَا تَعْكِسُ إِلَّا نِسْبِيَّةً وَظِلَالًا خَادِعَةً مُخْتَلِطَةً.  
وَإِنَّ الْوُجُودَ كَائِنٌ بَسِيطٌ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا حَقَائِقَ بَسِيطَةً، وَأَمَّا حَقَائِقُ الْوُجُودِ  
الْعُظْمَى فَهِيَ مِنْ هِبَاتِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْوُجُودِ. وَالْإِنْسَانُ لَيْسَ كَائِنًا مُتَفَصِّلًا مِنْ  
الْوُجُودِ فَقَطْ، بَلْ هُوَ أَدَاةُ خَلْقٍ وَتَكْمِيلٍ فِيهِ... فَالْحَيَاةُ وَأَشْيَاؤُهَا، وَالْوُجُودُ الْمَعْنَوِيُّ  
وَفِكْرَتُهُ، بِدْعَةٌ هَذَا الْإِنْسَانِ الْعَجِيبِ الَّذِي لَوْلَاهُ لَظَلَّ الْوُجُودُ بَسِيطًا سَادَجًا لُحْلُوًا  
مِنَ الْإِغْرَاءِ.

وَالْإِنْسَانُ الَّذِي لَا يَفْتَأُ يَطْلُبُ كِبْرِيَاءَ الْوُجُودِ، وَيُحِسُّ بِنَشْوََةِ وُجُودِهِ فِي  
حُدُودِ هَذِهِ الْكِبْرِيَاءِ، بَلْ لَا يُحِسُّ بِالْوُجُودِ بَعِيدًا، لَيْسَ كَائِنًا طَبِيعِيًّا، وَإِلَّا فَهُوَ،

(٢) تَعْيِيرٌ كِبَائِيٌّ اسْتَعْمَلَهُ الْعَرَبُ فِي الْحَاثِلِيَّةِ وَفِي الْإِسْلَامِ تَعْنِي: لَا يَمْلِكُ الرُّعْثُ وَالْهَلَعُ أَحْشَاءَكَ وَرِثْيَكَ.

ككائنٍ طبيعيٍّ، شيءٌ تافهٌ مثلُ أيِّ كائنٍ آخرَ ينمو ويذوي بينَ فتراتٍ مِنَ الزَّمنِ.

والإيمانُ باللهِ الذي دعا إليه الإسلامُ، في حقيقته، إيمانٌ بالإنسانِ، وهذمٌ للإيمانِ بالوجودِ الصَّامِتِ الذي هو وثنيَّةٌ تحوُّلٌ بينَ الإنسانِ والإيمانِ بنفسِهِ ومَعْرِفَتِهَا، وإلى هذا يَؤمِّرُ قولُ النَّبيِّ الأعْظَمِ «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ».

فالإنسانُ كائنٌ إلهيٌّ إذا فَهِمَ نَفْسَهُ، وكُلَّمَا رَسَبَ إلى الطَّبِيعَةِ، وآمَنَ بِقُوَّاهَا، فَقَدْ رَسَبَ وتَلَاشى في غِمارِ الوجودِ الصَّامِتِ، وعادَ كَحَفْنَةٍ هَامِدَةٍ مِنَ الرَّمالِ. والنَّبيُّ بَشَّرَ بالإنسانِ «ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» وحَارَبَ الوثنيَّةَ لأنَّها كُفِّرَ بِهِ، وآزَتْدادٌ إلى تَأْلِيهِ مَظَاهِيرِ الوجودِ الخادِعةِ، وجاءَ بتَوْحِيدِ الآلِهَةِ لأنَّها كُلَّمَا تَعَدَّدَتْ تَلَاشى الإنسانُ في ساحتِهَا.

وما آنكَسَفَ قَمَرُ الإنسانِ في أُمَّةٍ، وآزَتْدَتْ بِعِبَادَتِهَا إلى تَقْدِيسِ الطَّبِيعَةِ دونَ الإنسانِ، إلَّا هَوَتْ مُضْمِجَلَّةً، وكانَ ذلكَ أوَّلَ عَلائِمِ اخْتِضَارِهَا، فإنَّ الإنسانَ، وخَدَهُ، هو الحَقِيقَةُ الكُبْرَى في الحَيَاةِ والوجودِ حينَ خَلَقَهُ اللَّهُ على صُورَتِهِ.

والقُوَّةُ - يا هذا - كَيْفِيَّةٌ لا كَمِّيَّةٌ، وَلَيْسَتْ كما هي في مِرَاةِ الوجودِ، بل كما هي في وَجْدانِ الإنسانِ، والظَّفَرُ دائِماً يَكُونُ بِخَيَالِ القُوَّةِ ومُبَالَغَاتِهَا في النَّفْسِ «كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ». فَوَاللَّهِ لَوْ قَذَفَ بِنَا النَّبِيِّ إلى بَرْكِ الغِمَادِ وإلى كُلِّ مَدَائِنِ كِشْرَى وَقَيْصَرَ ما وَثِقْنَا ولا نَكَلْنَا؛ وَنَحْنُ لا بُدَّ ظَافِرُونَ.

قالَ سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ: عَهْدُنَا بِكَ أَنْكَ بَطْلٌ، فَها أَنْتَ حَكِيمٌ أَيْضاً...

قالَ المِقْدادُ: إِنَّ البُطُولَةَ مَعْرِفَةُ الإنسانِ نَفْسَهُ، فإذا بَرَزَتْ في العَمَلِ قِيلَ عَنْهَا بُطُولَةٌ، وإذا بَرَزَتْ في الفِكرِ قِيلَ عَنْهَا حِكْمَةٌ. فَالبُطُولَةُ حِكْمَةٌ صَامِتَةٌ، وَلَنْ يَكُونَ المَرْءُ بَطْلاً إلَّا إذا سَبَقَ وَعَرَفَ نَفْسَهُ، أي كانَ حَكِيماً، والنَّبيُّ سَبَقَ وَعَرَفَنا بأنْفُسِنا،



فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَ كُلُّ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ أَبْطَالًا.

وَيَيْنَا هُمْ عَلَى تَبْشِطِهِمْ فِي الْحَدِيثِ، عَرَضَ رَاكِبٌ مُجِدُّ يُغْذِي الْخُطْيَ غَدًّا،  
وَحِينَ حَاذَاهُمْ قَامَ إِلَيْهِ الْجَمْعُ وَخَفُّوا بِهِ مُلْقِينَ إِلَيْهِ رُؤُوسَهُمْ.

وَقَالُوا بَلَهَجَةِ الْمُتَنَظِّرِ: مَا وَرَاءَكَ؟ وَكَانَ هُوَ الرَّسُولَ الَّذِي بَعَثَهُ النَّبِيُّ بِالْكِتَابِ  
إِلَى كِشْرَى.

قَالَ الرَّاَكِبُ، وَقَدْ أَلَوَى رَأْسُهُ حَتَّى حَاذَى رُؤُوسَهُمْ: إِنْ كِشْرَى بَلَغَتْ بِهِ  
حِمَاقَتُهُ أَنَّهُ مَرَّقَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ مُسْتَخِفًّا حَانِقًا، فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَتُهُ سَالِمًا عَدَا  
عَلَيْهِ آبَتُهُ فَقَتَلَهُ، وَقَامَ مَقَامَهُ، وَشَمَلَ النَّاسَ كَافَّتَهُمْ نَوْعٌ، بَلْ أَنْوَاعٌ، مِنَ الدُّهُولِ  
وَالدَّهْشَةِ وَالاضْطْرَابِ، وَتَرَكْتُهُمْ وَهُمْ يَمُوجُونَ كَالْآذِيِّ ذِي الْأَمْوَاجِ الْعَارِمَاتِ...  
فَتَعَلَّقُوا بِمَسَاءَلَتِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَكِنَّهُ حَثَّ مَطِيئَتَهُ وَأَنْطَلَقَ يَسِيرُ، فَأَنْقَلَبُوا إِلَى  
بَعْضِهِمْ يَتَعَجَّبُونَ.

قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ: لَقَدْ صَدَقَ الْمُقْدَادُ وَاللَّهُ حِينَ قَالَ: إِنَّ الْإِيمَانَ إِذَا خَبَا،  
حَلَّ مَحَلَّهُ جَهْلُ الْإِنْسَانِ قِيَمَتَهُ. وَالْمَثَلُ الْعُلْيَا وَالْمَعْنَوِيَّاتُ الْخَالِدَةُ، وَهِيَ تَنْبُعُ مِنْ  
مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ، لَا يَعُودُ لَهَا وُجُودٌ فِي جَوْهٍ وَفَضَائِهِ، فَيَسْطِرُّ عَلَيْهِ نَوْعٌ حَادٌّ  
مِنَ التَّفَاهَةِ يَقْعُدُ بِهِ عَنِ الْمَجْدِ، وَنَوْعٌ حَادٌّ آخَرُ مِنَ الْمَلَالِ يَهْبِطُ بِهِ إِلَى الرُّغَامِ. وَفِي مَا  
نَقَلَ إِلَيْنَا الرَّسُولُ الْآنَ مِنْ حَالِ الْفُرْسِ شَاهِدٌ جِدُّ خَطِيرٍ، فَهُمْ أُمَّةٌ جَهْلُ الْإِنْسَانِ  
فِيهَا قِيَمَتُهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَعُودَ وَلَا قِيَمَةَ لَهَا، رُوِيَ أَنْ تُشْرِقَ عَلَيْهِمْ شَمْسُ إِنْسَانِيَّتِنَا  
الْجَدِيدَةِ.

وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا حَتَّى خَفُّوا، بَعْضُهُمْ فِي إِثْرِ بَعْضٍ، وَوَافُوا الْمَدِينَةَ، وَكَانَ  
النَّاسُ يَمُوجُونَ مَوْجًا، فَقَدْ هَبَطَ أَيْضًا الرَّسُولُ إِلَى قَيْصَرَ وَهُوَ يَنْقُلُ مِقْدَارَ اخْتِرَامِ  
قَيْصَرَ لِلْكِتَابِ، وَهَبَطَ سَائِرُ الرُّسُلِ الْآخَرُونَ يَنْقُلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ؛ فَبَارَكَهُمُ النَّبِيُّ وَنَادَى

المُؤَذَّن «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ» فَاسْتَوَى النَّبِيُّ فِي مُصَلَّاهُ، وَخَفَّ  
النَّاسُ يَنْتَظِمُونَ صُفُوفًا.

قَالَ قَائِلٌ لآخر، وَقَدْ تَوَجَّهَ النَّاسُ يُكَبِّرُونَ بِالصَّلَاةِ: إِنِّي لَيْسَتْخِفُنِي شُعُورُ  
عَنيفٌ أَنَا مَعَهُ جِدُّ مُغْتَبِطٍ، فَقَدْ طَفَرْنَا إِلَى قِمَّةِ التَّارِيخِ، وَغَدَوْنَا أُولَى فِكْرَةٍ أُسْمَى  
مَا يَكُونُ الْفِكْرُ، وَأُولَى مُجْتَمَعٍ أُسْمَى مَا يَكُونُ الْمُجْتَمَعُ، وَإِنَّهُ سَيَظَلُّ لَنَا تَذَكَارَانِ  
خَالِدَانِ: يَوْمُ الْهِجْرَةِ وَهُوَ تَذَكَارُ نَجَاحِ النَّبُوَّةِ، وَيَوْمُ الرُّسُلِ أَوْ الشُّفَرَاءِ وَهُوَ تَذَكَارُ  
نَجَاحِ الدَّوْلَةِ. «وَجَاءَ حُسَيْنٌ يَشْتَدُّ بَيْنَ الصُّفُوفِ، وَقَدْ سَجَدَ النَّبِيُّ يُصَلِّي فَالْتَزَمَ  
عُنُقَهُ، فَقَامَ وَأَخَذَهُ بِيَدِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يُمَسِّكُهُ حَتَّى رَكَعَ».

مَضَتْ سَنَةٌ سَبْعٍ وَأَهْلَتْ سَنَةٌ ثَمَانٍ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ قَدْ شَارَفَ الرَّابِعَةَ أَوْ  
عَبَّرَهَا، حِينَ آتَجَّهَ النَّبِيُّ لِدَكَ آخِرِ مَعْقِلٍ مِنْ مَعَاqِلِ الْأَوْهَامِ، (مَكَّةَ)، الَّتِي هَوَتْ  
بِالْإِنْسَانِ إِلَى دَرْكِ التَّارِيخِ، وَمَلَأَتْ أَجْوَاءَهُ بِالْأَسَاطِيرِ، حَتَّى أَنْقَلَبَ مَعَهَا وَهُوَ  
أُسْطُورَةٌ حَيَّةٌ، وَأَنْقَلَبَتْ دُنْيَاهُ الَّتِي يَحْيَاهَا وَهِيَ حَيَاةٌ فِي أُسْطُورَةٍ.

هَبَطَتْ جُمُوعُ النَّبِيِّ مَكَّةَ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، وَدَلَفُوا إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ حَدْبٍ، وَبَرَزَ  
النَّبِيُّ كَالنَّسِيرِ الطَّائِرِ، وَهُوَ رَمُزُ فِكْرَةٍ وَتَفْؤُوقٍ، وَسَارَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، وَمِنْ آيَةٍ  
جِهَاتِهِ أَوْهَامٌ مُتَجَسِّدَةٌ (أَصْنَامٌ)، عَبَدَهَا الْإِنْسَانُ، فَكَانَ يُشِيرُ إِلَيْهَا بِيَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا،  
وَيَهْتِفُ بِكَلِمَةِ اللَّهِ الْقَارِعَةِ «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا». فَهَوَتْ  
مُكِبَّةً، وَغَابَ رَجُوعُ صِدَاها فِي الْغُورِ السَّحِيقِ، وَتَمَجَّدَ الْحَقُّ يَوْمًا فِي دُنْيَا الْإِنْسَانِ،  
وَعَرَا النَّاسَ جَلَالَ الْمَوْقِفِ، وَرَاحُوا فِي يَقْظَةٍ آسِيغَرَاqِ كَانَتْ وَاعِيَةً، وَجَرَى عَلَى  
لِسَانِ فُضَالَةِ اللَّيْثِيِّ:

لَوْ مَا رَأَيْتَ مُحَمَّدًا وَجُنُودَهُ بِالْفَتْحِ يَوْمَ تَكَسَّرَ الْأَصْنَامُ

لَرَأَيْتَ نَوْرَ اللَّهِ أَصْبَحَ بَيْنَنَا وَالشُّرُكَ يَغْشَى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ

وَحَشِدَتْ قُرَيْشٌ أَشَابَاتِ أَشَابَاتٍ، وَرَاحَ النَّبِيُّ يَخْطُرُ بَيْنَهُمْ، وَرُؤُوسُهُمْ قَدْ  
سَاوَتْ الصُّدُورَ.

قال: ما تَرُونِي فاعِلاً بِكُمْ؟

قالوا: أَخْ كَرِيمٌ وَأَبْنُ أَخٍ كَرِيمٍ!

فَقَالَ، وَقَدْ جَمَعَ ثُبُلَ الْإِنْسَانِ مِنْ أَطْرَافِهِ: إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ!...

وَرَدَّدَ الصَّدَى فِي كُلِّ مَكَانٍ «إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ»، الَّذِي كَانَ إِعْلَاناً  
لِلْبَشَرِيَّةِ بِأَنَّ هَذَا يَوْمُ مُحَرَّرِيَّتِهَا. فَلَمْ تَكُنْ حَزْبُ النَّبِيِّ غُتُوّاً وَاضْطُّهَاداً وَقَدْ وَجَدَ سَبِيلَهُ  
إِلَيْهِمَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ خَلَاصاً وَتَحْرِيراً لَكَيْ يَتَنَفَّسَ الْإِنْسَانُ بِمِلءِ رِئْتَيْهِ فِي الْعَرَاءِ...  
وَتَرَدَّدَ فِي الدَّهْرِ أَنَّ مُحَمَّدًا أَطْلَقَ الْقَفِيرَ، وَكَسَرَ قُيُودَهُ...

وراح الفراش يطير في الحقول تتحاضنه أيدي الزهرات.

فَقَلَ النَّبِيُّ رَاجِعاً إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ آزَدَتْ بِبَهْجَاتِهَا، وَأَصْبَحَتْ وَفِي كُلِّ  
نَيْتِ صَدَى فَرْحَةٍ أَنْطَلَقَتْ مُتَمَاجِجَةً وَكَبِيرَةً، وَكَانَ النَّبِيُّ يُلَبِّي دَعَوَاتِهِمْ وَيُشَارِكُهُمْ  
مِرَاحَ الظَّفَرِ وَفَخَارِهِ.

قَالَ يَغْلَى بَنُ مَرْة: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى طَعَامٍ وَأَنَا مَعَهُ، فَإِذَا حُسَيْنٌ فِي  
السُّكَّةِ مَعَ غِلْمَانٍ يَلْعَبُ. فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ أَمَامَ الْقَوْمِ وَبَسَطَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ الْغُلَامُ يَفْرُ  
هَا هُنَا وَهَا هُنَا، وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يُضَاحِكُهُ حَتَّى أَخَذَهُ، فَوَضَعَ إِحْدَى يَدَيْهِ تَحْتَ  
قَفَاهُ وَالْأُخْرَى تَحْتَ ذَقْنِهِ وَقَبْلَهُ، وَقَالَ:

حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا، وَحُسَيْنٌ سَبْطٌ مِنْ  
الْأَسْبَاطِ».

\*

نُحِبُّ البُنُوَّةَ لَأَنَّهَا خُلُودٌ لِلذَّاتِ...  
وفي الحُسَيْنِ كَانَ النَّبِيُّ يَرَى خُلُودَ ذَاتِهِ...  
فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَ يَغْمُرُهُ بِهَذَا الْحُبِّ لِأَنَّهُ آسْتِمْرَارُ ذِكْرِى التُّبُوَّةِ...

\*

ضَمَّةٌ إِلَيْهِ مَلِيًّا بَيْنَ الْحُبِّ وَالْمَجْدِ...  
وَحَنَا طَوِيلًا عَلَيْهِ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ...  
فَكَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ وَفِكْرِهِ جَمِيعًا...  
وَوَظَلَّ أَبَدًا رَمَزَ مَعْجِدِ شَامِيخٍ، وَقُبْلَةَ حُبِّ كَتَنَفُّسِ أَزْهَارِ السَّحْرِ وَعَبَقِ  
الْخُلْدِ!...

\*

الْحُبُّ شُعُورٌ إِلَى شُعُورٍ، وَخَفَقَةٌ قَلْبٍ إِلَى خَفَقَةِ قَلْبٍ...  
وَالشُّعُورُ جَوْهَرٌ فَرْدٌ لَيْسَ يَنْقَسِمُ...  
فَكَانَ حُسَيْنٌ مِنْهُ وَكَانَ مِنْ حُسَيْنٍ!...

\*

إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ!...  
خِطَابٌ لِقُرَيْشٍ مُشِيرًا إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ...  
لِيَقِفَ شَاعِرًا بِوُجُودِهِ عَلَى حُطَامِ الْأَغْلَالِ وَرُفَاتِ أَرْبَابِ الْقُبُودِ...  
فَهَذَا صَوْتُ مَنْ السَّمَاءِ يَنَادِي بِالْحُرِّيَّةِ وَيُنَادِي بِالْخَلَاصِ...

إَذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَاقُ!...

كَلِمَةٌ صَدَرَتْ مِنْ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ وَبَيْتِ مُحَمَّدٍ...

فَكَانَتْ إِذَانًا بِأَنَّ مَوْكِبَ الْحُرِّيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ يَسِيرُ، وَفِي الطَّلِيعَةِ أَبَدًا  
يَكُونُ...

وَطَبِيعَةُ الطَّلِيقِ، لَا تَجْعَلُهُ بِأَغْبَاءِ هَذَا الْأَمْرِ خَلِيقًا!...

فَأَبْنَاءُ الْإِسَارِ يَنْطَبِعُونَ عَلَى شَهْوَةِ الْأَسْرِ!...

فَقَدْ عَشَّشَتِ الْقُبُودُ فِي رُوحِيَّتِهِمْ وَتَوَلَّدَتْ مِنْهَا عَقْلِيَّتُهُمْ!...

\*

وَلَكِنْ حَاوَلَ الطَّلِيقُ الْإِنْتِهَازَ وَكَانَ...

فَعَادَتْ قُبُودُ السَّجْنِ وَالسَّجَّانِ...

فَحَمَلَ حُسَيْنٌ - وَهُوَ رَامُوزُ بَيْتِ الْحُرِّيَّةِ وَحَارِسُهَا - الشُّعْلَةَ الْمُقَدَّسَةَ إِلَى كُلِّ  
مَكَانٍ...

فَقَدْ سَمِعَ زُمْرَةً تُحْرِقُ الْأُرَمَ مِنْ وَرَاءِ الْقُبُورِ، فَأَغْلَنَ التُّكْرَانَ...

وَهَبَّ تَحْتَ صَوْتِ الْوَاجِبِ يُغَالِبُ الْبُحْرَانَ... وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكْبَحْ جِمَاحَ  
الطُّغْيَانِ...

فَقَدْ تَرَكَ فِي جَنْبِهِ نَوْرَةَ الْبُرْكَانِ...

\* \* \*

## دموع

كثيراً ما كان النبي يُرى، في أخريات أيامه، بين ذويه وأبنائه يُوايشهم،  
ويطمئن في نشوة خفيفة إلى أشياء لهُوهم البريء ومرحهم الحلو، ويُعاطيهم أسباب  
هذا اللهُو وهذا المرح، ويمدُّ لهم فيهما، فقد حقّق حلم المجد وأدى غاية الرسالة  
القُصوى، فهو يشعُر بالاطمئنان والرضا، ويُحسُّ بتراحيم سُرور عميق.

وكان يأنس كثيراً إلى هذا الجو الذي تشيع فيه حركات الطفولة ناعمة  
ببراءتها، هائلة بسداجتها، مُنتشبة بطراوتها... وهي، رُغم قسوتها أحياناً، تجدُّ  
وقعها اللذيذ، فإن البراءة جمال على شتى صُورها وألوانها.

والطفولة، وخذها، أثبت حقائق الحياة، وما وراءها سُخريات وأشباه  
سُخريات تبدو خشيئة، وكلما أوغلنا في مدى الحياة تزيدُ خشونة وتوعراً. وحين  
تُدركنا لذاتها عَرَضاً فإتّما تكون في شكلٍ من أشكال الرجعة إلى الطفولة، وفي  
إنضاء زُيوف ثَقِيلَةٍ من أثواب التكلّف المُرهقة... والتكلّف رياءً وأنايئة على كُلِّ  
وجوهه، ولذلك أنصرفُ جُهدُ النبي إلى أن يضع في كُلِّ الحياة براءة الطفولة.

ونحن لا نستطيع الرجعة إلى الطفولة وبعثها من جديد على أية صُورها،  
كما نعجز دائماً عن خلق جوّها المُتَرَفِّ، فنطلبها في الطُفْلِ بِشَوْقٍ مُلِحٍّ، وفي نوع  
من الحنين الآسِر، ليغمُرنا بروجيتها التي تظلُّ فينا أملاً منشوداً، ورغبةً حادة.



والنبيّ كان يجدُ طفولةَ حياته اللاذّة في أبنائه كما كانت وعلى ما كانت،  
 فيأخذهم بصنوف اللّعب في حنانٍ وآفترارٍ. وكثيراً ما كان يرى الحسن والحسين  
 يضطّرعان وهو يحمّسهما، أو يلعبان بالمداحي<sup>(١)</sup> وهو يغبّ الهناءة عبّاً، ويتملأ  
 منها، ويتذوّق «خلوّاء البنين» التي هي النشوة الكبرى في ظلال العُمُر. فإن لاذّة  
 الحياة تقوم في نشوتين: نشوة بالطفولة، ونشوة بذكرها في الطّفّل، وما بقي من  
 فصول الحياة هجير كهجير الظهيرة، ولذّع كلذّع اللّهب، وحرقّة تنتهي بمرارتها.  
 والطّفّل طائرٌ يرف بين أيدينا لنلحق به إلى جوّ حقائقه وأحلامنا، وكان  
 الحياة تضع الحقيقة العارية السعيدة، بكلّ فتونها، بين يدي الطّفّل، فيغرق في  
 حمارها زمناً، ولكنها تنأى وهو في قِمة شعوره باللذّة المطلقة، فيحبو وراءها في  
 لهفات، ثمّ يعدو في لهثات، وهي تنأى وتنأى حتّى تحور في كَوْنٍ مِنَ الضباب  
 يحول الأفق دونها، ويتقطع بالحَيّ المسير فيستغرق حالمًا، هائمًا، فقد سقط في  
 السراب، تطوف به وتنازعُه أحلامُ الماء.

وإذ يضطّرعان، كان النبيّ يهيج حركات طفولتهما المتشابهة التي هي رمز  
 عبث في جدّ، وجدّ في عبث، تنتظمها براءة مريحة.

فيقول: «إيهّا حسن».

قالت فاطمة: أتستنهض الكبير على الصّغير؟!

قال: هذا جبريل يقول: «إيهّا حسين»!

وجبريل رمز من المطلق، وأسم من المثال، وفي لحظة استغراق واستغلاء  
 طافت بنفس النبيّ صورة من التجريد برزت مجسّمة ومكبّرة، وهي تُشاركه نشوته

(١) المداحي: أحجار، كانوا يحفرون حفيرة ويدحون فيها بتلك الأحجار، فإن وقع الحجر فيها فقد غلب  
 صاحبها، وإن لم يقع غلب، والدخو رمي اللّاعب بالحجر والجوز وغيره. أي أشبه ما تكون بالغولف اليوم.

وبَهْجَةٍ مَا يَجِدُ حِيَالَ مَرَحٍ سِبْطِيهِ. وَلَمْ يَكُنْ جَبْرِيلُ غَرِيباً عَنْ جَوِّهِ، فَهُوَ رَمَزُ  
رِسَالَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ حُسَيْنٌ بَعِيداً عَنْ قَلْبِهِ، فَهُوَ رَمَزُ حُبِّهِ. وَفِي هَذَا الِاسْتِنْهَاضِ  
التَّعْثِيلِيَّ رَمَزِيَّةٌ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْحُسَيْنَ سَيَكُونُ رَائِدَ الرِّسَالَةِ وَعَلَمَ الْهُدَى، فِي أَعْمَاقِ  
ضَمِيرِهِ صَوْتُ مِنَ الْغَيْبِ يَتَرَدَّدُ أَبَداً: إِيهَا حُسَيْنُ!...

مَعَ الْأَصِيلِ كَانَ فِي أَقْصَى الصَّخْرَاءِ رَاكِبٌ يَسِيرُ بَيْنَ الْجِدِّ وَالْهُوَيْنَا آخِذاً  
نَحْوَ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ يَتَدَوَّى مِنْ بَعِيدِ كُرَّةٍ يُدْخِرُجُهَا الْأَفُقُّ عَلَى الرَّمَالِ، وَالصَّخْرَاءُ هَيْكَلُ  
أَبَدِيَّةٍ مَكْشُوفَةٍ، تَتَمَدَّدُ فِي النَّفْسِ عَلَى رُحْبِهَا، فَتَتَمَدَّدُ بِهَا النَّفْسُ لَا مُتَنَاهِيَةَ تَطَالُعِ  
الْمَجْهُولِ.

وَكَانَ الرَّاكِبُ أَبَا ذُوَيْبٍ الشَّاعِرَ الْحَزِينَ الَّذِي صَفَّرَ الْحُزْنَ عَلَى هَامَتِهِ إِكْلِيلاً  
تَنَاثَرَتْ أَوْرَاقُهُ، وَبَقِيَتْ أَشْوَاكُهُ الْقَاسِيَةُ تَأْبِرُهُ فِي خَطَرَاتِ الذُّكْرِ، وَخَلَجَاتِ  
الْحَنِينِ، وَرَجْفَةِ الْهَوَى، وَتَأَوُّدَاتِ الطَّيْفِ<sup>(٢)</sup>.

وَالصَّخْرَاءُ يَنْبُوغُ ذِكْرِيَاتٍ سَيِّمًا لِنَفْسٍ إِنْسَانٍ مَحْزُونٍ تَكَثَّرَتْ أَصْدَاءُ  
الْأَسَى فِي أُذُنَيْهِ، فَهُوَ يُحِسُّ بَوَقْرَهَا فِي الْخَلَاءِ ضَاجِجاً غَنِيماً، وَالنَّفْسُ الْبَائِسَةُ يَزْدَادُ  
فِيهَا صِدْقُ الْحِسِّ وَالْحَدَسِ، وَتَتَأَثَّرُ بِالْفَوَاجِعِ مِنْ بَعِيدٍ، وَبِرَعْعَشَاتِ الْغَيْبِ وَالْمَجْهُولِ.

عَرَّتُهُ، وَالْمِطِئَةُ تَتَهَادَى بِهِ، هِزَّةُ شَجَى، وَتَأَوَّدَتْ فِي أَعْطَافِ الصَّخْرَاءِ أَمَامَ  
نَظَرِيهِ طُيُوفَ رَامِزَةٍ. «وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ عَلِيًّا، وَكَانَ قَدْ اسْتَشْعَرَ حُزْناً مُذِيئاً،  
وَكَانَ قَدْ بَاتَ بِأَطْوَلِ لَيْلَةٍ لَا يَنْجَابُ دَيْجُورُهَا، وَلَا يَطْلُعُ نَوْرُهَا قَبْلَ أَنْ آتَبْتَدَأَ الْمَسِيرَ،  
فَهَوَّمَ مَعَ السَّحْرِ، فَسَمِعَ صَوْتَ الشَّاعِرِ يَهْتِفُ بِهِ فِي الْأَحْلَامِ:

خَطْبُ أَجَلٍ أَنَاخَ بِالْإِسْلَامِ بَيْنَ التَّخِيلِ وَمَعْقِدِ الْأَطَامِ

---

(٢) غَيْبِيَّةٌ أَجْمَلُ مَا قِيلَ فِي الرِّثَاءِ وَالتَّفْجِيعِ وَمِنْهَا الْبَيْتُ الذَّاهِبُ مَثَلًا:

وَإِذَا الْمَيِّتَةُ أَجْمَلَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَبَتْ كُلُّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

قُبِضَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ، فَعُيُونُنَا تَذْرِي الدَّمْعَ عَلَيْهِ بِالشَّجَامِ  
قال: فَأُصْحِيْتُ مِنْ مَنَامِي فَرِعَاءً، فَتَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ إِلَّا سَعْدَ الدَّابِحِ، فَأَوَّلَتْهُ ذَبْحاً  
يَقَعُ فِي الْعَرَبِ، وَعَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ قَدْ قُبِضَ.

فَحَثَّتُ رَاجِلَتِي وَسِرَّتُ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ طَلَبْتُ شَيْئاً أَزْجُرُ بِهِ، فَعَرَضَ لِي  
شَيْئَهُمْ، قَدْ قُبِضَ عَلَى صِلٍّ، فَهِيَ تَلْتَوِي عَلَيْهِ وَالشَّيْئُهُمْ يَقْضُمُهَا حَتَّى أَكَلَهَا،  
فَزَجَرْتُ ذَلِكَ وَقُلْتُ: شَيْئُهُمْ، شَيْءٌ هَمْ. وَالتَّوَاءُ الصَّلُّ: تَلْوِي النَّاسِ عَلَى الْقَائِمِ بَعْدَ  
رَسُولِ اللَّهِ.

فَأَذْرَكْتَنِي خَيْرَةً مُتَلَطِّئَةً عَرَضَ لِي فِيهَا شَبَحُ إِنْسَانٍ مُجِدِّ نَفَقَتْ تَحْتَهُ رَاجِلَتُهُ  
مِنْ طَوِيلٍ مَا حَمَلَهَا وَرَاحَ يُحْمَلُهَا، وَلَمْ يَقْعُدْ بِهِ الْإِنْقِطَاعُ بَلْ هَبَّ فِي غَيْرِ تَوَقُّفٍ،  
يَخْطُو خُطُوبَاتٍ وَاسِعَاتٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لِأَمْرِ مَا جَدَعَ قَصِيرٌ أَنْفَهُ!!  
«فَمَدَدْتُ الْخُطَى مَدّاً عَنِيفاً حَتَّى هَبَطْتُ الْمَدِينَةَ، وَلَهَا ضَجِيجٌ بِالْبُكَاءِ  
كَضَجِيجِ الْحَجِيجِ إِذَا أَهْلَوْا بِالْإِحْرَامِ، وَهَمَّ فِي ذَهْوِلٍ مُسْتَطِيلٍ وَوُجُومٍ.  
فَقُلْتُ: مَا الْخَبَرُ؟

قالوا: قُبِضَ النَّبِيُّ!  
فَجِئْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَوَجَدْتُهُ خَالِياً، فَأَتَيْتُ بَيْتَ النَّبِيِّ فَوَجَدْتُ بَابَهُ مُرْتَجِئاً،  
وَقِيلَ: هُوَ مُسَجَّى وَقَدْ خَلَا بِهِ أَهْلُهُ.

فَقُلْتُ: أَيْنَ النَّاسُ؟  
قِيلَ: فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ<sup>(٣)</sup>.

وفيما أنا فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ أَمْشِي مِشْيَةَ الْحَزِينِ الْحَائِرِ، رَأَيْتُ عَارِضَ

---

(٣) راجع: حياة الحيوان الكبرى للدميري، ج ٢، ص: ٦٧٠.

الصَّخْرَاءِ فَتَبَيَّنَتْهُ، فَإِذَا هُوَ مُعَاذُ بَنِي جَبَلٍ عَرَّتُهُ سَحَابَةٌ حُزْنٍ صَامِتٍ مَكْظُومٍ، فَتَلَقَّيْتُهُ  
بَيْنَ يَدَيَّ، وَقُلْتُ: أَأَنْتَ؟!

فَانْفَجَرَ وَانْفَجَرَتْ مَعَهُ بِدُمُوعٍ جَرَارٍ تَزِيدُ الْجَوَى لَوَعَةً، وَالْأَسَى لَذْعًا، وَكَانَ  
نَشِيجُهُ مَرِيرًا كَمَنْ ثَكَلَ كُلُّ ذَوِيهِ فِي مِيتَاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ مُتَلَا حِقَّةً، لَا تَفْصِلُ بَيْنَهَا إِلَّا  
هُنْهَاتٍ وَفَيْنَاتٍ. وَكَانَ الْحُزْنُ يَشْتَدُّ بِهِ دَرَاكًا حَتَّى لَمْ يُغْدِ يَتَمَاسِكُ، فَأَخَذَتْهُ إِلَيَّ  
وَهُوَ يَضُوءُ يَتَشَنَّجُ، وَشَلُوهُ يَتَنَزَّى.

وَبَعْدَ لَايَ أَفَاقٍ، وَكَانَتْ إِفَاقَتُهُ جِدًّا مَرِيرَةً، فَقَدْ هَبَّ كَالْمُرُورِ يَطْلُبُ شَيْئًا  
وَأَنَا وَرَاءَهُ، حَتَّى آتَتْهُ إِلَى كُلِّ بَابٍ يَفْرَعُهُ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَوْتَدَّ عَنْهُ. فَقَدْ كَانَ  
يَزْغَبُ فِي أَنْ يَرَى النَّاسَ لِيَخْرُجَ مِنْ وَحْدَتِهِ الْمُضْطَّةِ الْقَاتِلَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكَاذُ يَرَى  
أَحَدًا حَتَّى تَزِيدَ أَزْمَةً نَفْسِيهِ، وَتَتَجَدَّدَ لَهُ ذِكْرِي تَبَعْتُ نَفْسَهُ أَشَدَّ أَلْتِيَاعًا.

وَلَمْ يَزَلْ يَذْنُو وَيَنَاقِ، فِي رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، حَتَّى قَادَهُ الْمَطَافُ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ،  
وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُدَاوِيَ الْأَسَى بِالْأَسَى، وَيُلَاشِي الْأَلَمَ بِالْأَلَمِ. وَأَحْسَّ بِالْإِزْتِيَاكِ  
الْعَمِيقِ حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْأَلَمَ كُلَّهُ يَذُوبُ فِي مُضَاعَفَاتِ الْأَلَمِ، وَيَتَلَبَّسُ النَّفْسُ شُعُورًا  
سَلْبِيًّا مُبْهِمًا لَا يَتَجَاوَبُ مَعَهُ، فِي النَّفْسِ، غُلُوءُ الْإِلْتِيَاعِ وَبُرْحَاءُ الْأُخْزَانِ، فَإِنَّ  
الْمَشَاعِرَ، عَلَى اخْتِلَافِهَا، نِسْبِيَّةٌ وَلَا فَوَاصِلَ بَيْنَ أَطْرَافِهَا، فَهِيَ إِذَا بَلَغَتْ غَايَتَهَا  
هُبُوطًا، أَوْ أَرْتِفَاعًا، تَتَحَوَّلُ أَوْ تَهْمُدُ.

رَغِبَ كَثِيرًا، وَأَطْمَأَنَّ إِلَى أَنْ يُجَابِيَ الْأَسَى فِي هَيْكَلِهِ، لِيَسْتَفْرِقَ فِي لَحَظَاتِ  
الْمَرَارَةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي تَتَجَرَّدُ فِي الْإِطْلَاقِ، عَنْ مَعْنَاهَا وَوَقْعِهَا الْأَلِيمِ، فَقَدْ غَدَتْ  
لَاغُضُوبِيَّةٌ دُونَ أَغْصَابٍ تَتَقَلَّصُ أَوْ تَتَمَدَّدُ، إِنَّهَا أَصْبَحَتْ خَفَقَةً رُوحٍ فِي غَيْرِ لَوْنٍ.

فَمَضَى مُعَاذُ بِإِحْسَاسٍ وَجِدَانِيٍّ عَفْوِيٍّ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ، لِتُوَاجِهَ أَشَدَّ أَنْوَاعِ  
الْأَسَى فِي شَخْصِ النَّسْرِ الْحَزِينِ وَفِرَاحِهِ الْحَيَارَى، فَهُوَ يَشْتَهِي، وَيُفَضِّلُ كَثِيرًا، حَيْرَةً

الأسى اللّاشاعرة، والغفوة في الألم على أن يظلّ في يقظة الآلام.

وقف دون البيت طويلاً ثم قرع الباب، وما أشدها وأمرها مُصادفةً، فقد  
«برزت إليه فاطمة» تجول في مآقيها غصارة حبّ خالد، وتعلقت في أهدابها  
الواسعة دَمعة كبيرة، ليتها سقطت!...

وفي ناحية من البيت رأى الحسين، وليد النبي المحبّب، منكشاً على نفسه،  
يدير لحاظه فلا يرى إلا دموعاً، فغرق في الدموع، وكان بين حين وآخر يُناجي  
نفسه، ويُطارحها في حديث خفيض مسموع.

أبتاه!.. أين هو؟ لم أعد أراه! أليس لي أن أراه بعد اليوم؟ بالأمس القريب  
كان يُلاعِبني، كيف نأى؟ لم يعد لي، بعد الآن، حنان ذلك القلب الكبير!!  
فيزيد الفجیعة ويُحرّك النسيج، ومُعاذِ حالِمِ أُمّام هذا المشهدِ مُستغرق، إنه  
لم يعد يُحسّ بشيء، إنه غداً خلاء من كل شعور...

\*

مات مُحَمَّدُ البَشْرِيُّ ليُخلدَ مُحَمَّدُ النَّبِيُّ...  
فاستعبرَ الحسينُ لأولهما بالعاطفة والحنين...  
وافتدى ثانيهما بالدم القاني الصّيب...  
حينما حاولَ مَسَّ جلالِ الخلود، غواةً مُحَمَّقون...

\*

بعد أشهرِ معدوداتِ رُزِيءَ أُمُّهُ الزَّهراءُ وملاكَةُ الآخر...  
الذي كانَ يَشيعُ عليه بالأملِ الهاني والسَّعادةِ الحالمة...  
فجمدت في عَيْنِهِ دُموعٌ وفي قلبِهِ دُموع...  
جعلته، في حَيَاتِهِ كُلِّها، يُنظرُ إلى الأفقِ البعيد...

يَوَدُّ لو يَذُوبُ في الشَّفَقِ المُلْتَمِجِ من كُوى الأَبْدِيَّاتِ بِإِغْرَاءٍ...

\*

مِرَارَةٌ قَاتِلَةٌ على قَلْبِ غَضٍّ، هَبِطَتْ فَجْأَةً فَاثْتَقَلَتْ به من حالٍ إلى حالٍ...  
وَأَسْتَوَى دُفْعَةً، فَنَظَرَ إلى الحَيَاةِ من فَوْقِ كُوَّةِ الرِّعَابِ فَرَأَى حَمَاتِهَا...  
فَوَجَّهَ تَيَّارَهُ الطُّهُورَ، فَتَمَدَّدَتْ وَأَنْتَفَحَتْ مُتَجَهِّمَةً تُرِيدُ الصُّرَاعَ...  
فَتَقَرَّزَهَا وَاسْتَعْلَى، فَقَدْ تَرَكَ فيها دَفَقَاتٍ مِنَ اليَنُوبِ الأَقْدَسِ وهو لا بُدَّ  
مُطَهِّرُهَا...

ولم يَزَلْ يَسْتَعْلَى حتَّى لم يَعُدْ يُرى، إِلَّا نَجْمًا يَتَوَارَى في التَّخْلِيقِ بِإِشْعَاعَاتِ  
وَأَغْتِمَاضَاتِ...

\* \* \*



مِنَ أَيَّامِ الْعَهْدِ الرَّاشِدِي

## مع خليفة

في قِمة المَعجِد العَرَبِيِّ، حينَما كَانَتِ الرّايَةُ الإسلاميَّة تُنَسَّجُ وتُنظَّمُ خُيوطُها مِنْ تَمَالِكِ العالَمِ القَدِيمِ، وتَتَهَادى مُتَطاولَةً في الفِضاءِ، كَأَنها تُوشِّحُ الآفاقَ، وتُطِلُّ على عالَمِ يَمُورُ بِالخُلُودِ، وتَحْتَضِنُ جَدَاوِلَ الأَبديَّاتِ بِما فيها مِنْ فُتُونٍ، وَقَفَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يُبارِكُ هذا المَعجِدَ ويقولُ كَلِمَتَهُ بِلِسانِ التَّاريخِ، ويودِّعُ عالِماً يَدْفَعُهُ بِمَنكِبَيْهِ، وَيَسْتَقْبِلُ عالِماً بِكِلْتا يَدَيْهِ.

عالَمٌ مِنْ طَوْبَى مُحَمَّدٍ، وَلَكِنَّها طَوْبَى مُتَحَيِّزَةٍ تَحَيَّرَ الواقِعَ، ومُتَأَلِّقَةٍ تَأَلَّقَ الشُّعاعُ، وَهي، إلى هذا، مِلءُ السَّمْعِ والبَصَرِ، وَمَرادُ الأمانِي... عالَمٌ أَنْطَبَعَ على آفاقِهِ وَجْهُ مُحَمَّدٍ في هالَةِ القُرْآنِ، والقُرْآنُ هو اللُّوحَةُ الَّتِي شَاءَتِ الحَقِيقَةُ الخالِدَةُ أَنْ تَبْزُرَ فيها كَامِلَةً، قَدْ نَضَّتْ عَنْها شَتَى الأَثوابِ.

جَلَسَ على أُرَيْكَةِ هذا العالَمِ الجَدِيدِ الَّذِي هو مِنْ عَمَلِ نَبِيِّ الخُلُودِ، وَلَمْ تُكُنْ هذه الأُرَيْكَةُ، أو العَرْشُ، إِلَّا مِنْبَرُ المَسْجِدِ الَّذِي كانَ مُحَمَّدٌ يَقِفُ عليه، وَيَهْتِفُ بِلِسانِ السَّماءِ، يَهْدِي التَّائِهِينَ، والأَثِيرَ، مِنْ وَرائِهِ، يُرَدِّدُ النِّداءَ أَبْعَدَ ما يَتَناهى، فَمَحَا كَوْنًا وأَثَبَتْ كَوْنًا، وظَلَّ يَمُتالِ الحَقِيقَةُ الباقِيَّةُ بَيْنَ الكَوْنَيْنِ، وصَوَّتَ اللّهُ في وَغِيِّ العالَمِينَ مُتَجاوباً بِصَدَى الأَبَدِ.

لَمْ يَكُنْ في عالَمِ مُحَمَّدٍ عَرْشٌ لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فيه عُبودِيَّةٌ، وَلَمْ يَكُنْ فيه بِلَاطٌ

لأنه لم يكن فيه إزهابٌ وأستِصْناعٌ عَظَمَاتٍ مُزَيَّفَاتٍ، وإنما كان المنيبر فيه هو العرش، والمنيبر رمزٌ يُشيرُ إلى الكوة التي شَعَّ منها الهدى، وأنبثَقَ منها الضياءُ. وكان المسجدُ فيه هو البلاطُ، والمسجدُ رمزٌ يُشيرُ إلى التلاشي في الروح، والفناء في الإشراق، والنشوة الواعية في التأمل والاستغراق.

وَقَفَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ، وَكَأَنَّمَا زُورِيَ الْعَالَمُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْطَارِهِ، وَتَنَازَحَ فِي مُحَدُودِ مَوْضِعِهِ، وَالنَّاسُ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ يُصْغَوْنَ، وَالْكَوْنُ مِنْ وَرَائِهِ يَسْمَعُ وَيَخْشَعُ... وَمِنْ أَقْصَى الْمَسْجِدِ جَاءَ يَخْطُرُ بَيْنَ الصُّفُوفِ الْحُسَيْنُ، وَلِيدُ النَّبِيِّ، حَتَّى بَلَغَ مِرْقَاةَ الْمِنْبَرِ فَمَا تَهَيَّبَهَا، بَلْ صَعِدَ رَابِطَ الْجَأَشِ حَتَّى آتَتْهُى إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ عُمَرُ، فَشَارَكَهُ مَوْضِعَهُ.

وَكَانَ مَنظَرًا بَدَا غَرِيًّا، أُعْطِيَ النَّاسَ لَحْظَةً آتِيَاهِ شَرَعُوا مَعَهَا يُتْلَعُونَ رُؤُوسَهُمْ وَيَتَهَامِسُونَ، لَحَظَاتٌ ذِكْرَى آتَقَلَّتْ بِهِمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَمِنْ زَمَنِ يَعْيشُونَ فِيهِ إِلَى زَمَنِ يَحْتَوْنَ إِلَيْهِ، وَقَدْ ظَلَّ شَائِعًا حَيًّا فِي الْخَطَرَاتِ الْحُلُوءَةِ، يَوْمَ كَانَ الْحُسَيْنُ يَتَّخِذُ مَوْضِعَهُ إِلَى جَنْبِ جَدِّهِ الْعَظِيمِ، فِي هَذَا الشَّكْلِ وَهَذِهِ الصُّورَةِ.

ذِكْرَى سَعِيدَةٌ جَرَّتْ وَرَاءَهَا نَوْعًا مِنَ اللَّاشُعُورِ، وَتَمَدَّدَتْ فِي تَأْمُلٍ طَوِيلٍ، وَكَانَ اسْتِغْرَاقًا كُلُّهُ الشَّكِينَةُ وَالْاطْمِئْنَانُ، وَإِنْ بَدَا كَالْوُجُومِ الرَّانِي.

شَخَصَ النَّاسُ إِلَى الْغُلَامِ يَنْتَظِرُونَ مَا سَيَجِيءُ بِهِ وَيَصْدُرُ عَنْهُ، وَكَانَ الْغُلَامُ أَكْثَرَ مِنْهُمْ اسْتِغْرَاقًا، وَأَكْثَرَ نُفُودًا فِي الذِّكْرَى، فَرَّاحَ يُمَلِّئُهُ نَاطِرِيهِ وَيُمْتِعُهُمَا بِمَنْ آسْتَيْقَظَتْ نَفْسُهُ عَلَى أَنَّهُ جَدُّهُ.

هُوَ شَدِيدُ الْحَنَنِ، وَشَدِيدُ الْهَوَى إِلَى أَنْ يَرَى جَدَّهُ وَقَدْ فَصَلَ عَنْهُ زَمَنٌ كَانَ طَوِيلًا فِي حِسِّ الْقَلْبِ، وَكَانَ خَيَالًا شَدِيدَ الْأَسْرِ لَهُ، فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيهِ جَدَّهُ وَجَمَ مُلْتَاعًا، فَقَدْ أَنَهَارَ مَا أَجْتَمَعَ فِي خَيَالِهِ مِنْ لَذَائِطِ دُفْعَةٍ، كَمَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا

يَشْتَهِي، وهو في أدقِّ فِتْرَةٍ مِنْ لَذَّةِ التَّدْوِيقِ، فَرَسَبَ فِيهِ خَيَالٌ بُهِتَتْ بِهِ لَذَّةٌ، وَطَفَا فِيهِ خَيَالٌ آسَتَوَى مَعَهُ أَلَمٌ.

فَقَالَ لَهُ - أَيُّ لُغَمَرٍ - فِي شَيْءٍ مِنَ التَّحَدِّي الصَّارِمِ: «إِنْزِلْ عِن مِثْبَرِ أَبِي وَادْهَبْ إِلَى مِثْبَرِ أَبِيكَ»... فَاسْتَمَلَهُ عُمرُ وَحَنَّا عَلَيْهِ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي أَشْيَاءٍ مِنْ ديمقراطيةِ الحقِّ والاعترافِ الفِكِهَةِ الجميلِ:

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَبِي مِثْبَرٌ»... وَمَالَ عُمرُ عَلَيْهِ ثَانِيَةً، فَقَالَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ التَّرَقُّبِ والامْتِحَانِ النَّفْسِيِّ: «مَنْ عَلَّمَكَ؟».

فَقَالَ الْحُسَيْنُ فِي أَشْيَاءٍ مِنَ الذَّاتِيَّةِ الْمُتَفَتِّحَةِ: «وَاللَّهِ مَا عَلَّمَنِي أَحَدٌ»... وَكَأَنَّمَا رَدَّ عَلَيْهِ: بِأَنَّهُ شُعُورُ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَتَحَسُّسُ الشَّخْصِيَّةِ عَلَى مَحَلِّهَا وَمَوْضِعِهَا.

وَخَفَّ النَّاسُ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ يَقُولُونَ: إِنَّ الْحُسَيْنَ يُطَلُّ مِنْ نَافِذَةٍ مُقَلَّتِيهِ الْبَطْلُ...

وَكَانَ عُمرُ قَدْ أُعْجِبَ بِهِ فِي غَيْرِ حَدٍّ، وَكَانَ قَدْ أُخِذَ بِشَخْصِيَّتِهِ الْقَوِيَّةِ فِي غَيْرِ مِقْدَارٍ، فَرَأَى لِزَامًا عَلَيْهِ أَنْ يُثَرِّزَهُ فِي حَيَاةِ الْجِدِّ الْحَاكِمَةِ، وَأَنْ يَأْخُذَهُ بِأَسْبَابِ التَّوْجِيهِ والإِشْرَافِ عَلَى تَضْرِيفِ الْمُقَدَّرَاتِ الْعُلْيَا، فَقَالَ لَهُ:

«بَأَبِي! لَوْ جَعَلْتَ تَغُشَانَا»... وَأَنْقَضَى وَقْتُ قَبْلَمَا آجَتَمَعَ إِلَيْهِ ثَانِيَةً، وَتَخَلَّلَتْ أَخْدَاتٌ، فَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيْهِ شَكْوَى مِنْ أَطْرَافِ الشَّامِ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَأَهْتَمَّ لَهَا عُمرُ، وَكَانَ رَجُلًا صَلِيبًا، فَاسْتَقْدَمَهُ مَعَ الْبَرِيدِ مُسْرِعًا وَخَلَا بِهِ، وَكَانَتْ الطَّرِيقُ قَدْ جَمَعَتِ الْحُسَيْنَ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمرَ، فَقَصَّدا إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ يَزُورَانِهِ، فَطَلَبَ ثَانِيَهُمَا الدُّخُولَ، فَقِيلَ لَهُ:

«إِنَّهُ خَالٍ بِمُعَاوِيَةَ»... فَأَنْقَلَبَ ابْنُ عُمرَ، وَأَنْقَلَبَ الْحُسَيْنُ مَعَهُ، وَفَصَلَ زَمَنٌ

لَمْ يَكُنْ بَعِيداً حِينَ صَادَفَ عُمَرَ، فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ، الْحُسَيْنَ، فَقَالَ لَهُ:  
«لَمْ أَرَكَ»... فَزَوَى لَهُ كَيْفَ حَيْلَ يَتَنَبَّهَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُهُ وَالْدُّخُولِ، وَكَيْفَ رَجَعَ  
مَعَهُ، فَتَصَوَّرَ عُمَرُ، بِشَكْلِ الْجِدِّ، إِشْعَاراً بِالْفَرْقِ الْكَبِيرِ، وَقَالَ، وَصَوْتُ الْحَقِّ يُدَوِّي  
فِي مَقَالِهِ:

«أَنْتَ أَحَقُّ مِنْ آبِنِ عُمَرَ. إِنَّمَا أَتَيْتَ مَا تَرَى فِي رُؤُوسِنَا، اللَّهُ ثُمَّ أَنْتُمْ»...  
وَصَمَّتَا يَمُشِيَانِ، وَوَقَفَ التَّارِيخُ مِنْ وَرَائِهِمَا يُرَدِّدُهَا كَلِمَةً خَالِدَةً فِي سَمْعِ الدَّهْرِ،  
وَأُذُنِ الْأَبَدِ...

## جهد الشّباب

حينَ كانَ الفَتْحُ الإسلاميّ يَضَعُ إحدى قائمَتَيْهِ في أَقْصَى الشَّرْقِ، والأُخْرَى  
عندَ بابِ الغَرْبِ - يَفْرَعُ عليه هُجُوعُهُ وَيَنْقُضُ عَنْ جَفْنِي الغَرْبِ الباقياتِ من رَقْدَةِ  
الأيّامِ، والهباءَةِ الَّتِي اسْتَحَالَتْ إلى ظَلامٍ كَثيفٍ حَالِكٍ حَوْلَ مُقْلَتَيْهِ، وبينَ يَدَيِ  
حَيَاتِهِ، كما لَمْ تُنْعِشْهُ بَعْدُ أَوَّلُ إِشْرَاقَةِ مِنْ صُحُورَةِ الشَّمْسِ - ذَهَبَ حُسَيْنٌ شَرْقاً،  
وَذَهَبَ غَرْباً، كَأَنَّهُ يَضَعُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ حَجَرَ الأساسِ في قَاعِدَتَيِ قَوْسِ النَّصْرِ مُبارِكاً.  
كانَ حُسَيْنٌ يُناهِزُ الثَّانِيَةَ والعِشرِينَ من سِنِيهِ، حينَما ذَهَبَ جُنْدِيّاً يُلَوِّحُ بِشُعْلَةِ  
البَغْتِ والإِصْلاحِ في الحَمَلَةِ إلى الغَرْبِ.

وكانَ جَوْاً حَمَاسِيّاً ذلِكَ الجَوُّ الَّذِي صَبَغَ المَدِينَةَ، فَقَدْ تَحَوَّلَتْ مِنْ بَلَدٍ ناءٍ  
مَجْهُولٍ، تُحِيطُ به الصَّخْرَاءُ، وتَغْمُرُهُ من كُلِّ جانِبٍ - والصَّخْرَاءُ مُحِيطٌ زاجِرٌ  
تَقُومُ فِيهِ الرِّمالُ مَقامَ الماءِ - إلى عاصِمَةِ مَرْكَزِيَّةٍ تَتَوَلَّدُ فِيها الحَرَارَةُ وتُوزَّعُها، إلى  
قَلْبِ عَالَمِي تَخْفُقُ فِيهِ الحَيَاةُ، وَيَنْبِضُ بالخَلْجاتِ إلى كُلِّ مَكَانٍ.

في هذا الجَوِّ الحَمَاسِيِّ كانَ التَّسَابُقُ على الجِهادِ قَدْ آتَخَذَ شَكْلَ مُباراةٍ بينَ  
الشَّبابِ والكُھولِ، وَمَنْ دُونَ الشَّبابِ وَمَنْ فَوْقَ الكُھولِ.

هي أُمَّةٌ جَدِيدَةٌ بَعَثَها رُوحٌ جَدِيدَةٌ، فَانْطَلَقَتْ، وفي غُرُوقِها عُصاراتٌ من  
حَيَواتِ فائِضَةٍ، تُجْرِيها في جِسْمِ العالَمِ المُمَدِّدِ المَحْتَضِرِ، وتَصِلُ غُرُوقَهُ بِغُرُوقِها،



فَتَمْشِي، طَائِفَةً عَلَيْهِ، دَائِرَةً فِيهِ، مَشْيَ الرُّوحِ الَّتِي تَمْشُهُ بِتَيَّارِهَا.

كَانَ السَّائِرُ فِي طُرُقِ الْمَدِينَةِ وَمُنْعَطَفَاتِهَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا الْأَصْدَاءَ قَوِيَّةَ مَرْهُوَّةٍ،  
هِيَ بَقَايَا هُتَافَاتِ تُثِيرُ الْأَعْصَابَ. وَكَانَ الْغَلَمَةُ يَتَقَادَفُونَ بِالْأَزْهَارِ، وَالْعَلِيَّةُ يَتَحَايُونَ  
بِالْعِمَارِ<sup>(١)</sup> وَالْمَسْرَةَ<sup>(٢)</sup>. فَقَدْ تَرَكُوا لِأَعْصَابِهِمُ الْمَائِجَةَ بِصُنُوفِ الْفَخَارِ وَالْمَجْدِ، سَبِيلَ  
هَوَاهَا وَمَجَالَاتِ التَّعْبِيرِ عَنِ آزْدِهَائِهَا. فَقَدْ وَرَدَتِ الْأَنْبَاءُ بِالْإِنْصَارِ الْمُؤَزَّرِ فِي بَرَقَةٍ،  
وَأَنْكِفَاءِ الْبَرْبَرِ هُنَاكَ.

وَكُنْتُ لَا تَجِدُ، كَيْفَمَا سِرْتُ وَأَنْتَى ذَهَبْتَ، إِلَّا جُمُوعاً تَمُوجُ فِي جُمُوعٍ، مِنْ  
ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ إِلَى دَاخِلِهَا، وَعَلَى فَجْأَةٍ أَخَذَ بَصَرُهُمْ فَارِساً يَطْوِي الْهَضَابَ، وَهُوَ يَمُرُّ  
بَيْنَهَا مَرّاً سَرِيعاً، فَشَمَلَتْهُمْ هَذَاةٌ غَطَّتْ عَلَى الضَّجِيجِ، وَضَمَّتْهُمْ لَحْظَةً أَنْتَبَاهِ  
وَشُكُونٍ أَلْقَتْهُمْ فِي صُمُوتٍ مُتَسَائِلٍ نَاطِقٍ، وَمَا خَلَّ بَيْنَهُمْ حَتَّى آتَفَقُوا عَلَيْهِ،  
وَأَحَاطُوا بِهِ إِحَاطَةً السُّوَارِ بِالْمَعْصِمِ، وَأَخَذُوهُ بِسَيْلٍ مِنَ الْأَسْئَلَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،  
فَاسْتَوَى عَلَى الرُّكَابِ مُنْتَصِيباً، وَخَاطَبَهُمْ بِصَوْتِهِ الْجَهْوَرِيِّ الْحَادِّ النَّبْرَاتِ، وَالْمُسْتَعِيلِ  
الْمَقَاطِعِ وَالْكَلِمَاتِ:

أُيُّهَا الْأَنْصَارُ! أُيُّهَا الْأَبْطَالُ! الْيَوْمَ يَوْمُكُمْ، فَقَدْ دَقَّتْ سَاعَةُ الْكِفَاحِ. أَفْسِحُوا  
لِي الطَّرِيقَ إِلَى الْمَسْجِدِ، إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ وَاتَّبِعُونِي!  
فَتَدَافَعَ النَّاسُ عَنْ طَرِيقِهِ صَاحِبِينَ هَاتِفِينَ: الْيَوْمَ يَوْمُنَا. إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ...  
وَقَفَ الرَّجُلُ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الْخَلِيفَةِ، وَوَجَّهَ مَقَالَهُ، تَارَةً لِلْجُمُوعِ وَتَارَةً إِلَيْهِ:  
«إِنَّ جُرْجِيرَ الْمَمْلُوكِ، مَا بَيْنَ طَرَابُلُسَ إِلَى طَنْجَةَ، أَشَبَّ الْجُمُوعِ، وَحَشَدَ الْجُنْدِ  
مِنْ أَطْرَافِ مَمْلَكَتِهِ، لِلْإِخْدَاقِ وَالْإِيقَاعِ بِجَيْشِ الْعَرَبِ، وَهُوَ يَتَرَبَّصُّ بِنَا الدَّوَائِرِ،

(١) الْأَزْهَارُ وَالرَّيْحَانُ تُجْعَلُ بَاقَاتٍ وَيُحْتَمَى بِهَا. قَالَ عُبَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ:

سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَعْنَا الْعِمَارَ.

(٢) الْمَسْرَةُ: أَطْرَافُ الرِّيَاحِينِ يُحْتَمَى بِهَا، وَيُقَالُ سَرَّةٌ أَيْ حَيَّاهُ بِالْمَسْرَةِ.

وبات الخطب على قاب قوسين أو أدنى. وإن عتبة بن نافع، قائدنا المظفر، قد بات في ضائقة من الأمر، ولكنه مستبسل أشد استيسال» يكافح كفاح المستميت في الدفاع والهجوم ومداورة الخصوم، وهذا يوم له ما بعده.

فإلى الجهاد أيها المؤمنون! إلى القيام بالتزامات العقد بينكم وبين الله، على تجديد العالم، وأخذه بالمبادئ الإنسانية الفضلى: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهد من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم». إن إخوانكم، من قبل، رؤوا الرمال الزاوية إلى أفريقية بدمائهم الصبيبة، وهم أسخياء، وبنوا من جماجمهم معاقل الصخراء. وها هي دماؤهم اليوم تناديكم وتستصريحكم بصوتها الرجاف الرجود، من وراء الرجم وتستندبكم إلى التضحية.

فإلى الكفاح! إلى النصر!

وما هو حتى اختلط صوته بأصوات الجموع، وذاب في دويها العميق: بل إلى الشهادة! إلى الموت!... وبقيت الأصداء يرددها الفضاء، ويطوف بها الأثير في كبرياء وخيلاء.

وتدفق الناس على التطوع، وكان في «مقدمتهم الحسن والحسين وعبد الله ابن عباس وعليه لا تحصى» وخفوا راحلين:

أجمعوا أمرهم بليل فلما أصبحوا أصبح لهم صؤضاء

من مناد ومن مجيب ومن تضاءل خيل، خلال ذاك رغاء

ولم يكن طويلاً حتى هبطوا مصاف القتال، فأخذوا مواضعهم، ودارت رحي الحرب أمداً ليس بالقصير ضاق الخناق فيه على البربر، فأنكفؤا متمزقين

يَتِيهُونَ تَيْنَ الْحُزُونِ وَالشُّهُولِ، وَبَيْنَ الْأُودِيَةِ وَالْهَضَابِ.

وَبَعْدَ بَضْعِ سِنِينَ «أَنْتَظَمَ الْحُسَيْنُ فِي الْجَيْشِ الذَّاهِبِ شَرْقاً إِلَى طَبْرِسْتَانَ»  
بِإِذْلٍ لِنَفْسِهِ، مُضْحِياً حُوبَاءَهُ بِسَبِيلِ كَلِمَةِ اللَّهِ الَّتِي عَاشَ لَهَا، وَقَضَى كَرِيماً تَحْتَ  
ظِلَالِهَا الدَّامِيَةِ وَبُنُودِهَا الْحَمْرَاءِ.

كَانَتْ الْأَنْبَاءُ عَنْ تَضَحِّيَةِ الشَّبَابِ وَاسْتَيْسَالِهِمْ تَرْدُ إِلَى الْمَدِينَةِ طَافِحَةً إِعْجَاباً  
وَبُشْراً. وَكَانَتْ حَدِيثَ الْيَوْمِ بَيْنَ النَّاسِ، فِي الْأُنْدِيَةِ وَالْمَنَازِلِ، وَفِي مُنْعَطَفَاتِ  
الطُّرُقِ، حَيْثُ يَخْلُو الْوُقُوفُ عِنْدَ الْأَصِيلِ لِفَقَّةٍ تَجِدُ فِي هَذَا التَّوَعُّعِ مِنَ اللَّهِوِ تَسْلِيَةً  
رَائِعَةً، وَتُحِسُّ بَظْماً إِلَى الصَّخَبِ، يَمُدُّهُ الْفُضُولُ أحياناً فَتَمَلُّ جَوْ نَفْسِهَا الْمُقْفِرِ بِهَذَا  
اللَّوْنِ مِنَ الْإِنْعِمَاسِ فِي الضَّجِيجِ.

وَفِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ أَنْفَرَدَ جَمْعٌ، بَيْنَهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ،  
يَتَجَادَبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ عَنْ أَبْطَالِ الْجِهَادِ الشَّبَابِ. فَقَالَ: إِنَّ الشَّبَابَ مَعْنَاهُ تَفْتُحُ  
بِرَاعِمِ الصَّبَا عَنْ حَيَاةِ الْجِدِّ وَالْوَاجِبِ، وَعَنْ تَبِعَاتِ الْحَيَاةِ؛ وَفِئَةُ الشَّبَابِ هُمْ أَشْعَةُ  
حَاضِرِنَا فِي وَقْدَةٍ تَأَلَّقَها، فَإِذَا بَدَتْ كَسِيفَةً كَلِيلَةً فَقَدْ خَسِرْنَا الْحَاضِرَ وَالْمُسْتَقْبَلَ  
جَمِيعاً، وَكَانُوا إِعْلَاناً عَنْ أَنَّ غَيْرُ جَدِيرِينَ بِالْحَيَاةِ.

فَإِنَّ الْحَيَاةَ قُوَى سَائِبَةً كَمِثْلِ الرَّقَارِقِ عَلَى وَجْهِ الرَّمَالِ، وَلَكِنَّهَا تَتَجَمَّعُ فِي  
فَتْرَةِ الشَّبَابِ بِمِثْلِ خَزَانِ الْمَاءِ، فَتَتَكَسَّرُ عِنْدَ خَنَايَاهُ الْقُوَى، وَتَتَوَلَّدُ فِيهَا التِّيَّارَاتُ،  
فَتَتَدَفَّقُ جَيَّاشَةً هَادِرَةً.

فَالشَّبَابُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ تِيَّارَاتِ قُوَى الْحَيَاةِ، فَإِذَا كَانَ الْخَزَانُ مَمْلُوءاً بِالثَّقُوبِ  
وَالشُّقُوقِ، أَنْسَابَتِ الْمِيَاءُ فِي كُلِّ وَجْهِ، وَتَبَعَثَتْ قُوَاهَا، وَغَاضَتْ بَيْنَ الْوَهَادِ  
وَالْحُزُونِ مُتَرَسِّبَةً فِي مُسْتَنْقَعَاتِ آجِنَةٍ. وَحِينَ لَا يَكُونُ لِلشَّبَابِ حَصَانَاتٌ وَمَنَاعَاتُ  
يَمُدُّهَا شُعُورٌ بِالْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ وَحِسٌّ مُرْهَفٌ بِالتَّبِعَاتِ، فَقَدْ عَادَ شَبَاباً رِخْواً،

أَفْضَلُ مِنْهُ شَيْخُوخَةٌ فَانِيَةٌ.

وَشَبَابُنَا الَّذِينَ آتَبَعْتَهُمُ الْمَبَادِيءَ آتَبَعَانَا، لَا مَحِيدَ عَنْ أَنْ تَنْطَلِقَ بِهِمْ تَيَارَاتُ  
الْقُوَى، أَنْطِلَاقًا يَنْتَهِي بِالسَّيْلِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُطَهَّرِ الْجَارِفِ إِلَى غَايَتِهِ، فَيَغْمُرُ حَتَّى  
الرُّبَى، لِيُكْشِفَ عَنْ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَدُنْيَا جَدِيدَةٍ.

وَنَحْنُ الَّذِينَ قُمْنَا بِوَاجِبِنَا مَعَ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ، وَكَانَ أَدْنَى مَا بَدَّلْنَاهُ أَنْفُسُنَا  
- وَمَا بَقَاؤُنَا فِي عَيْنِ الْيَوْمِ إِلَّا ذِكْرَى جِهَادٍ وَتَمَثُّلُ كِفَاحٍ - لَا يَسْغُنَا إِلَّا أَنْ نُبَارِكَ  
شَبَابَهُمُ الْغَضُّ وَجِهَادُهُمُ الْمُظْفَرُّ. وَإِذَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يَأْخُذَ بِأَنْتِبَاهِنَا طَوِيلًا فَإِنَّمَا هُوَ  
ذَلِكَ الْإِقْبَالُ عَلَى التَّضْجِيَةِ بِسَبِيلِ الْمَبَادِيءِ لِلْمَبَادِيءِ دُونَ مَا أَنَانِيَّةَ رَعْنَاءِ  
وَرَزَانِيَّةِ<sup>(٣)</sup> حَقْوِدٍ، فَقَدْ ذَابَتْ عِظَامِيَّةُ (أَرِسْتَقْرَاطِيَّةُ) مَنْ كَانَ مِنْهُمْ عِظَامِيَّةً فِي بَوْتَقَةِ  
الْإِيمَانِ. وَالرِّسَالَةُ النَّاجِحَةُ هِيَ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكْفُلَ تَحْوِيلَ الْعِظَامِيَّةِ مِنْ قَاعِدَةِ  
الدَّمَاءِ وَالْثَّرَاءِ، إِلَى قَاعِدَةِ الْمَبَادِيءِ وَالتَّضْجِيَّاتِ.

فَهَذَا الْحُسَيْنُ، سِبْطُ النَّبِيِّ، لَهُ مِنْ عِظَامِيَّةِ الدَّمِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ الْيَوْمَ، أَوْ قَبْلَ  
الْيَوْمِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ يَمْضِي تَحْتَ رَايَةِ الْوَاجِبِ كَأَيِّ جُنْدِيٍّ تَحْدُوهُ مِثْلُ غَايَتِهِ. وَلَا  
أَرَاهُ إِلَّا مُعْتَقِدًا أَنَّ الْقَدِيمَ، إِنَّمَا يَجِدُ رَوْحَهُ فِي الْجَدِيدِ لِيُغْدُوَ كَائِنًا حَيًّا رَائِعًا، وَإِلَّا  
فَالْقَدِيمُ وَحْدَهُ، إِنْ كَانَ يُعَبِّرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يُعَبِّرُ عَنْ مَوْمِيَاءِ مُجْدٍ فَقَطْ تَظَلُّ رَمَزًا  
مِنْ رُمُوزِ التَّارِيخِ...

فَاطَرَقَ الْجَمْعُ وَشَمَلَهُمْ صَمْتُ وَاعٍ ثُمَّ خَفُّوا إِلَى رَوَاجِلِهِمْ وَهُمْ يُرَدِّدُونَ  
قَوْلَهُ:

«وَالْقَدِيمُ وَحْدَهُ، إِنْ كَانَ يُعَبِّرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يُعَبِّرُ عَنْ مَوْمِيَاءِ مُجْدٍ  
فَقَطْ...».

\*\*\*

(٣) الرِّزَانِيَّةُ تُرَادِفُ الْأَنَانِيَّةَ تَمَامًا عِنْدَ الْعَرَبِ الْقَدَامَى، وَالرِّزَانِيَّةُ: الْأَنَانِيَّةُ كَذَلِكَ.

## في الثورة

مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، كِمِصْرَ وَالْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ وَالشَّامِ، خَيَّمَ جَوٌّ مُكْفَهَرٌ  
يُنْذِرُ بِشَيْءٍ. وَكَانَتْ أَلْوَانُهُ مُخْتَلِطَةً إِلَّا أَنَّهَا بَدَأَتْ تَسْتَحِيلُ، خَيْطاً بَعْدَ خَيْطٍ،  
وَتَتَكَشَّفُ عَنْ لَوْنٍ أَحْمَرَ قَانٍ، كَأَنَّهُ لَوْنُ الدِّمِ الْحَائِقِ، أَوْ لَوْنُ الشَّقَقِ الَّذِي أُطْبِقَ بِهِ  
لَيْلٌ بِهِيم.

وَكَانَ الْهَمْسُ فِي أَيِّ مَكَانٍ يَطُولُ وَلَا يَقْصُرُ، وَيَتَنَاوَحُ فِي زَفَرَاتٍ تَبْعَثُ  
أَسَى، وَلَكِنَّهُ مِنْ نَوْعِ الْأَسَى الْغَاضِبِ الَّذِي يَزْدَادُ أَشْتِعَالاً بِالذِّكْرِى وَالْتَرْدَادِ. فَقَدْ  
أَسْتَفَاقَ النَّاسُ عَلَى وَضْعٍ غَيْرِ مُحَبَّبٍ بَلْ كَرِيهِ بَغِيضٍ، أَسْتَفَاقُوا عَلَى مُجْتَمَعٍ بَدَأَ  
يَتَعَقَّدُ وَتَطْفُو عَلَى سَطْحِهِ طَبَقَاتٌ تَجُرُّ وَرَاءَهَا نِضَالاً هَادِراً وَتَنَاحُراً رَهيباً، بَعْدَ أَنْ  
كَانُوا شَعْباً يَقُومُ عَلَى قَاعِدَةِ الْمَسَاوَاةِ، فَهُوَ مُجْتَمَعٌ مُنْسَجِمٌ.

كَثْرَةٌ مُعْدِمَةٌ، وَهِيَ مُعْتَدَّةٌ بِذَاتِهَا شَاعِرَةٌ بِشَخْصِيَّتِهَا، فَخَوْزٌ بِمَا أَبْدَتْ مِنْ  
قُوَّةٍ وَقَدَمَتْ مِنْ تَضَحِيَّاتٍ، وَقِلَّةٌ زَادَ بِهَا الثَّرَاءُ زِيَادَةً جَعَلَهَا تُحْرِزُ كُلُّ قُوَى النُّشَاطِ  
وَتَذْخِرُ مَقْوَمَاتِ الْحَيَاةِ كَافَّةً. وَلَمْ يَكُنْ وَسْطاً دَرَجَ عَلَى الشَّخَرِيَّةِ وَالْعَمَلِ فِي  
الْأَرْضِ، فَيَظَلُّ النُّضَالُ فِيهِ خَفِيّاً وَبَطْنِيّاً فِي إِعْطَاءِ نَتَائِجِهِ، بَلْ كَانَ وَسْطاً فُرُوسِيّاً،  
وَالْفُرُوسِيَّةُ آعْتِدَادِيَّةٌ وَشُعُورٌ بِوُجُودِ الذَّاتِ، وَزَادَتْهَا الْفُتُوحُ إِحْسَاساً بِقِيَمَتِهَا، فَكَانَ  
أَنْ تَفَاعَلَتْ تَفَاعُلاً تَنَافُريّاً مَعَ الْوَضْعِ الْجَدِيدِ، وَكَانَ أَنْ أَنْقَدَحَتْ وَقَذَفَتْ بِالشَّرِّ



إلى مكان قصي.

والشعور بالذات قاعدة الأمة الناهضة، فهي لا تقبل سيادة ولا تتولّد فيها السادة من أي نوع كان، وتظلّ أبداً تواقّة إلى الإصلاح آخذة بأسبابه متقلّبة في مدى أطواره.

رَكَدَتِ الفُتُوحُ فَتَضَبَّتْ أَهْمُ مَوَارِدِ الدَّوْلَةِ، وَكَانَ الْعَمَلُ السِّيَاسِيُّ قَدْ آتَجَعَ، فِيمَا سَبَقَ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ، إِلَى جَعْلِ الْعَرَبِ مَادَّةَ حَرْبٍ فَقَطْ، فَلَمْ يَنَالُوا نَصِيباً فِي الْأَرْضِ. وَلَكِنَّ الْجُنْدِيَّ لَنْ يَبْقَى جُنْدِيّاً أَبَداً خُصُوصاً وَالدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ قَدْ أَخَذَتْ الْأُمَمَ بِحَرْبٍ إِصْلَاحِيَّةٍ عَالَمِيَّةٍ، فَكَانَتْ حَاجَتُهَا إِلَى الْجُنُودِ كَبِيرَةً غَيْرَ مُقْتَصِدَةٍ، فَشَمَلَتْ الْعَرَبَ عَامَّةً، وَسَرَّعَانَ مَا وَفَّقَ الْعَرَبُ إِلَى غَايَتِهِمْ، وَسَرَّعَانَ مَا أَدَّوْا رِسَالَتَهُمْ، فَكَدَتْ حَرَارَةُ الْفَتْحِ إِلَى دَرَجَةِ الْهُمُودِ، وَعَجَزَتِ الدَّوْلَةُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ كِفَايَتِهِمْ، فَإِذَا هُمْ طَبَقَةٌ فَقِيرَةٌ غَايَةً فِي الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ وَالْعَدَمِ، وَإِذَا بِجَانِبِهِمْ طَبَقَةٌ أُخْرَى ثَرِيَّةٌ غَايَةً فِي الثَّرَاءِ، وَهِيَ لَمْ تَجْهَدْ أَيَّ جُهْدٍ وَلَمْ تَبْلُ أَيَّ بَلَاءٍ، وَإِنَّمَا آمْتَصَّتْ وَتَمَلَّأَتْ.

كَبُرَ عَلَى هَؤُلَاءِ أَنْ يَسْتَسِيغُوا وَضْعِيَّةً نَابِيَّةً بَغِيضَةً عَلَى هَذَا الشَّكْلِ، لَا سِيَّمًا وَالْإِسْلَامُ فِي تَشْرِيْعِهِ جَعَلَ لِلْمُحَارِبِ نَصِيباً فِي الْمَغَانِمِ كَافَّةً، وَبِذَلِكَ مَسْكَنُهُ مِنْ أَنْ يَتَحَوَّلَ رَجُلًا مَدَنِيًّا، دُونَ أَنْ يَكُونَ كَلًّا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْخَزِينَةِ الْعَامَّةِ. وَلَمْ يُقَرَّرِ الْإِسْلَامُ الْجُنْدِيَّةَ نِظَامًا دَائِمًا، لِأَنَّهُ لَا يَزِمِي إِلَى أَنْ يَجْعَلَ مِنْ حُكُومَتِهِ دَوْلَةً حَرْبٍ، بَلْ سَنَّ الْجُنْدِيَّةَ، عِنْدَ الضَّرُورَةِ، مِنَ الْمَدَنِيِّينَ أَنْفُسِهِمْ، وَبِهَذَا ضَمِنَ شَيْئَيْنِ خَطِيرَيْنِ:

١ - جَعَلَ مَسْئُولِيَّةَ الدَّفَاعِ عَامَّةً، لَكِنِّي يَشْعُرُ بِهَا الشَّعْبُ شُعُورًا شَامِلًا بِدُونِ تَفَاوُتٍ.

٢ - الْحَدُّ مِنْ طُغْيَانِ الْجُنْدِ وَرُوحِيَّتِهِمْ، حَتَّى لَا يَدْفَعُوا الدَّوْلَةَ كُلَّ حِينٍ إِلَى



مضايقي حروب جديدة، فالإسلام وَضَعَ في نظامه ما يحول بين الدولة المشتقة من طبيعته، وبين حزب الأطماع.

وكانت الهوة تتسع بين الطبقات اتساعاً عظيماً، وعلى شكل مخيف، كما أخذ الوضع يتطور من سيئ إلى أسوأ حتى استفحل شره، وبات يُنذر بخطب خطير وأنكفاءً انقلابي كبير الأثر. وزاد في يقظة الخطب تناحر الأحزاب الكثيرة<sup>(١)</sup>، فهناك أحزاب رئيسية أهمها:

حزب الأمويين: وأكبر رجاله المنتسبين إليه أبو سفيان، وآبئه معاوية ومزوان أبى الحكم، والمغيرة بن شعبة.

والحزب الشعبي: وأكبر رجاله أبو لؤلؤة، وجفينة النجراني، وكعب الأخبار، وهذا الحزب كان صنيعة للحزب الأموي، ومتقذاً لأغراضه الدموية ومآربه الإزهاية.

وحزب المحافظين: وأكبر رجاله علي بن أبي طالب وأبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عباس، وعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود.

وحزب الشغب: وأكبر رجاله أبو ذر الغفاري، وعبد الله بن سبأ، ومحمد بن أبي بكر، والأشتر النخعي، وعبد الله بن حذيفة، وكان هذا الحزب يستنيم إلى سياسة حزب المحافظين، وطابعه أنه ثوري عنيف.

وحزب أهل المدينة: وأكبر رجاله سعد بن عبادة، وآبئه قيس، والحباب بن المنذر، وعبد الرحمن بن حسان، وكان أهم أهداف هذا الحزب مناهضة الحزب الأموي وتحطيم محاولاته.

والى جانب هذه الأحزاب كانت تقوم أحزاب أخرى ثانوية أهمها:

---

(١) راجع تفصيل الكلام عليه في كتاب: تاريخ الحسين: نقد وتحليل، طبعة مكتبة العرفان، ١٩٤١.

حِزْبُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ: وَأَكْبَرُ الْمُتَسَبِّينَ إِلَيْهِ عَائِشَةُ.

وحِزْبُ أبنَاءِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: وَأَكْبَرُ الْمُتَسَبِّينَ إِلَيْهِ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ.

والحِزْبُ الْأُمَوِيُّ الْمُشَقُّ: وَكَبِيرُ أَقْطَابِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ.

وما إنْ اسْتَحْوَذَ الْحِزْبُ الْأُمَوِيُّ عَلَى شُؤْنِ السُّلْطَةِ الْعُلْيَا فِي عَهْدِ عُثْمَانَ، حَتَّى أَلْفَتْ بَعْضُ هَذِهِ الْأَحْزَابِ جَبْهَةً مُعَارِضَةً قَوِيَّةً. فَقَدْ شَاءَ الْبَيْتُ الْأُمَوِيُّ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ نَفْسِهِ طَبَقَةً حَاكِمَةً، وَشَاءَ، إِلَى ذَلِكَ، أَنْ يَجْعَلَ مِنْ قُرَيْشٍ طَبَقَةً عِظَامِيَّةً (أُرْستقراطية). وَهَؤُلَاءِ الْأُمَوِيُّونَ لَمْ يَكْتَفُوا بِأَنْ يَفْرِضُوا أَنْفُسَهُمْ وَوُجُودَهُمْ الْخَالِي مِنْ الْحَيَاةِ وَالْجُهْدِ، بَلْ تَجَاوَزُوا هَذَا إِلَى تَعْبِئَةِ الْمُجْتَمَعِ فِي طَبَقَاتٍ لَهَا أَمْتِيَّاتُهَا وَقِيَمُهَا، الَّتِي تَهْبِئُهَا حُقُوقًا دُونَ مَا وَاجِبَاتٍ، وَبَسْبِئِهَا تَفَاتٌ لِنَفْسِهَا مِنْ الْاِغْتِيَارَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، مَا يُخَوِّلُهَا أَنْتِهَابَ كُلِّ غَنَمٍ، يَغْرَمُ بِسَبِيلِ حَيَازَتِهِ سَوَادُ الْجُمْهُورِ.

وَكُلَّمَا وَجَدَتْ لِمَجَاعَةٍ مَا لِحُقُوقٍ دُونَ وَاجِبَاتٍ، فَقَدْ وَجِدَ لَدَيْهَا شَرُّ أَنْوَاعِ التَّطَفُّلِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَحِينَمَا تَنْثَقِلُ هَذِهِ الْاِغْتِيَارَاتُ إِلَى الْقَانُونِ يَنْتَقِضُ الْاِنْسِجَامُ وَالتَّوَازُنُ الْاجْتِمَاعِيَّانِ، وَيَتَسَاقُ الْمُجْتَمَعُ، كُرْهًا، فِي مَازِقِ التَّنَاحُرِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْ أَجْلِ الدَّائِيَّةِ، وَيَنْتَهِي مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ، وَهُنَا يَأْخُذُ شَكْلُهُ الدَّامِي، وَمَظْهَرُهُ الْكَالِخُ الرَّهِيْبُ، وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ قَوْلُ النَّبِيِّ «إِنَّمَا أَهْلُكَ مَنْ قَبْلُكُمْ أَنَّهُ إِذَا أَثِمَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا أَثِمَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ». فَإِذَا أَبُو سُفْيَانَ يَقُولُ، عِنْدَمَا وَلِيَ الْخِلَافَةَ عُثْمَانُ: «يَا بَنِي أُمَيَّةَ تَدَاوَلُوهَا بَيْنَكُمْ تَدَاوُلَ الْكُرَّةِ، فَوَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ أَبُو سُفْيَانَ مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُهَا لَكُمْ، وَلَتَصِيرَنَّ إِلَى أَبْنَائِكُمْ وَرِاثَةً»، وَإِذَا سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ يَجْعَلُ سَوَادَ الْعِرَاقِ بُسْتَانًا لِقُرَيْشٍ، وَإِذَا الثَّرَوَاتُ الْفَاحِشَةُ تَصِيرُ وَتَجْتَمِعُ فِي أَيْدِي الْأُمَوِيِّينَ وَأَنْصَارِهِمْ، وَإِذَا مَرْوَانُ يَسْتَبِدُّ بِالْمُقَدَّرَاتِ الْعُلْيَا عَلَى هَوَاهُ، وَإِذَا أَكْثَرُ الْأَقَالِيمِ تَذْهَبُ إِقْطَاعَاتٍ بَيْنَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، وَإِذَا الْقَانُونُ يُعْبَثُ بِهِ فَلَا يُطَبَّقُ أَحْيَانًا وَكَثِيرًا، بَلْ ذَهَبُوا بِهِ مَعَ الْهَوَى إِلَى حَدِّ أَشْعَرَ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا سِوَاءَ فِي نَظَرِيَّةِ الْحَقِّ وَنَظَرِيَّةِ الْجَزَاءِ فَسَبَقَ إِلَى الْأَذْهَانِ أَنَّ هُنَاكَ فَوْضَى دُونَ مَا شَكَّ، وَأَنَّ هُنَاكَ فَسَادًا

في أداة الحكم سبب هذه الفوضى دون ما ريب، والفساد يُبيح الثورة، فتدافعت  
الجموع في تياراتها.

كان الرائد الطواف بين مصر والحجاز والعراق، والذي يجوب متردداً بين  
هذه الأقاليم يلُمس، ويرى من فواجع الوضع القائم ما يملأه حنقاً وثورة، كان يرى  
بؤساً في غير حدٍ وشقاءً مخيفاً، وفقراً متغولاً، وكان هذا الفقر والشقاء والبؤس  
يتوزع هنا وهناك، ليجمع ويألف خصوصاً في بيئات الذين كانوا، إلى زمن  
قريب، رمز الفخار العربي والإسلامي، رمز الكفاح والجهاد في كل مكان.

نعم كانت هذه الطوائف تنعم بذكري أمجادها الكبيرة، ولكنها تتحرق  
أيضاً، وهي ترى مقدار ما تبدخ به أقلية فرضت نفسها، واستحوذت على الثروة،  
دون أي جهد وسابقة كفاح. فيعلى بن أمية يملك ما قيمته مائة ألف دينار عدا  
عقاراته الكثيرة، وعبد الرحمن بن عوف يملك ما قيمته خمسمائة ألف دينار،  
وزيد بن ثابت يملك من الذهب والفضة ما كان يُكسر بالفؤوس... إلخ. وأيضاً  
رأوا أن هذا البدخ المترف جرّ وراءه أنواعاً من المجاوزات في السلوك الذي سنّ  
نهج النبي، وعهدهم به لم يكن بعيداً. كما كوّنت هذه الغضارة واللدانة، في  
بيئات الأقلية المذكورة، طائفة من الآراء المتطرفة وجدت سبيل شيوعها في المجتمع،  
فقاتلها بكثير من الاستنكار، ولكن لم تقدم، مع ذلك، جماعة من الأنصار،  
فتولدت في الوسط دعوة إلى هذا الجديد المائع المثير، ودعاة إلى التجديد الرخو.

بيد أن الكثرة محافظة متمسكة بذلك القديم الذي وجدت فيه سبيل قوتها،  
وانتشرت مؤمنة بأفكاره، وصلاحيته كطب للبشرية اللاهثة المحتضرة، فهم  
جنود رسالة جاءتهم بهذا القديم الذي لمسوا فيه خيرهم. فلا يدع إن استنكرت  
الكثرة خطة هذا الجديد، ولا يدع إن تحدوا أنصاره وأتهموهم بالمروق، ولا يدع  
إن دخلوا معهم في صراع بدأ خفياً، ثم امتد حمياً.

وصادف، في هذه الفترة اللاهية، تطواف رجلٍ نعرف أن اسمه عبد الله بن سبأ، وكان على ما يظهر، إن صحَّ أنه وجد، صاحب نفس حساسة شاعرة، وصاحب فكرة منظمّة إصلاحيّة، من ورائيهما روحٌ نائرة. فاتّصل بكلِّ وسطٍ إسلاميٍّ إذ ذاك، واستلهم الحياة العامّة التي انعكست صورتها وألوانها في نفسه، فاستعر ضميره، واتّقدت جوانحه، فلم يكن بُدَّ من أن يلتهب، ولم يكن مناصٌّ من أن يهتف بالإصلاح وضرورة تغيير الوضع البائس اليائس، وكان عنيفاً في طبيعته، وزادته الحالة العامّة عنفاً، فقد تفاعلت الصفة الحيويّة الشائعة في المجتمع بطبيعته تفاعلاً جعله يثور، وجعله يُبشّر بمبادئ الإصلاح الثوريّة. ولم يكن المجتمع حينذاك في حاجة إلى أكثر من التنادي به واستصراخه، فقد كان بحالة من التوتّر والتفاعل إلى درجة القدح بالأوار.

وهو، إلى هذا، قد اجتمع بأقطاب الحركة الثوريّة في مصر والشام والعراق، وتأثر بهم، ولا سيّما أبو ذرّ الغفاريّ الذي ركّز<sup>(٢)</sup> أفكار عبد الله بن سبأ، وهذا وجد فيه ينبوعاً دينياً ومعتوياً خصباً، يُمكنه أن يستمدّ من أخباره عن النبيّ، ما يجعله سنداً لأفكاره، فإنّ أبا ذرّ كان يُحدّث، من قبل ورود آبن سبأ إلى الشام،

(٢) يُظنُّ البسطاء من المؤرّخين، تبعاً لتقديرات استشرافيّة مُرسلة إرسالاً، أن عبد الله بن سبأ - تلك الشخصية التي هي شبهة تاريخيّة، أي خرافيّة، من شدة غموضها إلى حدّ يبيح لنا إنكارها مرّة - قدّس مجتمعاً بأسره، وهذا منقوض على ضوء البسيكولوجيّة الاجتماعيّة؛ وقدّس أبا ذرّ الذي سائر الشؤون الدينيّة الجديد في كلّ أطواره. ويتبيّن لنا درجة ما فيها من سخف حينما نعرف أنهم بشخصيّة شبهة تاريخيّة يريدون تغيير مخرى حادثة تاريخيّة هامّة، ولا شك في أنّها طريقة ميتافيزيقيّة يُراد بها تعليلُ المعلوم بالجهول، وما يذرنا فلعلّ عبد الله بن سبأ عنتر اجتماعيٌّ مثل عنتر الفروسيّ؟ وأنا إذا كنتُ أستطيع أن أقوِّ بهذا الشّيء المدعوى عبد الله بن سبأ، فإنّما أستطيع الإقرار به على أنّه تلميذ المدرّسة الغفاريّة، ويؤكد هذا أنّه من أنصار عليّ بن أبي طالب في الحائز السياسي والديني من أفكاره، ومعروف أنّ أبا ذرّ من أنصار عليّ، فلو فرضنا أنّه جاء بأفكار مزدكيّة فلماذا لم يُختَر إلّا مناصرة عليّ، وكان أروع لدعوته لو ناصر ذكرى أبي بكر وعمر. والسبب في نظرنا الذي أدى إلى نشوء مدرّسة أبي ذرّ ودعوته إنّما هو ذلك التورط والتهاكك على مشلك الثراء المتطوّر الذي أحدثت بأشبابه الأقلّيّة الأمويّة وأغوائها، وبروزها ذلك البروز الأرسقراطيّ واستبعادها الإقطاعيّ، فكان في ذلك ما أغرى أبا ذرّ على فهم الشريعة ذلك الفهم.



بأحاديثه المُسندة إلى النبي، وكلُّها تحمِلُ عناصر الأفكار التي انطلقَ ابنُ سبأ يُروِّجُ لها. والذي لدينا من وثائق التاريخ يشهدُ أنَّ إعلانَ أبي ذرٍّ عن هذه الأفكار وقعَ قبلَ أولِ التِّقاءِ بينهما، كما يشهدُ أيضاً أنَّ تَكُونِ شَخْصِيَّةِ ابنِ سبأ كانَ بعدَ أولِ لقاءٍ. فالتاريخُ وكُتُبُ الحديثِ تُعرِّفُ جيِّداً أنَّ أبا ذرٍّ كانَ يُحدِّثُ، في الشامِ، بِمثَلِ هذه القِصَّةِ التي هي من وقائعه عهدَ النبي.

قال: «سأيتُ رجلاً - وهو بلالٌ - فعَيرَتهُ بأُمِّه، وكانت رقيقةً، فقال لي النبي: يا أبا ذرٍّ، أَعَيرَتهُ بأُمِّه؟! إنَّك امرؤٌ فيك جاهليَّةٌ. إخوانُكم خولُكم جعلَهُمُ اللهُ تحتَ أيديكم، فَمَنْ كانَ أخوه تحتَ يديه فليطعمه بما يأكلُ، وليلبسه بما يلبسُ، ولا تكلفوهُم ما يَغلبُهُم، فإنَّ كَلَفَهموهُم فأعينوهُم».

يُروي أبو ذرٍّ مثلاً هذه الواقعة، في حقِّ المَوالِي الأرقاءِ بالقانون، قَصْدَ مُحارَبَةِ الوُضْعِ الَّذِي شَاءَتْ بِهِ الأَقْلِيَّةُ جَعَلَ سَوَادِ المُجْتَمَعِ أَرْقاءَ أَجْتِمَاعِيَّينَ.

فالَّذي لا رَيْبَ فيه إذاً، أنَّ ابنَ سبأ كانَ يحمِلُ أفكاراً استلَهمَها من حالةِ المُجْتَمَعِ القائِمةِ، ولكنَّهُ سَقَطَ عِنْدَ أبي ذرٍّ على ما يَركزُها ويوضِّحُها، ويُعطِيها العُنْصُرَ الدِّينِيَّ المفقودَ لَدَيْهِ من قَبْلُ، وكانَ سَبَبَ تَخَوُّفِهِ من نَشْرِ أَفكارِهِ الحُرَّةِ، وبالحَرِيِّ أَفكارِ الشَّرِيعَةِ، على طَريقَةِ أبي ذرٍّ، فَمَضَى يُبَشِّرُ في طُولِ البِلادِ وعَرَضِها بما إِنَّه الدِّينُ أيضاً.

رَأَيْنَا كَمْ كانتِ أَقالِيمُ المُجْتَمَعِ الإِسْلامِيِّ الكَبِيرَةِ مُتَوَثِّرةً، ورَأَيْنَا إلى أَيِّ حَدٍّ قَدْ أَحَسَّ الشَّعْبُ أنَّ الأَقْلِيَّةَ الحاكِمةَ تَحِيكُ حَوْلَهُ مُؤامَرَةً واسِعَةً النُّطاقِ، تُبالِغُ حتَّى تَتَّصِلَ بِحَيَاتِهِ، فأنكَفَأَ الشَّعْبُ كُلُّهُ في الأقاليمِ يَتَأَمَّرُ بها، وَيُنْسِجُ من حَوْلِها شِباكَةً، ولقدْ باتتِ الحَالَةُ العامَّةُ تَجِيءُ في كَلِمَتَيْنِ: حُكُومَةٌ تَتَأَمَّرُ بالشَّعْبِ، وشَّعْبٌ يَتَأَمَّرُ بالحُكُومَةِ، ولكنَّ للشَّعْبِ الكَلِمَةَ الأخيرةَ والعُلْيَا دائماً.

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبْيَأٍ أَيَّامَ مَرَّةٍ، وَأَيْنَ أَنْطَلَقَ، يُصَادِفُ جُمُوعاً تَعْتَلِجُ عَلَى جُمُوعٍ،  
وَكُتْلُ الْمُؤَامَرَةِ تَنْتَشِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَتَتَوَزَّعُ لَتَحْتَشِدَ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ التَّعْبِيرَ عَنْ أَمَانِي  
الْجَمَاعَاتِ وَتَصْوِيرِ أَحْلَامِهِمْ وَأَمَالِهِمْ، فَأَفْتَتَنُوا بِهِ وَأَفْتَتَنَ بِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ يَزْبُطُ بَيْنَ  
هَذِهِ الْجُمُوعِ إِلَّا رَابِطَةُ الشُّعُورِ بِضَرُورَةِ الْإِصْلَاحِ السَّرِيعِ، فَقَدْ بَلَغَ مِنْ شِدَّةِ الْفَسَادِ  
أَنْ كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ تَحَمُّساً لِلثَّوْرَةِ هُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَالْمَعْرُوفُ عَنْ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ  
يُحَاوِلُونَ شَتَّى الْمَحَاوَلَاتِ لِلتَّرْقِيعِ وَالتَّوْجِيهِ، فَكَانَ شُعُورُهُمْ بِضَرُورَةِ الثَّوْرَةِ مَعْنَاهُ أَنَّ  
الْحَزَقَ قَدْ آتَسَعَ عَلَى الرَّاقِعِ، وَأَنَّ حَالَةَ الْفَوْضَى لَا يَنْجُعُ مَعَهَا إِلَّا الْقَمْعُ الْعَنِيفُ،  
فَتَخَلَّوْا عَنْ طَرِيقِ الْجُمْهُورِ، أَوْ قُلْ كَانُوا فِي الطَّلِيعَةِ.

ولكن، مع ذلك، فقد ظلَّ حِزْبُ عَلِيٍّ، أَوْ حِزْبُ الْمُحَافِظِينَ، يَبْدُلُ جُهِوداً  
جَبَّارَةً بِسَبِيلِ تَقْرِيبِ وَجْهَةِ النَّظَرِ بَيْنَ كُتْلَةِ الشَّعْبِ وَكُتْلَةِ الْحُكُومَةِ، وَيَحُولُ، جُهِدَ  
الْمُسْتَطَاعِ، بَيْنَ الْجُمْهُورِ وَبَيْنَ مَآرِيهِ الدَّائِمِيَّةِ، وَكَثِيراً مَا جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ ضَمَانَةً لِهَيْئَةِ  
الْحُكْمِ. وَالشَّيْءُ الْجَدِيدُ بِالتَّسْجِيلِ وَنَصَاعَةِ الذِّكْرِ أَنَّ هَذَا الْحِزْبَ بَقِيَ مُوَالِياً، بَعُطْفٍ  
صَادِقٍ، لِلْحُكُومَةِ إِلَى السَّاعَةِ الْأَخِيرَةِ الَّتِي لَمْ يَغْدُ مُمَكِناً فِيهَا ضَبْطُ أَعْصَابِ  
الْجُمْهُورِ الثَّائِرَةِ، فَطَغَى عَلَى الْحَوَاجِزِ وَبَدَأَ التَّهْدِيمَ.

وَمِنَ الْإِنْصَافِ بَلْ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ نَذْكُرَ أَنَّ الْجُمْهُورَ، مَعَ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ أَرْعَنَ  
فِي ثَوْرَتِهِ، فَقَدْ آتَصَلَ بِأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ وَالسُّلْطَةِ وَطَالَبَ مُسْتَشْفِعاً بِمُمَثِّلِيهِ مِرَاراً  
وَتَكَرَّراً، وَلَكِنَّ مَطَالِبَتَهُ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ، كَانَتْ تَبَوُّءُ الْفَشَلِ، وَكَانَ فَشَلاً ذَرِيعاً  
مُتَوَاصِلاً مِنَ النَّوْعِ الْمُثِيرِ، فَلَا يَدْعُ إِنْ هَبَّ الشَّعْبُ هَبَّتَهُ الْعَاتِيَّةُ، وَتَرَكَّزَتِ الثَّوْرَةُ  
الْإِنْتِقَامِيَّةُ فِي رَأْسِهِ تَرَكُّزَ الْفِكْرَةِ الثَّابِتَةِ، لَا يَحُولُ عَنْهَا فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ.

هَبَطَتْ وَفُودُ الْأُمُصَارِ الْمَدِينَةَ مَرَّةً وَأُخْرَى إِلَى مَرَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَكَانَتْ، فِي كُلِّ  
مُنَاسَبَةٍ، تَحْمِلُ طَائِفَةً مِنْ أَمَانِيهَا، وَهِيَ مَلَأَى بِالرَّجَاءِ تَوَدُّ لَوْ صَدَقَتْ أَحْلَامُ أَمَالِهَا،  
وَكَانَتْ تَرْجِعُ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ، بِوَعْدٍ مَغْسُولَةٍ، وَلَكِنْ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَسْتَحِيلَ إِلَى صَدَى



يَأْسٍ فِيهِ غُرُورُ الشَّرَابِ.

سَاءَها، في كُلِّ تَجَرِبَةٍ وَكُلِّ مُحَاوَلَةٍ، إِخْفَاقُ الْمُتَقَلِّبِ، فَأُغْيِظَتْ كَذِي النَّفْسِ  
الْجَرِيحَةِ عَلَى مَنْ لَا يَفْتَأُ يَنْكَأُ جِرَاحَهُ وَيُجْرِي دِمَاءَهُ، وَلَمْ يَسْعَهَا كَظْمُ عَوَاطِفِهَا  
الْمُلْتَهَبَةِ، فَهَدَرَتْ صَاحِبَةً مُخْتَبِجَةً، تُرِيدُ وَضْعَ حَدٍّ لآلِمِهَا وَبِأَسَائِهَا الْمُسْتَعْرِةِ،  
فَكَانَتْ تَضْطَلِمُ تَكَرَّاراً وَمِرَاراً بِمَا يَوْقُظُ فِيهَا شُعُورَ الْحَيَاةِ الْمُنْتَقِمِ. لِذَلِكَ لَمْ تَكُنِ  
الْجَمَاعَاتُ تُرَى فِي أَيِّ مَكَانٍ إِلَّا مُلْتَمِئَةً بَعْضاً عَلَى بَعْضٍ تَتَهَامَسُ فِي أَمْرِ خَطِيرٍ.

وَفِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ الْمُلْتَهَبَةِ كَانَ يَطُوفُ، كَمَا قُلْنَا، فِي أَقْطَارِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ،  
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ فِيمَا زَعَمُوا، فَمَا حَلَّ بُقْعَةً إِلَّا وَسَمِعَ فِيهَا تَجَاوُبَ نَافَةِ وَاجِدَةٍ  
مُسْتَنْكِرَةٍ، فَاشْتَمَلَ عَلَى حَفِيظَةٍ مُتَحَرِّقَةٍ تَأْتِكُلُ فِي حَنَائِهِ غَيْظاً وَتُحْرِقُ الْأَرْمَ. وَمَا  
هُوَ إِلَّا أَنْ هَبَطَ الشَّامَ فَاتَّصَلَتْ أَسْبَابُهُ بِأَسْبَابِ أَبِي ذَرٍّ فَقَدْ سَمِعَهُ يَنْتَقِدُ وَلَا يُيَالِي  
عَلَى أَيِّ وَجْهِ فُسِّرَ آتِيقَاؤُهُ، وَيَتَحَدَّى الْمُجْتَمَعُ<sup>(٣)</sup> وَالِدَوْلَةَ، وَكُلَّ أَسْرَةِ الْحُكْمِ تَحْدِيّاً  
جَارِحاً بِمَنْطِقِ الدُّسْتُورِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَامِّ، الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وَمَنَاهِجُ السُّلُوكِ  
التَّقْلِيدِيَّةِ، وَيَأْخُذُ عَلَى الْإِنْطِلَاقِيِّينَ الْمُتَجَاوِزِينَ مَذَاهِبَ سُلُوكِهِمْ.

رَأَى وَلَمْ يَسْ مِقْدَارَ تَهَاوِي النَّاسِ فِي التَّرَفِّ بِالْعَدْوَى، وَتَهَاوِيهِمْ عَلَى الرَّفَاهِ مِنْ  
أَيِّ طَرِيقٍ، وَتَسْتَبِيعُ حُطَّةَ هَذَا السُّلُوكِ إِبَاحِيَّةً وَلَا مُبَالَاةً، فَجَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ وَأَتْبَاعِهِ  
حَاجِزاً يُقَاوِمُ التِّيَّارَ، فَوَقَّفَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يُشِيرُ بِمِبَادِيهِ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ يَقْرَعُ سَمْعَ  
النَّاسِ بِمَا قَدْ عَاهَدَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ، وَبِمَا قَدْ سَمِعَهُ مِنْهُ وَوَعَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَكِنْ بَعْضاً مِنَ  
النَّاسِ كَانُوا قَدْ آسَتَنَامُوا إِلَى هَذَا الْجَدِيدِ، وَتَذَوَّقُوا وَلَذَّتْهُمْ أَشْيَاؤُهُ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَأَبَى  
عَلَيْهِمْ، فَانْطَلَقَ لَا يُيَالِي غَضَباً وَلَا رِضاً.

وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يَرَى أَنَّ فِكْرَةَ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ الْفَضِيلَةُ، وَالْإِنْسَانُ هُوَ

(٣) تَفْصِيلُ رَأْيِنَا فِي مَدْرَسَةِ أَبِي ذَرٍّ، وَتَفْصِيلُ آرَائِهِ فِي الْحَيَاةِ وَغَايَتِهَا، وَفِي الْمُجْتَمَعِ وَنِظَامِهِ، وَفِي الْحُرِّيَّةِ  
الْأَدْبِيَّةِ، وَعِلَاقَةِ الْحَيِّ بِاللَّهِ، تَجِدُهُ فِي كِتَابِنَا: مَدْرَسَةُ أَبِي ذَرٍّ وَالثَّوْرَةُ الْكُبْرَى فِي الْإِسْلَامِ.

الفاضلُ فقط. فعلى الناس إذا أن يحلوا أشياء الفضيلة بينهم، وأن يوفروا كلَّ جهودهم على تحقيقها وانتهاج سننها وأساليبها. وأما أولئك الذين يجمعون أكبر جهودهم وهمهم على التزُّيد من مخاريف الحياة التاعمة وأسباب العيش الرفيه، فإنهم لا يفضلون، في آتبارِه، عن سائمات وحدث سبيل حُظوظها. والإنسان عنده، إذا جمع همُّه هذا الجمع، فإنه ينقلب حيواناً فقط ميزته أنه أقدر على التحيل بما فيه من الفكر، وأما الإنسانية فإنها غنُصُرٌ غريبٌ عنه. ولكي يكون إنساناً، ويظل كذلك، لا بُدَّ له من حياة أخرى مادتها الفضيلة، والفضيلة، في نظره، هي التجرد والعمل.

هو يريدنا أن نعمل ونكافح بما استطعنا إلى ذلك، كما يريدنا أن نتجرد أيضاً فلا نغمس في مدى القُتُون، يريد منا سيراً بما فينا من حياة عضوية ذات حرارات، وأشتعلاء بما فينا من روح لا تفتأ تنشُد السُّمُو.

وليس أضَرَّ على الكائن الإنساني من أن يسير بالحياة فقط، إذ بهذا يشبه سير الرُّحى تتحرك وهي قابعةً بمحلها. وفرق ما بين الإنسان والحيوان أن الثاني تسير به الحياة، والأول يسير بالحياة، ويستغلي دوماً بالروح التي هي فكرة الحياة وغايتها وضميرها وأخلاقيتها. وإذا كانت الحركة ضرورية للحياة، والفضيلة، التي هي التجرد، ضرورية للإنسانية، فلكي نكون أحياء إنسانيين يجب أن نعمل، ويجب أن نتجرد، وأما إذا عملنا فقط فقد نحزننا غنُصُرُ الإنسانية فينا وأسفنا، كما تتعقد الحياة حين نضعها في معتزك أطماعنا وشباك شهواتنا. فكان يُوصي ويلح أن نعمل، وأن نتجرد، أي نعمل ولا ندخر، فحُصَّ بأقصى أسلوب وأعنفه على عدم الكثر، ولوح ما شاءت له فكرته وشاء ضميره بقوله تعالى:

«والذين يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ».

وهو يرى أيضاً أنّ الدولة كالفردي سواء بسواء، فإذا كُنْزَتْ وله تَجَرَّدِ  
أَنَحْصَتْ، وتَوَلَّدَتْ لَدَيْهَا الْأَطْمَاعُ. فَتَحْدَى الدَّوْنَةُ كَمَا تَحْدَى الْأَفْرَادُ، وَحَارَبَ  
الْكَنْزَ الْاجْتِمَاعِيَّ، كَمَا حَارَبَ الْكَنْزَ الْفَرْدِيَّ. وَشَنَّهَا شَعْوَاءَ عَلَى دُنْيَا الْقُصُورِ وَحَيَاةِ  
التَّرَفِ، فَقَدْ نَظَرَ إِلَيْهَا نَظَرُهُ إِلَى مَأْتَمٍ لِلْمِثَالِيَّةِ الْعُلْيَا وَالْأَحْلَامِ السَّامِيَّةِ، فَمَوْكِبُ  
الْإِنْسَانِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَوَقَّفَ وَيَتَوَحَّلَ، وَيَنْقَلِبَ مَوْكِبَ رُجْمٍ إِذَا شَنَّنَا الْوُلُوجَ بِهِ فِي دُنْيَا  
الشَّهَوَاتِ.

وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى أَحْسَسَ بِالْأَمِ الْبُؤْسِ فِي النَّاسِ، وَأَحْسَسَ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَتَوَسَّلُ  
بِالتَّسْمِيَّاتِ الْقَانُونِيَّةِ إِلَى أَنْتِهَابِ الْمُسَمِّيَّاتِ الْحَقُوقِيَّةِ مِنْ أَرْبَابِهَا، وَالْاِسْتِحْوَاذِ عَلَى  
الثَّرْوَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَتَبْدِيدِهَا دُونَ مُسْتَحَقِّهَا، فَقَدَّرَ وَاسْتَنْتَجَ أَنَّ الْحُكُومَةَ الْمُتَّخِذَةَ هِيَ  
ذَاتُ الْحَقِّ الْأَوَّلِ فِي التَّصَرُّفِ بِالْأَمْوَالِ الشَّائِعَةِ. فَتَسْمِيَّتُهَا مَالِ الْخَزِينَةِ بِمَالِ اللَّهِ  
الَّتِي يُرَادُ مِنْهَا الشُّيُوعُ، وَسِيلَةٌ إِذَا لِلتَّلَاغِبِ وَالْاِسْتِحْوَاذِ، فَحَمَلَ حَمْلَةً نَكْرَاءَ عَلَى  
هَذِهِ التَّسْمِيَّةِ الْمَغْلُوطَةِ، وَنَادَى أَنَّهَا مَالُ الْمُسْلِمِينَ، هَذِهِ التَّسْمِيَّةُ الَّتِي تُؤَدِّي، فِي  
تَسْلُسُلِهَا الْمُنْطَقِيِّ الْحَقُوقِيِّ، إِلَى مَنَعِ حُرِّيَّةِ التَّصَرُّفِ، وَإِلَى وُجُوبِ تَوْزِيْعِهَا عَلَيْهِمْ  
وَتَعَلُّقِ حُقُوقِهِمْ بِهَا.

وَبَلَغَ مِنْ شِدَّةِ وَطْأَةِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، أَنْ جَعَلَ الْأَنَانِيُونَ الطَّامِعُونَ يَفِرُّونَ مِنْ  
طَرِيقِهِ كُلَّمَا رَأَوْهُ، وَزَادَ فِي تَأْثِيرِ دَعْوَتِهِ وَانْتِشَارِهَا أَنَّهُ كَانَ يَشْفَعُ أَقْوَالَهُ هَذِهِ  
بِأَحَادِيثَ مَأْثُورَةٍ سَمِعَهَا مِنَ النَّبِيِّ. فَوَجَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ فِي هَذِهِ الْأَفْكَارِ، الَّتِي  
يَسْمَعُهَا مِنْ أَبِي ذَرٍّ، مَا هُوَ الْعِلَاجُ النَّاجِعُ لِرُوحِ الْمُجْتَمَعِ الْبَائِسَةِ، وَوَجَدَ فِيهَا أَيْضاً  
خَالِصَ أَفْكَارِهِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ وَجَدَ فِيهَا مَا تَشَوَّقُ إِلَيْهِ رَغْبَةُ الْمُطَالِبِينَ بِالْإِصْلَاحِ  
الْحَائِرِينَ، فَانْطَلَقَ عَلَى سُنَّةِ أَبِي ذَرٍّ يُبَشِّرُ وَلَا يَحْفِلُ.

تَوَقَّفَ فِي الْكُوفَةِ وَهُوَ يَذْرَعُ الْأَقْطَارَ، فَرَأَى فِيهَا حَرَكََةً أَقْوَى مِنْ سَائِرِ  
الْحَرَكَاتِ الْأُخْرَى فِي الْمُدُنِ وَالْعَوَاصِمِ، فَانْخَرَطَ فِيهَا وَنَظَّمَهَا، وَهُنَاكَ وُضِعَتْ

«عريضة الحق» أو «مطالب الإصلاح» فلم تُقابل من الهيئة الحاكمة بالحسن بل بالإغراض، فتألبوا، وكان أن توسط علي بن أبي طالب بينهم وبين الخليفة فوعدوا خيراً، وما إن بارحوا المدينة حتى أوعزت السلطة العليا إلى معاوية بالقبض عليهم في حمص، وتعد لأي أفرج عنهم فعادوا إلى المطالبة مرة أخرى، بيد أنهم استعدوا للخصومة مهما نجم عنها، ومهما احتبكت ألوانها الكالحة. وكانت عريضة الحق تشتمل على:

- أ - إبعاد البطانة المشرفة على تشيير الأمور حالياً ولا سيما مزوان بن الحكم.
- ب - الرجوع إلى سياسة الأموال التي درج عليها النبي، دون السياسة التي جرى على سنتها الخليفة الثاني ولا تزال.
- ج - ضرب اليد على طماعية قریش.
- د - الحد من صلاحية الولاة والأمراء، فيقيّد تصرفهم بالخراج والأموال العامة.
- هـ - الحيلولة دون الأمراء واستئلال الأهلين.

وقدت الوفود تحت ستار الحج، وهي تخفي أغراضها الدائمة الثورية، وشاع الهمس في المدينة، وأنطلقت عبارات الانتقاد تؤجج كالتار في الهشيم، وقد اتصلت بعلي أخبارهم فتخوف مغبة الأمر وبادر إلى الاجتماع بعثمان، فقال له:

«التاس ورائي وقد كلموني فيك، ووالله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه.

إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغك، وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله وملت صهره، وما آبن أي قحافة بأولي بعمل الحق منك، ولا آبن الخطاب بأولي بشيء

مِنَ الْخَيْرِ مِنْكَ...»

ثم يقول:

«فَاللَّهِ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ. فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِي، وَتُعَلِّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحٌ يَبِينُ...»

فَإِذَا آغْتَذَرَ عُثْمَانُ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يَقْتَنِي أَثَرُ عُمَرَ أَجَابَهُ عَلِيٌّ:

«سَأُخْبِرُكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ كُلُّ مَنْ وَلِيَ فَإِنَّمَا يَطَأُ عَلَى صِمَاحِهِ، إِنْ بَلَغَهُ عَنْهُ حَرْفٌ جَلَبَهُ ثُمَّ بَلَغَ بِهِ أَقْصَى الْغَايَةِ. وَأَنْتَ لَا تَفْعَلُ، ضَعُفْتَ وَرَفَقْتَ عَلَى أَقْرَبَائِكَ...»

فَإِذَا ذَكَرَ لَهُ عُثْمَانُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ يَمُنُّ وَلَاهُ عُمَرُ مُدَّةَ خِلَافَتِهِ كُلِّهَا، وَأَنَّهُ يَقْتَدِي كَذَلِكَ بِعُمَرَ فِي تَوَلِيَّتِهِ، أَبَانَ لَهُ عَلِيٌّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْعَمَلَيْنِ فَقَالَ:

«أَنْشُدُكَ اللَّهَ! هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ أَخَوْفَ مِنْ عُمَرَ، مِنْ يَوْفَا<sup>(٤)</sup> غُلَامِ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عَلِيٌّ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ يَقْتَطِيعُ الْأُمُورَ دُونَكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُهَا، فَيَقُولُ لِلنَّاسِ هَذَا أَمْرُ عُثْمَانَ فَيَبْلُغُكَ وَلَا تُغَيِّرُ عَلَى مُعَاوِيَةَ».

وَلَكِنْ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَزَلْ بِعُثْمَانَ يُوْغِرُ صَدْرَهُ عَلَى عَلِيٍّ، وَيَضْرِبُ لَهُ الْمَثَلَ بِشِدَّتِهِ عَلَيْهِ فَيَقُولُ:

«هَكَذَا يَسْتَقْبِلُكَ وَأَنْتَ إِمَامُهُ وَسَلَفُهُ وَأَبْنُ عَمِّهِ وَأَبْنُ عَمَّتِيهِ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا غَابَ عَنْكَ مِنْهُ؟»، وَكَذَلِكَ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ وَسَائِرُ بَطَانَتِهِ (حَتَّى أَجْمَعَ أَلَا يَقُومُ دُونَهُ). وَعَلِيٌّ حِيَالَ تَرَدُّدِ عُثْمَانَ لَمْ يَسْعَهُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ:

«مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ أَنْ يَنْصَحَهُ أَحَدٌ، آتَّخَذَ بَطَانَةً أَهْلَ غِشٍّ لَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا

---

(٤) يَوْفَا: اسْمُ غُلَامٍ عُمَرَ، وَكَانَ إِذَا رَأَاهُ يَوْعَدُ مِنْهُ رُغْبًا، فَضْرِبَ الْمَثَلَ بِهِ فِي الرُّغْبِ.



وَقَدْ تَسَبَّبَ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، يَأْكُلُ خَرَايجَهَا وَيَسْتَدِلُّ أَهْلَهَا».

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى عُثْمَانَ، وَيَجَبِّهُ سِيَاسَتَهُ عَلَانِيَةً وَيَتَجَسَّسُ عَلَيْهِ، وَيَفْضَحُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي تَجْرِي دَاخِلَ دَارِهِ، وَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا أَدْخَلَ فِي رُوعِهِ كَرَاهِيَّتَهُ، وَيَسْتَغِلُّ الْمُنَاسَبَاتِ وَالظُّرُوفَ حَتَّى قَالَ يَصِفُ نَفْسَهُ:

«أَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ إِذَا حَكَكَتُ قُرُوحَةً نَكَأْتُهَا، إِنْ كُنْتُ لَأَلْقَى الرَّاعِي فَأُحَرِّضُهُ عَلَى عُثْمَانَ... وَهَذَا عُثْمَانُ يَسْتَشِيرُهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ صَحْبِهِ فَيَقُولُ لَهُ عَمْرُو:

«أَرَى أَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ النَّاسَ بِمَا يَكْرَهُونَ، فَأَعْتَزِمُ أَنْ تَعْتَدِلَ، فَإِنْ أَتَيْتَ فَأَعْتَزِمُ أَنْ تَعْتَزِلَ، فَإِنْ أَتَيْتَ فَأَعْتَزِمُ عَزْمًا وَآمُضٍ فِيهِ قُدْمًا...» وَيُقَابِلُهُ حِينَمَا خَطَبَ عُثْمَانُ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الصَّاحِبِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ بِقَوْلِهِ:

«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ نَهَايِرَ وَرَكِبْنَاهَا مَعَكَ، فَتُبْ نَشَبٌ...» وَهَذِهِ عَائِشَةُ تَجْتَرِيءُ وَهُوَ يَخْطُبُ، فَتَقُولُ وَقَدْ نَشَرْتُ قَمِيصَ النَّبِيِّ:

«هَذَا قَمِيصُ النَّبِيِّ لَمْ يَبَلِّ، وَقَدْ أَبْلَيْتَ سُنتَهُ...». وَهَذَانِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ يُعِينَانِ الثَّائِرِينَ بِالْمَالِ.

وَالْجُمُوعُ الْمُتَأَلِّبَةُ الْوَافِدَةُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، حِيَالٌ مَا تَرَى وَحِيَالٌ مَا تُحِشُّ بِهِ مِنْ آلامٍ فِي قَرَارَتِهَا، تَفْتَحُ ثَائِرَتُهَا، وَمَضَتْ فِي آندِفَاعِهَا مُتَمَرِّدَةً غَاظِبَةً. فَبَدَلَ عَلِيٌّ كُلَّ جُهِدٍ لِتَخْفِيفِ ثَائِرَتِهِمْ وَتَبْرِيدِ غُلُوَائِهِمْ، وَحَمَلَ عُثْمَانُ عَلَى إِعْطَائِهِمْ مُهَلَّةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. فَلَمَّا أَنْتَهَتْ أَجْتَمَعُوا عَلَى بَابِهِ، مِثْلَ الْجِبَالِ، عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ الْمُؤَرِّخِينَ. قَالَ عُثْمَانُ لِمَرَّوَانَ: «أُخْرِجْ وَكَلِّمَهُمْ فَإِنِّي أَسْتَحْيِي أَنْ أَكَلِّمَهُمْ»، فَخَرَجَ مَرَّوَانُ إِلَى الْبَابِ، وَالنَّاسُ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَقَالَ:

«مَا شَأْنُكُمْ قَدْ أَجْتَمَعْتُمْ كَأَنَّمَا جِئْتُمْ لِنَهْيٍ؟ شَاهَتِ الْوُجُوهُ، كُلُّ إِنْسَانٍ



آخِذْ بِأُذُنِ صَاحِبِهِ؟ جِئْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْزِعُوا مُلْكَنَا مِنْ أَيْدِينَا؟ أَخْرِجُوا عَنَّا. أما والله لئن رُمْتُمونا لَيَمُرنَّ عليكم أمْرٌ لا يَشْرُكُكُمْ، ولا تَحْمَدُوا غِبَّ رَأْيِكُمْ. أَرْجِعُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ، والله ما نَحْنُ بِمَغْلُوبِينَ عَلَى مَا فِي أَيْدِينَا».

كَانَتْ هَذِهِ الْخُطْبَةُ الْمَمْلُوءَةُ حُمْقًا وَرُعُونَةً، شَرَارَةً شَدِيدَةً الْأَثَرِ فِي إِذْكَاءِ الثَّوَرَةِ وَتَقْرِيبِ خُطُوتِهَا، وَمَرْوَانُ لَمْ يُفْلِحْ فِيهَا بِإِثَارَةِ النَّاسِ فَقَطْ، بَلْ أَفْلَحَ أَيْضًا بِإِثَارَةِ عَلِيِّ نَفْسِهِ، الَّذِي ضَمِنَ لِلْجُمْهُورِ تَسْوِيَةَ الْأُمُورِ عَلَى مَا يَزْغَبُ، وَقَدْ أُسْقِطَ فِي يَدِهِ حَقًّا، وَمَا وَسِعَهُ، تَحْتَ عَاصِفَةِ نَفْسِهِ وَعَاصِفَةِ الْجُمْهُورِ الْمَائِجِ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ مَقَالَتُهُ الْمَشْهُورَةَ:

«مَا رَضِيتَ مِنْ مَرْوَانَ وَلَا رَضِي عَنكَ، إِلَّا بِتَحْرِيفِكَ عَن دِينِكَ وَعَنْ عَقْلِكَ، مِثْلَ جَمَلِ الظَّعِينَةِ يُقَادُ حَيْثُ يُسَارُ بِهِ. وَاللَّهِ مَا مَرْوَانُ بِذِي رَأْيٍ فِي دِينِهِ وَلَا فِي نَفْسِهِ. وَإِنَّمَا اللَّهُ إِنِّي لَأَرَاهُ سَيُورِدُكَ ثُمَّ لَا يُصْدِرُكَ، وَمَا أَنَا بِعَائِدٍ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا لِمَعَاتِبَتِكَ، أَذْهَبْتَ شَرَفَكَ وَغُلِبْتَ عَلَى أَمْرِكَ».

وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ أَمْرَأَتُهُ نَائِلَةُ ابْنَةِ الْفَرَاغِصَةِ<sup>(٥)</sup>، فَقَالَتْ:

«أَتَكَلِّمُ أَوْ أَسْكُتُ»، فَقَالَ: «تَكَلِّمِي» فَقَالَتْ:

«قَدْ سَمِعْتَ قَوْلَ عَلِيٍّ لَكَ وَإِنَّهُ لَيْسَ يُعَاوِدُكَ، وَقَدْ أَطَعْتَ مَرْوَانَ يَقُودُكَ

حَيْثُ شَاءَ» قَالَ: «فَمَا أَصْنَعُ؟...» قَالَتْ:

«تَتَّقِي اللَّهَ وَتَتَّبِعُ سُنَّةَ صَاحِبَيْكَ مِنْ قَبْلِكَ، فَإِنَّكَ مَتَى أَطَعْتَ مَرْوَانَ قَتَلَكَ.

وَمَرْوَانُ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ قَدْرٌ وَلَا هَيْبَةٌ وَلَا مَحَبَّةٌ. وَإِنَّمَا تَرَكَكَ النَّاسُ لِمَكَانِ مَرْوَانَ مِنْكَ، فَأَرْسِلْ إِلَى عَلِيٍّ فَاسْتَصْلِحْهُ فَإِنَّ لَهُ مِنْكَ قَرَابَةً وَهُوَ لَا يُعْصِي». فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى عَلِيٍّ فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ وَقَالَ: «قَدْ أَعْلَمْتُهُ أَنَّنِي لَسْتُ بِعَائِدٍ».

كَبُرَ عَلَى عَلِيٍّ مِثْلُ ذَلِكَ الْمَنْطِقِ، الَّذِي فَاجَأَ بِهِ الْجُمُوعَ مَرْوَانُ بِلِسَانِ

(٥) لَيْسَ فِي الْعَرَبِ مَنْ هُوَ يَفْتَحُ الْفَاءَ لَا يَضُمُّهَا سِوَى أَبِي نَائِلَةَ هَذَا وَالْأَخْوَصِ الْكَلْبِيِّ

الخليفة، وهو يعلم أنه لم يكن بينهم في هذه المرحلة العصبية وبين التلطي والتهام الوضع القائم، إلا كلمة رغاء كالتي فاه بها مزوان، على أنها هدمت قيمة وساطته، وألقت في روع الناس آرتياباً حقيقياً حاداً في جدوى مداخلته، لهذا - وهو في مقياس كل عصر مبرر - تنحى واعتزل واعتصم في حدود هذا التنحي والاعتزال. ولكن علياً، مع كل ما هو عاتب وواجد، لم يزل يُقدّر ويذهب في مدى تقديره بعيداً، فينتهي إلى الكارثة ويتراءى له شبحها، فيزهق هولها ويخشى وقوعها. يجب إذاً أن لا يظل بعيداً، وإن توارى من الميدان إزاء موقف بطانة عثمان من الجمهور، هذا الموقف النابي المثير، فبادر إلى تقديم ولديه - لاعتباريهما التقديرية - ومواليه، كي ينهئوا عوادي الأحداث وطائشات الخطوب. وحين بلغه «أن الناس حصروا داره ومنعوه الماء بعث إليه بثلاث قرب، وقال للحسين والحسين: أذهبا بسيفيكما حتى تقوما على بابي ولا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه، وكان أن خضب الحسن بالدماء وشج قنبر مؤلداً».

وبات علي مطمئناً، فقد رتب الأمور جيّداً، وهو واثق من أن مجرى الحادث سيسير على هذا الشكل: يضطر عثمان تحت ضغط الجمهور، إلى إجابة مطالب الإصلاح وتنحية بطانته ولا سيما مزوان، ولوجود آتنيته ومواليه أطمأن من عدم دنو الخطب منه. فإن وجودهم يُعبر عن معارضة عملية أكيدة من جانبه، فلا يتصل به مكروه دام يضع حداً لحياته، وإنما كل ما في الأمر أنه سيضع حداً لأساليب الحكم الاستبدادية ومهازله العابثة. وما كان يدري أن المغرضين، ذوي المآرب، كانوا قد آندسوا في الجمهور الذي غدا جدد حساس وجد متأثر، فتدفق السيل جارفاً و«جرى الوادي فطم على القرى».

هذا ما عرف التاريخ عن علي وبنيه إزاء المصراع، بينما عرف من ناحية ثانية أن عثمان، وهو محاصر، كتب إلى معاوية وهو بالشام:

«إن أهل المدينة قد كفروا، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة، فأبعث إلي من

قَبِيلِكَ مِنْ مُقَاتِلَةِ أَهْلِ الشَّامِ عَلَى كُلِّ صَعْبٍ وَذُلُولٍ»، فإذا مُعَاوِيَةُ حِينَما جَاءَهُ كِتَابُهُ «يَتَرَبَّصُ بِهِ فَقَدْ كَرِهَ - عَلَى حَدِّ دَعْوَاهُ - مُخَالَفَةَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ، وَقَدْ عَلِمَ أَجْتِمَاعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ».

وَمِنْ تَهَكُّمَاتِ الْقَدَرِ أَنْ يُحَرِّضَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى قَتْلِ عُثْمَانَ، وَتَجَبُّهُ عَائِشَةُ عَلَانِيَةً، وَتَخْلَى مُعَاوِيَةُ عَنْ نَجْدَتِهِ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرُ كِلَاهُمَا، ثُمَّ يَنْفِرُ هَؤُلَاءِ أَنْفُسُهُمْ هُنَا وَهُنَاكَ، يُطَالِبُونَ بِدَمِهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي أَخْلَصَ لَهُ النَّصِيحَةَ، وَحَذَّرَهُ مِنْ هَذَا الْمَصِيرِ، وَكَانَ مِجَنَّهُ دُونَ رَوَاكِضِ الْخُطُوبِ.

\*

بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ وَمُسْتَضْرِحٍ وَنَاكِيلٍ، تَرَاقَصَ الْحُيْطُ مُضْطَرِباً مُتَرَنَّحاً كَبَحْرِ آسْتَقْبَلَ بَيْنَ حَنَائِيَاهُ الْعَاصِفَةَ...

فَمَادَ بِهَا وَمَادَتْ بِهِ زَمَنًا، وَأَنْطَلَقَ يَقْذِفُ بِالزَّبْدِ يُعْبِزُّ عَنْ أَنَّهُ حَانِقٌ، وَيَزْمِي بِالْمَوْجِ مُتَطَاوِلًا كَأَنَّهُ يَتَهَدَّدُ...

فَقَدْ عَبَثَتِ الْعَاصِفَةُ بِأَبْدِيَّةِ الشُّكُونِ الْجَائِمَةِ عَلَيْهِ. وَهُدُوءِ اللَّانِيَهَاءِ الْغَامِضَةِ الْحَائِمَةِ فِيهِ...

\*

شَعَرَ الْبَحْرُ<sup>(٦)</sup> أَنَّ الصُّخُورَ<sup>(٧)</sup> الشَّامِيَّةَ فِي أَرْجَائِهِ لَيْسَتْ مِنْ طَبِيعَتِهِ... فَاسْتَدَارَ عَلَيْهَا يُزْمِجُ ثَائِرًا هَادِرًا، فَقَدْ أَيقَنَ أَنَّهَا مَكْمَنُ الْعَاصِفَةِ، فَهُوَ يَنْوُو بِأَقْتِلَاعِهَا...

---

(٦) كِنَايَةٌ عَنِ الشَّعْبِ الَّذِي هُوَ فِي الْوَاقِعِ بَحْرٌ حَيَوِيٌّ يَفِيضُ بِالْقُوَى، وَتَارِيخُهُ سَيَلٌ مِنَ الْهُدُوءِ وَالْعَوَاصِفِ وَالْثَّيَارَاتِ وَالتَّنَاحُرَاتِ بَيْنَ أَحْيَائِهِ.

(٧) كِنَايَةٌ عَنِ الْأَرِثَقْرَاطِيَّةِ، وَمَا حَلَّ مَحَلَّهَا فِي الْمُجْتَمَعِ الْحَدِيثِ، وَفِي الْوَاقِعِ أَنَّ لِهَذِهِ الْأَرِثَقْرَاطِيَّةَ طَبِيعَةَ الصُّخْرِ مِنْ كِبَرِيَاءِ قَاسِيَةٍ وَجِسٍّ بَلِيدٍ.

وحين طاولته طما عليها وتجاهل وجودها...  
وهو، وإن لم يقتلها، ردها إلى حيث لا يكون لها حساب في كبرياء  
الوجود...

\*

إن كبرياء الواحد تجاهل لوجود الآخرين...  
ولكن وجودهم في حس الواقع، أكبر من وجوده في حس الخيال...  
فإن وجوده قبضة من الظلام، ووجودهم قبضة من الشعاع...  
وما تقابلا إلا ذاب الأول في الثاني دون ما أثر يقفوا...  
إن الكبرياء صفة ذاتية للكثرة، وهي تشير إلى العدد...  
وإذا نجح الفرد في ابتلاع الكل أحياناً، فإنه متعرض لخطر التمزع دائماً...  
فالكل قبلة قد تبور حيناً، ولكن فيها إمكانية التفجر أبداً...

\*

في طبيعة البحر رشاقة الحركة، وفي طبيعة الصخر سكون بليد، وأيضاً قاس  
متجههم...  
وبينهما وقف إنسان<sup>(٨)</sup> فيه وعي السكون وقصد الحركة، يصل أسباب  
أحدهما بأسباب الآخر...  
وكانت كبرياء الصخر عمياء فلم تقنع بغير وجودها، فأنطلقت أعاصير  
البحر تزار في مثل الفحيح...

---

(٨) كناية عن كل مصلح إنساني يعمل في هدي المبادئ كعلي.

وَوَقَفَ هَذَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الشَّاطِئِ يَنْظُرُ مُتَفَجِّعاً، فَإِذَا الْوُجُودُ الْمَخْدُوعُ -  
الَّذِي أَضْحَى غَوْرًا - تَرْقُصُ فَوْقَهُ مَوْجَةٌ مَارِحَةٌ... فِي نَعْمَةٍ تُخْبِرُ: أَنَّهُ كَانَ هُنَا شَيْءٌ  
فِيمَا زَعَمُوا...

\*

مَضَى ذَلِكَ الْإِنْسَانُ وَقَدْ أَبْصَرَ وَسَمِعَ، مُطْرِقًا مُرَدِّدًا: بِهَذَا نَطَقَ الْحَقُّ فِي  
صَدَى الْمَوْجِ...

وَرَوَى هَذَا الْإِنْسَانُ لَوْلَدِهِ<sup>(٩)</sup> أُمَثُولَهُ، بُنَحْرٍ، فَلَيْثَ مُتَأَمِّلًا يُعَبِّرُ عَنْ أَنَّهُ وَعَى...  
وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا، حَتَّى كَانَ بِنَفْسِهِ رَجْفَةً رَعَشَاتٍ وَخَلَجَاتٍ، وَرَجْعَةً أَصْدَاءِ  
الْمَوْجِ...

وَشَرَعَ النَّاسُ يَرُؤُونَهُ، بَعْدَ ذَلِكَ، أُمَثُولَةً آتِينَ الْإِنْسَانَ...

\* \* \*

---

(٩) كِنَايَةٌ عَنْ أَسْمَى أَبْنَاءِ الْوَعْيِ الْحَدِيدِ كَالْحُسَيْنِ.

## في الزوبعة

عن مأساة حمراء اختلطت فيها الأشلاء بالدماء، آنكشف الفصل الأخير  
من فصول الثورة التي كانت تمثل على أرض المدينة وفي بطحائها الفسيحة  
المدى، البعيدة الآفاق، والتي كانت تتجاوب بأصدائها الهادرة هنا وهناك، قريبة  
بعيدة، فتتفاعل مع الأحياء تفاعلاً ملوّناً الرعشات، فمن بيضاء ناصعة كالزبد، ومن  
سوداء فاحمة كالقار، ومن حمراء قانية كالغنم، وأعصاب الجماعات تتمدد  
وتتقلص وتغلو وتهبط... فجذلان هناك وغضبان هنا، وبين هذا وذاك تنبعث  
نأبات مُحترقة، أو زفارات مُحترقة، أو بقايا هتافات مُغتبط طروب.

وهم، وإن لم يجمعهم الأسى، فقد تنفّس سائرهم الصعداء، ولكن لم  
تلبث أن دارت الثورة على نفسها بالغة عنيفة، فقد آفقت قيادها وهبت طائشة  
على قطبها، شاردة في لولبها.

كان الجمهور قد ألتهب بروحية الدماء وشريتها، فغدا دموياً وشرساً، يضرب  
على أسنانه في شكل كرية، كأنه يتأكلها، أو كأنما يتأكل الأشباح والطيوف التي  
استوت في مكان الحيس من نغمته، فهو يتوعد ضارباً بقبضته في الهواء كمن  
يتح في مكان الفضاء عمّن أثار عليه حفيظته، والحفاظ قاسية نهمه إذا  
انطلقت في مدى الشعور المتضري، وأعصاب الحي حينما تضري، وتهيجها



النَّقْمَةُ لَا تَذْهَبُ فِي آتِنِقَامِهَا إِلَى الْإِيقَاعِ السَّاحِقِ بِمَنْ أَسْعَرَهَا فَقَطُّ، بَلْ تَرُوحُ  
مَاضِيَةً وَرَاءَ ذَلِكَ بَعِيداً. فَهِيَ لَمْ تَرَوْ حُرْقَةَ الظَّمَا الْفَائِرِ، فَتَطْلُبَ سَحَقَ أَخِيلَتِهَا،  
وَتُصَارِعَ الْخَيَالَ الْبَغِيضَ الَّذِي تَمَدَّدَ عَلَيْهَا فِي ثَوْرَةِ الدَّمَاءِ... وَمِثْلُ هَذَا الْجُمْهُورِ لَا  
يَزْعَى لِلْمَوْتِ قَدَاسَةً وَحُرْمَةً، وَكَذَلِكَ كَانَ فَقَدْ حَالَ بَيْنَ جَسَدِ الْخَلِيفَةِ الْمَفْؤُودِ وَبَيْنَ  
الدَّفْنِ، أَنَّهُ حَانِقٌ لَا يُطِيقُ أَنْ يَرَى شَيْئاً يُجَدِّدُ لَهُ الذِّكْرَى أَشَدَّ هَوَلاً.

إِنْطَلَقَ النَّاسُ فِي مَذْهَبِ أَغْصَابِهِمِ الْمُتَأَزِّمَةِ الْمُتَعَقِّدَةِ دُونَ هَوَادَةٍ أَوْ لِينٍ،  
يَذْكُرُونَ مَعَالِمَ الْمَاضِي الْقَرِيبِ كَيْفَ حَلَا لَهُمْ، وَيَضْحَكُونَ كَيْفَمَا شَاءَتْ أَهْوَاؤُهُمْ،  
وَفِي هَذَا التَّجْمُهِرِ الْكَبِيرِ قَامَ الْأَشْتَرُ مُنْتَصِباً فَوْقَ الْجُمُوعِ مُلَوَّحاً بِسَيْفِهِ، هَادِراً  
بِمَنْطِقِهِ النَّارِيِّ الْمُتَّقِدِ الَّذِي كَانَ يَخْرُجُ مُمْتَدِّاً كَأَلْسِنَةِ اللَّهَبِ قَائِلاً:

أَلَا سَحَقاً لِبَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ الْأَشْرَارِ،

وَوَيْلٌ لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَتُونِ الشَّعْبِ الْفَوَّارِ،

فَيْدُ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ تَعْتَصِرُ الْمُسْتَبِدِّينَ الْفُجَّارِ،

وَلَا بُدَّ لِلظُّلَمِ مِنْ أَنْ يَلْتَهِمَهُ فِي ضَمِيرِ الْكَوْنِ أَفْعَاؤُ جَبَّارِ،

وَرَحِمَ اللَّهُ الْخَلِيفَةَ الرَّفِيقَ الَّذِي أَنْقَلَبَ لِيْنُهُ مَعَهُمْ إِلَى أَنْقِيَادٍ وَصَغَارِ،

وَحَيَّا اللَّهُ غَضَبَةَ الْأَحْرَارِ،

وَكِبْرِيَاءَ بَطْشَةِ الشَّعْبِ إِذَا ثَارَ،

الَّتِي أَنْتَصَفَتْ لِلْمَظْلُومِينَ الْأَبْرَارِ،

فَهَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأُولَئِكَ، أَعْدَاءُ الشَّعْبِ، إِلَى النَّارِ،

وَحَذَارِ أَنْ تَشْرُكُوا لِلْعَادِينَ فُرْصَةَ الْفِرَارِ وَالنَّفَارِ،

فَهَلُمُّوا كَالسَّيْلِ أَنْدِفَاعاً إِلَى بَطْلِ الْأَحْدَاثِ الْكِبَارِ،

فَقَدْ أُعْطِيَتْ الْقَوْسُ بَارِيَهَا وَتَمَّ آلَا تَيْصَافُ وَآلَا تَيْصَارُ،  
 وَأَطْمَأَنَّ مُشَرَّدُو الطُّغْيَانِ فِي الْقِفَارِ،  
 وَأَنْتَحَرَ الْعُدَوَانُ وَأَنْصَارُهُ أَيَّ أَنْتِحَارِ،  
 وَأَعْتَلَى الْحَقُّ عَلَى الْبَاطِلِ، وَذَابَتْ حُلُكَةُ اللَّيْلِ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ.  
 فَانْطَلَقَ النَّاسُ، يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَتَدَافَعُوا فِي كُلِّ طَرِيقٍ كَالْقُلَلِ  
 السَّاقِطَةِ الْمُتَدَخِّرِجَةِ، إِلَى دَارِ عَلِيٍّ يُنَادُونَ بِهِ خَلِيفَةً وَزَعِيمًا.  
 كَانَ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ جَمَاعَةٌ يَتَجَاذِبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ، فِي شَيْءٍ مِنَ  
 التَّنَافُرِ فِي الرَّأْيِ وَالنَّظَرِ إِلَى الْحَدِيثِ الدَّامِي الَّذِي تَمَّ عَلَى أَيْدِي النَّائِرِينَ.  
 قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ: لَقَدْ عَدَا النَّائِرُونَ أَقْدَارَهُمْ وَائِيَمُ اللَّهِ، وَاسْتَطَالُوا عَلَى  
 مَقَامِ الْخِلَافَةِ، وَلَمْ يَزْعُوا حَصَانَةَ الْعَهْدَةِ الَّتِي تَمَّتْ بِالْإِثْتِخَابِ، وَلَكِنْ:  
 مَنْ سَرَّهُ الْمَوْتُ صِرَفًا لَا مِزَاجَ لَهُ فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً فِي دَارِ عَفَانَا  
 لَتَسْمَعَنَّ وَشِيكَاً فِي دِيَارِهِمْ أَلَلَّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَ  
 قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ سُعْبَةَ: مَاذَا تَقُولُ؟! عَدَوْا أَقْدَارَهُمْ فَقَطُّ! بَلْ هُمْ أَثَمَةٌ  
 سَفَّاكُونَ، وَنَحْنُ لَمْ يَفُتْنَا مِنْ إِثْمِهِمْ، بَلْ نَصِيبُ كَبِيرٍ مِمَّا اقْتَرَفُوا. كَانَتْ جِنَايَةٌ مَا  
 أَهْوَلُهَا! إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى أَيْدِينَا نَحْنُ، نَعَمْ، نَحْنُ، فَلَا أَرَاهَا إِلَّا مُلَطَّخَةً بِالدَّمِ الزَّكِيِّ  
 الْبَرِيِّ. لَقَدْ شَارَكْنَا هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، بَلْ كُنَّا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، كُنَّا مَطَايَا  
 الْجَرِيمَةِ.

لَعَلَّكُمْ لَا تَدْرُونَ أَنَّ فِي الْحَادِثَةِ يَدًا مَجْهُولَةً حَاكَتْ هَذِهِ الْمُوَامَرَةَ الطَّاغِيَةَ مِنْ  
 أَطْرَافِهَا، وَأَحْكَمَتْ أَسْبَابَهَا. نَعَمْ اسْتَطِيعَ أَنْ أَتِيَهُمْ وَأُعْلِنَ بِمَلْءِ فَمِي أَنَّ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ  
 مَا وَرَاءَهَا... وَأَبْتَسَمَ آيْتِسَامَةً صَفْرَاءَ كَالْفَحِيحِ فِي شِفَاةٍ مُلْتَوِيَةٍ مَقْلُوبَةٍ صَحْبَهَا

تَكْثُرُ فِي الْجُفُونِ كَأَنَّهُ يُشِيرُ... وَلَكِنَّهَا أَكْمَةٌ شَفَافَةٌ تُرَى مِنْ خِلَالِهَا الْأَشْبَاحَ.

تَنَمَّرَ جَهْجَاهُ الْغِفَارِيُّ وَرَدَّ عَلَيْهِ: بَلْ بَاءَ أَصْحَابُكَ بِشَرِّ أَعْمَالِهِمْ، وَإِنْ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ لَيَنْتَظِرُهُ يَوْمٌ أَكْثَرُ سُوءًا، وَلَوْ كَانَتْ الْأُمُورُ إِلَيَّ لَمَا تَرَدَّدْتُ فِي أَنْ أَبْطُشَ بِكَ أَوَّلَ مَا أَبْطُشُ، فَأَنْتَ هُوَ رَأْسُ الْأَفْعَى، وَبِنَفْسِي أَنْ أُرْوِيَ بِكَ أَعْصَابِي الظَّامِئَةَ.

فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتُمُ أُمَّهَاتُهُمْ أَخْرَارًا»، أَلَمْ يَقُلْهَا لَعَمْرُؤُا بْنِ الْعَاصِ وَأَيُّنِهِ يَوْمَ سَامَا الْمِصْرِيِّ الْبَرِيءَ وَأَضْطَهَدَاهُ اسْتِغْلَاءً فِي الْأَرْضِ وَعُتُوًّا. قَالَ هَذَا فِيكُمْ وَلَمْ تَتَرَبَّعُوا عَلَى دَسِيسَةِ الْحُكْمِ، وَلَمَّا تَصِرْ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ وَأَسْبَابُ السُّلْطَانِ إِلَى أَيْدِيكُمْ، فَكَيْفَ وَقَدْ تَسْوَدَّتُمْ؟ أَرَدْتُمُوهَا فِرْعَوْنِيَّةً وَرُبُوبِيَّةً، وَرَكِبْتُمُ النَّاسَ بِالْبَغْيِ مَطَايَا شَهَوَاتٍ... وَثَارَتْ بِهِ حَفِيزَتُهُ، فَانْقَلَبَتْ سَخْنَتُهُ وَتَجَهَّمَتْ عَلَى شَكْلِ مُنْكَرٍ، وَبَدَرَتْ مِنْهُ حَرَكَةٌ تُنْذِرُ بِشَرٍّ، لَوْلَا أَنْ خَفَّ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَحَالَ دُونَهُ، وَتَنَاوَلَ الْحَدِيثَ:

كَمَا تَقُولُ - يَا مُغِيرَةُ - إِنَّ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ مَا وَرَاءَهَا، وَلَكِنْ كَمْ يُسْقَطُ فِي يَدِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ إِلَّا بَطَانَةُ الْخَلِيفَةِ الرَّاحِلِ نَفْسُهَا، ثُمَّ لَمْ تَنْكَشِفْ عَنْ أَحَدٍ سِوَاهُمْ، فَأَنَا أَرَى كَمَا تَرَى وَأُقَدِّرُ مِثْلَمَا تُقَدِّرُ، بَيِّدَ أَنِّي كُلَّمَا حَدَّثْتُ بَيْنَ الْخِلَالِ، وَأَطَلْتُ التَّحْدِيقَ وَأَنْعَمْتُ النَّظَرَ، فَلَسْتُ أَرَى وَرَاءَ الْأَكْمَةِ إِلَّا مَنْ ذَكَرْتُ لَكَ، ثُمَّ لَا أَرَى إِلَّا إِيَّاكَ وَأَصْحَابَكَ.

نَعَمْ فِي مَضْرَعِ الْخَلِيفَةِ الْفَظِيعِ مُؤَامَرَةٌ أَنْتُمْ نَظَّمْتُمُوهَا بِأَنْفُسِكُمْ، وَقَدْ يَقَعُ غَرِيبًا عَلَيْكَ أَنْ يَتَأَمَّرَ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ تَسَخَّرَ فِي سِرِّكَ مِنْ قَوْلِي، وَلَكِنَّ الْمُتَهَوِّرَ الطَّائِشَ طَالَمَا نَالَ نَفْسَهُ بِحُسَامِهِ، كَذَلِكَ الصَّائِدُ الَّذِي حَمَلَ فِخَاخَهُ وَأَنْطَلَقَ يُرِيدُ الظُّبَاءَ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ: لَوْ حَمَلْتُهَا مَفْتُوحَةً مُهَيَّأَةً لَكُنْتُ أَسْرَعَ إِلَى نَيْلِ الْغَايَةِ وَأَرْجَى فِي الْفَائِدَةِ، فَفَعَلَ وَسَارَ... وَلَمْ يَمُضْ بَعِيدًا حَتَّى أَطَبَّقَ بِهِ فُخٌّ مَعَ حَرَكَاتِ الْمَسِيرِ،

فَسَقَطَ يَفْحَصُ فِي الْأَرْضِ<sup>(١)</sup>، وَقَدْ قَنَصَ نَفْسَهُ فِي شَهْوَةِ الظُّبَاءِ.

إِنَّكَ أَذْرَى مِنْ غَيْرِكَ بِمَا كَانَ مِنْ سِيَاسَةِ بَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْعَشْفِ،  
حَتَّى لَكَأَنَّهَا تَمْشِي عَلَى الْجَمَاجِمِ وَتَتَنَعَّمُ عَلَى أَشْلَاءِ الْأَحْيَاءِ. لَقَدْ ضَنُّوا عَلَيْهِمْ حَتَّى  
بِمَا يَسُدُّ رَمَقَهُمْ وَيَبُلُّ حُلُوقَهُمْ، وَبَخَلُوا عَلَيْهِمْ بِأَقْلٍ مِنَ الْقَلِيلِ، وَسَامَوْهُمْ إِذْلالاً،  
وَأَوْرَدَوْهُمْ مَوْرِدَ التَّهْلُكَةِ.

فَقَبِعَتْ تِلْكَ الْبِطَانَةُ بِشُكْنَى الْقُصُورِ الْمَبْثُوثَةِ بِالرِّيَاشِ، وَأَصَمُّوا آذَانَهُمْ عَنِ  
الْأَنِينِ الصَّارِخِ الْمُتَبِعِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَأَوْهَمُوا الْخَلِيفَةَ الرَّقِيقَ الْحَاسَةَ أَنَّ الشَّعْبَ فِي  
أَسْعَدِ مَا يَكُونُ حَيَاةً، وَضَرَبُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ بِأَسْوَارٍ وَحُجُبٍ، وَمَنَعُوهُ عَنِ الشَّعْبِ  
وَمَنَعُوا الشَّعْبَ عَنْهُ، وَسَمَّمُوا رَأْيَهُ فِي النَّاصِحِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَجَعَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ  
أَوْصِيَاءَ عَلَى الْخَلِيفَةِ الَّذِي شَاؤُوا الْحَجَرَ عَلَيْهِ، وَغَفَلُوا عَنْ أَنَّ الْقُصُورَ الَّتِي آغْتَصَمُوا  
بِهَا قَامَتْ عَلَى أَجْسَادِ حَيَّةٍ تَتَحَسَّسُ بِالْآلَامِ، وَكَانَ فِي أَنْتِفَاضَةٍ مِنْ أَنْتِفَاضَاتِهَا مَا  
أَحَالَ دُنْيَا تِلْكَ الْقُصُورِ أَطْلَالاً وَخَرَابٍ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ النَّائِرِينَ لَمْ تَحْدُثْهُمْ فِكْرَةُ الْجَرِيمَةِ وَلَا شَهْوَتُهَا، وَإِنَّمَا حَدَاثُهُمْ تَنَفُّسُ  
الْحُرِّيَّةِ الْمَضْغُوطَةِ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ، كَمَا رَامُوا، بِإِخْلَاصٍ، إِنْقَادَ الْخَلِيفَةِ مِنْ بَطَانَتِهِ،  
وَرَفَعَ وِصَايَتِهَا الْقَسْرِيَّةَ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ خَلِيقاً بِهَذِهِ الْوِصَايَةِ حَقّاً، وَبِمِثْلِ هَؤُلَاءِ  
الْأَوْصِيَاءِ، فَمَا هُوَ وَالْخِلَافَةُ إِذَا ؟

وَلَكِنْ طَاشَ بِالنَّائِرِينَ السَّهْمُ فَأَصَابَ مَنْ لَمْ يَكُنْ هَدَافاً، يَبْدَأُ أَنَّهُ يُعْزَى أَنَّ  
الْبِطَانَةَ أُصِيبَتْ فِي مَقْتَلِهَا بِمَصَابِيهِ، فَمَصَابِيهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطِئاً فِي حِسَابِ الشُّعُورِ،  
فَإِنَّ سُقُوطَ تِيكَ الْبِطَانَةِ كُلِّ الْعَدْلِ فِي حِسَابِ الْفِكْرِ، وَالْجُمْهُورُ الشَّاعِرُ لَا يُحَدِّدُ  
التَّبِعَةَ بِمَنْطِقِ الْقَانُونِ بَلْ بِمَنْطِقِ الْأَلَمِ، فَلَيْسَ يَدْعَا إِذَا تَجَاوَزَ وَاسْتَفْحَلَ. وَلَوْ تَنَاوَلْنَا

(١) تَغْبِيرٌ كِنَائِيٌّ يَعْنُونَ بِهِ يَضْرِبُ أَدِيمَ الثَّرَابِ بِبَاطِنِ الْقَدَمِ.

المَوْقِفَ، حَتَّى بِمَنْطِقِ الْقَانُونِ، فَإِنَّ دَعْوَى التَّغْرِيرِ بِهِ لَا تُنْقِذُهُ مِنَ الْجَزَاءِ، وَلَقَدْ أَلْفَ الشَّعْبُ مَحْكَمَتَهُ، فَلَهُ الْكَلِمَةُ الْأُولَى وَالْآخِرَةُ، وَلَقَدْ قَالَهَا بِكُلِّ وَضُوحٍ.

وَإِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ مِنْ أَنَّ الثَّائِرِينَ غَضَبُهُ مُجْرِمَةٌ، فَإِنَّ تِيكَ الْبِطَانَةَ أَهْوَلُ جَرِيمَةٍ حِينَ دَخَلُوا بِهَا إِلَى كُلِّ بَيْتٍ. وَلَسْتُ بِهَذَا أُرِيدُ تَبْرِيرَ الْخَطْبِ، وَلَكِنِّي أَقْصِدُ إِلَى هَدْمِ فِكْرَةِ الْجَرِيمَةِ عَلَيْكَ الَّتِي تُغْلِنُهَا، وَلَعَلَّكَ تَعِي.

فَقَالَ جَهَّجَاهُ الْغِفَارِيُّ: تَقُولُ لَعَلَّهُ يَعِي؟ أَأَنْتَ غَرِيبٌ عَنْ شِبَاكِهِ وَأَحَابِيلِهِ. إِنَّهُ يُرِيدُ بِقَصْدٍ تَسْمِيمِ رَأْيِ النَّاسِ وَبَلْبَلَتِهِمْ، وَلَا يَلْبَثُ هُوَ وَمَنْ فَاتَنَا مِنْ بِطَانَةِ الْخَلِيفَةِ، حَتَّى يُلَوِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْعُثْمَانِيَّةِ، وَيَجْعَلُوا مِنْ عُثْمَانَ مَوْضِعًا ثَأْرِيًّا قَصْدَ إِلْقَاءِ الشَّعْبِ فِي الْفَوْضَى، وَأَنْكِفَائِهِ كُتْلًا عَلَى نَفْسِهِ، وَمَا أَسْرَعَ تَرَدُّدَ الْجُمُوعِ، فَهِيَ لَا تُحَاكِمُ وَلَكِنهَا تَشْغُرُ بِمُبَالَغَاتٍ.

فَهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى الْمَغِيرَةِ - يَعْتَمِدُ عَلَى رُوحِيَّةِ الْجُمْهُورِ، قَصْدَ الْحَارَبَةِ بِالْعُنْصُرِ النَّفْسِيِّ الْقَلِقِ لِإِيجَادِ حَالَةٍ فَوْضَى شَامِلَةٍ، وَهُوَ لَا يَأْبَهُ، بِسَبِيلٍ مَا يُرِيدُ، أَنْ تَنْدَكَ مَعَالِمُ مُجْتَمَعِنَا الْعَظِيمِ. لِنَفْرِضْ أَنَّ عُثْمَانَ صُرِعَ بِقَصْدٍ أَنْ يُصْرَعَ فَقَدْ صُرِعَ عُمَرُ مِنْ قَبْلِهِ، وَمَا تَهْمُنَا فُرُوقُ الْمُلَابَسَاتِ الَّتِي تَجِدُ قِيَمَتَهَا فِي الْاِعْتِبَارِ الْفَرْدِيِّ دُونَ الْاِعْتِبَارِ الْاجْتِمَاعِيِّ، فَهُمَا، كَحَادَثَيْنِ، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ. فَلَمَّاذَا يُحْرَضُ بِالِاتِّهَامِ، وَيَسْتَشِيرُ بِالتَّفَجُّعِ وَالتَّوَجُّعِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ شَرًّا؟

قَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: نَعَمْ، أَجْدَى عَلَيْنَا، وَأُولَى بِنَا، أَنْ نَعْتَبِرَ بِالْحَادِثِ وَلَوْ لَمْ يَخْلُ مِنْ خَطَأٍ، فَتُدَاوِيَ الْوَضْعَ وَنَجْتَهِدَ جَيِّدًا بِحُسْنِ التَّائِي، كَيْ نَحُولَ بَيْنَ الشَّعْبِ، بِمَنْعِ الْأَسْبَابِ، وَبَيْنَ الْعَوْدَةِ إِلَى آرْتِكَابِ خَطِئٍ جَدِيدٍ مِنْ شَاكِلَتِهِ. قَدْ مَاتَ الْمَيِّتُ وَبَقِيَ الْحَيُّ مُضْطَرِّبًا، فَلْنَعْرِفْ كَيْفَ نُدْخِلُ الْاطِمِئِنَانَ إِلَى نَفْسِهِ، وَبِذَلِكَ نَكُونُ قَدْ أَصْلَحْنَا الْخَطَأَ وَرَبَحْنَا الْمُصِيبَةَ. وَأَمَّا تَرْوِيعُ الْجُمْهُورِ، بِثَهْمَةِ الْإِجْرَامِ وَالْذَّمِّ، فَإِنَّهُ تَكْبِيرٌ لِدَائِرَةِ الْخَطِئِ وَتَوْسِيعٌ لِحَوَاشِي الدَّمَاءِ، وَمَا أَرَى هَذَا إِلَّا دَعْوَةً جَاهِلِيَّةً تَقُومُ



على الانتقام في غرضها القريب، وعلى المؤامرة بالنظام في غرضها البعيد....  
وقطع حسان عليه تسلسل حديثه حين انتهى إلى هذه النقطة، فقد مضى  
يردد قول الشاعر:

قومي همو قتلوا أميم أخي إذا رميت يصيبني سهمي  
أصبح علي الخليفة، واجتمعت في يديه مقاليد الأمور، فثاب إلى المجتمع  
هذوؤه مشفوعاً بالأمل وآرتقاب فجر جديد.

وبداً علي، أول ما بدأ، بإعطاء الحق إلى الشعب، فقد وجد أن مشاكليهم  
المعلقة أضحت مزممة لم يثبت فيها بشيء، فعطف على آلام هذا الجمهور، وواساه  
بنفسه وقلبه ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وذهب مع تقديره بأن المجتمع الذي يقوم النظام فيه على برنامج غير  
مكتوب، يظل غرضه للعبث والتلاعب والتصرفات التي من شأنها أن تضيره، إذا لم  
يقصد أولاً، وقبل كل شيء، إلى الاختيار وانتقاء الشخصيات التي تضم، إلى  
الكفاءة، الإخلاص والضمير. بل من رأي علي أن الإصلاح، حتى في المجتمعات  
التي يستوي النظام فيها على برامج مكتوبة، لا يتم على وجه مضمون إلا  
بالشخصية المثقاة، ولمس، إلى ذلك، أن أكبر عناصر الشكوى وأهم أجزائها هو  
الجزء الخاص بالأمراء والولاة، فبادر قداماً إلى تغيير التعيينات.

وكان طلحة والزبير كلاهما مرشحاً لولاية من ولايات الأمصار الكبرى،  
فلما أظهرنا على أن التعيينات الجديدة لم يصبهما منها نصيب، امتعضا نوع  
امتعض، ولمسا في الظرف الذي لم يزل قلقاً مضطرباً، ما يمكنهما من القيام بحملة  
ضغط على الخليفة الجديد، لا سيما وقد وجدوا في الناس من يطالب بإقامة الحد  
الشريعي على الذين باشروا الاغتيالات بالنفس.



وعليّ لم يُؤخّرهما من حيث إنّهما ليسا بالجديرين، فهما من ذوي السابقة،  
ومن أقدر العناصر، بل لأن الظرف لم يزل يعجّ بالحزبيّة ولم يزل مُتشبّعاً بروحها.  
فإذا بعث بهما إلى الأقاليم التي تُناصِرهما، كالكوفة بالنظر إلى الزبير، والبصرة  
بالنظر إلى طلحة، فقد سهّل لهما حُرّيّة التصرف والانفراد بالرأي لمكان الثقة  
الحزبيّة. وحُرّيّة التصرف هي التي بات يشكو الناس منها، كما كان الحال بمعاوية  
في الشام على عهد عثمان، على أن الأمير يُصبح، بهذه الحزبيّة المناصرة، قليل  
الاهتمام بأوامر السُلطة العليا، بحيث تتخذ به الأقاليم، في كل مكان، شكل  
إقطاعيّ لا تتصل بالمزج الأعلى الإيجابيّ المسؤول إلاّ اتصالاً إسميّاً. وإذا  
تأزمت العلاقة بين الرئاسة العليا والأمير، استطاع الأفراد بإقليمه، وقطع العلاقة  
التي لم تكن تُعبّر عن اتصال إيجابيّ. وهذا خطر يُهدّد الدولة، وداءٌ وييل في جسم  
الحكم، خصوصاً إذا تواطأ طائفة من أمراء الأقاليم على العضيان باتفاق المصالح  
الموجبة، فإنه يقع الخطر الحقيقي على الكيان الحكومي، كما تطل هذه الصلة  
الإسميّة للإقليم الإقطاعيّ ينبوع ضررٍ للرئيس الأعلى، وذلك حين لا يحفل الأمير  
بالأوامر التي تصدر له، ولا يزهّب مرجعه فيعبت كيف شاء، ويكون المسؤول عن  
تصرفه هو الرئيس الأعلى في نظر الشعب، فينتهم بالتواطؤ معه أو بالتغافل عنه،  
رغم أنه، في الواقع، لا يستطيع أن يحيك معه حيكاً، مثلما كان الحال في زمن  
عثمان، فقد أصبح اتصال الأقاليم بمركز الخلافة إسميّاً، والأمير الإقطاعيّ يتصرف  
كيف خلا له، لا ينتظر أمراً ولا يخضع لأمر. وإنما يستخدم ذلك الطابع  
(الإكليشه): «هذا أمر الخليفة» سِتاراً فقط، كما كان يفعل معاوية في الشام، فاثّهم  
الخليفة وأشحى ونسبت الفوضى.

وإذا بعث بهما عليّ إلى الأقاليم الأخرى، وليس لهما فيها أنصار وأشياخ،  
بل على العكس أعداء حزبيّون، فقد أعاد الوضع إلى القلق، ودفع الجمهور إلى  
التمرد بالشكوى المضطّعة، فعمد إلى مداواة الحالة العامّة، وخنق الحزبيّة وعنّعاتها،

وإيجادِ جِسمِ آجتماعيٍّ سليمٍ أولاً. فَبَيْنَ يَدَيْهِ مُجْتَمَعٌ مَرِيضٌ، وهو يَتَطَلَّبُ شَخْصِيَّاتٍ جَدِيدَةً لَمْ تَنْخَرِطْ فِي الْحَقْلِ الْعَامِّ، والحياةُ السِّياسِيَّةُ الصَّاحِبَةُ الْمُتَنَاجِرَةِ، حتَّى إِذَا تَمَّ لَهُ ما يُرِيدُ عَادَ فَفَكَّرَ فِيهِمَا وفي سِوَاهُما. وَلَكِنَّهُمَا فَسَّرَا إِغْفَالَهُمَا بِالْعَدَاءِ، فَانْصَرَفَا إِلَى إِيجَادِ الْوَسَائِلِ الْقَمِينَةِ بِالضَّغْطِ، فَوَجَّهَا وَجْهَهُمَا شَطْرَ مَكَّةَ. وَبَيْنَا هُمَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ لَقِيَا عَائِشَةً وَهِيَ قَافِلَةٌ مِنْ مَكَّةَ، فَرَوَّيَا لَهَا ما كَانَ مِنْ أَمْرِ الثَّائِرِينَ وَعُثْمَانَ، وما كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَعَلِيٍّ، وكاشَفَاها بِما عَزَمَا عَلَيْهِ. وَصَادَفَ هَذَا رَغْبَةً خَفِيَّةً فِي ضَمِيرِهَا وَهَوًى كَامِناً، بِمَا اسْتَطَاعَ الزُّبَيْرُ، بما لَهُ مِنْ دَالَّةٍ عَلَيْهَا، وَهُوَ زَوْجُ أُخْتِهَا أَشْمَاءَ، وَوالِدُ مَنْ اسْتَخْلَصَتْهُ لِنَفْسِهَا مِنْ أَبنائِهِ، حتَّى اخْتَارَتْ لِكُنْيَتِهَا اسْمَهُ وَذَلِكَ هُوَ عَبْدُاللهِ ابْنُهُ. فَحَمَلَهَا عَلَى الرَّجُوعِ، وَسَهَّلَا لَهَا الْخَوْضَ فِي مَعْمَعَةٍ سِياسِيَّةٍ طَاحِنَةٍ، اتَّصَلَتْ حتَّى أَنْقَلَبَتْ دَمَوِيَّةً حَادَّةً.

ولَمَّا هَبَطُوا مَكَّةَ وَجَدُوا فِيهَا فُلُولَ الْأُمَوِيِّينَ، فَفَكَّرُوا جَمِيعاً بِاسْتِغْلَالِ الْمُؤَقِفِ وَتَرْتِيبِهِ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ:

يَعْصِي بِالشَّامِ مُعَاوِيَةُ، وَهُمْ يَعْصُونَ بِالْعِرَاقِ، حتَّى إِذَا اسْتَقَامَ لَهُمُ الْأَمْرُ وَاسْتَقَرَّوْا، حَاصِرُوا الْحِجَازَ وَأَنْتَزَعُوا مُقَدَّرَاتِ السُّلْطَةِ الْعُلْيَا، وَأَزْغَمُوا الْخَلِيفَةَ عَلَى التَّسْلِيمِ بِمَطَالِبِهِمْ.

إِتَّصَلَ بِعَلِيٍّ كُلُّ ما دَارَ بِخَلَدِهِمْ وما عَزَمُوا عَلَيْهِ، وَاتَّصَلَ بِهِ، فَوْقَ ذَلِكَ، أَنَّ الْخُطْبَ سَيَعْدُو دَائِرَتَهُ الصَّيِّقَةَ، لِنُزُولِ عَائِشَةَ إِلَى الْمِيدَانِ بِما تَبَعَتْهُ مِنْ خَامِدَاتِ النُّفُوسِ، وَفِي الْحَيْطِ الْعَرَبِيِّ خُصُوصاً. أَلَيْسَتْ أَمْرَاءُ وَأَمْرَأَةٌ لَهَا قِيَمَتُهَا وَمَنْزِلَتُهَا الرُّوحِيَّةُ الْفَرِيدَةُ؟ فَهِيَ زَوْجُ النَّبِيِّ وَأَبْنَةُ الْخَلِيفَةِ الْأَوَّلِ، وَمَرْجِعُ عِلْمِيٍّ فَقْهِيٍّ. وَمِنْ نَاحِيَةِ ثَانِيَةٍ، أَلَيْسَ الْمَوْضُوعُ نَفْسُهُ حَسَّاساً مُشِيراً؟ أَلَيْسَ كُلُّ الثَّائِرِينَ الَّذِينَ تَمَّ الْحَادِثُ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي صُفُوفِ عَلِيٍّ؟ أَلَيْسَتْ نَفْسِيَّةُ الْجُمُوعِ شَدِيدَةُ الْحَسَاسِيَّةِ بِهَوْلِ الدِّمِ الْمَطْلُولِ، وَضَعِيفَةُ الْحَاكِمَةِ وَالْمُوازَنَةِ؟ أَلَيْسَ الظَّرْفُ مُتَبَلِّلاً يَمِيدُ وَيَمُورُ بِالْفَوْضَى؟

ففي الأمر إذا عُقِدَتْ خَطِيرَةٌ، ولا بُدَّ أَنْ يَسْتَعْلَهَا هَؤُلَاءِ الْوَاجِدُونَ.

فَكَرَّ وَقَدَّرَ وَقَلَّبَ وَجُوهَ الرَّأْيِ، حَتَّى آتَتْهُى إِلَى أَنَّ الْحَالَةَ النَّاشِئَةَ الْبَادِيَةَ، سَتَسْتَحِيلُ إِلَى فَوْضَى خَطِيرَةٍ، قَدْ تَنَدَّكَ مَعَهَا ضُرُوحُ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنْتَهَى أَيْضاً إِلَى أَنَّ صِفَةَ التَّبَلُّلِ، وَهِيَ تُسَاعِدُ عَلَى الدَّسِّ وَالْإِثْهَارِ، لَا يَحْسِمُهَا إِلَّا عَمَلٌ سَرِيعٌ عَنِيفٌ. وَفَكَرَّ كَثِيراً قَبْلَ أَنْ آتَبَدَأَ بَطَلْحَةِ وَالزُّبَيْرِ، وَمِنْ وَرَائِهِمَا عَائِشَةُ، فَقَدْ لَمَسَ خَطَرَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ مِنْ أَسْبَابِ السَّيْطَرَةِ وَالتَّأْثِيرِ الرُّوحِيِّ قَدْرًا كَبِيراً، وَقَدْ أَوْضَحَهُ بِقَوْلِهِ:

«بُلِيتُ بِأَنْضُ النَّاسِ، وَأَنْطَقِ النَّاسِ، وَأَطْوَعَ النَّاسِ فِي النَّاسِ. يُرِيدُ بِأَنْضُ النَّاسِ يَعْلَى بِنَ أُمِّيَّةَ، وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ مَالاً وَنَاضاً، وَأَنْطَقِ النَّاسِ طَلْحَةَ بِنَ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَأَطْوَعَ النَّاسِ فِي النَّاسِ عَائِشَةَ».

وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ فَقَدْ آسْتَجَلَى طَبِيعَةُ الْبَصَرَةِ، عَلَى ضَوْءِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَارِزَةً فِي الْعِرَاقِ إِذْ ذَاكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَكَانِ التَّفَكُّكِ وَالتَّفْسُخِ، وَعَدَمِ الْإِنْسِجَامِ وَالتَّمَاثُلِ، بَيْنَمَا الشَّامُ كَانَتْ عَلَى الْعَكْسِ مُتَمَاثِلَةً بِوَحْدَةِ الدِّمِّ وَالتَّغْرِيرِ. فَالْبَصَرَةُ إِذَا أَقْلُ عَنَاءٌ وَأَكْثَرُ خَطَرًا وَأَبْعَدُ نُفُودًا، بِمَا يَمْلِكُ اللَّاجِعُونَ إِلَيْهَا مِنْ صَدَى بَعِيدٍ، عَمِيقِ التَّجَاوُبِ فِي النَّفْسِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَامَّةِ. فَكَانَ لِرَامًا أَنْ يَنْبَعَثَ فَوْرُهُ إِلَيْهِمْ، وَيَتَّخِذَ الْبَصَرَةَ هَدَفَ ضَرْبَتِهِ الْأُولَى الْخَاطِفَةِ السَّاحِقَةِ، فَيُزْهِبَ بِهَا الْمُتَمَرِّدِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمَجَالٍ.

وَأَقَامَ خُطَّتَهُ عَلَى حَرْبِ الشُّرْعَةِ لِيَكُونَ نَجَاحُهَا مَضْمُونًا، فَيُعِيدَ الثَّقَّةَ الْمَقْقُودَةَ، بَعْدَ الثُّورَةِ، إِلَى الْهَيْئَةِ الْحَاكِمَةِ الْجَدِيدَةِ، وَيَضْبُطَ الْعَاصِفَةَ. كَمَا آسْتَعَانَ بِالنَّقْدِ وَالِدَّاعِيَةِ أَدَاةَ حَرْبِيَّةَ هَائِلَةَ التَّأْثِيرِ، وَأَذْرَكَ ضَرُورَةَ هَذَا الْعُنْصُرِ فِي الْحَرْبِ. فَدَفَعَ أُمَّ سَلَمَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ، وَهِيَ مِنْ أَعْوَانِهِ، إِلَى أَنْتِقَادِ عَائِشَةَ عَلَى شَكْلِ حَادٍ، فِيمَا أَقْدَمَتْ عَلَيْهِ مِنْ مُغَامَرَةٍ، فَكَتَبَتْ إِلَيْهَا، وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ أُذِيعَ الْكِتَابُ وَهُوَ:

«مِنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ، إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ إِلَيْكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ هَتَكْتَ سُدَّةَ بَيْنِ رَسُولِ اللَّهِ وَأُمَّتِهِ. جَمَعَ الْقُرْآنُ ذِيُولِكَ فَلَا تَسْحَبِيهَا، وَسَكَرَ خَفَارَتِكَ فَلَا تَبْتَدِلِيهَا، فَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ... لَوْ عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّ النِّسَاءَ يَحْتَمِلْنَ الْجِهَادَ عَهْدَ إِلَيْكَ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ قَدْ نَهَاكَ عَنِ الْفِرَاطَةِ فِي الدِّينِ. فَإِنَّ عَمُودَ الدِّينِ لَا يَثْبُتُ بِالنِّسَاءِ إِنْ مَالَ، وَلَا يُزَابُ بِهِنَّ إِنْ أَنْصَدَعَ. جِهَادُ النِّسَاءِ غَضُّ الْأَطْرَافِ وَضَمُّ الذُّيُولِ وَقَصْرُ الْمَوَادَّةِ. مَا كُنْتُ قَائِلَةً لِرَسُولِ اللَّهِ لَوْ عَارَضَكَ بِبَعْضِ هَذِهِ الْقَلَوَاتِ، نَاضَةً قَعُوداً مِنْ مَنْهَلٍ إِلَى مَنْهَلٍ، وَغَدّاً تَرْدِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأُقْسِمُ لَوْ قِيلَ لِي يَا أُمُّ سَلَمَةَ ادْخُلِي الْجَنَّةَ لَا سَتَحْيِيْتُ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ هَاتِكَةً حِجَاباً ضَرَبَهُ عَلَيَّ... فَاجْعَلِيهِ سِرِّكَ، وَقَاعَةَ الْبَيْتِ حِصْنَكَ، فَإِنَّكَ أَنْصَحُ مَا تَكُونِينَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَا قَعَدْتَ عَنْ نَصْرَتِهِمْ. وَلَوْ أَنِّي حَدَّثْتُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ لَنَهَشْتِ نَهْشَ الرَّقْشَاءِ الْمَطْرِقَةِ، وَالسَّلَامِ».

وَكَانَ لِهَذِهِ الدَّعَايَةِ الْحَرْبِيَّةِ أَثَرُهَا الْكَبِيرُ، فَأُمُّ سَلَمَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَيْضاً، وَهِيَ تَشْجُبُ عَلَى عَائِشَةَ حَرَكَتِهَا، وَتَتَنَقَّدُهَا آتِقَاداً لِإِذْعَا. وَقَدْ تَرَكَتْ أَثَرَهَا الْمَرْغُوبَ فِيهِ وَالْمُتَوَخَّى نَيْلُهُ، وَكَانَ أَبْرَزَ مَا تَرَكَتْ أَثَرَانِ:

١ - إعطاء صورة نائية عَنْ مُحَاوَلَةِ النِّسَاءِ مِثْلَ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ، فَقَدْ رَوَوْا «أَنَّ أَبْنَ أَبِي عَتِيقٍ - وَعَائِشَةَ عَمَّتُهُ - لَقِيَهَا فِي بَعْضِ مَآتِي الطَّرِيقِ رَاكِبَةً عَلَى بَغْلَةٍ، فَقَالَ:

إِلَى أَيْنَ يَا أُمَاهُ؟

قَالَتْ: أَصْلِحُ بَيْنَ حَيَيْنٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْمُسْلِمِينَ تَقَاتِلَا.

قال: عَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا رَجَعْتَ، فَمَا غَسَلْنَا أَيْدِينَا مِنْ يَوْمِ الْجَمَلِ حَتَّى نَعُودَ إِلَى يَوْمِ الْبَغْلَةِ».



٢ - شَجَعُ الزُّعَمَاءُ وَالْأُمَرَاءُ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوا عَلَيْهَا، فَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهَا زَيْدُ بْنُ صَوْحَانَ رَدًّا عَلَى كِتَابِهَا إِلَيْهِ:

«سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّكَ أَمَرْتَ بِأَمْرِ وَأَمَرْنَا بِغَيْرِهِ، أَمَرْتَ أَنْ تَقْرِي فِي بَيْتِكَ وَأَمَرْنَا أَنْ نُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً. فَتَرَكْتَ مَا أَمَرْتَ بِهِ وَكَتَبْتَ تَنْهَيْتَنَا عَمَّا أَمَرْنَا بِهِ، وَالسَّلَامُ... وَمَضَى الْخُطْبَاءُ يُخْصِمُونَ عَلَيْهَا تَبْلُغَهَا وَتَنَاقُضُهَا. فَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ تُشِيرُ بِعَلِيِّ فِي زَمَنِ عُثْمَانَ، وَكَذَلِكَ طَلَحَةُ وَالزُّبَيْرُ يَنْصَحَانِ بِأَنْ يَكُونَ عَلِيُّ الْخَلِيفَةِ، إِذَا هُمْ يَخْرُجُونَ جَمِيعاً لِحَرْبِهِ وَمُقَارَعَتِهِ فِي أَخْرَاجِ السَّاعَاتِ الْعَصِيَّةِ، وَبِذَلِكَ يُسَهِّلُونَ سَبِيلَ الْعَمَلِ لِلانْتِهَازِيِّينَ النَّفْعِيِّينَ.

فَحَزَبُ الدَّعَايَةِ الَّتِي أَصْطَنَعَهَا عَلِيٌّ وَقَذَفَ بِهَا خُصُومَهُ، أَثَرَتْ أَثَرَهَا الْكَبِيرَ، وَفَكَكَتْ الْوَحْدَةَ فِي الْمَعْسَكِ الْآخِرِ. «فَاغْتَزَلَ بِالْجُلَحَاءِ - مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى فَرَسَخَيْنِ - الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، وَاعْتَزَلَ مَعَهُ زُهَاءُ سِتَّةِ آلَافٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ».

وعلى هذا الوُضْعِ فَاجَأَهُمْ عَلِيٌّ بِجُنْدِهِ «وَفِيهِ ثَمَانِمِائَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَرْبَعُمِائَةٍ مِنْ شُهَدَاءِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، وَكَانَتْ رَايَةُ عَلِيٍّ مَعَ آبِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ، وَعَلَى مَيْمَنَتِهِ الْحَسَنُ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ الْحُسَيْنُ، وَعَلَى الْخَيْلِ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَعَلَى الرَّجَالِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ. وَزَحَفَ عَلِيٌّ نَحْوَ الْجَمَلِ بِنَفْسِهِ فِي كَتِيبَتِهِ الْخُضْرَاءِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَحَوْلَهُ بَنُوهُ حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ وَمُحَمَّدٌ، وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَى مُحَمَّدٍ وَقَالَ: أَقْدِمْ بِهَا حَتَّى تَرْكُزَهَا فِي عَيْنِ الْجَمَلِ. يَا بُنَيَّ تَرَوُلُ الْجِبَالَ وَلَا تَرُلُ، عَضُّ عَلَى نَاجِيكَ، أَعِزَّ اللَّهُ جُمُجُمَتَكَ، تَدُ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ، إِزِمْ بِبَصْرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ وَغُضِّ بَصْرَكَ وَأَعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَتَقَدَّمَ مُحَمَّدٌ فَرَشَقَتْهُ السَّهَامُ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: زُوَيْدًا حَتَّى تَنْفَدَ سِهَامُهُمْ... فَأَنْفَذَ عَلِيٌّ يَسْتَحِثُّهُ، فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ جَاءَ بِنَفْسِهِ. وَقَالَ لَهُ: أَقْدِمْ لَا أُمُّ لَكَ. ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ رِقَّةٌ عَلَيْهِ، فَتَنَاوَلَ الرَّايَةَ مِنْهُ بِيَدِهِ الْيُسْرَى وَذُو الْفِقَارِ مَشْهُورٌ فِي يُمْنَى يَدَيْهِ، وَنَادَى بِعَقْرِ الْجَمَلِ

فَوَقَّعَتِ الْهَزِيمَةُ».

كانت مَعْرَكَةُ الْجَمَلِ، بِدُونِ رَيْبٍ، أَوْ كَادَتْ تَكُونُ هِيَ الْمَعْرَكَةُ الْفَاصِلَةُ، وَأَنْ تَنْقَلِبَ مِنْ حَيْثُ الْقِيَمَةُ ثَانَوِيَّةً، وَأَنْ تُعْتَبَرَ حَرَكَةً فَرْعِيَّةً لِتَطْهِيرِ بَعْضِ عَنَاصِرِ الشَّعْبِ الْبَاقِيَةِ، خُصُوصاً وَالْمُقَاوَمَةَ الْكِفَاحِيَّةَ أَخِذَةً بِهَذَا الشَّكْلِ مِنَ الشَّرْعَةِ وَالِدَّاعِيَةِ الْمَوْفَقَةِ، الَّتِي أَشْعَرَتِ النَّاسَ كَافَّةً بِالْأَشْمِئْزَازِ مِنْ شَعْبِ الْمُشَاغِبِينَ. يَبْدُو أَنَّ الْحَالَ تَبَدَّلَتْ وَجَعَلَتْ لِصِفَيْنِ الصُّفَّةِ الْحَاسِمَةِ الرَّئِيسِيَّةِ لاعتبارات:

١ - إِسْتِحَالَةُ فِكْرَةِ الْعَقِيدَةِ وَرُوحِيَّتِهَا الْأَخْلَاقِيَّةِ عِنْدَ عَلِيِّ إِلَى فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ، وَالْفِكْرَةُ مِنَ الثَّوَابِتِ تَصْرِفُ كُلَّ قُوَى الْمَرْءِ الرُّوحِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ إِلَيْهَا، وَتَقِفُ جُهُودُهُ الْعَمَلِيَّةَ فِي سَبِيلِهَا وَمَدَى غَايَتِهَا، فَقَدْ تَرَكَّزَتْ تَرَكُّزَ الْأَعْصَابِ، فَصَاحِبُهَا لَا يُفَكِّرُ وَلَا يَرَى وَلَا يُحِسُّ أَوْ لَا يُحِبُّ أَنْ يُفَكِّرَ، وَأَنْ يَرَى، وَأَنْ يُحِسَّ، إِلَّا فِي مَوَاقِعَ مُبَوَّلِهَا، كَمَا لَا يُدَبِّرُ وَيُقَدِّرُ إِلَّا عَلَى ضَوْئِهَا. لِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ سِيَاسَةً عَلِيٍّ مُشْتَقَّةً مِنْ صَمِيمِ الْحَيَاةِ كَمَا هِيَ بِمَسَاوِئِهَا، بَلْ مِنْ رُوحِ الْحَيَاةِ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ بِفَضَائِلِهَا. فَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي عَرَفْنَاهُ دَمَوِيًّا فِي قَضِيَّةِ الْإِنْتِصَارِ لِلْعَقِيدَةِ، نَرَاهُ شَدِيدَ الْكِرَاهِيَّةِ لِسِيَاسَةِ الدَّمَاءِ وَأَسَالِيِبِهَا فِي قَضِيَّةِ قَمْعِ حَرَكَاتِ الْمُتَمَرِّدِينَ، فَهُوَ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ. وَلَكِنَّ وَسَطَهُ لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ هَذَا الْفَرْقَ فَهَمًّا حَسَنًا، أَوْ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا أَلْبَتَّةَ، فَقَدْ رَأَيْنَا عُثْمَانَ الْخَلِيفَةَ يُسَمِّي تَمَرُّدَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كُفْرًا فِي كِتَابِهِ إِلَى مُعَاوِيَةَ، وَنَرَى عَمَّارًا وَمُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَمِنْ وَرَائِهِمَا سَائِرُ النَّاسِ، يَنْظُرُونَ إِلَى خُصُومِهِمْ نَظْرَةَ الْمَارِقِينَ مِنَ الدِّينِ، وَبِالتَّالِي يَجِبُ أَنْ يُطَبِّقُوا عَلَيْهِمْ أَحْكَامَ الْكُفَّارِ وَقَانُونَ الْإِرْتِدَادِ.

كَانَ الْجُمْهُورُ مُتَشَبِّعًا بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا وَيُلَابِسُهَا، فَإِذَا عَلِيٌّ وَهُوَ الْمُتَشَرِّعُ الْعَبْقَرِيُّ وَالْمُسْلِمُ الْوَاعِي لِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ يَحْمِلُ عَلَى أَسَاسِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ، لَعَلَّا يَتَوَرَّطَ النَّاسُ فِي آسْتِباحَةِ مُقْتَضِيَّاتِهَا الْقَانُونِيَّةِ الَّتِي تُخَوِّلُهَا حَالَةُ الْحَرْبِ



في الأُسْرَةِ والمَالِ والمَلِكِ والقيَمَةِ الشَّخْصِيَّةِ، الَّتِي يَتَّبِعُ فَقْدَهَا الأُسْرُ والاسْتِرْقَاقُ. وَبَيْنَ النَّاسِ، بِمَنْطِقِهِ العَمِيقِ، أَنَّ هُنَاكَ صِفَةً ثَالِثَةً هِيَ الفِسْقُ، وَهُوَ لَا يَتَّعَدُ بِالْمَرْءِ أَلْبَتَّةَ عَنْ دَائِرَةِ الإِيمَانِ، كَمَا لَا تَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الِاسْتِبَاحَةُ بَلِ التَّأْدِيبُ فَقَطُّ.

وَأَنْظُرْ كَيْفَ يَتَأْتَى إِلَى إِقْنَاعِهِمْ بِخَطَأِ فِكْرَتِهِمْ حِينَ قَالُوا «أَحَلَّ لَنَا دِمَاءَهُمْ وَحَرَّمَ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ، فَقَالَ عَلِيٌّ:

هِيَ السُّنَّةُ فِي أَهْلِ الْقِبْلَةِ.

قالوا: مَا نَذْرِي مَا هَذَا؟

قال: فَهَذِهِ عَائِشَةُ رَأْسُ الْقَوْمِ أَتَسَاهَمُونَ عَلَيْهَا؟

قالوا: سُبْحَانَ اللَّهِ! أُمَّنَا.

قال: فَهِيَ حَرَامٌ

قالوا: نَعَمْ.

قال: فَإِنَّهُ يُحَرِّمُ مِنْ أُنْبَائِهَا مَا حُرِّمَ مِنْهَا... فَنَادَى فِي النَّاسِ: لَا يُسَلَبَنَّ قَتِيلٌ وَلَا يُتَّبَعُ مُدْبِرٌ، وَلَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ وَلَا يُحَلَّ مَتَاعٌ. وَلَكِنَّ الْجَمَهْرَةَ الْكُبْرَى سَازِجَةٌ بِسِيطَةٍ فِي فِكْرَةِ التَّدْيِينِ، فَوَقَعَ عَلَيْهِمْ هَذَا النَّدَاءُ وَقَعَ الْيَأْسُ فِي مَحَلِّ الأَمَلِ، وَجَعَلَهُمْ يَلْغَطُونَ كَثِيرًا، وَيَتَأَفَّفُونَ كَثِيرًا، وَحَمَلَهُمْ عَلَى تَفْكِيرٍ طَوِيلٍ فِيمَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَفِيمَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الإِيمَانِ.

فَأَمَّا أُولَئِكَ الْبِدَاةُ الْأَعْرَابُ الَّذِينَ لَمْ يَفْهَمُوا الدِّينَ إِلَّا عَلَى شَكْلِ سَطْحِيٍّ، اسْتَعَصَى عَلَى تَفْكِيرِهِمْ فَهَمُّ الْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ بَيْنَهُمَا، فَمَضَوْا عَلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ، وَاقْتَنَعُوا بِمَا أَنْتَهَوْا إِلَيْهِ، وَاسْتَمَلَوْا عَلَى نَوْعٍ مِنَ التَّسْخِطِ الْخَفِيِّ كَانَ غَيْرَ مَشْعُورٍ بِهِ إِلَّا قَلِيلًا، لِأَنَّهُمْ، بِمُقْتَضَى نَظَرِيَّتِهِمْ، حَالَ الْخَلِيفَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ حَقِّهِمْ فِي الْعُنْمِ

وَمَتَّعَهُمْ إِيَّاهُ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ كَانَتْ نَوَاطِئُ الْخَوَارِجِ، وَقَدْ صَاغُوا فِكْرَتَهُمْ هَذِهِ، فِيمَا بَعْدُ،  
بِأَنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ كَافِرٌ.

وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَحَبُوا النَّبِيَّ طَوِيلًا، وَعَرَفُوا كَثِيرًا مِنْ مَنَاطِقِ الدِّينِ، أَشْتَمَلُوا  
عَلَى أَطْمِئْنَانٍ كَبِيرٍ، حِينَمَا أَوْضَحَ لَهُمُ عَلَيَّ الْفَرْقَ كَمَا لَوْ لَمَسُوهُ. وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ  
مَنْ فَهِمَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ، عَلَى نَوْعٍ فِيهِ مُبَالِغَةٌ وَتَكْبِيرٌ، فَقَالَ بِالْمَنْزِلَةِ بَيْنَ  
الْمَنْزِلَتَيْنِ<sup>(٢)</sup>. وَكَانَتْ هَذِهِ الِاسْتِثْنَاةُ الْمُخْتَلِفَةُ كُلُّهَا، حَوْلَ الْمَوْضُوعِ الَّذِي أَثَارَتْهُ  
مُشْكِلَةُ الْغَنَائِمِ بَعْدَ يَوْمِ الْجَمَلِ، أَفْكَارًا غَيْرَ وَاضِحَةٍ كَثِيرًا، وَاتَّخَذَتْ سَبِيلَ وَضُوحِهَا  
فِيمَا بَعْدُ، وَقَامَتْ عَلَى أُسَاسِهَا الْفَرْقُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي عُرِفَتْ بِأَسْمَائِهَا أَخِيرًا.

٢ - نَظَرِيَّتُهُ فِي خُصُومِهِ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، فَلَا يَجُوزُ أَخْذُهُمْ فِي غَيْرِ حُدُودِ  
الْإِسْلَامِ وَقَانُونِهِ، وَهُوَ يُسْتَفْتَى بِهِمْ «أُمُشْرِكُونَ هُمْ؟»

قَالَ: مِنَ الشُّرْكِ فَرَّوْا... قِيلَ: فَمُنَافِقُونَ هُمْ؟

قَالَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا. قِيلَ: فَمَا هُمْ؟

قَالَ: إِخْوَانُنَا بَغَوْا عَلَيْنَا... وَكَانَ لَا يَفْتَأُ يَقُولُ: لَا تَقُولُوا كَفَرُوا أَهْلُ الشَّامِ،  
وَلَكِنْ قُولُوا: فَسَقُوا وَظَلَمُوا». فَلَا بُدَّ إِذَا أَنْ يُفَاوِضَهُمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُقِيمَ الْحُجَّةَ  
عَلَيْهِمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا وَسِعَتْ ذَلِكَ وَوَجَدَ فِيهِمْ أَمَلًا، دُونَ لُجُوءٍ إِلَى  
الْعُنْفِ الَّذِي لَا يَسْتَحِلُّهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُغْنِيَتْهُ.

فَنَرَاهُ يُفَاوِضُ مُعَاوِيَةَ، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِ الرَّسُولَ بَعْدَ الرَّسُولِ، وَالْكِتَابَ تَلَوَّ  
الْكِتَابَ، حَتَّى اسْتَعْمَلَ مَعَهُ أُسْلُوبًا يَقْرُبُ مِنَ الرَّجَاءِ. فَإِذَا بِهِ يُذَكِّرُهُ بِمَوْقِفِ أَبِيهِ مِنْهُ،

---

(٢) أَخْطَأَ مُؤَرِّخُو الْفَرْقِ حِينَ تَوَهَّمُوا أَنَّ فِكْرَةَ الِاعْتِرَافِ فِي الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ لَمْ تُعْرَفْ إِلَّا فِي حَلَقَةِ الْحَسَنِ  
التَّضَرِّيِّ، عَلَى لِسَانِ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ وَعَمْرُو بْنِ عَبِيدٍ، وَإِنَّمَا أَنْشَأَهَا بَعْدَ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ خَيَالُ مُشْكِلَةِ الْغَنَائِمِ،  
وَتَوْضِيحُ عَلَيِّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ.

وإذا به يَتَّهِمُهُ بِالْعُقُوقِ فِي رَفْقِي. قَالَ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ إِلَيْهِ:

«وَقَدْ كَانَ أَبُوكَ، أَبُو سُفْيَانَ، أَتَانِي حِينَ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ آتِ بِكَ أَبَايَعُكَ فَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ، فَكُنْتُ أَنَا الَّذِي أَبَيْتُ عَلَيْهِ مَخَافَةَ الْفُرْقَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِقُرْبِ عَهْدِ النَّاسِ بِالْكَفْرِ. فَأَبُوكَ كَانَ أَعْلَمَ بِحَقِّي مِنْكَ، وَإِنْ تَعْرِفَ مِنْ حَقِّي مَا كَانَ أَبُوكَ يَعْرِفُهُ تُصِيبَ رُشْدَكَ وَإِلَّا فَتَنْتَعِينَ اللَّهَ عَلَيْكَ».

وَلَكِنْ مُعَاوِيَةَ كَانَ قَدْ سَاوَرَهُ الطَّمَعُ، وَلَعِبَتْ أَهْلَامُهُ الْكِبَرَى أَمَامَ نَاطِرِيهِ، وَقَدْ فَهِمَ مِثَالِيَّةَ عَلِيٍّ وَتَقَوَاهُ فَعَمَدَ لاشتغالها. فَإِذَا هُوَ يُصَانِعُهُ، وَيُظْهِرُ لَهُ خُيُوطاً وَاضِحَةً مِنَ الْأَمَلِ بَعْدَ أَنْ يَضَعَ عُقْدَةً يَتَعَايَا بِهَا، فَيَعْذُرُهُ عَلِيٌّ وَيَمْضِي فِي مُفَاوَضَتِهِ. وَمُعَاوِيَةُ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا اكْتِسَابَ الْوَقْتِ لِتَهْيِئَةِ نَفْسِهِ، وَبَغْثِ رُوحِ الْمَلَلِ فِي جَيْشِ عَلِيٍّ، فَهُوَ يَتَمَنَّى طَوْلَ الْوَقْتِ وَطَوْلَ الصَّرَاحِ مَعَ ظُهُورِهِ بِمُظْهِرِ الْمُسْتَسْلِمِ إِذَا آنَحَلَّتِ الْعُقْدُ أَوْ أَقْنَعَهُ بِحُلِّهَا، وَبِهَذَا الْمَظْهَرِ يَضْمَنُ أَنْ لَا يَأْخُذَهُ عَلِيٌّ بِحَرْبٍ خَاطِئَةٍ سَاحِقَةٍ، بَلْ يَرْفُقُ بِهِ، فَتَتَحَوَّلُ الْمَعْرَكَةُ الْجِدِّيَّةُ إِلَى حَرْبٍ إِنْهَائِيٍّ وَإِزْعَاجٍ، وَهِيَ لَا مَحَالَةَ سَتُشْبِعُ صِفَةَ التَّمْلُلِ وَالْيَأْسِ فِي جَيْشِ عَلِيٍّ. أَضِيفُ إِلَى هَذَا أَنَّ هَذَا الْجَيْشَ، مُنْذُ حِينَ، قَدْ خَرَجَ مِنْ مَعْرَكَةِ كُبْرَى، وَمِنْ قَبْلُ كَانَ نَهِيكاً بِالْفُتُوحِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَدُورَ هَذَا التَّمْلُلُ دَوْرَتَهُ وَيَعْمَلَ عَمَلَهُ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَثْرَكَ صُدُوعاً وَآخِثِلاًفَافً فِي الرَّأْيِ، فَيَنْقَسِمَ الْجَيْشُ شَيْعاً، وَيُفْلِتَ مِنْ يَدِ عَلِيٍّ الزَّمَامُ.

أَمَّا يَرَاهُ يُجِيبُهُ حِينَمَا طَلَبَ تَأْجِيلَ الْحَرْبِ شَهْراً، أَلَيْسَ يَسْمَحُ لْجَيْشِ الشَّامِ، حِينَ اسْتَوْلَى جَيْشُهُ عَلَى الشَّرِيعَةِ، بِالسُّقْيَا «حَتَّى آزْدَحِمَ عَلَيْهَا السُّقَاةُ مِنَ الْعَسْكَرَيْنِ وَمَا يُؤْذِي إِنْسَانُ إِنْسَاناً»<sup>(٣)</sup> فَطَالَ أَمَدُ الْمَعْرَكَةِ مِائَةً وَعِشْرِينَ يَوْماً، وَهَذَا وَقْتُ طَوِيلٍ

(٣) رَوَى التَّارِخُ أَنَّ جَيْشَ الشَّامِ سَبَقَ إِلَى الشَّرِيعَةِ، فَطَلَبَ عَلِيٌّ السَّمَاخَ لِجَيْشِهِ فَأَبَى مُعَاوِيَةُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا غَلَبَهُ عَلَيْهَا وَطَلَبُوا إِلَيْهِ ذَلِكَ سَمَحَ لَهُمْ. فَتَبَرَّهَنَ بِهَذَا عَلِيٌّ عَلَى أَنَّهُ يُحَارِبُ لِلْحَقِّ وَلَيْسَ يُحَارِبُ لِلْغَلْبَةِ وَشَهْوَةِ

في عُمرِ حَرْبٍ مِنْ هَذَا النَّوعِ، وَسَمَحَ طَوْلُ الْوَقْتِ لِلْأَفْكَارِ الَّتِي نَبَتَتْ فِي رُؤُوسِ الْجُمُوعِ أَنْ تَنْمُوَ وَتَسْتَفْجِلَ، وَتُشَكِّلَ نَظَرِيَّةً لَهَا أَسْرُهَا وَتَأْثِيرُهَا فِي قَرَارَتِهِمْ، وَكَانَ هَذَا النَّمَاءُ مَشْفُوعاً بِعَاصِفَةٍ مِنَ الْمَلَلِ وَالْيَأْسِ.

وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا خَافِياً عَلَى عَلِيٍّ، بَلْ كَانَ يَنْظُرُ وَيَبْتَئِسُ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ الْمُسْكِلةَ الْقَائِمَةَ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْمِثَالِيَّةِ، وَبِمَنْطِقِ الْقَانُونِ الَّذِي يُقَدِّسُهُ. وَعَلِيٍّ، وَإِنْ لَمْ يَسَ أَنْ الظَّرْفَ يَتَأَزَّمْ عَلَيْهِ، وَالْوَقْتُ يَتَعَقَّدُ، وَالْفُرْصَةُ تَكَادُ تُفْلِتُ مِنْهُ إِلَى خَصْمِهِ، يُرِيدُ أَنْ يُحَارِبَ حَرْبَ الْحَقِّ، وَيَنْتَصِرَ لِلْعَدَالَةِ بِالْعَدْلِ، وَإِلَّا فَهُوَ، فِي نَظَرِهِ، يَخْدَعُ ضَمِيرَهُ وَيَخْدَعُ النَّاسَ، إِذَا سَمَحَ لِنَفْسِهِ بِانْتِهَاكِ قَدَاسَةِ الْحَقِّ بِسَبِيلِ تَأْيِيدِ قَضَايَا الْحَقِّ.

عَلَى أَنَّهُ كَانَ رَاضِياً، فَلَمْ يَبْتَئِسْ لِأَنَّهُ وَاثِقٌ مِنْ أَنَّ النِّهَايَةَ الظَّافِرَةَ فِي مُتَنَاوَلِ يَدِهِ، يَضُمُّهَا إِلَيْهِ سَاعَةً يُرِيدُ، وَكَذَلِكَ كَانَ حِينَ يَبْتَئِسُ مِنْهُمْ، وَضَرَبَهُمُ الضَّرْبَةَ الْقَاصِمَةَ الَّتِي أَلْجَأَتْهُمْ إِلَى حِيلَةٍ رَفَعَ الْمَصَاحِفِ الْمُعْتَادَةَ كَثِيراً، فَقَدْ رُفِعَتْ غَيْرَ مَرَّةٍ يَوْمَ الْجَمَلِ، فَهِيَ إِذَا لَا تَمْلِكُ تَأْثِيرَ الْمُفَاجَأَةِ بَلْ مُعْتَادَةٌ بَارِدَةٌ الْأَثَرِ ضَعِيفَةُ الْمَفْعُولِ، لَوْلَا مَا كَانَ قَدْ آسَتْخَوْذَ عَلَى الْجُمُوعِ مِنْ آسْتِفْحَالِ الْأَفْكَارِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي سَبَقَ وَأَشْرْنَا إِلَيْهَا، فَتَصَدَّعَتْ وَحَدَّةُ الصُّفُوفِ بِهَذَا السَّبَبِ.

لَقَدْ عَادَتِ الزُّوْبَعَةُ إِلَى الْهُبُوبِ مَرَّةً أُخْرَى أَشَدَّ عُنفاً، فَتَمَزَّقَ شِرَاعُ السَّفِينَةِ، وَمَيَّلَتْهَا الْأَمْوَاجُ الْمُتَعَاظِمَةُ الْمُتَكَسِّرَةُ عَلَى جَوَانِبِهَا فِي جَبْرُوتٍ. وَعَلِيٍّ فِي هَذِهِ الْغَمْرَةِ الطَّائِثَةِ كَانَ يَنْشَطُ إِلَى كَشْفِ الْمَهْزَلَةِ وَسَحْقِ طَوَاغِيَّتِهَا، وَلَكِنْ بِجَيْشٍ مَرِيضٍ فَتَعَايَا عَلَيْهِ وَتَرَكَهُ حَيْثُ يَشَاءُ فِي الْمَيْدَانِ. لَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنْ مُسَايَرَةِ الْجُمْهُورِ الْكَبِيرِ، وَلَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنَ الْخَوْضِ فِي تَيَّارِ الْمَهْزَلَةِ الَّتِي آسَتْوَلَتْ بِرُوحِهَا عَلَى الْجُمْهُورِ إِلَى

---

= السُّلْطَانِ. وَأَعْطَى مَثَلاً قَدْماً فِي التَّارِيخِ كُلِّهِ، إِذَا أَضْطُرَّ إِنْسَانٌ إِلَى الْحَرْبِ، كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِنْسَاناً شَرِيفاً قَبْلَ أَيِّ أَعْتِبَارٍ.

النهاية. فليس من سبيل مداواة الروحانية العامة على ضوء النفسانية الاجتماعية، إلا الأخذ بالناس حتى نهاية الطريق في مدى ما استحوذ عليهم، فإن الأمراض الاجتماعية، من نوع الهيستيريا الحادة، يُداوى معها الوهم بالوهم، وعلى ذلك نزل عند رأيهم ليهيئ الظروف المناسب من جديد.

فعليّ إذا لم يشأ قصداً أن يستغلّ شرعته، وهي تقتضي البطش، استغلالاً حازماً وسريعاً، وكان هو الواجب إذ ذاك من وجهة نظر عسكرية. نحن نعرف علياً بطل الحرب، فلماذا أغرض هذا الإغراض، واختار البطء في الإيقاع بالخضم بعد تلك السرعة الموفقة في الانتقال والإعداد؟ لأنّ علياً لم يكن يطلب السلطان من أجل السلطان، بل من أجل إحقاق الحق وإحلال المثل الأعلى الاجتماعي في دنيا الناس، وإلا فالسلطان في كبرياء نفسه وفي كبرياء مغنويته «لا يساوي عظمة عنز» كما كان يقول.

هو يريد السلطان من أجل الحق، فإذا انتهك الحق من أجل السلطان فقد خنق ضميره، وأغتصر بيديه قلبه في قسوة ووحشية.

فماذا يريد من كفاجه إذا؟ إنه يريد تطبيق قضايا العدل حتى في الساعة التي يجوز فيها الجور، إنه يريد الحق حتى في ساعة جيشان الباطل وطغيان المنكر. ولكن هم قلة الذين تساموا إلى فهمه، وهيات حياة الأطماع، المحدوة بالشرابين والأغصاب، أن تنبض بمثل خلجات قلبه، وتحس بحسّه، وتندى بمثل شعوره. كان أكبر من محيطه ولا بدع، وأسمى من مجتمعه ولا ريب، فهو ربيب محمد المتبلور من سناء الوحي وضياء النبوة، وهو أكبر الآلى التي أنكشفت عنها دنيا القرآن. فهل يعبت بوجوده وضميره في ملهى يديه طائعاً مختاراً، ومن أجل ما لا يراه شيئاً؟!

إنه لم يكن يؤمن بما يقال «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون»، فهذه خطوة



صَغَارِ وَخِيَانَةٍ وَجُبْنٍ وَخَوَرٍ، بَلْ كَانَ يُؤْمِنُ بَغَايَةِ أُسْمَى وَيُبَشِّرُ بِمَبْدَأِ:

إِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَحَاوِلْ أَنْ تَجْعَلَهَا كَذَلِكَ. فَإِذَا لَمْ تَنْجَحْ أَيْضاً  
فَلَا تَحْنُ ضَمِيرَكَ، وَعِشْ وَحَدِّكَ مِثَالاً لِلْحَيَاةِ الْفَاضِلَةِ. وَلَا تَأُلْ جُهْداً فِي الدَّعْوَةِ  
إِلَى التَّغْيِيرِ، كَيْ يَبْقَى لِلْحَقِّ فِي تَارِيخِ الْبَاطِلِ مِثَالاً يَضْرِبُهُ...

إِنَّ الَّذِينَ يَنْتَهِكُونَ كُلَّ قَدَاسَةٍ، بِسَبِيلِ الْفَوْزِ، سَاقِطُونَ فِي مِيزَانِ الْأَخْلَاقِ  
وَقِسْطِاسِ الرُّوحِ، وَعَلَيَّ لَيْسَ مِنْ طَيِّبَتِهِمْ، بَلْ ذَلِكَ الْأُسْلُوبُ، فِي حِسِّ عَلَيٍّ، أَهْرَزُ  
أُسْلُوبٍ مِنْ أَسَالِيبِ الْخِيَانَةِ وَأَنْكَرُهَا. وَالْغَلْبَةُ تَكُونُ مِقْيَاسَ النَّجَاحِ فِي حِسِّ  
الْجَامِدِينَ مُجْمُودَةِ الْمَادَّةِ وَالطَّبِيعَةِ الصَّمَاءِ، بَيْنَمَا مِقْيَاسُ نَجَاحِكَ، فِي حِسِّ الشَّاعِرِينَ،  
بِمَقْدَارِ مَا تَكُونُ أَبْيَضَ نَاصِعاً فِي ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ وَسَنَى الْفَجْرِ.

وَالْوُجُودُ نَوْعَانِ: وَجُودٌ بِالْحَيَاةِ، وَوُجُودٌ فِي أَبَدِيَّةِ الْمَبَادِيءِ، وَالثَّانِي مِنْهُمَا  
أَكْبَرُ الْوُجُودَيْنِ، فَإِنَّ عُمرَ أَوْلِيهِمَا فِي حُدُودِ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ، وَعُمرَ ثَانِيهِمَا فِي حُدُودِ  
الْخُلُودِ، وَأَيْنَ مَدَاهُ؟...

وَإِذَا بَقِيَ ذُو الْوُجُودِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّمَا يَبْقَى فِي ذِكْرِ التَّارِيخِ شَوْهَةٌ مَوْمِيَاءَ،  
بَيْنَمَا يَظَلُّ ذُو الْوُجُودِ الثَّانِي، فِي ذِكْرِ الْأَبَدِ، مِشْكَاةَ حَيَاةٍ تَفِيضُ بِالنُّورِ بِالضِيَاءِ.  
وَلَمْ يَشَأْ عَلَيٌّ، وَقَدْ أَخَذَ بِمَقْوَدِ السَّفِينَةِ، أَنْ يَتْرُكَهَا هَائِمَةً، وَيَتْرُكَ لِلْخَاطِفِينَ  
(الْقُرْصَانِ) أَنْتِهَابَهَا. فَعَالَجَهَا بِمَقْدَارٍ وَمَقْدَارٍ كَبِيرٍ، وَالْعَوَاصِفُ تَتَنَاوَحُ مِنْ حَوْلِهَا  
وَبَيْنَ يَدَيْهَا، وَعَلَيٌّ كَالرُّبَّانِ الْمَاهِرِ يُزْخِي الشَّرَاعَ أحياناً، فَيَمُضِي فِي مَدَى مِثْلِ  
الْجُمْهُورِ، وَيَرْضَى بِالتَّحْكِيمِ، وَيَشُدُّ الشَّرَاعَ أحياناً فَيَضْرِبُ ضَرْبَتَهُ بِالنُّهْرَانِ.

وُخْرُوجُ الْخَوَارِجِ إِنَّمَا تَمَّ بِأَسْتِفْحَالِ فِكْرَةٍ أَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، فَإِنَّ  
قَضِيَّةَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، فِي تَفْكِيرِهِمْ، كَقَضِيَّةِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ  
بَيْنَهُمَا وَاسِطَةٌ يُلْتَقِيَانِ، فِيهَا. فَالتَّحْكِيمُ إِذَا خَطَأَ، وَالْخَطَأُ مَعْصِيَةٌ، وَالْمَعْصِيَةُ كُفْرٌ،  
فَانتَهَوْا، فِي سِبْلسِلَةِ النَّتَائِجِ، إِلَى ضَرُورَةِ الْإِيمَانِ مِنْ جَدِيدٍ. وَهَذِهِ الْفِكْرَةُ، فِي



جَوْهَرِهَا، لَا تَزِيدُ عَنْ عُقْدَةٍ مَسْرُوحِيَّةٍ، إِلَّا أَنَّهَا، مَعَ ضَعْفِ الْحَاكِمَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْدِ  
الْفِكْرِيِّ، تَبْدُو عُقْدَةً عَسِيرَةَ الْحَلِّ. فَلَدَى الْبِدَاةِ تَسْلِيمٌ عَفْوِيٌّ بِكُلِّ خَاطِرَةٍ وَإِنْ تَكُنْ  
سَخِيفَةً، وَفِي نَفْسِيَّتِهِمْ قَابِلِيَّةٌ لِلِاسْتِخْجَارِ وَالتَّصَلُّبِ عَلَى شَكْلِ عَفْوِيٍّ أَيْضاً،  
بَحَيْثُ تَسْتَحِيلُ إِمَاعَتُهُ إِلَّا بِتَحْطِيمِ الرُّؤُوسِ الَّتِي تَحْمِلُهُ، وَكَذَلِكَ حَدَثَ.

وَلَقَدْ تَمَلَّأَ الْحُسَيْنُ بِعِظَاتٍ مَوْقِفٍ أَبِيهِ فِي كُلِّ مَرَاكِهٍ، وَحَلَّلَهَا فِي نَفْسِهِ،  
وَأَحَلَّهَا مِنْ قَلْبِهِ مَحَلًّا ثَابِتًا. وَخَاضَ مَعَ وَالِدِهِ الْعَظِيمِ الصَّرَاعَ عَلَى شَتَّى أَلْوَانِهِ،  
وَكَانَ لَهُ أَثَرٌ أَيْ أَثَرٌ، وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ الشَّاطِئِ مُتَرَقِّبًا بَلْ عَائِثٌ خَائِضٌ يَقُومُ بِهِ لُجَّةٌ  
وَتَقَعْدُ بِهِ أُخْرَى، وَتَدْفَعُهُ مَوْجَةً لَتَسْتَقْبِلَهُ الْمَوْجَةُ الثَّانِيَّةُ، وَالتَّقَى<sup>(٤)</sup> سَيْفُهُ بِسَيْفِ أَخِيهِ  
مُحَمَّدٍ، فَشَكَّلا قَوْسًا قَاعِدَتُهَا الْمَبَادِيءُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَاضَ أَبُوهُمَا الْكَبِيرُ الْكِفَاحَ  
دُونَ هُدْنَةٍ أَوْ هَوَادَةٍ.

وَبَقِيَ فِي سَمْعِ التَّارِيخِ وَبَصَرِهِ مَائِلًا حَيًّا:  
أَنَّ عَلِيًّا بَطَلُ الْحَقِّ فِي السَّلَامِ وَفِي الْحَرْبِ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي آسَتْحَالَ إِلَى  
طَاقَةٍ فِي وُجُودِ الْحَقِّ وَكِيَانِهِ...

\*

شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يُحَقِّقَ مَغْزَى أُمُثُولَةِ عَلِيٍّ إِلَّا آبَتُهُ الْحُسَيْنُ، آبَتُهُ الْحَبِيبُ...  
فَرَدَّدَ عَلَى شَكْلِ آخَرٍ: إِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَحَاوِلْ أَنْ تَجْعَلَهَا  
كَذَلِكَ...

فَإِذَا لَمْ تَنْجَحْ أَيْضاً، فَلَا تَخُنْ ضَمِيرَكَ، وَعِشْ وَحْدَكَ مِثَالاً لِلْحَيَاةِ  
الْفَاضِلَةِ...

---

(٤) إِشَارَةٌ إِلَى مَا ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَنَّ أَحْمَرَ بَنِي أُمَيَّةَ بَصُرَ بِعَلِيٍّ فَأَرَادَ قَتْلَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ كَيْسَانُ مَوْلَى عَلِيٍّ  
فَأَخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ سَقَطَ بَيْنَهُمَا كَيْسَانُ، فَجَذَبَ عَلِيٌّ أَحْمَرَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَكَسَرَ مِثْكَبَهُ  
وَعُضُدَيْهِ، وَشَدَّ عَلَيْهِ آبْنَا عَلِيٍّ الْحُسَيْنُ وَمُحَمَّدٌ فَضْرَبَاهُ بِأَشْيَاهُمَا فَقَتَلَاهُ.

ولا تَأُلْ جُهْدًا يَبْذُلِ النَّفْسَ، كَيْ يَبْقَى لِلْحَقِّ فِي تَارِيخِ الْبَابِلِ مَثَلٌ يَضْرِبُهُ...

\*

على أَنَّهُ أَضَافَ إِلَيْهَا أُمْتُولَتْهُ الْأُخْرَى...

إِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَلْيَكُنِ الْمَوْتُ كَمَا تُرِيدُ...

وإِلَّا فَهَيْهَاتَ أَنْ تَشْعُرَ بِحَلَاوَةِ الْمِثَالِيَّةِ فِي الْإِيمَانِ، وَتَكُونَ مِنَ الْأَحْرَارِ...

\*

بَقِيَ طَابِعُ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ عَلَيَّ، الَّذِي لَا يُحَرِّكُهُ الْحَقْدُ، وَلَا تَمِيلُ بِهِ  
النَّزَغَاتُ وَالنَّزَوَاتُ...

طَابِعاً لِأَبْنَائِهِ، فَقَدْ قِيلَ لِأَبْنَيْهِ مُحَمَّدٍ، دَسًّا، تَوَلِيداً لِلْمَوْجِدَةِ:

لَمْ يَدْفَعْ بِكَ أَبُوكَ فِي الْحَرْبِ وَلَا يَدْفَعُ بِالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ؟...

فَقَالَ بَوَّحِي الْقَلْبِ الْمِثَالِيَّ: هُمَا عَيْنَاهُ وَأَنَا يُمْنَاهُ، وَهُوَ يَدْفَعُ عَنْ عَيْنَيْهِ

يَمِينِهِ...

هَذَا طَابِعُ عَلَيٍّ فِي الْأُخُوَّةِ وَالْإِخَاءِ، فَأَيُّ دُنْيَا، بَلْ أَيُّ خُلْدٍ سَعِيدٍ، لَوْ تَسَنَّى

لِلْحَيَاةِ أَنْ تَبْرُزَ بِطَوَابِعِهِ الْأُخْرَى...

\* \* \*

## إلتِياع

في دَارَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الْكَوْفَةِ آنَعَقَدَ أَوَّلُ مُؤْتَمَرٍ سِيَاسِيٍّ إِزْهَابِيٍّ، وَأَنْفَضَ عَنْ مُؤَامَرَةٍ دَمَوِيَّةٍ وَاسِعَةٍ النُّطَاقِ، تَوَلَّى أَمْرَهَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ فِدَائِيَّوْنَ كُلُّهُمْ خَارِجِيٍّ. فَقَدْ كَانَ لِمَعْرَكَةِ النَّهْرَوَانِ، الَّتِي آنَكَشَفَتْ عَنْ مَأْسَاةٍ مَرِيرَةٍ، وَقَعَ حَادٌّ فِي نُفُوسِ الْخَوَارِجِ كَافَّةً، فَتَشَطُّوا، تَحْتَ إِلْحَاحِ سَوْرَةِ الْإِنْتِقَامِ، يَجْتَمِعُونَ هُنَا وَهُنَاكَ، وَيُؤَالُونَ الْاجْتِمَاعَ فِي كُلِّ مَكَانٍ. فَمَا مِنْ بَيْتٍ إِلَّا وَدَخَلَتْهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَزْزَاءِ، وَأَنْطَلَقَتِ الْعُيُونُ كَأَفْوَاهِ الْقَرَبِ تَتَحَدَّرُ عَنْ مِثْلِ خُيُوطِ الْقَطَرَاتِ الْمُرْفُضَةِ آرْفُضَا ضِعْفِ نَظِيمٍ، وَبِالْأُخْرَى الْمُتَحَدِّرَةِ مُؤْتَلِفَةً آتِيْلَافَ نَوَاطِ شَتِيتٍ.

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجَمٍ مِنْ أَوْلَادِ الْهَوَى وَالشَّبَابِ، فَهُوَ عَاشِقٌ مُدْنَفُ الْفُؤَادِ مُتَيِّمُ الصَّبُورَةِ، لَقِيَ قَطَامَ ابْنَةِ الشَّجْنَةِ مِنْ تَيْمِ الرِّبَابِ، فِي أَصِيلِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيْلَاتِ الصَّخْرَاءِ الَّتِي يَخْتَلِطُ فِيهَا سُكُونُ الْجَمَالِ وَجَمَالُ الشُّكُونِ، بِرَجَفَاتِ الْقَوَافِلِ، وَهِيَ تُهَوِّمُ رَاجِعَةً أَوْ مُنْطَلِقَةً، كَأَنَّهَا سَارِحَةٌ فِي طَفْلِ الْأَبَدِ، أَوْ سَانِحَةٌ مَعَ رَأْدِ الْأَمَلِ الْخَاطِي.

وَقَطَامُ هَذِهِ فَتَاةٌ آفَتَنْتَ بِهَا طَبِيعَةُ الْجَمَالِ أَيَّ آفَتَيْنَانِ، وَمَشَتْ فِي تَقَاطِيعِهَا رَوَائِعَ الْحُسْنِ وَآيَاتُ الْفَرْنِ، فَتَبَرَزَتْ كَالزَّهْرَةِ أَوَّلَ مَا تَتَشَقَّقُ عَنْهَا الْأَكْمَامُ، أَوْ كَالْفِئْتَةِ الْحَيَّةِ الْمَائِجَةِ الَّتِي أَضَافَتْ إِلَيْهَا الصَّخْرَاءُ أَنْبِهَامَهَا، فَجَاءَتْ بِسَاطَةً فِي

تَرْكِيْب، وَوُضُوْحاً فِي غُمُوضٍ... تَخْطُرُ كَيْفَمَا آتَّفَقَ لَهَا، فَتُشِيرُ، فِي مَدَى خُطَاهَا،  
تَهَاوِيلَ السُّحْرِ وَعَبَقاً مِنْ الْهَوَى الْمَسْفُوحِ، وَضَجَّةَ الْجَوَى الشَّرُودِ.

وَالْجَمَالَ، فِي الْعَوَانِي وَفِي كُلِّ شَيْءٍ، أَرَادَتْهُ الطَّبِيعَةُ لَتُعَبِّرَ عَنْ تَذَوُّقِهَا الْفَنِّيِّ،  
وَعَنْ أَنَّ غَايَةَ التَّفَاعُلِ الْكَوْنِيَّ يَنْتَهِي بِالْكَوْنِ إِلَى الْفَنِّ وَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ بَقَاءَ  
الْوُجُودِ قَائِمٌ عَلَى الْإِرَادَةِ الْفَنِّيَّةِ فَقَطْ.

فَالطَّبِيعَةُ الصَّامِتَةُ تُحَاوِلُ مُحَاوَلَاتِهَا تَحْتَ الْإِرَادَةِ الْفَنِّيَّةِ، لَتَنْتَهِيَ إِلَى الْفَنِّ  
الصَّامِتِ الَّذِي هُوَ رُوحُ الطَّبِيعَةِ آلِجَمُودٌ، وَتَبْتَدِيءُ الْحَيَاةُ أَوْ الطَّبِيعَةُ مِنَ الْفَنِّ  
الصَّامِتِ، لَتَنْتَهِيَ كَذَلِكَ إِلَى الْفَنِّ الْحَيِّ الَّذِي هُوَ رُوحُ الْحَيَاةِ أَيْضاً، وَتَبْتَدِيءُ  
الطَّبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنَ الْفَنِّ الْحَيِّ، لَتَنْتَهِيَ فِي غَايَتِهَا إِلَى الْفَنِّ الْوَاعِي الَّذِي هُوَ الْمَثَلُ  
الْعُلْيَا.

وَالِى هَذَا الْفَنِّ الْوَاعِي تَنْتَمِي فِكْرَةُ الرُّوحِ وَالْخُلْدِ، حَتَّى اللَّهُ فِي الْأَذْيَانِ فِكْرُهُ  
الْفَنِّ الْمُطْلَقِ، وَالْوُجُودُ إِنَّمَا يَتَحَرَّكُ بِإِرَادَةِ الْفَنِّ، لِيَسْمُوَ تَحْتَ هَذِهِ الرَّغْبَةِ الْجَاذِبَةِ  
بِالشَّوْقِ. وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ قَوْلُ النَّبِيِّ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»، مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِي  
الْإِنْسَانِ أَكْبَرَ قِسْطٍ مِنْ جَمَالِ فَنِّ الْوَعْيِ، أَوْ فَنِّ الْقَصْدِ، إِذْ فِيهِ تَحَوَّلَتْ حَرَكَةُ  
الطَّبِيعَةِ الْفَنِّيَّةِ، مِنْ حَرَكَةٍ لِقَاصِدَةٍ إِلَى قَصْدٍ فِي الْحَرَكَةِ... هَذَا حَدِيثٌ فَاهٌ بِهِ آبْنُ  
أَبِي عَتِيْقٍ فِي أُمْسِيَّةٍ مِنْ أَمَاسِي الطَّائِفِ، عِنْدَ مَعْنَى نَضِيرٍ، جَمَعَهُ وَعُمَرَ بْنَ أَبِي  
رَبِيعَةَ وَالثَّرِيَّا، وَزُمَرَةً كَبِيرَةً مِمَّنْ يَطْلُبُونَ الْحَيَاةَ الْإِلَهِيَّةَ الْحَالِمَةَ، كَانَ بَيْنَهُمْ آبْنُ  
مُلْجَمٍ.

فَقَالَ عُمَرُ يُحَاوِرُهُ: لَكَأَنِّي بَكَ - يَا آبْنَ أَبِي عَتِيْقٍ - وَأَنْتَ لِحُشْيَةٍ فُتُونِ وَدُنْيَا  
غَرَامٍ، وَلَمْ أُخْطِئْكَ الصِّفَةَ حِينَمَا قُلْتُ:

أَهْجَرْنَهَا؟! وَأَنْتَ زَيَّنْتَهَا لِي أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

وَقَهَقَهُ مُشِيراً إِلَى الثَّرِيَّا.

قال آبن أبي عتيق: لا تثريب عليك، فـ «الله جميلٌ يُحبُّ الجمال». نحنُ  
يارادة الفنَّ يستخفُّنا سحره، فتتواقع على الرمالِ منتشِينَ بموجة الزبد، ولعلَّ ثرياك  
أكبر موجات الزبد الحائم في شاطئ الفنِّ المسحور.

قالت الثريا: فأنا في خيالك إذا - يا آبن أبي عتيق - بعضٌ من غاية الكون  
في تفاعله الأبدى، لأنني بعضٌ من فتنه الفنِّ فيه... وراحت ترمقُ آبن أبي ربيعة.

قال عمر: ماذا تقولين؟ لأنني، والله، كلُّ فتنه الفنِّ إن كان هذا يفي  
بموقعك في قلبي، ولأنني كلُّ غاية الكون إن كانت للكون غاية... فراحت  
تضحك في خفي، وكانت ضحكة تُعبِّر عن نشوتها فـ «الغواني يغرهنَّ الشاء»، ولم  
تلبث هنيهة حتى قالت:

«لو أنا ناديتك وأعمراه فماذا تقول؟... وكأنها استخفته فهبَّ يفعلُ  
كالشوب: أقول، أقول: لبيكاه. لبيكاه. لبيكاه» ومدَّ صوته.

لأول لقاء بين عبد الرحمن وقطام، مرَّت في مخيلته قصة أمسية الطائف،  
وشعر بحلاوة الحلم، لو كان له من قطام ما كان لعمر من الثريا.

وكان أن رأت قطام منه ما رأى منها، وأحسَّت بمثل ما اجتمع في أحاسيسه  
من أحلام، فقد تواصل بينهما هوى، ومشى بين فؤاديهما غرام، ولفهما وجد،  
وآستدار على قلبيهما جوى وهيام. كان في نقطة الدائرة قلبها، وفي إطار الدائرة  
قلبه يدور، ولا يدري من أين ابتداء أو إلى أين ينتهي، ودائماً يكون قلب المرأة من  
الثوابت، فهي غنية بالإغراء، وقلماً تكون غنية بالحس الصافي، وهي قلماً تتحرك  
بالحب من النرجسية، ولكنها دائماً تتحرك بالكراهية والبغض.

كان بينهما لقاء إثر لقاء، وكم تمنيا لو أفنيا العمر في لقاء سكرى تضلُّ  
عن صحوها، أو تدفع بهما في لاهية الفناء قبل فنائها.

عِنْدَ مَهْوَى أَحَدِ الْكُثْبَانِ الَّذِي حَفِظَ لَهُمَا أَوَّلَ آتِشَاءَةٍ مِنْ غَرَامِهِمَا وَآخِرَ  
 آتِشَاءَةٍ، كَانَا يَحْلُمَانِ، وَمَا أَصْحِيَا، إِلَّا عَلَى صَوْتِ النَّعِيِّ أَنَّ وَقْعَةَ التَّهْرَوَانِ ذَهَبَتْ  
 بِكُلِّ الشُّيُوخِ وَأَكْثَرِ الْفُثْيَانِ، وَأَنَّ تَيَّارَ الْأَرْزَاءِ جَرَى عَلَى كُلِّ بَيْتٍ، وَغَمَرَ أَعْلَى  
 الْعَرَصَاتِ حَتَّى أَدْنَى الْأُودِيَةِ. فَتَمَايَلَتْ مَعَ النَّعِيِّ مُرْتَعِدَةً كَمَا تَمَايَلَتْ قَصَبَاتُ الْعُورِ  
 فِي حُرُوفِ الْأُودِيَةِ وَالْمُنْعَرَجَاتِ، وَأَنهَمَرَتْ عَيْنَاهَا بِالدُّمُوعِ الْمُتَنَائِرَةِ تَنَائِرَ الْبَرَدِ،  
 وَثَارَتْ نَائِرَةُ آبِنِ مُلْجَمٍ عَلَى لَحْنِ دُمُوعِهَا الْقَانِيَةِ... وَتَحْتَ عَوَامِلِ الشَّارِ الْفَائِرِ وَسُورَةِ  
 الْإِنْتِقَامِ الْعَاصِفِ، آلَى أَلَيْتَهُ الرَّهِيْبَةَ لَيَنْتَقِمَنَّ لَهَا وَلَهُ، وَلَيَشْفَيْنَّ نَفْسَهَا وَنَفْسَهُ  
 وَلَيَقَرَنَّ عَيْنَهَا وَعَيْنَهُ!

وَطَبِيعَةُ الْجَبَرُوتِ فِي الرَّجُلِ تَأْبَى أَنْ تَظْهَرَ بِمُبَالَغَاتِهَا إِلَّا فِي فُضَاءٍ نَظَرِ الْمَرْأَةِ،  
 كَمَا تَأْبَى طَبِيعَةُ الْإِغْرَاءِ فِي الْمَرْأَةِ أَنْ تَظْهَرَ بِمُبَالَغَاتِهَا إِلَّا فِي فُضَاءٍ نَظَرِ الرَّجُلِ،  
 كَأَنَّهُمَا، بَعْدَ تَنَاحُرٍ طَوِيلٍ، أَصْطَلَحَا عَلَى أَنْ تَسْتَنِيْمَ الْمَرْأَةُ إِلَى جَبَرُوتِهِ، فَهِيَ تُطَالِبُهُ  
 بِهِ فِي الْخُطُوبِ، وَعَلَى أَنْ يَسْتَنِيْمَ الرَّجُلُ إِلَى إِغْرَائِهَا، فَهُوَ يُطَالِبُهَا بِهِ فِي النَّشَوَاتِ،  
 وَهَيْئَاتِ الْأَحْلَامِ، وَدَغْدَغَاتِ الشُّكُونِ الَّذِي يَتَمَدَّدُ فِي فُضَاءِ النَّفْسِ بِأَسْتِزْخَاءِ.

فِي دَارَةِ لَا تَبْعُدُ كَثِيرًا عَنِ الْكُوفَةِ، تَسَارَعَ إِلَيْهَا مَفْجُوعُونَ وَمَفْجُوعَاتٌ،  
 وَلَيْثُوا يُزْعِدُونَ وَيُثْرِقُونَ، تَحْتَ إِحْيَاءِ الْمَأْسَاةِ الْحَمْرَاءِ الَّتِي كَانَتْ تَتَّصِلُ بِأَعْصَابِهِمْ  
 فَتُحَرِّكُهَا، مُتَّصِلَةً مُتَعَقِّدَةً تَسْتَهِي لَوْ تَمَدَّدَتْ خَائِفَةً سَاحِقَةً...

قَامَ الْخَرَيْثُ بْنُ رَاشِدٍ النَّاجِيَّ يَخْطُبُهُمْ:

لَقَدْ كَبُرَ عَلَيْنَا وَاللَّهِ مَصْرَعُ إِخْوَانِنَا الْأُبْرَارِ، وَمَا بَقَاؤُنَا بَعْدَهُمْ؟ أَتَنْتَظِرُونَ أَنْ  
 يَتَخَطَّفَكُمْ جَيْشُ عَلِيٍّ زُمْرَةً بَعْدَ زُمْرَةٍ، وَطَائِفَةٌ بَعْدَ طَائِفَةٍ؟ إِنَّهُ لَا يَنْتَظِرُكُمْ مِنْهُ إِلَّا  
 الْمَوْتُ، الْمَوْتُ الدَّلِيلُ الْوَضِيعُ! الْمَوْتُ الْغَائِلُ الرُّؤْمُ! أَلَا فَانْفِرُوا وَمُوتُوا فِي عَقْرِ  
 الْحِرَابِ، وَلَا تُمَوْتُنَّ فِي عَقْرِ الدِّيَارِ!



فَهَبَ الْقَطَرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ يُنْشِدُهُمْ:

أَقُولُ لَهَا، وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعاً، مِنْ الْأَبْطَالِ وَيُحَكِّ لَنْ تُرَاعِي  
فِيئَكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجَلِ الَّذِي لَكَ لَنْ تُطَاعِي  
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ  
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ فَيُطْوَى عَنْ أَخِي الْخَنِيعِ الْبِرَاعِ  
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ فِدَاعِيهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي  
وَمَنْ لَا يُغْتَبِطُ يَسْأَمُ وَيَهْرَمُ وَتُسْلِمُهُ الْمَنُونُ إِلَى أَنْقِطَاعِ  
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُذَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ  
وَوَقَفَ فَرَوْةُ بْنُ نَوْفَلٍ الْأَشْجَعِيُّ فَقَالَ:

أَلَا فَاسْمَعُوا: إِنَّ عَلِيًّا أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَقْعَةِ النَّهْرَوَانِ أَمْثَلَةً رَهْبَةً، يُلَوِّحُ بِهَا  
فِي وَجْهِ خَصْمِهِ، فَيَقْلُ غَرْبَهُ، وَيُدْخِلُ الرُّوعَ إِلَى قَلْبِهِ، وَيُخَذِّلُ عَلَيْهِ أَغْصَابَهُ، فَيَطْشُ  
بِنَا تِلْكَ الْبَطْشَةَ السَّاحِقَةَ.

إِنَّ عَلِيًّا هُوَ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ - وَقَدْ تَهَيَّأَ لِحَرْبِ خَصْمِهِ - إِلَى مِثْلِ جَبَّارٍ  
مُرْعِدٍ يُعِيدُ بِهِ إِلَى الْأَذْهَانِ مِثْلَ رَهْبَةِ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ، وَيُدْخِلُ فِي رُوعِ خُصُومِهِ مِثْلَ  
آثَارِهَا فَيَمْتَلِئُونَ ذُعْرًا وَخَوْفًا، كَمَا أَرَادَ أَيْضًا أَنْ يُعِيدَ الثِّقَّةَ إِلَى نَفُوسِ جَيْشِهِ، فَقَدْ  
عَرَاهَا وَهْنٌ وَخَوْرٌ، وَأَنْ يُعِيدَ الثِّقَّةَ بِالْجَيْشِ وَهُوَ يُقْبَلُ عَلَى مُغَامَرَةٍ كُبْرَى فَاصِلَةٍ.  
وَعَلَيَّ لَمْ يَضْرِبْنَا ضَرْبَتَهُ تِلْكَ فِي النَّهْرَوَانِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَدَلَ أَقْصَى الْجُهْدِ  
لِلْعَوْدَةِ إِلَيْهِ، أَوِ الْفَيْئَةِ إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي نِزَالِ خَصْمِهِ، وَلَقَدْ أَرْخَى لَنَا مِنْ عِنَانِهِ حَتَّى  
أَخَذْنَا سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ، وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ سَابِقَتَهُ وَلَا تَجْهَلُونَ مَكَانَهُ، فَوَجَدَ إِذْ ذَاكَ  
السَّبِيلَ لَتَجْرِيبَتِهِ، وَهُوَ وَائِمٌ اللَّهُ قَدْ أَعْذَرَ.

وَلَسْتُ أَقُولُ تَشْبِيحاً عَنْهُ، بَلِ اخْتِيَاطاً لِدِمَائِنَا، وَعَلَيَّ «لَمْ يَزَلْ عِنْدَنَا فِي الشُّبْهَةِ وَالشُّكِّ»... وَهَا إِنِّي مُعْتَرِلٌ.

فَوَثَبَ الْخَرِيثُ يَخْفُقُ بِرَأْسِهِ وَيُثْرِقُ بِعَيْنَيْهِ، وَيُزَعِدُ بِصَوْتِهِ، وَيُلَوِّحُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ: أَدْعُوهُ إِلَى النِّفَاقِ وَالْكَفْرِ؟ ائْتَفَخَ سَحْرُكَ وَجَبَنْتَ وَهَذَرْتَ دِمَاءَ الْأَطْهَارِ. أَلَا فَمِيتَةُ السَّوْءِ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَنْفِرُونَ! وَهَا إِنِّي نَافِرٌ نَائِرًا!

فَاشْتَعَلَتْ حِمَاسَةُ الشَّبَابِ خُصُوصاً، وَأَنْدَفَعُوا فِي تَيَّارِ أَصْوَاتِهِمْ كَالْجُنُونِ يُرَدِّدُونَ: أَلَا فَمِيتَةُ السَّوْءِ لَنَا إِنْ كُنَّا لَا نَنْفِرُ وَنَنْتَقِمُ!... وَأَنْكَشَفَ الْجَمْعُ عَنِ اعْتِزَالِ فَرَوَةَ الْأَشْجَعِيِّ بِشَهْرَزُورٍ، وَنَفَارِ الْخَرِيثِ النَّاجِيِ بِالْأَهْوَاِ ثُمَّ بِالْأَسْيَافِ.

وَلَكِنَّ الشَّبَابَ تَنَادَوْا إِلَى بَعْضِهِمْ وَوَالَوْا الْاجْتِمَاعَ، وَتَرْتِيبَ الْخُطَطِ وَبِرَامِجِ السَّيْرِ بِالمُؤَامَرَةِ الْاِنتِقَامِيَّةِ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْعَمَلَ جَهْراً، فَلْيَعْمَلُوا سِراً، وَلْيَعْمِدُوا إِلَى الْغِيلَةِ.

وَكَانَ أَكْثَرَ هَوْلَاءِ الشَّبَابِ تَحْمُساً عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجَمٍ، الَّذِي آندَفَعَ بِحَفِيزَةِ الْحُبِّ، وَعَمِلَ كَنِي يُرْضِي قَلْباً بَاتَ مَعْمُوداً... إِنَّهُ سَيُجَازِفُ كَيْفَمَا شَاءَتْ الْمَجَازِفَةُ، وَكَيْفَمَا كَانَتْ خُطُورُهَا.

أَلَيْسَ فِيهَا مَا يُرْضِي مَحْبُوبَتَهُ الْمَفْجُوعَةَ بِأَيِّهَا وَأَخِيهَا؟ أَلَيْسَتْ سَشِيعَتُهُ بِرَعَشَاتٍ قَلْبِهَا وَخُفُوقِهِ؟

أَمَا سَتَحْتَفِظُ بِذِكْرِي نَابِضَةً تَشِيْعُ بَيْنَ أَهْتِزَازَاتِهَا آبِتْسَامَةً حُبِّ بَاكِئَةٍ، وَمَعْنَى هَوًى كَسِيفٍ؟

فِي إِحْسَاسِ ابْنِ مُلْجَمٍ أَنَّ هَذَا كَافٍ بَلْ كَثِيرٌ، لَا سِيَّما وَقَدْ جَعَلَتْ قَتْلَ عَلِيٍّ مَهْرَ قَلْبِهَا وَحُبِّهَا وَجَسَدِهَا، فَلْيَعْتَزِضْهُ إِذَا كُلُّ خَطَرٍ، وَلْتَقُمْ فِي طَرِيقِهِ أَيَّةُ الْعَقَبَاتِ، فَهُوَ لَا بُدَّ مُقْتَحِمُهَا. إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ وَلَا يَرَى سِوَى عُرُوسِ أَخْلَامِهِ

تُبَارِكُهُ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ بِشَّجَاجٍ وَتَخُوفٍ.

أَلَيْسَتْ الْآنَ تَوَدُّعُهُ وَهِيَ بَيْنَ عَاطِفَتَيْنِ مُتَصَارِعَتَيْنِ، تَهْتَرُ تَحْتَ عَنيفِ صِرَاعِهِمَا، هَا هِيَ تَتْرُكُهُ يَنْطَلِقُ، مَسْرُورَةٌ تَحْتَ فَوْزَةِ الشَّارِ وَالْمَوْجِدَةِ، ثُمَّ لَا يَكَادُ يَخْطُو، حَتَّى يَطْفَى حُبُّهُ فِي حَنَايَا رُوحِهَا فَتَنْبَعِثُ وَلَهَى وَرَاءَهُ، تَشُدُّهُ إِلَيْهَا، وَتَعْتَنِقُهُ أَعْتِنَاقًا عَنيفًا.

إِنَّهَا بَيْنَ عَاطِفَتَيْنِ قَاسِيَتَيْنِ بِمَوْقِعِهِمَا عَلَى قَلْبِهَا، فَهِيَ تَخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ، وَتَخَافُ مِنْهُ أَنْ لَا يَفْعَلَ. إِنَّهَا فِي حَيْرَةٍ يَقْضَى لَيْسَ تَغْفَى، وَنَفْسُهَا سَكْرَى تُعْرَبِدُ. ظَلَّتْ حِينًا بَيْنَ سَخَاءٍ بِهِ فَتُشْرِقُ عَلَى وَجْهِهَا آبِتِسَامَةٌ رَاعِدَةٌ، وَبَيْنَ بُخْلِ بِهِ فَتَتَوَلَّهْ وَتَذُوبُ آبِتِسَامَتُهَا فِي مَوْجَةٍ مِنَ الْأَسَى السَّاهِمِ. يَبْدَأُ أَنَّهَا لَمْ تُطِقْ فَأَعْيَتْ بَيْنَ عَوَاطِفِهَا الْمُتَنَازِلَةِ، فَاسْتَنْدَتْ إِلَيْهِ وَجُفُونُهَا غَافِيَةً تَحْتَ أَطْبَاقٍ مِنَ الدُّمُوعِ، غَيْرَ أَنَّهَا رَمَقَتْهُ أَخِيرًا، وَقَالَتْ لَهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْحُفُوتِ:

«إِلْتَمِسْ غِرَّتَهُ، فَإِنْ أَصَبْتَ شَفِيتَ نَفْسَكَ وَنَفْسِي، وَيُهَيِّئُكَ الْعَيْشُ مَعِي، وَإِنْ قُتِلْتَ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا أَهْلِهَا»... لَقَدْ صَحَّ عَزْمُهَا فِي النَّهَايَةِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ.

وَأَنْطَلَقَ ابْنُ مُلْجَمٍ إِلَى حَيْثُ كَانَ جَمَاعَتُهُ يَنْتَظِرُونَ عِنْدَ الْحَاطِمِ فِي مَكَّةَ، وَكَانَ لَا يَسْمَعُ، كَيْفَمَا سَارَ، إِلَّا أَصْوَاتًا رَهِيْبَةً النَّأْمَاتِ، فَيَتَلَفَّتُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَلَكِنَّهُ يَقِفُ كَالْمَذْعُورِ يَشُدُّهُ إِلَيْهِ مَوْضِعُهُ أَنَا، وَيَنْطَلِقُ أَنَا كَالِهَائِمِ الْمَسْرُورِ تَتَقَادَفُهُ طَرِيقُهُ مِثْلَ كُرَّةٍ، لَقَدْ غَدَا، تَحْتَ مَا تَجِيْشُ بِهِ نَفْسُهُ وَيَعْتَلِجُ بَيْنَ حَنَايَاهُ مِنْهَا، كَالْمَرُورِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَنْعَكِسُ أَصْدَاءُ نَفْسِهِ فِي أُذُنَيْهِ، وَيَسْمَعُ ضَجَّجَتَهَا فِي الْخَلَاءِ حَزِينَةً أَوْ مُغْتَبِطَةً.

إِنْتَهَى إِلَى أَصْحَابِهِ وَأَثَرِيهِ «فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ النَّاسِ، وَعَابُوا عَلَى وُلَايَتِهِمْ،

وَذَكَرُوا أَهْلَ النَّهْرِ فَتَرَخَمُوا عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: مَا نَصْنَعُ بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُمْ. إِخْوَانُنَا الَّذِينَ  
كَانُوا دُعَاةَ النَّاسِ لِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ، وَالَّذِينَ كَانُوا لَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، فَلَوْ شَرِينَا  
أَنْفُسَنَا فَأَتَيْنَا الرُّؤُوسَ فَالْتَمَسْنَا قَتْلَهُمْ فَأَرْخْنَا مِنْهُمْ الْبِلَادَ وَثَارْنَا بِهِمْ إِخْوَانَنَا.

قَالَ ابْنُ مُلْجَمٍ - وَتَعَرَّضَ لَهُ طَيْفٌ قَطَامٍ يَبْتَسِمُ لَهُ وَيُبَارِكُهُ - أَنَا أَكْفِيكُمْ  
عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ.

وَقَالَ الْبَزْكَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَا أَكْفِيكُمْ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ.

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ بَكْرٍ: أَنَا أَكْفِيكُمْ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ... فَتَعَاهَدُوا وَتَوَاتَقُوا بِاللَّهِ:  
لَا يَنْكُصُ رَجُلٌ مِنَّا عَلَى صَاحِبِهِ الَّذِي تَوَجَّهَ حَتَّى يَقْتُلَهُ أَوْ يَمُوتَ دُونَهُ.

بَعْدَمَا غَابَ ابْنُ مُلْجَمٍ عَنْ عَيْنَيْ قَطَامٍ، شَعَرَتْ بِغِبْطَةٍ، لَمْ تَلْبَثْ أَنْ  
مَارَجَتْهَا حَسْرَةٌ كَانَتْ تَنْسَابُ إِلَى قَلْبِهَا، عَلَى شَكْلِ مَوْجَاتٍ مُتَدَفِّقَةٍ، وَلَمْ تَلْبَثْ  
أَنْ فَارَتْ وَأَصْطَحَبَتْ. فَخَفَّتْ إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَ تَوَدُّ لَوْ أَدْرَكَتْهُ، وَلَكِنَّهَا  
تَوَقَّفَتْ وَلَمْ تَسْقُطْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ وَلَوْ فِي الْقَتَامِ. فَظَلَّتْ تَزْنُو جَاحِظَةً وَشَفَتْهَا بَيْنَ  
أَسْنَانِهَا، وَظَلَّتْ تُنْسِكُ وَجِيبَ قَلْبِهَا بِيَدٍ، وَتُكْفِكُفُ مِنْ غَرْبِ دَمْعِهَا بِيَدٍ، وَطَالَ  
بِهَا الْمَقَامُ وَلَفَّهَا اللَّيْلُ كَأَنَّهُ يُجْلِبِبُهَا بِثَوْبِ الْحِدَادِ.

سَمِعَتْ، بَعْدَ حِينٍ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ هَبَطَ الْكُوفَةَ فَهَالَهَا مَا سَوْفَ يُقْدِمُ  
عَلَيْهِ، فَضَمَّتْ إِلَيْهِ، مِنْ قَوْمِهَا، رَجُلًا آسَمُهُ وَزِدَانُ، تَمَنَّتْ، فِي أَقْصَى عَوَاطِفِهَا، لَوْ  
أَنَّهُ سَقَطَ طُعْمُ الْفَرِيسَةِ وَنَجَا صَيَّادُهَا الْحَبِيبُ الْمَفْدَى.

مَا لَبِثَ ابْنُ مُلْجَمٍ أَنْ لَقِيَ أَصْحَابَهُ فِي الْكُوفَةِ وَكَاتَمَهُمْ أَمْرُهُ، ثُمَّ سَارَ إِلَى  
«شَبِيبِ بْنِ بَجْرَةَ فَقَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ فِي شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟

قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: قَتَلَ عَلِيٌّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ.

قال: ثَكَلْتُكَ أُمُّكَ. لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِدَّاءَ، كَيْفَ تَقْدِرُ عَلَيْهِ؟

قال: أَكْمُنُ لَهُ فِي الْمَسْجِدِ، فَإِذَا خَرَجَ لَصَلَاةِ الْغَدَاةِ شَدَدْنَا عَلَيْهِ فَقَتَلْنَاهُ، فَإِنْ نَجَّوْنَا شَفَعْنَا أَنْفُسَنَا وَأَدْرَكْنَا ثَأْرَنَا، وَإِنْ قُتِلْنَا فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

قال: وَيُحَكِّ! لَوْ كَانَ غَيْرَ عَلِيٍّ لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيَّ، فَقَدْ عَرَفْتُ بَلَاءَهُ فِي الْإِسْلَامِ وَسَابِقَتَهُ مَعَ النَّبِيِّ (ص)، وَمَا أَجِدُنِي أَنْشِرُحَ لِقَتْلِهِ.

قال: أَمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ قَتَلَ أَهْلَ النَّهْرِ إِعْمَادَ الصَّالِحِينَ؟

قال: بلى... فَأَجَابَهُ، وَأَتَى الثَّلَاثَةَ إِلَى قَطَامٍ وَهِيَ مُعْتَكِفَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ، فَدَعَتْ لَهُمْ بِالْحَرِيرِ فَعَصَبَتْهُمْ بِهِ، وَأَخَذُوا أَسْيَافَهُمْ وَجَلَسُوا مُقَابِلَ السُّدَّةِ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْهَا عَلِيٌّ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ: إِنِّي لِأُصَلِّيَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ فِي رِجَالٍ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ، مَا هُمْ إِلَّا قِيَامٌ وَرُكُوعٌ وَسُجُودٌ، مَا يَسْأَمُونَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى آخِرِهِ، إِذْ خَرَجَ عَلِيٌّ لَصَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَجَعَلَ يُنَادِي: أَيُّهَا النَّاسُ، الصَّلَاةُ، الصَّلَاةُ. فَنَظَرْتُ إِلَى بَرِيقٍ وَسَمِعْتُ: الْحُكْمُ لِلَّهِ يَا عَلِيٌّ، لَا لَكَ وَلَا لِأَصْحَابِكَ! فَرَأَيْتُ سَيْفاً ثُمَّ رَأَيْتُ ثَانِياً ثُمَّ سَمِعْتُ عَلِيّاً يَقُولُ: لَا يَفُوتَنَّكُمْ الرَّجُلُ! وَشَدَّ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَخِذَ وَأَدْخَلَ عَلَى عَلِيٍّ فَقَالَ:

النَّفْسُ بِالنَّفْسِ إِنْ أَنَا مِثٌّ، وَإِنْ بَقِيَتْ رَأَيْتُ فِيهِ رَأْيِي... ثُمَّ آلَتْفَتْ إِلَى ذَوِيهِ فَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: لَا أَلْفَيْتُكُمْ تَخَوْضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. أَلَا لَا يُقْتَلَنَّ إِلَّا قَاتِلِي، أَنْظِرُوا يَا حَسَنُ، إِنْ أَنَا مِثٌّ مِنْ ضَرْبَتِهِ فَاضْرِبْهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَلَا تُثْمَلْ بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ص) يَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَالْمِثْلَةَ وَلَوْ أَنَّهَا بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ... وَلَمَّا أَحَسَّ دُنُوهُ جَمَعَ إِلَيْهِ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، فَقَالَ:

أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْأَلَا تَبْغُوا الدُّنْيَا، وَإِنْ بَغْتُمْكُمَا، وَلَا تَبْكِيَا عَلَى شَيْءٍ



زَوَى عَنْكُمَا، وَقُولَا الْحَقَّ، وَأَرْحَمَا الْيَتِيمَ، وَأَغْنِيَا الْمَلْهُوفَ، وَأَصْنَعَا لِلْآخِرَةِ وَكُونَا  
لِلظَّالِمِ خَضَمًا وَلِلْمَظْلُومِ نَاصِرًا، وَأَعْمَلَا بِمَا فِي الْكِتَابِ، وَلَا تَأْخُذْكُمَا فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ  
لَا يُمْ... ثُمَّ نَظَرَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ فَقَالَ: هَلْ حَفِظْتَ مَا أُوصَيْتُ بِهِ أَخَوَيْكَ؟  
قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَوْقِيرِ أَخَوَيْكَ، الْعَظِيمِ حَقُّهُمَا عَلَيْكَ، فَاتَّبِعْ أَمْرَهُمَا  
وَلَا تَقْطَعْ أَمْرًا دُونَهُمَا. ثُمَّ قَالَ: أُوصِيكُمَا بِهِ فَإِنَّهُ شَقِيقُكُمَا وَأَبْنُ أَبِيكُمَا، وَقَدْ  
عَلِمْتُمَا أَنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُحِبُّهُ... ثُمَّ لَمْ يَنْطِقْ إِلَّا بِقَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، حَتَّى  
قُبِضَ...»

فَلَيْتَهَا إِذْ فَدَتْ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ فَدَتْ عَلِيًّا بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ!

\*

خَاضَ عَلِيٌّ الْكِفَاحَ الْإِسْلَامِيَّ وَلَمْ يُذْرِكْ مَذْرَكَ الرِّجَالِ، وَقَضَى فِي سَاحَةِ  
هَذَا الْكِفَاحِ وَهُوَ أَسْمَى الرِّجَالِ...  
وَكَأَنَّهُ بِكِفَاحِهِ أَتَمَّ عَلَى الْإِسْلَامِ كِفَاحَهُ، فَالنَّبِيُّ كَافَحَ الشُّرُكَ، وَعَلِيٌّ كَافَحَ  
النِّفَاقَ...

وَالنَّبِيُّ ظَفَرَ بِالْمَعْرَكَةِ الْحَاسِمَةِ، وَعَلِيٌّ ظَفَرَ بِمَعْرَكَةِ التَّطْهِيرِ الْحَاسِمَةِ أَيْضًا...  
فِي كُلِّ عَيْنٍ أَنْتَ قُرَّتُهَا فِي كُلِّ جِيلٍ أَنْتَ عَلَيْهَا!  
شَاءَ الْحَقُّ أَنْ يُقَدَّمَ فِي دُنْيَا النَّاسِ نَمُودَجُهُ فَكَانَ عَلِيًّا...

وَشَاءَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعُلْيَا أَنْ تَعْتَزَّضَ مُتَأَلِّقَةً فِي أَفْقِ الْأَحْيَاءِ فَكَانَتْ عَلِيًّا...  
وَشَاءَتِ السَّمَاءُ أَنْ لَا تُسَلِّمَهُ إِلَى أَطْبَاقِ الثَّرَى الْمُظْلِمِ، فَاخْتَارَتْهُ مِلءَ عَيْنِ  
الْحَقِّ شَهِيدًا!...

\*



إِسْتَعْبَرَ الْحَسَنُ، وَتَوَلَّى الْحُسَيْنُ مُلْتَاعًا، فَقَدْ دَقَّتْ سَاعَةٌ مَاتَ فِيهَا الْبَطْلُ...  
وَأَعْوَزَهُ الدَّمْعُ، وَلَكِنَّ عَلِيًّا لَا يُشَيِّعُ بِالدَّمْعِ...  
فَإِنَّ تَكْرِيمَ الْبَطْلِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَضَحِيَّةٍ فِي بُطُولَةٍ، وَبُطُولَةٍ فِي التَّضَحِيَّةِ...  
فَبَكَاهُ وَلَكِنْ لَمْ يَبْكِهِ بِالدَّمْعِ بَلْ بِالْدماءِ الْخَالِدَاتِ!...

\*

تَنْظَّمُ عَلَى رَأْسِ الْحُسَيْنِ إِكْلِيلُ أَسَى، وَلَكِنَّهُ إِكْلِيلُ غَارٍ يُعَبِّرُ عَنْ خَالِدِ  
الْمَجْدِ... فَقَدْ ضَمَّ جَدَّهُ وَأُمُّهُ وَأَبَاهُ فِي آخِثَبَاكِ وَضِيء...  
وَكَانَ شِعَارُهُ أَنِّي سَارَ وَكَيْفَ سَعَى...  
وَوَضَعَ الْإِكْلِيلُ كَأَنَّ فِيهِ مَحَلًّا لَزَهْرَةٍ حَمْرَاءَ أَيْضًا...  
فَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ كَانَ يَنْفُسِهِ تِلْكَ الزَّهْرَةَ الْحَمْرَاءَ...  
وَوَضَعَ الْإِكْلِيلُ الْغَارَ الْعَظِيمَ ذِكْرَى رَائِعَةٍ فِي ضَمِيرِ الْوُجُودِ!...

\*

إِسْتَفْرَقَ الْحُسَيْنُ فِي أَسَى مُذِيبٍ، وَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ مِنْ مَرْثِيَّةِ أَبِي الْأَسْوَدِ  
الدُّوَلِيِّ:

إِذَا اسْتَقْبَلْتَ وَجْهَ أَبِي حُسَيْنٍ رَأَيْتَ الْبَدْرَ رَاعِ النَّاطِرِينَ  
لَقَدْ عَلِمْتَ قُرَيْشٌ حَيْثُ كَانَتْ بِأَنْكَ خَيْرُهَا حَسْبًا وَدِينًا  
ثُمَّ تَمَّتْ: لِمَاذَا؟ لِمَاذَا يَقُولُ «أَبِي حُسَيْنٍ»؟...  
لَا شَكَّ أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدِ يُنَادِينِي، يُنَادِينِي أَنَا...  
وَخَلِيقُ بِي أَنْ أَجِيبَ النَّدَاءَ!...

\* \* \*

مِنْ أَيَّامِ الْحُسَيْنِ السَّبِّطِ (٤)

## في الهيكل

هَجَرَ النَّاسَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَسَيَّمَ الْحَيَاةَ الصَّاحِبَةَ، وَقَدْ أَمْتَدَّتْ إِلَيْهِ بِأَرْزَائِهَا،  
وَأَتَّصَلَتْ إِلَى قَرَارَةِ حَوْبَائِهِ بِأَسْبَابِ بِأَسَائِهَا، فَمَا بَشَّتْ فِي وَجْهِهِ إِلَّا قَلِيلاً، عَلَى أَنَّ  
ذَلِكَ الْقَلِيلَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا كَالْفَتْرَةِ بَيْنَ تَجَهُّمَيْنِ.

بَلَّةَ فِكْرَتَهُ عَنِ الْحَيَاةِ، وَكَانَتْ لَا تَزِيدُ فِي آغْتِبَارِهِ عَنْ مَسْرَحِيَّةِ مُرْسَلَةٍ  
إِرْسَالاً، لَا تَتَقَيَّدُ بِوَحْدَةِ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، تَسْرُ فِي بَعْضٍ مِنْهَا، وَتُشْقِي فِي بَعْضٍ،  
وَتُضْحِكُ وَتُبْكِي وَتُلْدُ وَتُؤْلِمُ. وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَا تُؤْلِمُ حَقِيقَةً كَمَا لَا تُلْدُ حَقِيقَةً،  
وَلَكِنَّهَا تُغْرِي بِالْأَلَمِ وَاللَّذَّةِ إِذَا اسْتَجَابَ إِلَى أَشْيَائِهِمَا الشُّعُورُ، فَتُلَوُّنُ بِهَا وَتَعْلُقُ فِي  
الْفِكْرِ رَغْبَةً تَضْدِيقُهَا، وَإِلَّا فَهِيَ، فِي حَقِيقَتِهَا، ضِحْكَةٌ نَحْنُ نَفْتَعِلُهَا وَنَحْنُ نَعُودُ  
فَنُصَدِّقُهَا وَنُؤَكِّدُهَا.

أَمَّا أَنَّهَا وَقَعَ فَأَبْعَدُ مَا تَكُونُ عَنْ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَلِمَاذَا تَكُونُ مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ  
قَوْمٍ فَوَائِدُ؟... وَلِمَاذَا لَا تَمْتَلِكُنَا مَشَاعِرُ وَاحِدَةٍ حِيَالَ الْحَادِثِ الْوَاحِدِ؟

أَلَيْسَ هُوَ حَادِثًا وَاحِدًا لَا يَمْلِكُ هَذَا التَّبَايُنَ، فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ إِذَا؟ إِنْ كَانَ  
الْحَادِثُ عِلَّةً وَالْمَشَاعِرُ الْمُتَبَايِنَةُ تَنْشَأُ عَنْهُ بِالْعَلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ، فَكَيْفَ اخْتَلَفَتْ؟

وَلِمَاذَا أَقْتَنِعُ أَنَا بِأُسْلُوبٍ وَمَنْطِقٍ لَا يَقْتَنِعُ بِهِمَا الْآخَرُ فِي زَمَانٍ وَمَكَانٍ لَيْسَا  
مُخْتَلِفَيْنِ؟ وَيُحِسُّ كُلُّ مَنَّا أَنَّ الْوَاقِعَ هُوَ مَا أَنْطَوَى عَلَيْهِ، وَشَعَرَ بِهِ شُعُورًا فِكْرِيًّا أَوْ

مَعْنَوِيًّا. أَمَا يُحِسُّ كُلُّ مِتٍّ، إِذَا آقَتَنَعَ بِأَمْرِ أَوْ بِرَأْيٍ، أَنَّهُ آتَقَلَ مِنْ وَاقِعٍ لَمْ يَعُدْ لَهُ  
هَذَا الْأَسْمُ، إِلَى وَاقِعٍ لَيْسَ سِوَاهُ خَلِيقًا بِإِطْلَاقِ الْأَسْمِ؟ أَلَسْنَا لَا نَبْتَئِسُ وَنَحْنُ نَعْبَثُ  
جَدَلِينَ بِأَشْلَاءِ الْأَعْدَاءِ وَدِمَائِهِمْ؟

فَالطَّبِيعَةُ الْحَيَّةُ إِذَا تَهْدِمُ الْعَلَاقَةَ السَّبَبِيَّةَ فِي نَفْسِهَا، ثُمَّ لَا تَخْضَعُ لِنَامُوسِهَا،  
وَالْعَلَاقَةُ السَّبَبِيَّةُ هِيَ ظَاهِرَةُ الْوَاقِعِ، فَلَا يَدْعُ، بَعْدَ هَذَا، إِنْ كَانَتِ الْحَيَاةُ لَيْسَتْ  
وَاقِعًا، أَوْ لَا تُعْبَرُ عَنْ وَاقِعٍ فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ.

إِنَّ الْحَيَاةَ إِنَّمَا تَجِدُ وَاقِعَهَا فِي أَنْفِعَالِنَا الضَّمِيرِيِّ<sup>(١)</sup> أَوْ الْوَجْدَانِيِّ، فَكُلُّ مَا لَا  
يَجِدُ طَرِيقَ أَنْتِهَائِهِ إِلَى مَوْكَزِ الْأَنْفِعَالِ الضَّمِيرِيِّ لَيْسَ بِحَيَاةٍ. فَلِكِنِّي يَكُونُ إِذَا  
لِلْعَلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ عَمَلٌ فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ فَتَنْشُجُ وَخْدَةً أَثَرًا، لَا بُدَّ مِنْ وَخْدَةٍ زَمَانٍ  
وَوَخْدَةٍ مَكَانٍ، وَوَخْدَةٍ حَادِثٍ وَوَخْدَةٍ ضَمِيرٍ، وَهَذِهِ الْأَخِيرَةُ أَهَمُّ الْوَوَخْدَاتِ مِنْ  
حَيْثُ تَجِدُ الْحَيَاةَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي بَيْدَائِهَا وَاقِعَهَا. فَأَشْيَاءُ الْحَيَاةِ لَا تَجِدُ حَيَاتَهَا، وَبِعِبَارَةٍ  
أُخْرَى لَا تَجِدُ حَقِيقَتَهَا، إِلَّا إِذَا اسْتَجَابَ إِلَيْهَا الشُّعُورُ، وَإِلَّا فَأَيْنَ الْأَلَمُ وَاللَّذَّةُ؟ وَأَيَّانَ  
تَقُومُ الْمُغْرِيَاتُ وَالْفُتُونُ؟ فَلَنَجْرُبُ إِذَا جَيِّدًا أَنْ لَا نَصْحَبَ أَلْوَانَ الْحَيَاةِ الَّتِي تَمُرُّ بِنَا  
بِاسْتِجَابَةِ الشُّعُورِ، فَتَنْقَلِبَ مَسْرُوحِيَّةً تَافِهَةً الْقِيَمَةِ. وَنَحْنُ مِنْ هَذِهِ الْمَسْرُوحِيَّةِ نَفْسِهَا -  
وَهِيَ آفِتْعَالُنَا - نُسَرُّ وَنَأْسَى إِذَا اسْتَجَبْنَا إِلَيْهَا بِشُعُورِنَا، فَسَرُّ مَا يَنْتَابُنَا مِنْ شَقَاءِ الْحَيَاةِ،  
أَوْ سَعَادَتِهَا، قَائِمٌ فِي الْاسْتِجَابَةِ الشُّعُورِيَّةِ فَقَطُّ، فَالْحَيَاةُ لَيْسَتْ تَمْلِكُ سِوَى أَشْمَاءِ  
نَحْنُ نُفْرِغُ فِيهَا مُسَمِّيَاتِهَا. فَإِذَا حُلْنَا بَيْنَ الشُّعُورِ وَالْاسْتِجَابَةِ، أَذَرَكْنَا سِرَّ الْحَيَاةِ  
وَحَقِيقَتَهَا، وَاسْتَشْعَرْنَا بِهَيْئَمَاتِ الْخُلْدِ، وَآنَشَيْنَا نَتَقَلَّبُ فِي حَيَاةٍ ذَابَتْ عَلَيْهَا  
كِبَرِيَاءُ أَبَدِيَّةِ السَّمَاءِ، وَكِبَرِيَاءُ مَعَانِيهَا وَأَخْلَامِهَا... رَنَّ فِي أُذُنِ الْحُسَيْنِ وَهُوَ فِي  
مَذْهَبِ تَفْكِيرِهِ هَذَا أَوْ تَأْمُلِهِ... فَلَنَتَجَرَّدْ! هَلُمَّ إِلَى الْهَيْكَلِ! إِلَى مِخْرَابِ الْمُعْبَدِ،  
مِخْرَابِ الرُّوحِ وَالْجَمَالِ وَالْحُبِّ وَالْخَيْرِ!

(١) نَغْنِي بِالضَّمِيرِ هُنَا الْمُضْمَرُ، أَيِ الْمَغْنَى اللَّغَوِيَّةِ دُونَ الْمَغْنَى الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الْوَجْدَانِ.

ظَلَّ فِي حَيَاةِ تَمَوُّجِ بِالنُّشُوءِ وَسَكْرَةِ الْحُلُمِ، وَخَنِينِ الرُّوحِ، وَرَفَّةِ الطُّهْرِ،  
وَحَفَقَةِ الْحُبِّ، وَظَلَّ النَّاسُ خَارِجَ الْهَيْكَلِ يَتَقَلَّبُونَ فِي حَيَاةِ تَمَوُّجِ الْفُتُونِ  
وَالشَّهَوَاتِ، وَرَشَحَاتِ الْأَعْصَابِ مِنْ لَذَّةِ وَالْمِ، وَلَكِنَّهَا دُنْيَا مِنَ السَّرَابِ.

كَانَ كَأَنَّهُ فِي مِخْرَابِهِ بَيْتَ الْقَصِيدِ فِي أَنْشُودَةِ الْحَيَاةِ، أَوْ أَنْشُودَةِ الطُّهْرِ فِي  
شِعْرِ الْوُجُودِ.

ظَلَّ فِي مِخْرَابِ الرُّوحِ رَانِيَا شَاخِصًا، زَمَنًا طَوِيلًا، فِي حِسَابِ مَنْ دُونَ  
مُحَدِّدِ الْهَيْكَلِ، وَإِنْ كَانَ، فِي حِسَابِهِ، لَمْ يُفَنِ اللَّحْظَةَ الْأُولَى بَعْدُ، وَهَلْ فِي لَحْظَةِ  
الْإِشْرَاقِ وَجُودٌ لِلزَّمَنِ؟ إِنَّ لَحْظَةَ الْإِشْرَاقِ لَحْظَةٌ أَبَدٌ، وَأَوَّلُ آعْتِبَارٍ فِي الْأَبَدِ الْغَاءِ فِكْرَةٌ  
الزَّمَانِ مِنْهُ.

وَفِي لَحْظَةِ الْإِشْرَاقِ سِرُّ الْحَيَاةِ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا السِّرُّ فِينَا لَا نَفْتًا نَنْشُدُ النُّشُوءَ  
فِي الْحُبِّ وَفِي الْفَنِّ. وَلَآنَ فِي لَحْظَةِ الْإِشْرَاقِ لَحْظَةٌ أَبَدِيَّةٌ، لَا يَشْعُرُ الْمُحِبُّونَ بِدُنْيَا  
الْحَيَاةِ وَمَا آجْتَمَعَ فِيهَا، ثُمَّ لَا يَشْعُرُونَ بِغَيْرِ دُنْيَاهُمْ، لَقَدْ آنَشَوْا فَهْمَ يَحْلُمُونَ.

فِي كُلِّ أَشْيَاءِ الْوُجُودِ لَفَتَاتُ إِشْرَاقٍ، وَهِيَ تَتَنَادَى بِالْحَيِّ إِلَى التَّأَمُّلِ لِيَنْجُوَ  
مِنْ غُبَابِ السَّرَابِ، قَبْلَمَا يُعْتَصِرُ فِي الْإِلْتِمَاعِ السَّاخِرِ.

إِنَّ لَحْظَةَ الْإِشْرَاقِ فِي الْفَنِّ تَنْتَهِي بِلَحْظَةِ الْإِشْرَاقِ فِي الْحُبِّ، وَلَحْظَةُ الْإِشْرَاقِ  
فِي الْفَنِّ تَنْتَهِي بِلَحْظَةِ الْإِشْرَاقِ فِي الْهَيْكَلِ أَيْ التَّأَمُّلِ، وَهُنَا تَرْتَفِعُ سُدُودُ الشُّعُورِ  
فِي الْقَلْبِ، فَتَتَدَفَّقُ لُجَجُ الْإِشْرَاقِ، وَفِي غُبَايِهَا بَاتَ الْحُسَيْنُ يَطْفُو حَالِمًا يَسْمُو بِهِ  
الْمَدُّ. إِنَّهُ نَشْوَانُ. أَلَيْسَتْ حُشَاشَتُهُ تُنْدِيهَا خَمْرَةُ اللَّهِ، تُرَابٌ بِفَمِي: إِنَّهَا تُنْدِي بِرَحِيقِ  
الْأَزَلِ.

بَدَأَ الْحُسَيْنُ لَا يَرَى شَيْئًا، إِلَّا رَأَى اللَّهَ وَرَاءَهُ، وَأَنْتَهَى وَهُوَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا  
رَأَى اللَّهَ أَمَامَهُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَرَى شَيْئًا، فَقَدْ فَنِيَتْ الظُّلَالُ كُلُّهَا فِي الْإِشْرَاقِ،

وَأَمَّحَى خَيَالُ الْأَشْيَاءِ فِي مُقَلَّةِ الشَّمْسِ.

فَلَا يَدْعُ إِنْ آسْتَوَى قَلْبُهُ عَلَى قَاعِدَتِهِ، كَمَا آسْتَوَى فِكْرُهُ عَلَى الْقَاعِدَةِ عَيْنِهَا، وَتَمَلَّأَ ضَمِيرُهُ بِالْمَثَالِيَةِ وَشَاعَ فِي وَجْدَانِهِ الْحَقُّ بِقَضَايَاهُ الْعُلْيَا. فَهُوَ خَصِيبُ الرُّوحِ أَكْثَرَ مَا تَكُونُ خُصُوبَةً، وَمِنْ فُؤَادِهِ يَتَدَفَّقُ نَمِيرُ صَالِحِ الْخَيْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِنْسَانِ، وَتَتَفَجَّرُ مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِهِ يَنَابِيعُ الْفَضَائِلِ. فَظَلَّ مَصْدَرُ نَمُودَجَاتِ تُشِيرُ إِلَى الْمَكَارِمِ الَّتِي قِيلَ عَنْهَا: إِنَّهَا أَحْلَامُ الشَّاعِرِ وَأُغْنِيَةُ الْعَنْدَلِيبِ، أَلَا لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْلَامُ الْعُلْيَا تُشِيرُ إِلَى الْحُسَيْنِ وَتَقُولُ: إِنِّي هُنَا!

كَانَ قَدْ آسْتَطِيرَ قَلْبُهُ بِالْحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَهُوَ لَا يَفْتَأُ يَنْشُدُهَا وَيَسْتَغْرِقُ مُتَأَمِّلاً فِي بَيْدَاءِ جَمَالِهَا، فَكَأَنَّهُ وَهُوَ فِي الْحِرَابِ قَدْ جَسَدَ الْحِرَابُ فِيهِ مَعْنَاهُ. فَلَمْ يَعُدْ يَمُدُّ خَيَالَ الْإِنْسَانِ بَلْ غَدَا يَمُدُّ وَاقِعَ الْإِنْسَانِ، حِينَ أَضْحَى مَعْنَى الْحِرَابِ إِنْسَاناً يَعِيشُ فِي النَّاسِ، فَكَانَ مِثَالَ الْخَيْرِ كُلِّ الْخَيْرِ، وَمِثَالَ الطُّهْرِ كُلِّ الطُّهْرِ، فَلَمْ يَكُنْ يُرَى إِلَّا مُصَلِّياً حَتَّى كَأَنَّ حَيَاتَهُ جَاءَتْ عَلَى مِقْدَارِ الصَّلَاةِ، وَإِلَّا سَخِيّاً جَوَاداً حَتَّى كَأَنَّ غَايَةَ الْحَيَاةِ فِي غَايَةِ الْجُودِ، وَإِلَّا مُمْتَطِياً صَهَوَاتِ حَيُولِهِ إِلَى مَكَّةَ كَأَنَّهُ يَشْعُرُ بِالْحَجِّ أَنَّهُ - مِثْلَمَا نَعْبُرُ الْيَوْمَ - تَسْجِيلٌ لِلْأَسْمِ فِي سِجْلِ التَّشْرِيفَاتِ، وَلَيْسَ أَشْهَى إِلَى قَلْبِهِ مِنْ مُعَاوَدَةِ ذَلِكَ؟

لِذَا، كَانَ الْحُسَيْنُ، بِجَاذِبِيَّةِ الرُّوحِ، مَهْوًى الْقُلُوبِ وَنَدَى الْأَفْئِدَةِ تَحْوُمُ مِنْ حَوْلِهِ كَأَنَّهُا تَرْوِي غُلَّتَهَا، فَقَدْ سَقَطَ الْعِطَاشُ مِنْهُ بَعْدَ التَّيِّهِ عَلَى رَقَارِقِ الْيَنْبُوعِ، فَمَا كُنْتَ تَرَى النَّاسَ «إِلَّا عُكْفَاءَ حَوْلَهُ» مُنْتَشِينَ، يَنْعَمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْحَنِينِ إِلَى الْمَجْهُولِ «كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ».

فَكَانَ مَحَلُّهُ مِنَ النَّاسِ مَحَلُّ جَدِّهِ النَّبِيِّ، تَجِدُ فِيهِ الْأَرْوَاحَ الشَّارِدَةَ الْحَائِرَةَ مَا تَشْتَهِي مِنْ طُمَأْنِينَةٍ وَمَا تَشَاءُ مِنْ سَكِينَةٍ. فَإِذَا عَبَدُ اللَّهِ بَنُ عَبَّاسٍ عَلَى مَكَانَتِهِ يَأْخُذُ بِرِكَابِهِ فِي شُعُورٍ وَدُونَ شُعُورٍ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا آتِي رَسُولِ اللَّهِ،



أَفَلَيْسَ مِنْ سَعَادَتِي أَنْ آخُذَ بِرُكَابِهِ؟... وإذا أَبُو هُرَيْرَةَ يَسِيرُ وَالْحُسَيْنُ فِي جَنَازَةٍ  
فَأُعْيَا الْحُسَيْنُ وَقَعَدَ، «فَجَعَلَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْ قَدَمَيْهِ بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، فَقَالَ:  
وَأَنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ تَفْعَلُ هَذَا؟

فَقَالَ لَهُ: دَعْنِي، فَوَاللَّهِ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مِنْكَ مَا أَعْلَمَ لِحَمْلُوكَ عَلَى رِقَابِهِمْ!...  
وإذا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ «يَرَى الْحُسَيْنَ مُقْبِلًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فِي جَمَاعَةٍ،  
فَيَقُولُ: هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَإِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ الْيَوْمَ».

وكان، على هذه المكانية، لا تَزِدْهِ كِبَرِيَاءُ الْمُتَخَايِلِ، فَإِنَّ الْكِبَرِيَاءَ شُعُورٌ  
بِنَقْصِ الذَّاتِ، وَجَبَرٌ لِهَذَا النِّقْصِ بِالتَّظَاهِرِ، وَمَا حَاجَةُ الْعَظِيمِ إِلَى الْأَثْوَابِ،  
وَالْعَظَمَةُ ذَاتِيَّةٌ تَكُونُ أَكْثَرَ أَسْرًا كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ عُزْبًا.

فَالْكِبَرِيَاءُ مَرَضٌ يَبِينُ أَنْ يَكُونَ فِي الذَّاتِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ فِي الْإِدْرَاكِ، وَفِي كِلْتَا  
حَالَتَيْهَا تُعْبِرُ عَنْ أَنَّهَا كَشَجَرَةٍ الْأُورَاقِ فِي الْخَرِيفِ، أَوْ كَزَعْبِ النَّعَامِ فِي الْإِعْصَارِ.  
زَعَمُوا أَنَّ تُفَاحَةَ نَبَتَتْ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ بَلُوطٍ، فَأَطَلَّتْ عَلَيْهَا مِنْ عَلَيَائِهَا  
الشَّامِخِ بِخُيَلَاءٍ وَأَزْدِهَاءٍ، وَقَالَتْ: أَنْتِ حَقِيرَةٌ، حَقِيرٌ جَنَّاكَ الَّذِي تَحْمِلِينَ، حَتَّى  
صَوْتُكَ حَقِيرٌ فِي نَجْوَى النَّسِيمِ سَاعَةً يَنْطَلِقُ فِي السَّحْرِ يُغَارِلُ غَايَاتِ الْأَشْجَارِ  
وَيُسَامِرُهَا... وَأَنْتَقَضَتْ تَصْفُقٌ، فَقَدْ مَرَّ الرِّيحُ يُهْدِئُهَا، وَذَهَبَتْ تَضْحَكُ مُتَمَائِلَةً  
فِي سُخْرِيَّةٍ وَكِبَرِيَاءٍ. وَهَبَتْ فِي أَثَرِ الرِّيحِ أَعَاصِيرُ تَزَارُ فَطَالَتْ ضِحْكُهَا وَاسْتَحَالَتْ  
فَهْقَهَةً لَمْ تَزَلْ تَمْتَدُّ، وَلَكِنَّهَا أَنْقَلَبَتْ فَجَاءَةً إِلَى مِثْلِ حَشْرَجَةٍ رَهِيبةٍ أَنْكَفَأَتْ مَعَهَا  
تَوَتَّطُمُ بِالْأَرْضِ عِنْدَ قَدَمِ التُّفَاحَةِ، فَمَالَتْ هَذِهِ عَلَيْهَا رَائيَةً تَقُولُ:

لَعَلَّكَ الْآنَ - أَيُّهَا الْأُخْتُ - أَصْدَقُ رَمَزًا فِي الْكِبَرِيَاءِ...

وَمَرَّ سَائِرُ طَرِيقٍ جَدُّ بِهِ الْمَسِيرُ، فَوَقَفَ عِنْدَهُمَا تَعْبًا ضَاوِيًا، وَأَهْوَتْ يَدُهُ تَطْعَمُ  
مِنْ ثَمَرِ الْبَلُوطَةِ، فَخَبَطَتْهُ مَرَارَةٌ حَادَّةٌ، فَتَقَرَّرَ مُسْتَنْغِصًا كَالَّذِي مَسَتْهُ أَفْعَى، وَتَزَايَدَ

بِهِ الظَّمَأُ، وَتَلَبَّتْ فِي حَيَرَةٍ طَوِيلًا قَبْلَ أَنْ أَخَذَ مِنْ ثَمَرِ الْأُخْرَى، فَأَحْلَوَى وَشَاعَ  
الرَّيُّ فِي جَوَانِحِهِ، فَقَالَ:

مُبَارَكَةٌ أَنْتِ! فَإِنَّكَ تَحْمِلِينَ عُصَارَةَ الذَّاتِ فِي شَكْلِ خُدُودِ الْحِسَانِ، وَأَمَّا  
أَنْتِ الْأُخْرَى فَبُعْدًا لَكَ! إِنَّكَ تَحْمِلِينَ عُصَارَةَ الْكِبْرِيَاءِ فِي شَكْلِ جَلَّةِ الْجِمَالِ!  
فَسَمِعَتْ كِلْتَاهُمَا مُحْكَمَ الْحَقِيقَةِ عَلَيْهِمَا، فَمَا تَاهَتْ إِحْدَاهُمَا، وَهِيَ كَبِيرَةُ الذَّاتِ  
كَبِيرَةُ الْوُجُودِ، وَلَقَدْ تَضَاءَلَتِ الْأُخْرَى وَهِيَ عَدِيمَةُ الذَّاتِ كَبِيرَةُ فِي الْعَدَمِ،  
وَرَاخَتْ وَقَدْ آخُضِرَتْ عَلَيْهَا الْكِبْرِيَاءُ كَأَنَّهَا تَنْظُرُ إِلَى أَشْلَائِهَا مُمَزَّقَةً... وَقِيلَ، بَعْدَ  
حِينٍ، إِنَّ الْمَوَاقِدَ أَنْتَهَبَتْهَا، وَحَالَتْ فِي الرَّمَادِ وَالْدُّخَانِ تَقُولُ أَيْضًا: إِنَّنِي لَمْ أَزَلْ  
كِبْرِيَاءَ تَغْلُوا!...

«مَرَّ الْحُسَيْنُ بِمَسَاكِينٍ يَأْكُلُونَ فِي الصُّفَّةِ»<sup>(٢)</sup>، فَقَالُوا: الْغَدَاءُ. فَتَزَلَّ وَقَالَ: إِنَّ  
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ. فَتَغَدَّى ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَجَبْتُكُمْ فَأَجِيبُونِي، قَالُوا: نَعَمْ...  
فَمَضَى بِهِمْ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَقَالَ لَخَادِمِهِ: أَخْرِجْنِي مَا كُنْتُ تَدَّخِرِينَ».

وَالْحُسَيْنُ كَانَ، وَهُوَ فِي الْهَيْكَلِ، لَا يَفْتَأُ يُعِينُ النَّظَرَ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ  
يَكُنْ يَغْشَاهَا، يُصْلِحُ فِيهَا وَيُصْلِحُ لَهَا حَتَّى آذَنُ الْهَيْكَلِ بِالْخُرُوجِ، كَمَا خَرَجَ جَدُّهُ  
مِنْ غَارِ حِرَاءَ قَبْلُ، لِيَأْخُذَ الْحَيَاةَ طَبَقَ قَاعِدَةِ الْإِسْلَامِ، فَتَحَدَّثَهُ أُوثَانُ الْأَحْيَاءِ،  
فَحَارَبَهُمْ مُنْتَشِرِينَ وَمُجْتَمَعِينَ.

فَالنَّبِيُّ الْجَدُّ، مِنْ قَبْلُ، حَارَبَ الْوَثْنِيَّةَ فِي الْفِكْرِ وَدَحَضَهَا؛ وَالْحُسَيْنُ السَّبِطُ  
حَارَبَ الْوَثْنِيَّةَ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَهُوَ، وَإِنْ لَمْ يَدَحْضَهَا، فَقَدْ رَسَمَ الطَّرِيقَ لِحَرْبِهَا،  
وَأَبَاحَ ثَوْرَةَ التَّحَرُّرِ عَلَى أَيْةِ صُورِهَا وَأَشْكَالِهَا.

\*

---

(٢) الْمَكَانُ الْمُعَدُّ لِطَعَامِ الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ.

ذَابَتْ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ فِي الْقُشُورِ...  
وَرَاخَ الْأَحْيَاءُ يَتَعَلَّقُونَ مِنْهَا بِالْعُثَاءِ وَالظُّلَالِ...  
فِي نَشْوَةِ كَنْشَوَةِ الْحَمْرِ تُعْبِرُ عَنْ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ، تَمُدُّ بِالْعَرْبَدَةِ دُونَ مَا  
أَحْلَام!...

\*

وَقَلِيلٌ هُمُ الَّذِينَ نَفَذُوا مِنَ الْقُشُورِ إِلَى اللَّبَابِ...  
فَطَعِمُوا الْحَيَاةَ الَّتِي هِيَ هَيْبَةُ الْأَبَدِيَّةِ...  
فَاسْتَعْلَوْا وَوَقَّفُوا عَلَى هَامِ الْقُشُورِ يَنْظُرُونَ إِلَى الْعَلَاءِ...  
وَتَحَدَّثَ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ رَأَوْا، عِنْدَ أَفُقِ الْأَبَدِيَّةِ، إِنْسَانًا يُمِيعُ فِي السَّمَاءِ...  
عَرَفُوا فِي طَلْعَتِهِ إِنْسَانَ الْهَيْكَلِ الَّذِي أَغْرَاهُمْ بِاللَّحَاقِ!...

\* \* \*

## في وجه الظُّلم

في جَوْفِ اللَّيْلِ العميقِ عُمُقِ الأبديةِ والمجهولِ، حينَ كَانَ الظُّلَامُ يَنْتَشِرُ على  
شَكْلِ أَرْدِيَةِ فَاحِمَةٍ، تُلْفَعُ وَجْهَ الكَوْنِ وتُلْقِيهِ في سُكُونٍ حَائِرٍ وَسُبَاتٍ واجِمٍ  
مُخِيفٍ، أَنْطَلَقَتْ أَنَّهُ تَتَّبَعُهَا أُخْرَى وَأُخْرَى، في تَلَاوُحٍ بَدَأَ بِطِيئاً ثُمَّ كَرَّ سَرِيعاً،  
وَكَانَتْ أَنَا تُسْمَعُ جَرِيحَةً، وَيُخَيَّلُ أَنَّهَا تُرَى دَامِيَةً كَلِيمَةً، تَجْتَمِعُ فَتُشَكِّلُ صَرْخَةً  
بَاغِتَةً أَوْ بَغْتَةً صَارِخَةً، وَتَتَوَزَّعُ مُتَقَطَّعَةً مُتَنَاوِحَةً فَتُؤَلِّفُ لَحْناً فَانِيّاً، كَأَنَّهُ لَحْنُ  
التَّلَاشِيِ الْمُحْتَضِرِّ، أَوْ نَعْمَةُ الفَنَاءِ الذَّائِبِ في أَفْوَاهِ القُبُورِ.

أَصْغَى الحُسَيْنُ إلى مَا يَتَنَاهَى في سَمْعِهِ، وَمَالَ بِأُذُنِهِ كَأَنَّهُ يَسْأَلُ: مَاذَا؟ وَقَدْ  
خَفَّ قَلْبُهُ إِلَيْهَا يُسَابِقُ السَّمْعَ، وَلَكِنَّ النَّأْمَاتِ اخْتَلَطَتْ فَأَدَارَ أُذُنَيْهِ كِلْتَيْهِمَا إِلَى  
الْجِهَاتِ كُلِّهَا، وَهَفَا قَلْبُهُ يَتَوَلَّبُ يَمِيناً وَشِمَالاً، يَتَدَبَّرُ أَنَّهَا ظَلَّتْ تَقُولُ في مَنَاطِقِ  
الصَّدى: أَوَاهُ! وَظَلَّ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَاذَا؟ وَاخْتَلَطَتِ الْآهَاتُ وَأَنْبَهَمَتْ... فَهَبَّ  
يَشْتَدُّ خَارِجَ الْهَيْكَلِ مُسْتَطِلِعاً وَهُوَ يُرَدِّدُ:

أَلِّلُّ لَيْلٌ، وَهُوَ وَيْلٌ وَيْلٌ وَسَالٌ بِالْقَوْمِ الطُّغَاةِ السَّيْلُ

وَيْلٌ لِلظُّلَمِ وَالظَّالِمِينَ، «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

أَطْلَ مِنَ الْهَيْكَلِ، وَأَطْلَعَ رَأْسَهُ، وَالنَّاسُ مُتَجَمِّهُونَ عَلَى بَعْضِهِمْ كَالْغَمَامِ

الرِّفُّ يَقُولُونَ: أَفِي كُلِّ يَوْمٍ ضَحِيَّةٌ وَدَمٌ يُطَلُّ؟ أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تُمَزَّقُ أَكْبَادُ وَتُنَشَّرُ أَشْلَاءُ؟

لَقَدْ جَاءَ النَّعِيُّ بِأَنَّ حُجَرَ بْنَ عَدِيٍّ طَلَّ دَمُهُ مُنْذُ لَيَالٍ فِي نَفَرٍ مِنْ صَحْبِهِ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْكُوفَةِ يَسْتَصْرِخُونَ وَيَنْتَصِفُونَ.

قَالَ الْحُسَيْنُ: رَبَّاهُ مَا أَسْمَعُ... أَحُجَرٌ يُقْتَلُ وَلَا نَصْنَعُ شَيْئاً؟ فَيَا حَيَاةُ أَشِيحِي وَأَعْرُي، وَيَا دُنْيَا الْآثِمِينَ ذُوبِي وَأَضْمَحِلِّي!

وكَانَ قَدْ آذَنَهُمُ الْفَجْرُ بِالصَّلَاةِ فَعَاجَوْا إِلَى الْمَسْجِدِ وَالتَّأَمَّوْا صُفُوفاً، وَمَا أَنْصَرَفُوا حَتَّى تَحَلَّقُوا عَلَى شَكْلِ دَوَائِرٍ فِي بَعْضِهَا... فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ فَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْتُمْ هُنَا فِي الْمَدِينَةِ بَقِيَّةُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ، وَإِلَيْكُمْ تَتَّجِعُ الْأَنْظَارُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَإِلَى ظِلَالِكُمْ يَفِيعُونَ قَصْدَ تَطْهِيرِ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الْأَذْرَانِ.

أَنْتُمْ هُمْ الْأَنْصَارُ، وَبَيْنَكُمْ تَرَعَّرَعَتِ النُّبُوَّةُ، وَاشْتَدَّتْ قَوَادِمُهَا، وَرَبَّتْ خَوَافِهَا. فَاسْتَوَى النَّسْرُ وَحَلَقَ صُعُداً فِي كُلِّ مَجَالٍ، وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ الْبُغَاثِ، وَأَهْوَى الْخُفَّاشُ إِلَى الْحَفَائِرِ يَسْتَخْفِي. وَلَقَدْ عَادَ النَّسْرُ الْآنَ إِلَى وَكْرِهِ، وَأَخَذَهُ رُقَاذُ عَمِيقٍ، فَاسْتَنْسَرَ الْبُغَاثُ وَعَدَتِ الْهَوَامُّ فِي كُلِّ مَكَانٍ. إِنَّ الْمَدِينَةَ هِيَ نَسْرُ النُّبُوَّةِ، فَأَهْبِئُوا بِالنَّسْرِ إِلَى التَّخْلِيقِ لِتَرْتَعِدَ الْهَوَامُّ مِنْ جَدِيدٍ، وَتَنْسَحِقَ فِي الرُّغَامِ أَبَداً.

أَلَا فَانْتُمْ حَفَظَةُ الْوَحْيِ، وَحَامُو ذِمَارِ الرِّسَالَةِ دُونَ الْعَابِثِينَ. أَلَا لَقَدْ آرْتَدَّ الْمُجْتَمَعُ إِلَى جَاهِلِيَّتِهِ الرَّعْنَاءِ، وَلَكِنْ بِأَثْوَابٍ أُخْرَى تَتَمَاوَجُ مِنْ خِلَالِهَا، وَلَيْتَ هَذَا فَقَطْ، إِنَّهُ ضَمَّ إِلَى جَاهِلِيَّتِهِ، قَبْلَ الرِّسَالَةِ، جَاهِلِيَّةَ كُلِّ أُمَّةٍ وَكُلِّ قَبِيلٍ.

أَنْظُرُوا! أَنْظُرُوا! لَقَدْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ عَدُوًّا لِلْمُلْكِيَّاتِ، فَبَشَّرْنَا نَتَقَلَّبُ فِي أَرْدَا أَشْكَالِهَا. وَعَلَّمَ مُحَمَّدٌ ضَرُورَةَ الْحَدِّ مِنْ طُغْيَانِ رِجَالِ الْمَالِ، فَصَارَتْ كُلُّ الْقُوى فِي

أَيْدِيهِمْ. وَأَطْلَقَ مُحَمَّدٌ حُرِّيَّةَ الْفَرْدِ، وَأَعْطَاهُ الْحَقَّ بِالْحَيَاةِ كَيْفَ شَاءَ فِي حُدُودِ الصَّالِحِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْعَامِّ، وَفِي حُدُودِ الْأَخْلَاقِ الْمَسْلُكِيَّةِ وَالضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ الشَّامِلِ، فَإِذَا نَحْنُ نَحْيَا فِي اسْتِعْبَادِ اجْتِمَاعِي مُنْكَرٍ، حَتَّى لَقَدْ تَنَاهَوْا فَانْتَزَعُوا حَقَّ الْحَيَاةِ مِنْ أَيْدِينَا، وَبَاتُوا يُنْعِمُونَ عَلَيْنَا، إِذَا شَاءَتْ شَهَوَاتُهُمْ، بِقَدْرِ حَقِيرِ بَلِيدٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْبَائِسَةِ الشَّقِيَّةِ، وَأَفْضَلُ مِنْهَا الْمَوْتُ خُطَّةً، وَاللَّهِ.

وَضَجَّ الْكِنْدِيُّونَ مِنْ أَطْرَافِ الْجُمُوعِ وَبَيْنَهَا: يَا لِنَارَاتِ حُجْرٍ! وَأَنْطَلَقَ الْمُتَكَلِّمُ الْكُوفِيُّ يَصِلُ مَا أَنْقَطَعَ مُلْتَاعاً مُهْتَاجاً: لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي ثَارَاتُهُمْ مَضْرَعِ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ الْكِنْدِيِّ، وَمَنْ يَجْهَلُهُ؟ لَقَدْ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ أَعْلَامِ الرُّجَالِ، وَنُقْطَةِ الْفَضْلِ مِنْهُمْ، فَقَدْ صَحِبَ النَّبِيَّ وَأَظْهَرَ أَرْوَغَ أَنْوَاعِ الْبَطُولَاتِ فِي فَتْحِ الشَّامِ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ. وَكَانَ مِنْ خَبَرِهِ «أَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمَّا وَلَّى الْمَغِيرَةَ بَنَى شُعْبَةَ الْكُوفَةِ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ، دَعَاهُ وَأَوْصَاهُ بِشَتْمِ عَلِيٍّ وَذَمِّهِ، وَالْعَيْبِ عَلَى أَصْحَابِهِ وَالْإِقْصَاءِ لَهُمْ، وَبِإِطْرَائِ شِيعَةِ عُثْمَانَ وَالْإِذْنَاءِ لَهُمْ وَالِاسْتِمَاعِ مِنْهُمْ. فَأَقَامَ الْمَغِيرَةُ عَامِلاً لِمُعَاوِيَةَ سَبْعَ سِنِينَ وَأَشْهُرًا، لَا يَدْعُ ذَمَّ عَلِيٍّ، وَالْوُقُوعَ فِيهِ، وَالِدُّعَاءَ لِعُثْمَانَ بِالرَّحْمَةِ، وَالتَّزْكِيَةَ لِأَصْحَابِهِ وَالْمُطَالِبِينَ بِدَمِهِ.

فَكَانَ حُجْرٌ إِذَا سَمِعَ ذَلِكَ قَالَ: بَلْ إِيَّاكُمْ فَذَمَّ اللَّهُ وَلَعَنَ... ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ تَذَمُّونَ وَتُعَيِّرُونَ لِأَحَقِّ بِالْفَضْلِ... أَلَا لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ مُعَاوِيَةَ سِيَاسَةً تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ فَهْمٍ جَيِّدٍ لِنَفْسِيَّةِ الْجَمَاهِيرِ، وَعَدَمِ تَعَلُّغٍ بَيْنَ حَنَائِيهَا وَفِي خِلَالِهَا، فَقَدْ كَانَ فِي هَذَا التَّنَقُّصِ مَا يَكْفِي لِيُبْعَثَ الدَّفَائِنُ وَإِذْكَاءُ نَارِ الْحَفَائِظِ إِذْكَاءً جَهَنَّمِيًّا سَاجِرًا، قَدْ يَأْتِي عَلَى أَرْكَانِ الدَّوْلَةِ وَيُطَوِّحُ بِهَا شَرَّ تَطَوَّاحٍ، كَمَا يَجْعَلُ كُلَّ نَفْسٍ تَنْطَوِي عَلَى أَحْقَادِ طَامِسَةٍ دَفِينَةٍ وَتَغْدُو فِي آتِمَارَاتٍ تُرَوِّي بِهَا سَخَائِمَهَا. نَعَمْ هِيَ حِمَاةٌ، وَإِنْ كَانَ يَزْمِي بِهَا إِلَى جُمْلَةٍ غَايَاتٍ:



أ - التَّشْفِي، وتوكيد ما سبق ونشره من دَعَايَاتٍ ضِدَّ عَلِيٍّ فِي الشَّامِ وَسَائِرِ  
مَنَاطِقِ نُفُوزِهِ.

ب - بَثُّ عَقِيدَةٍ سَيِّئَةٍ تَنُمُو مَعَ الْأَيَّامِ لَدَى النَّاسِ فِي الْبَطْلِ الْإِسْلَامِيِّ  
الْحَالِدِ عَلَيَّ، وَفِي بَنِيهِ، وَبِذَلِكَ يَأْخُذُ الطَّرِيقَ دُونَهُمْ إِذَا رَامُوا مُحَاوَلَةً مِنْ نَوْعِ  
الْمُحَاوَلَاتِ الْكُبْرَى، فَقَدْ سَمَّمَ الْجَوَّ عَلَيْهِمْ. وَغَيْرُ خَفِيِّ أَنَّ الْأَرَاءَ وَالْمُعْتَقَدَاتِ إِنَّمَا  
تَنْشَأُ بِالتَّلْقِينِ وَالتَّكْرَارِ وَالْمُعَاوَدَةِ.

ج - تَحْرِيكُ أَنْصَارِ عَلِيٍّ لِلتَّمَرُّدِ وَاسْتِثَارَتِهِمْ لِلشَّعْبِ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ  
وَالدَّوْلَةِ، وَبِذَلِكَ يَجِدُ السَّبَبَ لِادَانَتِهِمْ وَأَخْذِهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، وَهَذَا مَا وَقَعَ  
لِحُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ وَجَمَاعَةِ كُبْرَى هُنَا وَهُنَاكَ.

وَلَكِنْ، رُغْمَ أَنَّهَا تَقْصِدُ إِلَى كُلِّ هَذَا، فَقَدْ كَانَتْ سِيَاسَةً هَوُجَاءَ أُعْشَى  
فِيهَا غُنْصُرُ الْإِنْتِقَامِ وَغَلَبَ عَلَى قَصْدِ السَّلَامِ الضَّرُورِيُّ إِذْ ذَاكَ، لِإِيجَادِ حَالَةٍ تَوَاضِلٍ  
صَحِيحٍ مُخْلِصٍ بَيْنَ الدَّوْلَةِ وَالشَّعْبِ.

وَالْمُغِيرَةُ كَانَتْ، إِلَى ذَلِكَ، حَسَنَ التَّائِي، فَهُوَ يَفْعَلُ مَا يَأْمُرُ بِهِ مَرْجِعُهُ،  
وَيَتْرُكُ لِلنَّاسِ حُرِّيَّتَهُمْ فِي التَّغْلِيْقِ كَيْفَ شَاءُوا. «وَلَمَّا هَلَكَ، سَنَةَ إِحْدَى  
وَخَمْسِينَ، جُمِعَتِ الْكُوفَةُ وَالْبَصْرَةُ لَزِيَادِ بْنِ سُمَيَّةَ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ وَذَكَرَ عُثْمَانَ  
وَأَصْحَابَهُ فَقَرَّظَهُمْ، وَذَكَرَ قَتْلَهُ وَلَعَنَهُمْ، فَقَامَ حُجْرٌ فَفَعَلَ مِثْلَ الَّذِي كَانَ يَفْعَلُ  
بِالْمُغِيرَةِ، وَرَجَعَ زِيَادٌ إِلَى الْبَصْرَةِ، وَوَلِيَ الْكُوفَةَ عَمْرُو بْنُ الْحُرَيْثِ، فَبَلَغَهُ - أَيُّ  
زِيَادًا - أَنَّ حُجْرًا يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ شِيعَةُ عَلِيٍّ، وَيُظْهِرُونَ أَلَهُمْ وَالْبَرَاءَةَ مِنْ مُعَاوِيَةَ  
وَعَمَلِهِ. فَشَخَصَ إِلَى الْكُوفَةِ وَخَطَبَ الْجُمُعَةَ، وَأَطَالَ الْخُطْبَةَ وَأَخَّرَ الصَّلَاةَ، فَقَالَ  
حُجْرٌ: الصَّلَاةُ! فَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: الصَّلَاةُ! فَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ، فَلَمَّا  
خَشِيَ قَوْتَ الصَّلَاةِ ثَارَ إِلَيْهَا وَثَارَ النَّاسُ مَعَهُ. وَلَمْ يَسَعْ زِيَادًا إِلَّا التَّزُولُ وَالصَّلَاةُ  
بِالنَّاسِ، وَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ فِي أَمْرِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ: أَنَّ شِدَّةَ فِي الْحَدِيدِ ثُمَّ

أَحْمِلُهُ إِلَيَّ... فَأَخَذَ زِيَادُ حُجْرًا وَحَبَسَهُ ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ  
سَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ لَا أَقِيلُكَ وَلَا أَسْتَقِيلُكَ، أَخْرِجْهُ فَأَضْرِبُوا عُقْقَهُ... فَقَالَ  
حُجْرٌ لِلَّذِينَ يَلُونَ أَمْرَهُ:

دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ!

قالوا: صَلِّ... فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفَّفَ فِيهِمَا، ثُمَّ قَالَ:

لَوْ لَا أَنَّ تَظُنُّوا بِي غَيْرَ الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ لَأَحْبَبْتُ أَنْ تَكُونَا أَطْوَلَ مِمَّا كَانْتَا، وَلَئِنْ  
لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَضَى مِنَ الصَّلَاةِ خَيْرٌ فَمَا فِي هَاتَيْنِ خَيْرٌ... ثُمَّ قَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنْ  
أَهْلِهِ:

لَا تُطْلِقُوا عَنِّي حَدِيدًا وَلَا تَغْسِلُوا عَنِّي دَمًا، فَإِنِّي أُلَاقِي بِهَا مُعَاوِيَةَ غَدًا عَلَى  
الْجَادَّةِ... ثُمَّ تَتَبَعَ أَصْحَابُهُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرٍ، فَقَتَلَ عُمَرُ بْنُ الْحَكَمِ وَرِفَاعَةُ بْنُ شَدَادٍ  
إِلَى كَثِيرٍ كَثِيرٍ لَا يُحْصَوْنَ.

أَلَا يَا سَبِطَ مُحَمَّدٍ! إِنَّ مَبَادِيءَ مُحَمَّدٍ تُنَادِيكَ، وَقُرْآنَ مُحَمَّدٍ يَهيبُ بِكَ،  
إِلَى الْعَمَلِ، إِلَى الْعَمَلِ السَّرِيعِ، فَلَمْ يَغْدُ فِي الْقَوْسِ مَنْرَعٌ، وَلَا فِي الصَّبْرِ مُعْتَصَمٌ،  
فَقَدْ تَشَقَّقَ الْحِزَامُ عَلَى الطُّبِيِّينَ، بَلْ تَهَرَّأَ مِثْلَ نَسِيلِ الزُّعْبِ.

وَهَبْتُ تُعُولُ أَخْتُ حُجْرٍ بَنِي عَدِيٍّ بِقَوْلِهَا:

تَرْفَعُ أَثْمَارَ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ لَعَلَّكَ أَنْ تَرَى حُجْرًا يَسِيرُ  
يَسِيرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ لِيَقْتُلَهُ كَمَا زَعَمَ الْخَبِيرُ  
تَجَبَّرَتِ الْجَبَابِرُ بَعْدَ حُجْرٍ وَطَابَ لَهَا الْخَوَزَنْقُ وَالسَّديِرُ  
وَأَضْبَحَتِ الْيَلَادُ بِهِ مُحَوَّلًا كَأَنَّ لَمْ يَأْتِهَا يَوْمٌ مَطِيرُ  
أَلَا يَا حُجْرَ حُجْرَ بَنِي عَدِيٍّ تَلَقَّيْتُكَ السَّلَامَةَ وَالشُّرُورُ

أَخَافُ عَلَيْكَ... مَا أُرْدَى عَدِيًّا وَشَيْخًا فِي دِمَشْقَ لَهُ زَيْرُ  
أَلَا يَا لَيْتَ مُحَجَّرًا مَاتَ مَوْتًا وَلَمْ يُنَحَرْ كَمَا نُحَرُّ الْبَعِيرُ  
فَإِنْ يَهْلِكَ فَكُلُّ زَعِيمٍ قَوْمٍ إِلَى هُلُوكٍ مِنَ الدُّنْيَا يَصِيرُ  
وَعَلَى إِثْرِ ذَلِكَ قَامَ قَيْسُ بْنُ فَهْدَانَ يَقُولُ، وَهُوَ مُفْعَمُ الْحُزْنِ كَالَّذِي فَقَدَ كُلَّ  
ذَوِيهِ، أَوْ كُلَّ بَنِيهِ:

يَا مُحَجَّرُ يَا ذَا الْخَيْرِ وَالْأَجْرِ يَا ذَا الْفَضَائِلِ نَابَةَ الذُّكْرِ  
كُنْتُ الْمُدَافِعَ عَنْ ظُلَامَتِنَا عِنْدَ الظُّلُومِ وَمَانِعَ الثَّغْرِ  
كَأَنْتَ حَيَاتُكَ إِذْ حَيَّتْ لَنَا عِزًّا، وَمَوْتُكَ قَاصِمُ الظُّهْرِ  
يَا طُولَ مُكْتَأَبِي لِقَتْلِهِمْ مُحَجَّرًا، وَطُولَ خَزَاةِ الْبَصْدِرِ  
قَدْ كِدْتُ أَصْعَقُ جَارِعًا أَسِفًا وَأَمُوتُ مِنْ جَزَعٍ عَلَى مُحَجَّرٍ  
فَدَمَعْتُ مُقْلَتَا الْحُسَيْنِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ: لَوْلَا بَيْعَةُ سَبَقَتْ  
لَسِرْتُ بِالنَّاسِ، وَتُرْتُ بِالظَّالِمِينَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.  
وَبَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَمْ يَتَفَرَّقُوا بَعْدُ، جَاءَ الْبَرِيدُ بِكُتُبٍ إِلَى الْحُسَيْنِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
عَبَّاسٍ، فَكَانَ هَذَا أَسْرَعَهُمَا إِلَى فَضْلِ الْكِتَابِ. فَإِذَا زِيَادٌ «يَعْتَذِرُ فِي شَأْنِ مُحَجَّرٍ  
وَأَصْحَابِهِ، فَأَلْقَى الْكِتَابَ رَاجِعًا مُرْتَعِدًا وَهُوَ يَقُولُ كَذَبَ! كَذَبَ! ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُ:  
إِنِّي حِينَما كُنْتُ فِي الْبَصْرَةِ كَبَّرَ بِي النَّاسُ تَكْبِيرَةً، ثُمَّ كَبَّرُوا الثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ، فَدَخَلَ  
عَلَيَّ زِيَادٌ فَقَالَ:

هَلْ أَنْتَ مُطِيعِي يَسْتَقِيمَ لَكَ النَّاسُ... فَقُلْتُ: مَاذَا؟

فَقَالَ: أُرْسِلْ إِلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، نَاسٍ مِنَ الْأَشْرَافِ، فَأَضْرِبْ رِقَابَهُمْ، فَإِنَّهُ  
يَسْتَقِيمُ لَكَ الْأَمْرُ... فَعَلِمْتُ أَنَّهُ صَنَعَ بِمُحَجَّرٍ وَأَصْحَابِهِ مِثْلَ مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيَّ».

وكان على المدينة يومئذ مروان بن الحكم، فترقى الخبر إليه، فكتب إلى معاوية «يُعلمه أن رجالاً من أهل العراق قدّموا على الحسين وهم مقيمون عنده يختلِفون إليه... فكتب معاوية إلى الحسين:

أما بعد: فقد انتهت إليّ أمور عنك لست بها حريّاً، إن كانت حقاً فقد أظنك تركتها رغبة فدعها، ولعمرك الله إن من أعطى الله عهده وميثاقه لجدير بالوفاء، وإن أحق الناس بالوفاء لمن أعطى بيعته، من كان مثلك، في خطرك وشرفك ومنزلك التي أنزلك الله بها. وإن كان الذي بلغني باطلاً، فإنك أنت أعدل الناس لذلك. فعظ نفسك، وبعهد الله أوف، فإنك متى تُكرّني أنكرُك، ومتى تكذّني أكذّك. فاتّق شق عصا هذه الأمة، وأن يرُدّهم الله على يدك في فتنه. فقد عرفت الناس وبلوتهم، فأنظروا لنفسك ولدينك ولأمة محمد، ولا يستخفك السفهاء والذين لا يعلمون».

وكان وقع كتاب معاوية عند الحسين، وهو يرى من مهازل الحكم ومآسيه، وقع النار في الهشيم، فما تلبّث حتى كتب إلى معاوية كتابه الخالد الذي كان وثيقة اتهاميّة خطيرة للسلطات العليا، وقائمة إحصاء بالأعمال الاغتياليّة التي ارتكبتها، وكان، إلى هذا، استجواباً وإنذاراً شعبيّاً، قال:

«أما بعد: فقد بلغني كتابك، تذكّر فيه أنه انتهت إليك عني أمور أنت لي عنها راغب، وأنا بغيرها عندك جدير، وأن الحسنات لا يهدي لها ولا يُسدّد إليها إلا الله تعالى.

وأما ما ذكرت أنه رقي إليك عني، فإنه إنما رقاؤه إليك الملاقون المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الجمع، ما أردت لك حرباً ولا عليك خلافاً، وإن كنت لأخشى الله في ترك ذلك منك، ومن الإغذار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين... ألفت القاتل حَجَرَ بن عديّ أخوا كندة وأصحابه المصلّين العابدين، الذين كانوا

يُتَكْرَهُونَ الظُّلْمَ وَيَسْتَفْظِعُونَ الْبِدْعَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظُلْمًا وَعُدُوَانًا مِنْ بَعْدِ مَا أُعْطِيَتْهُمْ الْإِيمَانَ الْمُغْلَظَةَ وَالْمَوَاقِيقَ الْمُؤَكَّدَةَ، جَرَاءَةً عَلَى اللَّهِ وَاسْتِخْفَافًا بَعْهْدِهِ؟ أَوَلَسْتَ قَاتِلَ عَمْرُو أَبِي الْحَقِيقِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ الَّذِي أَبْلَتْهُ الْعِبَادَةُ، فَتَحَلَّ جِسْمُهُ وَأَصْفَرَ لَوْنُهُ، فَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا أَمْنَتْهُ وَأُعْطِيَتْهُ مِنَ الْعُهُودِ مَا لَوْ فَهِمَتْهُ الْعُصْمُ لَنَزَلَتْ مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ؟ أَوَلَسْتَ قَدْ سَلَّطْتَ زِيَادًا عَلَى النَّاسِ يَقْتُلُهُمْ وَيَقْطَعُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَيَسْمُلُ أَعْيُنَهُمْ وَيُصَلِّبُهُمْ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ، كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَيْسُوا مِنْكَ؟ أَوَلَسْتَ قَاتِلَ الْحَضْرَمِيِّ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْكَ فِيهِ زِيَادٌ أَنَّهُ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ، وَدِينُ عَلِيٍّ هُوَ دِينُ أَبِي عَمٍّ الَّذِي أَجْلَسَكَ مَجْلِسَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ شَرَفُكَ وَشَرَفُ آبَائِكَ تَجَسَّمُ الرُّحْلَتَيْنِ، رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ؟

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: أَنْظُرْ لِنَفْسِكَ وَلِدِينِكَ وَلَأُمَّةِ مُحَمَّدٍ، وَآتَّقِ شَقَّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنْ تَرُدَّهُمْ إِلَى فِئْتَةٍ. وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِئْتَةً أَعْظَمَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ وَلَايَتِكَ عَلَيْهَا، وَلَا أَعْظَمَ نَظْرًا لِنَفْسِي وَلِدِينِي وَلَأُمَّةِ مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ أَجَاهِدَكَ، فَإِنْ فَعَلْتُ فَإِنَّهُ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ تَرَكْتُهُ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدِينِي، وَأَسْأَلُهُ تَوْفِيقَهُ لِإِرْشَادِ أَمْرِي.

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: إِنِّي إِنْ أَنْكَرْتُكَ تُنْكِرُونِي وَإِنْ أَكَّدَكَ تَكِيدُنِي، فَكَيْدُنِي مَا بَدَا لَكَ، فَإِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ لَا يَضُرَّنِي كَيْدُكَ، وَأَنْ لَا يَكُونَ عَلَى أَحَدٍ أَضَرُّ مِنْهُ عَلَى نَفْسِكَ. لَأَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ جَهْلَكَ، وَتَحَرَّضْتَ عَلَى نَقْضِ عَهْدِكَ، وَلَعَمْرِي مَا وَفَيْتَ بِشَرْطٍ، وَلَقَدْ نَقَضْتَ عَهْدَكَ بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ الثَّغَرِ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ بَعْدَ الصُّلْحِ وَالْإِيمَانِ وَالْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ، فَقَتَلْتَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا قَاتِلُوا وَقَتَلُوا. وَلَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَّا لِذِكْرِهِمْ فَضْلَنَا وَتَعْظِيمِهِمْ حَقًّا، فَقَتَلْتَهُمْ مَخَافَةَ أَمْرٍ، لَعَلَّكَ لَوْ لَمْ تَقْتُلَهُمْ مِتَّ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلُوا، أَوْ مَاتُوا قَبْلَ أَنْ يُدْرَكُوا.



فَابْشِرُوا يَا مُعَاوِيَةُ بِالْقِصَاصِ، وَاسْتَيْقِنِ الْحِسَابَ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ كِتَابًا لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا. وَلَيْسَ اللَّهُ بِنَاسٍ لَأُخَذِكَ بِالظُّنَّةِ، وَقَتْلِكَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى الثَّهْمِ، وَنَفْيِكَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ دَوْرِهِمْ إِلَى دَارِ الْعُرْبَةِ. مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ خَسِرْتَ نَفْسَكَ وَتَبَرَّزْتَ دِينَكَ، وَغَشَشْتَ رَعِيَّتَكَ، وَأَخْرَبْتَ أَمَانَتَكَ، وَسَمِعْتَ مَقَالََةَ السَّفِيهِ الْجَاهِلِ، وَأَخَفْتَ الْوَرَعَ التَّقِيَّ، وَالسَّلَامَ».

كَانَ جَدِيرًا بِهَذَا الْكِتَابِ أَنْ يُحَرِّكَ فِي هَيْئَةِ الْحُكْمِ ضَمَائِرَهُمْ وَيُرَدِّدَهُمْ عَنْ غَوَايَاتِهِمْ، وَيَضَعُ حَدًّا لِسِيَاسَةِ الدَّمَاءِ، أَوْ عَلَى الْأَقْلُ يُخَفِّفُ مِنْ أَسَالِبِ الْبَطْشِ وَالْاِغْتِسَافِ. فَإِنَّ صِلَةَ الرَّاعِي بِالرَّعِيَّةِ صِلَةُ الْعَاطِفَةِ بِالْمُخْلِصَةِ، وَكُلَّمَا كَانَتْ صِلَةُ الْمَنْفَعَةِ بِالْخَالِصَةِ فَهُنَاكَ يَوْجَدُ أَفْطَعُ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ اللَّصُوصِيَّةِ وَالْاِغْتِصَابِ.

نَعْرِفُ أَنَّ إِحْصَاءَ الْأَخْطَاءِ عَلَى الْمَخْطِئِ يَدْفَعُهُ نَفْسِيًّا إِلَى تَصْحِيحِ الْخَطَأِ، إِلَّا إِذَا بُنِيَتْ النَّفْسُ عَلَى الشَّدُوذِ، كَمَنْ يَتَغَطَّشُ إِلَى الدَّمَاءِ، بِمَا فِيهِ مِنْ وَخْشِيَّةٍ كَامِنَةٍ، فَهَذَا يُجَسُّ بِلَذَّةٍ فِي نَهْرِ الدَّمَاءِ وَإِهْرَاقِهَا، وَتَأْخُذُهُ نَشْوَةٌ خَفِيَّةٌ بِتَرْدَادِهَا وَتَعْدَادِهَا؛ إِلَّا إِذَا اسْتَحَالَ حُبُّ الذَّاتِ إِلَى فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ، فَيَسْتَحِيلُ الْخَطَأُ إِلَى صِفَةِ نَفْسِيَّةٍ ثَابِتَةٍ أَيْضًا، هِيَ قَصْدُ الْخَطَأِ، فَلَا يَزَالُ صَاحِبُهَا يَقْصِدُ الْأَخْطَاءَ وَيَفْعَلُ الْإِجْرَامَ بِمَحْضِ الرَّغْبَةِ فِي تَوْفِيرِ شَهَوَاتِ الذَّاتِ وَتَنْمِيَةِ كِبْرِيَائِهَا.

وَهَذَا مَا قَدْ حَدَّثَ بِالْفِعْلِ فِي حَاشِيَةِ مُعَاوِيَةَ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْكِتَابِ مِنْ أَثَرٍ سِوَى مَا عَبَّرَتْ عَنْهُ رِوَايَةُ التَّارِيخِ أَبْلَغَ تَعْبِيرٍ: لَمَّا قَرَأَ مُعَاوِيَةُ الْكِتَابَ قَالَ:

«لَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِهِ ضَبٌّ - أَيْ حَقْدٌ - مَا أَشْعُرُ بِهِ.

فَقَالَ يَزِيدُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجِبْهُ جَوَابًا يُصَغِّرُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ، تَذَكُّرُ فِيهِ أَبَاهُ بِشَرِّ فَعَلِهِ... وَدَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ:

أَمَا رَأَيْتَ مَا كَتَبَ الْحُسَيْنُ؟



قال: وما هو؟... فَأَقْرَأَهُ الْكِتَابَ، فقال: وما يَمْنَعُكَ أَنْ تُجِيبَهُ بِمَا يُصَغِّرُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ؟ قالَ يَزِيدُ:

أَرَأَيْتَ - يا أمير المؤمنين - رَأْيِي؟ فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ، وقال:

أَمَّا يَزِيدُ فَقَدْ أَشَارَ عَلَيَّ بِمِثْلِ رَأْيِكَ.

قالَ مُحَمَّدٌ: قَدْ أَصَابَ يَزِيدُ.

قالَ مُعَاوِيَةُ: أَخْطَأْتُمَا. أَرَأَيْتُمَا لو أَنِّي ذَهَبْتُ لِعَيْبِ عَلِيٍّ، فما عَسَيْتُ أَنْ أَقُولَ فِيهِ، وَمَتَى ما عِيبُ رَجُلًا بما لا يَعْرِفُهُ النَّاسُ لَمْ يَحْفَلُ بِهِ، ولا يَرَاهُ النَّاسُ شَيْئاً وَكَذَّبُوهُ، وما عَسَيْتُ أَنْ أَعِيبَ مُحْسِنًا، واللَّهِ ما أرى لِلْعَيْبِ فِيهِ مَوْضِعًا؛ قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْهِ أَتَوَعَّدُهُ وَأَتَهَدَّدُهُ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَلَّا أَفْعَلَ.

بَعْدَ هذا لم يَسْعِ الحُسَيْنَ إِلَّا أَنْ يُشْرِفَ كَثِيرًا مِنْ دُنْيَا الْهَيْكَلِ، الَّتِي يَتَحَنَّنُهَا وَيَحْيَاهَا، إِلَى دُنْيَا النَّاسِ الَّتِي تَعُجُّ بِمَجْمُوعَةِ الْأَحْيَاءِ، وَتَخْتَلِطُ وَتَمُورُ بِالْبَغْيِ، يُضْلِحُ مِنْهَا ما وَسِعَهُ إِضْلَاحُهُ وَيَحُدُّ ما آسَتْطَاعَ مِنْ طُغْيَانِ السُّلْطَاتِ عَلَى الْجَمَاعَاتِ وَالْأَفْرَادِ.

وَيَظْهَرُ أَنَّ السُّلْطَةَ، فِي كُلِّ مَكَانٍ، كَانَتْ قَدْ آتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا مِنْهَا جَ عَمَلٍ شاذًّا، فَهِيَ تَسْعَى لِلحِيَازَةِ ما وَسِعَهَا، دُونَ التَّقْيِيدِ بِقَانُونٍ أَوْ نِظَامٍ، فَضَاعَتْ حُقُوقُ الضُّعَفَاءِ ضِياعًا تامًّا، وَأَضْطُرَّ الْأَفْرَادُ إِلَى آسْتِعْمَالِ وَسَائِلِ قُوَّتِهِمْ لِلإِخْتِفاظِ بِحُقُوقِهِمْ، أَوْ دَفْعِ عَادِيَةِ الضَّيْمِ عَنْهُمْ، حَتَّى أَضْطَرُّوا أَحْيَرًا إِلَى إِحْيَاءِ الْوَسَائِلِ الشَّائِعَةِ وَأَعْتِمَادِهَا قَبْلَ نُشُوءِ الْحُكُومَةِ النَّظَامِيَّةِ، مِنْ مِثْلِ ما يُسَمَّوْنَ «جِلْفَ الْفُضُولِ»، وَهُوَ يُعَبِّرُ عَنْ تَكْثِيلِ أَفْرَادٍ، أَوْ جَمَاعَاتٍ، عَلَى وَجْهَةِ نَظَرٍ تَتَعَلَّقُ بِالْخَيْرِ وَحِمَايَةِ الضَّعِيفِ. وَتَكُونُ مِثْلُ هَذِهِ الْوَسَائِلِ ضَرُورِيَّةً فِي غَيْرِ وَسْطِ الْحُكُومَةِ النَّظَامِيَّةِ بِالطَّبَعِ، وَلَكِنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فِي وَسْطِهَا مَغْنَاهُ أَنَّ الْحُكُومَةَ نَفْسُهَا بَاتَتْ

خَطَرًا عَلَى الْأَمْنِ وَالْحُقُوقِ.

«كَانَ بَيْنَ الْحُسَيْنِ وَبَيْنَ الْوَلِيدِ بْنِ عُثْبَةَ، وَهَذَا يَوْمَئِذٍ أَمِيرٌ عَلَى الْمَدِينَةِ، مُنَازَعَةٌ فِي مَالٍ كَانَ بَيْنَهُمَا، فَتَحَامَلَ عَلَى الْحُسَيْنِ فِي حَقِّهِ لِسُلْطَانِهِ. فَقَالَ الْحُسَيْنُ:  
أَخْلِفُ بِاللَّهِ لَتُنْصِفَنِي مِنْ حَقِّي، أَوْ لَا أَخُذَنَّ سَيْفِي، ثُمَّ لِأَقُومَنَّ فِي مَسْجِدِ  
رَسُولِ اللَّهِ، ثُمَّ لِأَدْعُوَنَّ بِحِلْفِ الْفُضُولِ!

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَهُوَ عِنْدَ الْوَلِيدِ: وَأَنَا أَخْلِفُ بِاللَّهِ لَئِنْ دَعَا بِهِ  
لَا أَخُذَنَّ سَيْفِي ثُمَّ لِأَقُومَنَّ مَعَهُ حَتَّى يُنْصَفَ مِنْ حَقِّهِ أَوْ نَمُوتَ جَمِيعًا... وَبَلَغَتْ  
الْمِشُورَ بْنَ مَخْرَمَةَ الزُّهْرِيَّ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَبَلَغَتْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عُثْمَانَ التَّيْمِيَّ  
فَقَالَ: «... وَيُظْهَرُ أَنَّ الْخِلَافَ رُفِعَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَاسْتَضَرَّخَهُ الْوَلِيدُ عَلَى الْحُسَيْنِ، فَكَانَ  
مِنْ مُعَاوِيَةَ تَدْخُلُ، وَكَانَ مِنْهُ مِثْلٌ بِالضَّرُورَةِ إِلَى جَانِبِ الْوَلِيدِ.

«فَقَالَ الْحُسَيْنُ لِمُعَاوِيَةَ: إِخْتَرْ مِنِّي ثَلَاثَ خِصَالٍ، إِمَّا أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي حَقِّي،  
وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّهُ عَلَيَّ، أَوْ تَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ابْنٌ عُمَرُ أَوْ ابْنُ الزُّبَيْرِ، وَإِلَّا فَالرَّابِعَةُ وَهِيَ  
الصَّبْلُ»<sup>(١)</sup>.

قَالَ مُعَاوِيَةُ: وَمَا هِيَ؟

---

(١) الصَّبْلُ فِي أَصْلِهِ مَغْنَاهُ السَّيْفُ، ثُمَّ جَرَى كِنَايَةً عَنِ الْاِتِّخَاذِ بِالشُّدَّةِ وَالْمُقَابَلَةِ بِالْعُنْفِ. وَجِلْفُ الْفُضُولِ هَذَا،  
كَانَ وَسِيلَةً أَنْتِصَافٍ مِنْ غَاشِمٍ أَوْ ظَالِمٍ، وَهُوَ مَوْرُوثٌ مِنْ مَتَاقِيَّاتِ مَا قَتَلَ الْإِسْلَامَ وَاسْتَمَرَّ فِيهِ... يُشَاكِلُ مَا  
يُعْرَفُ الْيَوْمَ بِالْإِضْرَابِ الْعَامِّ بِمَعْنَاهُ الْإِيجَابِيُّ أَيْ الْمَضْحُوبِ بِالْمُقَاوَمَةِ، وَلَيْسَ بِالْمَعْنَى السَّلْبِيِّ فَقَطْ أَيْ الْاِتِّنَاعِ  
عَنِ الْعَمَلِ.

وَالْمَعْنَى الْإِيجَابِيُّ الْمُبَاحُ لَا يَتَلَعَّ دَرَجَةَ الْعُضْيَانِ التَّمَرُّدِيِّ التَّخْرِيْبِيِّ، أَوْ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تُسَمِّيَهُ: الْقَبْقَبَةُ، وَهِيَ فِي  
الْعَرَبِيَّةِ الْأَصِيلَةُ: الْقَعْقَعَةُ بِالسِّنَانِ أَوْ الْأَسْنَانِ... وَأَخْيَيْتُهَا مِنْ قَبْلُ فِي الْأَرْبَعِيَّاتِ لِتَكُونَ مُقَابِلًا لِكَلِمَةِ  
Sabotage الَّتِي هِيَ مِنْ كَلِمَةِ Sabot الْقَبْقَابِ. وَكَانَ الْعَمَالُ فِي مَطْلَعِ مَدِينَتِنَا الصَّنَاعِيَّةِ يَنْتَعِلُونَ الْقَبَاقِبَ  
الْحَشَبِيَّةَ فِي أَثْنَاءِ أَدَاءِ الْعَمَلِ وَمُبَاشَرَتِهِ، فَإِذَا نَقَمُوا لِأَمْرٍ مَا لَجَّوْا إِلَى الْاِسْتِثْكَافِ وَالضَّرْبِ بِالْقَبَاقِبِ عَلَى  
الآلَاتِ إِلَى حَدِّ الْإِثْلَافِ أَوْ الْاِحْيَانِ.

قال: أَهْتِفُ بِحِلْفِ الْفُضُولِ... ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ مُغْضَبًا، فَمَرَّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَئِنْ هَتَفْتُ بِهِ وَأَنَا مُضْطَّجِعٌ لَأَقْعُدَنَّ، أَوْ قَاعِدٌ لَأَقُومَنَّ، أَوْ قَائِمٌ لَأَمْشِيَنَّ، أَوْ مَاشٍ لَأَسْعِيَنَّ، ثُمَّ لَتَنُفَذَنَّ رُوحِي مَعَ رُوحِكَ أَوْ لَيُنْصِفَنَّكَ! فَبَلَغَتْ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لَنَا بِالصَّيْلَمِ... ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ: أَنْ آتَيْتُ فَانْتَقِدْ مَا لَكَ، فَقَدْ آتَيْتُنَاهُ مِنْكَ».

إِنَّ حِلْفَ الْفُضُولِ كَانَ يُعَبِّرُ عَنْ ثَوْرَةِ اسْتِنْكَارٍ مُنْظَمَةٍ غَيْرِ هَائِجَةٍ وَلَا مُتَحَبِّطَةٍ، دَائِمَةُ الْحَيَاةِ دَائِمَةُ التَّرْوِيعِ، يُطْلِقُهَا الشَّعْبُ بِمِقْدَارٍ وَيَضُمُّهَا بِمِقْدَارٍ، يَجْمَعُهَا الصَّالِحُ الْاجْتِمَاعِيُّ كَمَا يَنْشُرُهَا هُوَ أَيْضًا، فِي تَقْدِيرٍ مَوْزُونٍ.

\*

فِي جِسْمِ الْبَاطِلِ حَاوِلَ الْحَقِّ أَنْ يَجِدَ نُقْطَةً يَرْتَكِزُ فِيهَا...  
وَمَا هُوَ حَتَّى أَمْتَدَّ وَتَفَرَّغَ، وَأَخَذَ عَلَى الْبَاطِلِ سَبِيلَ امْتِدَادِهِ...  
فَذَهَبَ فِي ضُمُورٍ شَيْئًا وَرَاءَ شَيْءٍ، وَضَاقَتْ بِهِ الْحَيَاةُ فَلَفَظَتْهُ...  
وَإِذَا بِهِ يَبْحَثُ عَنْ وُجُودِهِ فِي عَرَاءِ الْعَدَمِ، وَهُوَ خِضَمُّ سَرَابٍ لَا يَمُدُّ  
بِالْوُجُودِ...

\*

فِي الْمُحِيطِ الْمِلْحِ يَنْبَثِقُ نَبْعٌ عَذْبٌ يَكُونُ بَيْئَةً لِلَّالَى...  
فَأُغْرِيَ الْمُحِيطُ بِلَالِيهِ قَرَاخَ يَغْتَصِرُ طَبِيعَتَهُ فِي مِثْلِهَا...  
وَلَكِنَّهُ تَمَحَّضَ طَوِيلًا، وَأَنكَشَفَ عَنْ حَصَى تَارَةٍ، وَتَارَةً عَنْ دُنْيَا مِنَ الْمِلْحِ  
الْمَرِيرِ...

\*

في لَوْحِ حَالِكٍ وَقَعَتْ نُقْطَةُ نَورٍ...  
فَنَشَرَتْ أَشِعَّتَهَا، وَكَانَ السَّوَادُ أَكْثَرَ إِظْهَاراً لَطَبِيعَتِهَا، وَإِنْدَاءً لِمَا أَجْتَمَعَ فِي  
وُجُودِهَا مِنْ سَنَى وَسَنَاءٍ...  
وَرَاخَ السَّوَادُ، كُلَّمَا تَغَيَّظَ وَبَالَغَ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهِ، يُضَيِّفُ إِلَى كَوْكَبَةِ الثَّوْرِ  
جِدَّةً إِشْرَاقٍ...

\*

وَكَانَ كُلُّمَا ذَهَبَ يَقُولُ: «أَنَا» يَشْرِقُ بِحَسَبِ الشُّعَاعِ وَأَشْوَاكِ الضِّيَاءِ،  
فَتُحْتَضَرُ كَلِمَتُهُ دُونَ لِسَانِهِ...  
فَلَمْ يَقَعْ فِي سَمْعِ الْحَيَاةِ إِلَّا كَلِمَةً قَالَتْهَا كَوْكَبَةُ الثَّوْرِ، وَمَشَتْ بِهَا الْحَيَاةُ فِي  
التَّارِيخِ، وَرَجَعَتْهَا أَبَدِيَّةُ الضَّمِيرِ...

\* \* \*

## مع أُرَيْنب

هناك على شاطئ دجلة، في زاوية خليج البصرة، كانت الأبلّة<sup>(١)</sup> مهوى  
مُتماجنين ومُتماجنان، ومهبط وحي الهوى والشباب، وملهى كُل فتى وقتاة بلور  
المرح طبيعتهما، ثمّ أطلّ ينظر إلى صورته فيها. وليس في حسّ هؤلاء عن الحياة  
سوى أنّها شيءٌ يحلو ويلهو، كأنداء السحر في شفاء الأقاح والياسمين،  
وكؤلوات الطلّ في حدود الورود والرياحين... فهم يُفنونها سكرى مَرَح ونشوى  
مُجون... ولا يطيفُ بسَمْعِهِمْ سوى نغمات تتناهى مُتلاشياً في هذا القرار:

يا للشباب المَرَح، التّصابي... زوايح الجنّة في الشباب

ففي أعماقهم صوتٌ يهيبُ بهم إلى التّجنّيح في فضاء المراح، والفناء في لا  
وعى الظّرف الغزل... وهل الحياة، من واجهة الشباب، سوى إغراءة تقوم في اللهو  
العابث إلى أخرى تشتوي في المجانة اللاعبة؟! ثمّ هل الدنيا سوى إغراء مُتجلبب  
ياغراء، يُبالغ في أشربه حتّى ليستدني إليه من آخضِر الشباب في قلوبهم بالعُمُر أو  
بالفكر، فيستهوهم، ورُبما آستغواهم أيضاً بما يتنفّس به من خلَب:

إنّ بالحيرة قساً قد مَجَنّ فتَن الرُّهبان فيها وأفتتن

(١) نهر الأبلّة كان مُنثراً مغدوداً في جئات الدنيا الثلاث.

تَرَكَ الْإِنْجِيلَ حِيناً لِلصَّبَا وَرَأَى الدُّنْيَا مُجُوناً... فَرَكَنْ

هَذِهِ قِصَّةُ شَابٍّ آخِضٍ الشَّبَابُ بَيْنَ بُرْدِيهِ بِفِكْرَةِ التَّقْوَى، وَلَكِنَّهُ أَطْلَعَ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ كُوَّةِ الْمَعْبِدِ الْمُتَكَلِّلِ بِالصُّمْتِ الْوَقُورِ، فَرَأَى مَا تَجِيْشُ بِهِ مِنْ إَغْرَاءٍ، وَمَا يَتَمَوَّجُ فِيهَا مِنْ فُتُونٍ، فَأَخَذَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَاسْتَوَتْ طُيُوفُهَا فِي نَاطِرِيهِ، فَاسْتَيْقَظَ شَبَابُهُ الْغَافِي، وَمَشَتْ رُوحُ الشَّبَابِ تَتَرَاقِصُ فِي قَلْبِهِ سَكْرَى.

مَضَى فِي ظَنِّهِ سَاخِرًا... يُجَرِّبُ هَذَا الْمَجُونَ حِيناً فَقَطْ، وَيَزْوِي ظِلْمَةَ الصَّبَا الْمَكْبُوحِ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَحْمِلُ كِتَابَ تَقْوَاهُ... يَبْدَأُ أَنَّهُ رَأَى الدُّنْيَا لَا تَتَكَشَّفُ إِلَّا عَنْ مُجُونٍ. وَكُلَّمَا نَضَتْ ثَوْباً مَسْتَهْ لَمَسَتْهُ فُتُونٌ، وَدَبَّ فِي حَنَائِهِ مِنْ شَوَاطِ الشَّبَابِ طَائِفُ مُجْنُونٍ، فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ رَكَنَ... وَإِذَا فِكْرَةُ التَّقْوَى لَدَيْهِ تَنْقَلِبُ هِيَ التَّجَرِبَةُ، وَيَسْتَنِيمُ مُسْتَرْخِيًّا عَلَى مَتْنٍ مَوْجَةٍ مُزْبَدَةٍ، مِنْ مَجَانَّةِ هَذَا الْوُجُودِ الْمَسْحُورِ. بِهَذَا كَانَ يَتَحَدَّثُ الدَّلَالُ<sup>(٢)</sup> فِي جَمْعٍ مِنْ ظُرَفَاءِ الْحِجَارِ جَمَعَهُمُ التَّصَادُفُ فِي الْأُبُلَّةِ، بَيْنَهُمْ أَشْعَبُ، فَقَالَ لَهُ هَذَا:

مِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّكَ أَبَدًا إِلَّا جَمْعُ الرِّجَالِ إِلَى النَّسَاءِ، وَمَلَأَ الدُّنْيَا بِصَخْبِ الْمَجُونِ وَعَزَبَاتِ الْجُفُونِ. إِنْ كَانَ هَذَا رَأْيُكَ فَعَسَى أَنْ تَضَعَ الْأَقْدَارُ فِي طَرِيقِكَ صَاحِبَنَا الْأَغْرَابِيَّ الشَّوْهَةَ، فَتُمَتِّعَ حَوْبَاءَ قَلْبِكَ بِالْمَجَانَّةِ إِلَيْهِ، أَشْحَنَ اللَّهُ عَيْنَكَ، إِنَّ الْمَجُونَ لَا يَمْلُحُ إِلَّا مَعَ جَمَالٍ أَوْ ظَرْفٍ... فَقَهَقَ الدَّلَالُ، وَأَنْقَلَبَ الصَّخْبُ يُسَائِلُونَ أَشْعَبَ عَنْ خَبْرِهِ فَحَدَّثَهُمْ:

دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَعِنْدَهُ أَغْرَابِيٌّ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، أَشَدَّ مَا يَكُونُ قُبْحًا، مُخْتَلِفُ الْخَلْقَةِ مُشَوَّهًا، فَسَبَّحْتُ مُتَأَفِّفًا، وَزَادَ بِي التَّأَفُّفُ، فَقُلْتُ لِلْحُسَيْنِ: أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي. أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أَسْلَحَ عَلَيْهِ... فَأَبْتَسَمَ يَظُنُّ أَنَّ الْأَغْرَابِيَّ يَعْرِفُنِي بِالْمِزَاجِ

(٢) الدَّلَالُ كَسَحَابِ شَخْصِيَّةٍ فَنِّيَّةٍ غَزَلَةٍ، وَكَانَ يَتَعَاطَى سَمْسَرَةَ الزَّوْاجِ، وَلَهُ أَشْبَهُ مَا يُسَمَّى الْيَوْمَ بِمَكْتَبِ الزَّوْاجِ. رَاجِعْ أَحْبَارَهُ فِي: الْأَغَانِي لِلأَصْفَهَانِيِّ، وَمَحَامِيعِ كُتُبِ الْأَدَبِ كُلِّهَا..



فَيَحْتَمِلُهَا مَتًى.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ مُتَهَكِّمًا: إِنَّ شَيْئًا ... وَمَعَهُ قَوْسٌ وَكِنَانَةٌ، فَقَوَّقَ نَحْوِي  
سَهْمًا، وَوَاصَلَ: وَاللَّهِ لَئِنْ فَعَلْتَ لَتَكُونَنَّ آخِرَ سَلَحَةٍ سَلَحَتْهَا... وَأَنْقَدَحَتْ عَيْنَاهُ،  
وَلَمَسْتُ مِنْهُ الْجِدَّ فِي الشَّرِّ، فَقُلْتُ لِلْحُسَيْنِ: جُعِلْتُ فِدَاكَ. أَخَذَنِي الْقَوْلُجُ وَعُسْرُ  
الْخُرُوجِ! وَطَفِقَ الصَّحْبُ يَضْحَكُونَ فِي رَنِينَ مُتَجَاوِبٍ طَوِيلٍ.

كَانَ يَوْمًا مُفْعَمًا بِسَيْلٍ مِنْ غَرَائِقِ الْفَتَيَانِ وَعَوَانِي الْفَتَيَاتِ، هَذَا النَّيْرُوزُ...  
حَتَّى كَأَنَّ الْحَيَاةَ اتَّخَذَتْ فِيهِ مَعْرِضَهَا، فَأُطْلِعَتْ أَقْصَى مَا فِي إِبْدَاعِهَا الْفَنِّيِّ مِنْ  
آيَاتِ الْجَمَالِ النَّاطِقَةِ بِالْهَوَى، وَالذَّاعِيَةِ بِالْقِيَامِ إِلَى الْحُبِّ، وَالْمُسِيرَةِ بِأَسْرِ السَّحْرِ  
فِي الْعُيُونِ وَالشُّفَاهِ إِلَى فِرْدَوْسِ الْخُلْدِ السَّعِيدِ، وَلَا عَجَبَ، فَتَهَرُّ الْأُبُلَّةُ مَعْدُودُ أَحَدٍ  
مَسَارِحَ الْجِنَانِ عَلَى الْأَرْضِ فِي حِسِّ هَوْلَاءِ.

وَكَانَ يَزِيدُ - الشَّابُّ الطَّرِيرُ الَّذِي بَالَعَ فِيهِ نَزَقُ الشَّبَابِ، وَذَابَ فِي لُعَابِهِ -  
قَدْ ذَهَبَ مَوِغِلًا فِي الصَّخْرَاءِ مُنْذُ حِينَ يَصِيدُ الطُّبَاءَ، وَيَتَّبِعُ آثَارَ السَّوَانِحِ مِنَ الْجَاذِرِ  
وَالْأَرَامِ وَالْوُعُولِ وَالْأَيَائِلِ، كَيْفَمَا ذَهَبَتْ وَأَنْعَرَجَتْ. وَلَذَّتْهُ الْمَطَارِدَةُ وَأَخَذَتْهُ  
نَشْوَتُهَا، فَمَضَى يَلْهُو وَلَا يَأْلُو، وَزُمَرَةُ لَهْوِهِ تَتَّبَعُهُ، إِنَّهُ لَا يُلْوِي عَلَى شَيْءٍ فِي مَدَاهِ.

لَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ جُمُوعِ اللَّاهِنِ فِي نَهْرِ الْأُبُلَّةِ، فَالْتَفَتَ يَضْحَكُ إِلَى  
رِفَاقِهِ مُتَعَجِّبًا: لَقَدْ قَطَعْنَا صَحْرَاءَ الشَّامِ إِلَى الْعِرَاقِ، وَنَحْنُ لَمْ نُدْرِكْ... وَمَالَ يُرْبُتُ  
عَلَى كَتِفِ تِرْوَبٍ مِنْ أَثَرِيهِ ضَاحِكًا مُنْتَشِيًا، وَيَتَأَبَّطُ ذِرَاعَ هَذَا، وَيَدْفَعُ ذَاكَ لَاهِيًا  
عَابثًا. إِنَّهُ يُحِسُّ بِحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَدُنْيَا جَدِيدَةٍ.

رَاحَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْجُمُوعِ وَفِي إِثَرِهِ سَرُجُونَ رَاعِي طُفُولَتِهِ وَصِبَاهُ، وَلَكِنَّهُ وَقَفَ  
فَجْأَةً عِنْدَ سُرَادِقِ مُنِيفٍ، عَرَفَ أَنَّهُ سُرَادِقُ أَمِيرِ الْعِرَاقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامِ الْقُرَشِيِّ.  
فَقَدْ أَخَذَتْهُ بَغْتَةً وَجْهِ غَانِيَةٍ نَصِيفٍ، كَبَغْتَةٍ بَدْرٍ أَنْشَقَ عَنْهُ الْغَمَامُ، وَاسْتَعْرَى دُونَهُ لَيْلٌ

بِهِمْ حَالِكٌ، فَرَجَّ نَفْسَهُ رَجًّا عَنيفًا، وَتَلَبَّسَهُ دُورُ الْجَمَالِ الَّذِي مَالَ يَتَلَاشَى بَطِيئًا  
لِيَتَنَكِّسَ عَنْ غَفْوَةٍ فِي حُبِّ الْقَلْبِ، وَتَلَهَّفَ الْعَقْلُ السَّلِيبُ، تَمُدُّهُ يَقْظَةٌ فِي الْغَرَائِزِ  
الْمُفَعَّمَةِ.

كَانَ فِي خَيَالِهِ وَجْهٌ يَتَنَفَّسُ بِمِثْلِ عَبَقِ الزَّهْرِ، وَعَيْنَانِ تَبْثَّانِ مِثْلَ السَّحْرِ،  
وَشَفَتَانِ تَنْطَلِقَانِ بِمِثْلِ ذُوبِ الْغَرَامِ. وَزَادَهُ بِهَا أَنَّ قَلْبَهَا لَا يَتَجَاوَبُ بِصَدَى عَوَاطِفِهِ،  
فَتَدُورُ عَاطِفَتُهُ نِصْفَ دَوْرَةٍ وَتَتَكَسَّرُ مُتَلَاشِيَةً فَلَا تُتِمُّ دَوْرَتَهَا، بَلْ تَمْحِي رُسُومَهَا فِي  
أَنْبِهَامِ كَالِحٍ، وَغَمُوضِ يَائِسٍ مُتَجَهِّمٍ وَتَعَوُّرٍ فِيهِ ضَجِيجُ الْإِنْتِحَارِ.

وَالْمَرْأَةُ تَزِيدُ فِيهَا جَازِبِيَّةُ الْأُنُوثَةِ نُضْجًا وَرُوءًا إِذَا أَضْحَتْ زَوْجَةً، فَقَدْ  
أَنَحَسَرَتْ أَكْمَامُ طَبِيعَتِهَا الْمُغْلَقَةِ تَنْشُرُ أَرْيَجَهَا كَالزَّهْرَةِ مَيَّاسَةً نَاعِمَةً فِي الْهَوَاءِ.  
إِنَّ الْمَرْأَةَ تُحِسُّ بِشَيْءٍ مُبْهِمٍ، وَهُوَ جَوْهَرَةُ الْأُنُوثَةِ فِي أَقْصَى كِيَانِهَا، فَهِيَ تَرْعَاهُ بِسِيَاحِ  
الْحَيَاءِ وَالْخَفَرِ كَأَنَّهَا تَحْتَضِنُهُ. فَإِذَا آسَتْحَالَتْ زَوْجَةً فَقَدْ آسَتْحَالَتْ الْآنَ فَقَطْ أَثْنَى  
كَامِلَةَ الْمَعْنَى. لَقَدْ أَضْحَتْ لَوْلَاةُ الْأُنُوثَةِ الْحَبِيبَةِ فِي حِقَاقِهَا، وَالْمُنْطَوِيَّةَ عَلَيْهَا  
صَدَفْتُهَا، وَهِيَ حَلِيَّةٌ مَنَشُورَةٌ.

فِيمَا بَعْدُ عَرَفَ يَزِيدُ عَنْ عُرُوسِ أَحْلَامِهِ هَذِهِ أَنَّهَا أُرَيْنِبُ آبَتُهُ إِسْحَقَ الْأَمِيرِ،  
وَسَيِّدَةَ السُّرَادِقِ. فَعَرَضَتْ فِي خَاطِرِهِ كَلِمَاتٌ مُتَقَطَّعَةٌ هَازِيَّةٌ، فَرَاخَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ:  
كَيْفَ لِي بِهَا؟ بَيْنِي وَبَيْنَهَا هُوَّةٌ سَحِيقَةٌ، وَمَسَافَةٌ تَزِيدُ مَعَ الْأَيَّامِ تَنَائِيًا  
وَبُعْدًا...

وَتَلَبَّثَ زَمَنًا لَمْ يَكُنْ بِالْقَصِيرِ، يَرُودُ مَعْنَاهَا وَيُرَاوِدُ قَلْبَهَا، وَلَكِنَّهَا عَرِيَّةٌ  
الْأَغْرَاقِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الشَّابَّ النَّضِيرَ، فَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قَرِينِهَا مَا شَاءَ الْهَوَى الْعَبْقُ، وَمَا  
شَاءَتْ سَعَادَةُ الْأَزْوَاجِ الْخُلَطَاءِ.

بَاتَ كَاسِفًا أَرْقًا يُرَدِّدُ وَلَا يَفْتَأُ:

وفي الحَيِّ نَعْمَ قُرَّةُ الْعَيْنِ وَالْهَوَى وَأَحْسَنُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ نَعْمٍ  
وَتَخَوَّفَ مُرَيِّبِهِ سَرْجُونُ، فَزَيَّنَ لَهُ الرُّجُوعَ إِلَى الشَّامِ لَعَلَّهُ يَسْلُو، فَأَجَابَهُ وَعَادَ  
بَصْحَبِهِ يُرِيدُونَ دِمَشْقَ. وَبَيْنَمَا هُوَ آخِذٌ بِمَحَاجِزِ الصَّحَرَاءِ وَمَفَاوِزِهَا، حَانَتْ مِنْ يَدِهِ  
لَمَسَةٌ وَقَعَتْ عَلَى قَوْسِهِ، الَّذِي فَصَلَ فِي غُدُوِّهِ يَصِيدُ بِهِ الطُّبَاءَ، فَتَذَكَّرَ رِيْمَهُ الَّذِي  
صَادَهُ... فَشَدَّ الْقَوْسَ إِلَيْهِ وَاعْتَصَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فِي ثَوْرَةِ قَلْبٍ:

حَطَّمِ الْقَوْسَ عَلَى صَحْرَائِهِ وَأَتَكِي يَسْقِيهِ مِنْ مَاءِ الشَّكَاةِ  
أَيُّهَا الْقَوْسُ أَنتَ مَثَلٌ مِثْلُ قَلْبِي، حَطَّمْتَهُ الْعَاصِفَاتُ  
وَسَأُحْيِكَ بِمُنْهَلِ الدُّمُوعِ إِنَّمَا دَمْعُ الْحُبِّينَ حَيَاةٌ

لَمْ يَزِدْهُ بُعَاذُهُ فِي دِمَشْقَ إِلَّا كَمَدًا وَأَسَى، وَلَمْ يُورِثْهُ الْهَجْرَانُ إِلَّا لَهْفَةً  
وَجَوَى. شَأْنُ الَّذِينَ يُحِبُّونَ بَغَائِرَهُمْ، فَعَوَاطِفُهُمْ أَبَدًا تَكُونُ عَنِيفَةً مُهْتَاجَةً عَلَى  
الذِّكْرِ، لِأَنسَاهَا وَحْيِ الْأَعْصَابِ... بَيْنَمَا الْعَوَاطِفُ إِذَا كَانَتْ مِنْ وَحْيِ الْقَلْبِ أَوْ  
حَاسَّةِ الْفَرْ، فَإِنَّهَا تَذَكُّو وَتَسْمُو بِالتَّهْفِيفِ الْعَاطِفِيِّ، فَالْحُبُّ الَّذِي يَكُونُ عَامِلَهُ الْقَلْبُ  
أَوْ حَاسَّةُ الْفَرْ، يَذْهَبُ فِي آسْتِحَالَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ: غُدْرِيًّا، فَمِثَالِيًّا؛ بَيْنَمَا حُبُّ  
الْأَعْصَابِ يَشْتَهِي أَعْصَابًا وَجَسَدًا فَقَطْ، يَهْيِجُ بِالْفَرَاغِ، وَيَهْمَدُ بِالْامْتِلَاءِ؛ أَمْتِلَاءِ  
الْيَدِ مِنْهُ.

فَتَنَاهَى «أَمْرُ يَزِيدَ إِلَى ضُمُورٍ» وَسَلَوَى الْمُتَعِ وَالْانْكِمَاشِ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَيِّ  
مَكَانٍ آسْتَمَلَ عَلَيْهِ... فَهَذَا الَّذِي كَانَ يَمْلَأُ الْقَصْرَ لَهَوًا وَمَرَحًا، وَيَقْطَعُ اللَّيْلَ عَزْبَةً  
سَكْرَى، وَيَزِينُ مَعَانِي الْأُنْسِ بِشَاشَةٍ وَحُبُورًا... وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّهِ إِلَّا أَنْ  
يَقْطِفَ مِنْ رِيَاضِ الْغَوَانِي الْكَوَاعِبَ بَاقَاتِ زَنَابِقِ وَوُرُودٍ، وَيَهْتَصِرَ مِنْهُمْ غُصُونًا  
لَدَنَّةً، وَيَعْتَصِرَ عَلَيْهِنَ رُؤْمَانًا شَهِيًّا... غَدَا ذَاهِلًا ذُهُولَ الْمُقْبِلِ عَلَى الْمَوْتِ، ضَاوِيًّا  
كَأَنَّهُ نِضْوُ فَلَاحٍ أَوْ مَنْزُوفُ دِمَاءٍ، حَبِيسَ هَوَىٍّ وَمُبْلَسَ خَيَالٍ، غَيْرَ شَهِيٍّ إِلَى شَيْءٍ

مِنْ مَلاهِيه الَّتِي كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ عَنْهَا صَبْرًا، وَلَهَا مُجَانِبَةٌ، وَفِي أَنْتِهَاجِهَا  
أَحْيَاشًا... حَتَّى أَضْطُرَّ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَزْجِرَهُ فِي رَفْقٍ، وَيَأْخُذَ عَلَيْهِ تَهْتُّكُهُ فِي تَحْيِيلٍ،  
فَقَالَ:

«يَا بُنَيَّ: مَا أَقْدَرَكَ عَلَى أَنْ تَصِيرَ إِلَى حَاجَتِكَ، مِنْ غَيْرِ تَهْتُّكِ يَذْهَبُ  
بُرُوءَتِكَ وَقَدْرِكَ، وَأَنْشُدَهُ:

إِنْصَبْ نَهَارًا فِي طِلَابِ الْعُلَا وَأَصْبِرْ عَلَى هَجْرِ الْحَبِيبِ الْقَرِيبِ  
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ أَتَى بِالْذُّجَى وَاسْتَحَلَّتْ بِالْغَمَضِ عَيْنُ الرَّقِيبِ  
فَبَاشِرِ اللَّيْلِ بِمَا تَشْتَهِي فَإِنَّمَا اللَّيْلُ نَهَارُ الْأَرِيبِ  
كَمْ فَاسِقٍ تَحْسِبُهُ نَاسِكًا قَدْ بَاشَرَ اللَّيْلَ بِأَمْرِ عَجِيبٍ»  
أَمَّا الْيَوْمَ فَهُوَ مُذْنَفٌ كَلِيفٌ مَضْرُوفُ الْهَوَى، لَا يُرَى إِلَّا مُنْتَحِيًا إِلَى نَفْسِهِ،  
فِي ظِلِّ شَجِيرَاتٍ كَانَ يَتَشَهَّى فَيْتَهَا سَاعَةً غَزَلٍ أَوْ طَرْبٍ.

وَكَانَ سَرْجُونُ مُرَيَّيْهِ يُرَاقِبُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَيَلْزِمُهُ دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَوْ يَلْمَحَهُ. فَانْتَهَى  
إِلَى سَمْعِهِ مِنْ نَجْوَى يَزِيدَ لِنَفْسِهِ:

أَوَاهُ، أَرِينِي! يَا مَنْ لَا تَشْعُرِينَ بِوُجُودِي وَآلَامِي وَخَلَجَاتِ قَلْبِي، وَأَرَاكِ مِلءَ  
الدُّنْيَا لَذَازَةً وَمُتَعَةً وَنَعِيمًا، آهَ لَيْتَكَ تَشْعُرِينَ! إِذَا لَكُنْتُ سَعِيدًا.

آه! هَلْ تَصْدُقُ أَحْلَامِي فَأَرَاكِ عِنْدَ يَدَيَّ، تَنْحَنِينَ عَلَيَّ فَتُضَمِّدِينَ جِرَاحَ  
فُؤَادِي، وَتَمْلَأِينَ وُجُودِي إِشْرَاقًا بِأَلْقِ وَجْهِكَ الْعَبْقَرِيِّ الْحُسْنِ. حُلُمٌ سَعِيدٌ، وَلَكِنْ  
دُونَهُ مَفَاوِزَ الْجَحِيمِ الْعَبْقَرِيَّةِ الْأَشْوَاكِ وَالْأَهْوَالِ أَيْضًا. ثُمَّ أَطْرَقَ وَتَنَاهَى بِهِ الْإِطْرَاقُ،  
وَلَيْتَ طَوِيلًا كَأَنَّمَا آبَتْلَعَهُ ضَبَابُ الْمَسَاءِ فِي لَيْلَةٍ رَمَى بِهَا الشِّتَاءُ فِي الْعَاصِفَةِ. عَلَى  
أَنَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ أَخِيرًا، وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي بَرِيقٍ مُخِيفٍ، يَقُولُ:

لا ! لا ! إني لن أنتظر هبة الأقدار حتى تضعها في طريقي وزدة مصوخة ناضبة، إن الضعيف في شرع الطبيعة الحية حمل منهوب، والقوي هو آبن الطبيعة البكر، وقد وهبته، سائغاً زللاً، كل ما استطاعت أن تُلْفَه قُوته، أو يُمِر في جوها. هذه هي الحقيقة القذة التي نراها بين الأدنى الأحياء وأعلاها، من بدِّي النبات إلى رفيع التكوّن؛ الإنسان.

وأما أولئك الذين شرعوا الشرائع والنظم، وحددوا مسير الحي فيما سموه أخلاقاً، فإنهم جبناء ضعفاء وأنانيون أيضاً، قعدت بهم قوتهم عن أن يدركوا أي نصيب من متع الحياة ولذاتها، أو أدركوا نصيباً حقيراً فابتكروا قانون الأخلاق والقانون، وحددوا سعي الأحياء وفقها وعلى طبقها، فأوجدوا لأنفسهم أوفر فرص الحياة الماتعة.

إن هؤلاء أدناً من أن أحترمهم، إنهم ضعفاء مُموهون، خلبوا الناس بأساطيرهم، فيا ويح الجاهلين.

إنهم شأوا العيش على حسابنا نحن الأقوياء، وجيزة النصيب الأوفر أيضاً، ألا كيف يفكر الناس الحمقى الثعساء؟ لا أدري...

إني لا أفهم معنى لهذه النظم سوى أنها سُموم الضعفاء، ينفثونها في جونا، نحن الأقوياء، لنستريح، فيجد الضعف في جو القوة فرصة البقاء.

إن ما أفهم، هو هذا فقط، أن الحياة واللذة والسعادة فرص، والقوة وحدها سبيل الاستحواذ عليها، فالحياة هي القوة.

إن الأسد قد يعف - وهو نهيك جوع - عن الطعام الحقيق الوضيع، لأنه لا يجد فيه لذة القوة، ولكنه لا يعف البتة عن الضراوة، وعن الختل والافتراس أحياناً، وهي مجلى القوة. فالذي تمليه طبيعة الأحياء: قسوة، وبغي، ولذات. هذا ما



نَجْدُهُ كُلُّمَا حَلَّلْنَا عَنَاصِرَ الْحَيَاةِ وَأَنْوَاعَ الْأَحْيَاءِ، فَمَنْ أَمْلَى عَلَى أَوْلَيْكَ الْجُبْنَاءِ  
أَسَاطِيرَهُمْ؟ إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدًا سِوَى الْجُبْنِ وَالْعَجْزِ وَخَوْفِ الْآلَامِ.

وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ

نعم! نعم! إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ!

أَرَيْنِي! أَنْتِ حُلُمٌ سَعِيدٌ، وَقَدْ بَتَّ مُتَعَةً قَرِيبَةً الْمَنَالِ مِنِّي!

أَرَيْنِي! لِيَتَّقُمْ فِي سَبِيلِكَ سُيُولُ الدِّمَاءِ وَرَايَاثُ الْجَمَاجِمِ وَالْأَشْلَاءِ، فَإِنِّي  
سَأَسِيرُ عَلَيْهَا إِلَيْكَ، فِي آبِتْسَامَةِ الْقَسْوَةِ وَقَهْقَهَةِ جَبْرَوَتِ الْبَطْشِ! إِنَّ أَيْنَ الْفَرِيسَةِ  
- وَعِظَامُهَا تَتَقَضُّقُضُ بَيْنَ فَكِّي الْأَسَدِ - يُطْرِبُهُ وَيُشْهِيه، لِأَنَّهُ مَقَاطِعُ مِنْ أَنْشُودَةٍ  
كِبْرِيَاءِ الذَّاتِ وَكِبْرِيَاءِ الْوُجُودِ، فَإِنَّ مَعْنَى نَشِيدِ الْأَيْنِ: أَنْتَ أَنْتَ هُوَ الْجَدِيرُ بِالْوُجُودِ  
وَحَدِّكَ... وَلِذَا كَانَ الْأَسَدُ لَا يَطْعَمُ إِلَّا عَلَى أَلْحَانِ نَائِي الْأَشْلَاءِ.

أَرَيْنِي! أَنْتِ عَرُوسُ أَحْلَامِي، وَسَتُصْبِحِينَ عَمَّا قَرِيبٍ عَرُوسَ لَذَاتِي! فَمَا  
أَجْمَلَهَا نَشْوَةً، وَجِسْمُكَ الْبَضُّ أَهْتَصِرُهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْ الْمُشْتَعِلَيْنِ، وَأَعْتَصِرُهُ فِي وَقْدَةِ  
الضُّلُوعِ الْمُتَلَطِّئَةِ، وَقَوَائِمِكَ يَتَأَطَّرُ وَيَتَشَنَّى تَشَنَّى الْأَفْعَوَانِ، وَيَتَلَوَّى تَلَوَّى الْخَيْرِزْرَانِ.  
فَمَا أُحْيِلِي قُرْبَكَ!... إِنَّهُ دُنْيَا مِنَ اللَّذَاتِ الْعَذَابِ، وَلَوْ لُفَّ فِي جَحِيمِ الْعَذَابِ!

أَرَيْنِي! إِنِّي سَوْفَ أَلْهُو بِكَ أَمَدًا كَالزَّهْرَةِ تَرُودُهَا النَّحَالُ بِتَلْهُفٍ إِلَى  
الْامْتِصَاصِ، ثُمَّ سَيَّانٍ عِنْدِي أَذْكَرْتُكَ أَمْ نَسِيتُكَ بَعْدُ، أَلَسْتَ أَمْرَأَةً، وَالْمَرْأَةُ لُغْبَةٌ  
الرَّجُلِ وَمُتَعَتُهُ فَقَطْ، وَلَا شَيْءَ وَرَاءَهُمَا؟ ثُمَّ أَلَيْسَتْ النِّسَاءُ فِي النَّوْعِ رِيَاحِينَ كَمَا  
قِيلَ، وَهِيَ تَذْهَبُ فِي سَمَاتٍ أَوْ دُونَهَا، وَتَبْلَى فِتْنَتُهَا... فَأَعْتَنِمِهَا فُرْصَةً لَدَاذَةٍ  
كُبْرَى مُعْرَبَدَةٍ، وَأَنْتِ فِيهَا فَوَاحَةٌ بِالْعَبِيرِ.

آه! إِنَّ ظِمَائِي لَا يَزُودُنِي إِلَّا سَيْلٌ مِنْ دِمَاءٍ، إِذَا وَقَفَ فِي وَجْهِي ذَلِكَ الْعِلْجُ  
آبْنُ سَلَامٍ. إِنِّي أَحْسُ بِأَسْنَانِي تَتَأَكَّلُ كَأَنَّ عَلَيْهَا حِكَّةَ جَرَبٍ. إِنَّهَا تَشْتَهِي مُضْغَةً



مِنْ كَيْدِهِ أَلَوْكُهَا! إِنِّي لَأَشْعُرُ أَنَّ فِي أَسْنَانِي أَسْنَانَ هِنْدٍ جَدَّتِي يَوْمَ أُحُدٍ، وَهِيَ تُحْرِقُ الْأُرَمَ عَلَى كَيْدِ حَمْزَةٍ! سَوْفَ أُبَارِزُهُ فَأَقْتُلُهُ أَوْ أُرْصِدُهُ فَأُغْمِدُ فِيهِ وَرَاءَ السَّيْفِ يَدِي.

وَلَمْ يَزَلْ مَعَ طُيُوفِهِ الَّتِي أَخَذَتْ تَتَجَسَّسُ لَهُ، فَبَرَّاهَا قَرِيبَةً مِنْهُ دَانِيَةً إِلَيْهِ، وَكَأَنَّ طَيْفَ آبْنِ سَلَامٍ عَرَضَ لَهُ فِي بَعْضِ الطُّيُوفِ، فَهَبَّ يَخْتَرِطُ سَيْفَهُ، وَقَبَضَ عَلَى قَائِمَتِهِ، وَهَزَّهَ فِي الْهَوَاءِ هَزَّاتٍ، ضَحِكَ فِي إِثْرِهَا ضِحْكَاً عَصِيْبِيّاً، وَفَجْأَةً تَقَلَّصَتْ تَقَاطِيعُ وَجْهِهِ، وَارْتَدَّتْ إِلَى الْوَرَاءِ فِرْعَاءً مُتَعَقِّدَةً الْأَيْدِي يَقُولُ، وَقَدْ عَرَضَ لَهُ طَيْفُ الْعَدَالَةِ: إِنِّي يَزِيدُ! يَزِيدُ الْأَمِيرُ... وَلَكِنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَزِيدُ إِلَى الْوَرَاءِ فِي دُغْرِ يَقُولُ: لَسْتُ، لَسْتُ أَنَا! هِيَ هِيَ أَغْرَثْنِي!... وَغَرَاهُ دُورًا، فَقَدْ أَخَذَتْهُ أَغْرَاضُ حُمَى خَبِيثَةٍ، وَكَانَ يَهْذِي تَحْتَ وَطْأَةِ الدَّاءِ. فَوَجَلَ سَرُجُونُ وَجَلًّا شَدِيدًا، وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُ، وَيَقْطَعَ عَلَيْهِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ خَيَالَاتٍ.

أَفَاقَ بَعْدَ حِينٍ، وَزَايَلَهُ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ هَذَيَانٍ، فَقَدْ تَمَثَّلَ نَحْوُ الشِّفَاءِ وَالْإِبْلَالِ مِنَ الدَّاءِ، وَبَقِيَ فِي تَضَمُّيمِهِ ثَابِتًا: آغْتِيَالُ الرَّجُلِ وَانْتِرَاعُ مَعْشُوقَتِهِ أَنْتِرَاعًا، رَضِيَتْ أُمُّ أَبْتُ. وَعَرَفَ مِنْهُ سَرُجُونُ ذَلِكَ الْعَزَمَ وَخَشْيَ مُجَازَفَتَهُ، فَاسْرَرَ إِلَى وَالِدَتِهِ مَيْسُونَ ابْنَةَ بَحْدَلِ الْكَلْبِيَّةِ بِكُلِّ خَبَرِهِ، فَأَطْرَقَتْ بِرَأْسِهَا، وَقَالَتْ:

فَذَاكَ مَرَضُهُ إِذَا... وَكَانَ يَزِيدُ وَلَيْدَهَا الْأَوْحَدَ الْمُفْدَى، فَلَمْ تُطِقْ آلَامَهُ فِي سَبِيلِ أَمْرَأَةٍ، وَلَمْ تُطِقْ أَلْبَسَةَ لِرَجُلٍ، مَهْمَا كَانَ خَطَرُهُ وَمَنْزِلَتُهُ، أَنْ يَحُولَ بَيْنَ ابْنِهَا وَرَغْبَاتِهِ، فَقَالَتْ تُخَاطِبُ سَرُجُونَ: وَمَنْ هَذَا آبْنُ سَلَامٍ زَوْجُهَا؟  
قَالَ: هُوَ أَمِيرُ الْعِرَاقِ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ... فَانْقَلَبَتْ ضَاحِكَةً، تَقُولُ:

يَكُونُ مِنْ عُمَّالِنَا وَيُقِيمُ لَهُ يَزِيدُ هَذَا الْوَزْنَ؟ إِنَّا نَحْنُ نَرْفَعُهُ أَوْ نَخْفِضُهُ. ثُمَّ هَلْ هُوَ إِلَّا مُنْفَذُ لِرَغْبَاتِنَا عَلَيْهِ، هُوَ صَنِيعَتُنَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ زَوْجَتُهُ إِحْدَى إِمَائِنَا، نَتَصَرَّفُ فِيهِ وَفِيهَا كَيْفَمَا نَهْوَى. إِنِّي لَا أُطِيقُ أَنْ أَرَى يَزِيدَ وَاجِمًا مِنْ أَجْلِ أَمْرَأَةٍ

يَشْتَهِيهَا، وَلَسْتُ أَطِيقُ أَنْ أَسْمَعَ أَنَّهُ يُمْنَعُ عَنْهَا بِالْغَةِ مَا بَلَغَتْ مَنْزِلَتُهَا.  
بَلِّغِ الْمَلِكَ أَنِّي لَا أَطِيقُ أَنْ أَرَى يَزِيدَ مَحْزُونًا يَبْكِي، بَلِّغْهُ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ يَجِبُ  
أَنْ تَكُونَ فِي جُمْلَةِ إِمَاءِ يَزِيدَ يَغْبَتُ بِهَا وَيُلْهَوُ!  
قَالَ سَرْجُونُ: لَعَلَّ زَوْجَهَا لَا يُرْضِيهِ تَرْكُهَا، أَوْ لَعَلَّهَا لَا تَرْضَى هِيَ إِنْ كَانَ  
مِنْهُ ذَلِكَ...

قَالَتْ، وَضَرَبَتْ بِيَدِهَا عَلَى وَسَادَةٍ بِجَنْبِ مَقْعِدِهَا: وَمَا قِيَمَةُ رِضَاكِ أَوْ  
رِضَاكِهَا؟ إِنَّا نُرِيدُ ذَلِكَ وَكَفَى!

فَابْتَسَمَ سَرْجُونُ وَقَالَ: أَظُنُّ الْأَمِيرَةَ لَا تَغْنِي تَمَامًا مَا تَقُولُ، أَوْ لَا تَجِدُ كُلَّ  
الْجِدِّ. فَلَا بَيْنَ سَلَامٍ خَطَرُهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بِذِي خَطَرٍ فَلَا يَسْعُنَا أَنْتِهَاكُهُ أَنْتِهَاكًا  
مَكْشُوفًا، وَتَحَدِّيهِ فِي شَرَفِهِ. وَلَكِنْ نَسْتَأْذِنُهُ فِي غَيْرِ شُعُورٍ مِنْهُ.

قَالَتْ مُتَأَفِّفَةً مُتَبَرِّمَةً وَهِيَ تَهْزُ كَتِفَيْهَا: إِنِّي لَا أَفْهَمُ مَعْنَى لِحْشِيَّتِكَ...  
فَقَالَ، وَتَمَثَّلَ لَهُ عَهْدُهُ فِي بِلَاطِ الْعَسَاسِيَّةِ، وَهُوَ أَكْثَرُ رِعَايَةٍ لِلْحَقُوقِ:  
وَلَكِنَّكَ تَفْهَمِينَ فَقَطْ مَعْنَى خَدَشِ كِرَامَةِ الرَّجُلِ؟

قَالَتْ: إِذَا كُنْتَ تَرَى فِي ذَلِكَ بَأْسًا فَاسْتَأْذِنِي كَيْفَ شِئْتَ، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ يَصِلَ  
يَزِيدُ إِلَى غَرَضِهِ كَيْفَمَا كَانَ، وَلَيْسَتْ تَهْمُنِي الطُّرُقُ الَّتِي سَتَسْلُكُهَا. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ  
تَقَرَّ عَيْنُ يَزِيدَ بِهَا، وَلَا يَعْنِينِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ... فَاسْتَدَارَ سَرْجُونُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَهُوَ  
يَقُولُ:

أَمَّا كَذَلِكَ فَتَنْعَم...

\*

دَخَلَ سَرْجُونُ مَجْلِسَ الْمَلِكِ، وَمِنْ حَوْلِهِ حَاشِيَتُهُ يَتَدَبَّرُونَ أَمْرَ يَزِيدَ، وَمَا

عَسَاهُ أَنْ يَكُونَ طَرّاً عَلَيْهِ. وَبَدَا مُعَاوِيَةُ مُغْتَمّاً، فَهُوَ لَا يُطِيقُ سَمَاعَ أَنْ يَزِيدَ مُكْتَبِبٌ، وَهُوَ يَكُرُّ الْإِمَارَةَ الْمُتَرَعُّ بِالذَّلَالِ، وَفِي قَرَارَةٍ نَفْسِهِ أَنْ يَقَرَّ بِهِ عَيْنًا وَهُوَ وَلِيُّ عَهْدِهِ، كَمَا زَادَ بِهِ ضَنْناً بَعْدَ أَنْ «أَصَابَ مِنْهُ سَيْفُ الْخَارِجِيِّ مَسْرَى الْبَنِينَ».

كَانَ فِيمَا يُسَيِّطِرُ عَلَى الْمَجْلِسِ مِنْ وُجُومٍ، مَا جَعَلَ سَرْجُونَ يَقِفُ طَوِيلاً قَبْلَمَا أَسَرَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِشَأْنِ آبْنِهِ الْبَكْرِ، رُغْمَ قُرْبِهِ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَمَنْزِلَتِهِ الْمَرْفُوعَةِ الْحِجَابِ لَدَيْهِ. وَظَلَّ وَاجِماً هُوَ أَيْضاً، فَقَدْ عَدَّتْهُ رَوْحُ الْمَجْلِسِ، وَسَيَّطَرَ عَلَيْهِ جَوْهُهُ، حَتَّى قَطَعَ الْوُجُومَ عَمَرُو بْنُ الْعَاصِ بِقَوْلِهِ:

وَمَاذَا تَظُنُّونَ أَصَابَتْهُ وَهُوَ فِي جِشْمِ الْفِيلِ وَنَشْطَةِ النَّعِيرِ؟... وَآبَتْسَمَ، لَعَلَّ إِحْدَى غَانِيَاتِهِ الْمُدَلَّلَاتِ فَارَكَّتْهُ وَقَطَعَتْ أَشْبَابَ وَدَّهِ.

قَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا هَذَا يَا عَمَرُو؟

قَالَ: لَمْ يَقَعْ فِي مَدَى خَاطِرِي سِوَى هَذَا، وَعَلَى كُلِّ «فَهُوَ أَمْرٌ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ وَالِدَتِهِ»، لَعَلَّهَا تَنْتَزِعُ مِنْ بَيْنِ شَفَثَيْهِ كَلِمَةً سِرِّهِ الرَّهِيْبِ... وَأَطَالَهَا كَالسَّاحِرِ... وَهُنَا وَجَدَ سَرْجُونَ مُنَاسَبَةَ الْإِفْضَاءِ إِلَيْهِ، فَمَالَ عَلَى أُذُنِهِ يُسَارُّهُ، وَمَا لَبِثَ أَنْ ضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَهُوَ يَقُولُ:

عِنْدَ ظَنِّكَ يَا عَمَرُو، وَلَكِنَّهَا غَانِيَةٌ جَدِيدَةٌ!

قَالَ عَمَرُو: وَإِنْ شِئْتَ قُلْ صَيِّدَةٌ جَدِيدَةٌ... فَأَبَتْسَمَ الْحُضُورُ، وَطَلَبَ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَخْلُقَ بِنَفْسِهِ سِوَى عَمَرُو، فَقَالَ:

مَنْ أُرَيْنَبُ؟ وَهَلْ تَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئاً؟

قَالَ: نَعَمْ، هِيَ مِنْ «أَعْرَقِ الْحِجَارِيَّاتِ نَسَباً، وَأَكْثَرِهِنَّ مَالاً، وَمَثَلٌ فِي الْجَمَالِ بَيْنَ غَرَائِرِ زَمَانِهَا»، كَانَتْ عِنْدَ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَمِيرِ الْعِرَاقِ الْيَوْمَ.

قال معاوية: ترى أنه عزيز علينا اضطياؤها؟

قال: هو ذاك، وأمنع ما تكون.

قال: ولكن كيف برغبة يزيد الحارة، فإنه يحز في نفسي أن يبيت أسفاً، لا يقضي لباتته، ويشبع شهوة نفسه، ويؤذي ظمأ قلبه.

قال: وما هذا؟ أنت أيضاً تسايه في مجونه وعبثه، وما يدريك لعل ما يتظاهر به من كمد هو من حيله على المجون، ومن دلاله على التثويل كي يجعل منا مطايا شهوات وأوطار. إن الناس تحملوا منا ضراوة في السياسة، وضراوة في الأموال، إلى ضراوة وضراوة في الأحكام، ولا أراهم إلا نائرين بنا، إذا جعلنا بيوتهم هدفاً لضراوة شهواتنا أيضاً...

قال معاوية: هو ذاك. ولكن كيف لي بالتروفيه عن يزيد، فإني لا أقدر أن أراه كاسيفاً؟ ألا ففكر معي وتحايل ما وسعتك لباقة الحيلة. ففكراً ملياً وكان عمرو أسبقهما، فهتف: لقد وجدتها، وإن كان فيها تسخيرك إيتاي حتى ل شهوات ولدك أيضاً.

قال معاوية بغبطة: هات! هات! وعساها أن تكون من وحي شيطانك يوم صفين، وخدعة كخدعة رفع المصاحف... يعني موفقة...

قال عمرو: أتأخذها علي وبها أنقذتك وبؤأتك عرشك، وجمعت بها عليك ما هو مجتمع في يدك من أسباب الملك، ومحتبك عليك من مظاهر السلطان؟ قال: كانت من أجل دُنيا جزيناك عليها بدنيا، وما أظنني بخسك الأجر. وكسر جفن عينه اليسرى، وكان لا يفعل هذا إلا «وهو يتحدى» وما يجهل عمرو منه ذلك.

فقال وشملته رهبة: رؤيدك، إنني لا أتحداك وإنما ظننتك تغمر علي...

فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَدْ أَدْرَكَ سِرَّ رَهْبَتِهِ، وَقَالَ:

لَكَ الْعُتْبَى يَا عَمْرُو حَتَّى تَرْضَى. وَهَلْ مِثْلُكَ يُنَحِّسُ قَدْرُهُ وَيُرَوِّعُ؟ وَإِنَّمَا قَصَدْتُ مَدَاعِبَتَكَ فَلَا تَثْرِبَ عَلَيْكَ. لَطَالَمَا خَدَمْتَ آلَ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَسْتُ أَنْسَى بِالْأُمْسِ كَيْفَ أَنْقَذْتَنِي وَكَانَتْ لَكَ يَدٌ عِنْدِي، وَأَنَا أَعْرِفُ الْيَوْمَ تَأْتِيكَ لِإِنْقَاذِ يَزِيدَ وَلَدِي، وَهِيَ يَدٌ لَكَ عِنْدَهُ لَيْسَ يَنْقُضُهَا.

قَالَ عَمْرُو: حُمَادَاكَ، فَإِنِّي عِنْدَ ظَنِّكَ... رَأَيْتُ أَنْ تَسْتَدْرِجَ ابْنَ سَلَامٍ بِالْأَلطَافِ «وَكَرَائِمِ الْأَمْوَالِ وَالْخَلِيعِ»، وَثَرِيَّةَ جَانِبِ الْوُدِّ مِنْكَ، وَتُغْرِیَهُ بِزِيَارَتِكَ وَالْقُدُومِ عَلَيْكَ...

قَالَ مُعَاوِيَةُ: وَبَعْدُ؟

قَالَ عَمْرُو: ذَلِكَ عَلَيَّ حِينَهُ...

\*

فَصَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ مُدِ اقْتَرَنَ بِأُرَيْنَبَ، وَهُوَ يَرَى حُلْمَ سَعَادَتِهِ يَنْتَشِرُ لِيَجْتَمِعَ فِي حُدُودِهَا، فَأَحْلَاهَا مِنْهُ مَحَلَّ الْقَلْبِ، فَكَانَ إِذَا خَلَا إِلَى قَلْبِهِ وَجَدَ أُرَيْنَبَ، وَإِذَا خَلَا إِلَى أُرَيْنَبَ وَجَدَ قَلْبَهُ. وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ لَهَا: لِيَخِيلُ إِلَيَّ أَنَّكَ لَسْتَ سِوَى قَلْبِي مُصَوَّرًا، وَشَاءَ أَنْ يَتَجَسَّدَ فِي شَكْلِ بَنَاتِ الْخُلْدِ، فَيُرِيَنِي كَمَ هُوَ سَعَادَةٌ، وَكَمَ يَجِبُ أَنْ أَكُونَ بِهِ سَعِيدًا. لَوَدِدْتُ يَا أُرَيْنَبُ أَنَّي أَتَحَوَّلُ هَالَةً فِي أَبَدِيَّةِ عَيْنَيْكَ الْفَاتِنَتَيْنِ... أُرَيْنَبُ! آه أُرَيْنَبُ!...

آه! يَا مَا أَسْعَدَ الْأَزْوَاجَ إِذَا كَانَ لِكُلِّهِمْ مِثْلُ أُرَيْنَبُ!...

وَكَانَتْ أُرَيْنَبُ لَا تَقِلُّ عَنْهُ إِحْسَاسًا بِسَعَادَتِهَا بِهِ، فَقَدْ عَاطَتْهُ مِنْهَا أَيْضًا مِثْلَ عَوَاطِفِهِ فَقَالَتْ: أَوْ قُلْ مَا أَسْعَدَهُنَّ حَقًّا إِذَا كَانَ لِكُلِّهِنَّ مِثْلُ عَبْدِ اللَّهِ.

قالت له صباح يوم، وقد قَطَفَا أَوَّلَ إِشْرَاقَةِ مِنْ شُعَاعَةِ الشَّمْسِ: لا أَذْري  
لماذا؟ لماذا يُعاوِدُنِي في أَقْصَى هَوَاجِسِي العَمِيقَةِ الخَفِيَّةِ مُنْذُ لَيْالٍ، أَتُكِّ لَمْ تَعُدْ لِي،  
وتَعْتَادُنِي طُيُوفَ خَبِيْثَةٍ أَظْلَمُ مِنْهَا فِي رَهْبَةٍ؟ وتَعَلَّقْتُ بِهِ. إِنِّي خَائِفَةٌ.

تَرَفَّرَتْ فِي عَيْنَيْهَا دَمْعَتَانِ كَبِيرَتَانِ، تَرَاخَتْ إِحْدَاهُمَا سَاقِطَةً، وَاسْتَمْسَكَتِ  
الْأُخْرَى مُتَبَلِّوْرَةً بَيْنَ جَفْنَيْهَا اللَّذَيْنِ كَانَا فِي نِصْفِ إِغْمَاضَةٍ، فَأَهْوَى يَضُمُّهَا إِلَيْهِ  
ضَمًّا عَنيفًا كَأَنَّهُ يُحَازِرُ، فَقَدْ عَرَاهُ مِثْلُ هَاجِسِهَا أَوْ شَرٌّ مِنْهُ، عَرَاهُ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ  
يُحَاوِلُ اخْتِطَافَهَا، فَهُوَ يَشُدُّهَا إِلَيْهِ، يَضُرُّ بِهَا وَيَفْتَدِيهَا.

اسْتَوَيَا فِي مَقْعَدِهِمَا، ثُمَّ لَمْ يَخْطُوا إِلَّا قَلِيلًا فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ، حَتَّى اسْتَأْذَنَ  
حَامِلُ الْبَرِيدِ يُسَلِّمُهُ كِتَابَ الْمَلِكِ.

اسْتُطِيرَ فَرَحًا، وَاسْتَخَفَّهُ الْإِنْعَامُ الْمَلِكِيُّ عَلَيْهِ، وَكَانَ مُفَاجِئًا حَتَّى لَقَدْ ذَهَلَ  
عَنْ أَنَّهُ يُغَادِرُ زَوْجَتَهُ الْخَفِيَّةَ عِنْدَهُ، دُونَ أَنْ يُلْقِيَ عَلَيْهَا نَظْرَةً وَامِقَةً تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ  
سَيَعُودُ إِلَيْهَا، بَعْدَ مُتَعَةٍ قَصِيرَةٍ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا أُهْدِيَ إِلَيْهِ.

وَقَفَتْ تَنْظُرُ بَاهِتَةً وَعَاوَدَتْهَا هَوَاجِسُهَا. فَلَمْ تُطِقْ وَقُوفَهَا طَوِيلًا، فَانْتَشَتْ إِلَى  
مَقْعَدِ قَامَتْ مِنْ فَوْقِهِ مُتَعَانِقَاتُ «البواري» فِي شَكْلِ جَعَلٍ مِنْهُ وَكَانَ عَاشِقِينَ أَوْ  
طَيْرِي حُبِّ. وَقَالَتْ تُنَاجِي نَفْسَهَا: آه! لَقَدْ وَقَعَ مَا كُنْتُ أَهْجِسُ بِهِ فِي خَاطِرِي،  
وَالَّذِي كَانَ يَحِيكُ فِي صَدْرِي مِنْ وَساوسٍ؛ لَيْتَ الْهَدَايَا الَّتِي اسْتَخَفَّتُهُ كَانَتْ عِنْدَ  
قَدَمِي لِأَطَاها مُسْتَخَفَّةً بِأَنْفَسِ مَا فِيهَا، وَلَا أَقْطَعُ عَلَى نَفْسِي لَحْظَةً قَلْبٍ كَانَ يَخْفِقُ  
فِيهَا بِمَعْنَى الْحُبِّ، وَهُوَ كُلُّ الْحَيَاةِ وَكُلُّ السَّعَادَةِ...

أَتَشْغَلُهُ عَنِّي هَدَايَا حَقِيرَةٌ؟ مَهْمَا بَلَغَتْ نَفَاسَتُهَا، فَلَنْ تَكُونَ إِلَّا حَقِيرَةً  
بِجَنْبِ مَا هُوَ دُونَ حَسَوَةِ طَائِرٍ مِنْ نَشْوَةٍ مَا كُنَّا فِيهِ، بَلْ بِجَنْبِ خَلْجَةٍ رَاعِشَةٍ مِنْ  
تِلْكَ الْخَلْجَاتِ الْمُفْعَمَةِ...



الآن فقط، بدا لي طفلاً تفتنه لعبة عن لعبة، ويأخذ أيما وقع عليه بكل بصره. لم يكن إذاً إلا طفلاً، ولم أكن، كل هذا الوقت، سوى لعبة كبيرة يلهو بها دمية، ودمية حية تمتع قلبه البارد بحرارة أنفاسها المنداة... وهؤلاء الذين يرون المرأة دمية ذات حرارات، هم باردو القلوب، وإنما يطلبون فيها الاضطلاء والدَّفء فقط، أما أنا، وأحس بقلبي مشتعلًا، فأريد قلباً مشتعلًا أيضاً يفنيان على بعضهما في تلهب جميعاً...

أف للرجل! إنه طفل في حس القلب ولا يزيد، ثم لا يشعر من العاطفة إلا على مقدار العبث، وليست للأشياء قيمة عنده، إلا على قدر ما تملك من إحياء اللهو عليه وتشيعه فيه.

لا، لا لست أَرْضَى أن أكون عنده متاعاً صنو هذه الهدايا، بل خيّل إليّ أنني أحتقر منها في نظره. فعاذرني يخف إليها، ولم يترك، عند موقفنا، نظرة أشغل بها حتى يؤوب، إنها أخذت بكل هواه، حتى لم أعد شيئاً أذكر...

أف للرجل! إنه في دنيا القلب طفل، وأيضاً طفل ذو طبع بليد خشن...

يا لك من هدايا مشؤومة! إنك هدايا فيك كل ما في السموم من روح، وكل ما في الأفاعي من معنى مخيف ووجود راعب... وما يدريني فلعلها حبايل وشباك منسوجة من حُمات العقارب وأوبارها... وما هو حتى رآته مُقبلاً مُغتبطاً، تشيع الابتسامة المشعة الضاحكة في وجهه، يحمل بين يديه كرائم الجواهر وعقود اللآلئ البعيدة الشطوع، المتماوجة بالسنى والسناء، يقول وهو يقلبها في كفيه:

إليك! إليك! لقد جاءت كأنها تقول: كنت جوهرة يتيمة حتى وجدتك! أما تسمعين؟ أما تسمعينها؟... وراح في نشوة ضاحكة، ولكنها ظلت جامدة لا تحير جواباً. فبهت وعراه خدر كالذهول، فاسترخى كفاه، وتساقط ما استوى

عَلَيْهِمَا مِنْ دُرِّي الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَهُوَ لَمْ يُحِسَّ. وَكَانَتْ تَنْظُرُ وَتَرَى، فَأَلَمَتْ بِمَا عَرَاهُ فَأَغْتَبَطَتْ، وَلَمْ تَلْبَثْ حَتَّى أَخَذَتْهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا نَشْوَى.

عِنْدَ شُرْفَةِ الصَّبَاحِ، بَعْدَ أَيَّامٍ، حَيْثُ كَانَا وَاقِفَيْنِ يَنْظُرَانِ إِلَى الْأُفُقِ الْبَعِيدِ، قَالَ، وَهُوَ يَحْسِبُ بَعْضاً مِنْ أَنْفَاسِهِ الَّتِي أَحَسَّ أَنَّهَا تَخْرُجُ جُمْلَةً ثُمَّ لَا تَعُودُ:

لَعَلِّي لَا أَغِيبُ عَنْكَ طَوِيلًا، وَسَوْفَ... قَالَتْ مُرْتَعِدَةً:

تَغِيبُ عَنِّي؟ مَاذَا تَقُولُ؟ وَإِلَى أَيْنَ؟

قَالَ: رَأَيْتُ مِنْكَ، يَوْمَ الْهَدَايَا، أَنَّكَ غَيْرُ مُغْتَبِطَةٍ فَلَمْ أُخْبِرْكَ. جَاءَ فِي كِتَابِ الْمَلِكِ أَيْضًا أَنَّهُ يَغْزِمُ عَلَيَّ بِالْحُضُورِ، وَلَا أَذْرِي لِمَذَا؟ هَدَايَا مُفَاجِئَةٍ وَدَعْوَةٌ مُفَاجِئَةٌ! وَلَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّ سَعَادَتِي بِكَ جَذَبَتْ إِلَيَّ سَعَادَةً أُخْرَى... وَرَبَّتْ عَلَى كَتِفِهَا.

إِنْتَفَخَتْ أَوْدَاجُ أَرِينَبَ، وَغُصَّتِ الْكَلِمَاتُ فِي حَلْقِهَا، وَلَكِنَّهَا حَوَّلَتْهَا كَأَنَّهَا تَلُوكُ حُرُوفَهَا لَوْكََا:

أَيُّهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا فَإِنَّ مَا تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

فَقَالَ يُدَاعِبُهَا: هَذَا قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ يَزُثِي بِهِ. وَهَا أَنَا فَجُئْسِي يَدِي... قَالَتْ، وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى فَمِهِ تَأْخُذُ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْاسْتِمْرَارِ، فَقَدْ أَرْهَبَهَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ظَنُّهُ وَلَوْ مُدَاعَبَةً:

إِنِّي لَسْتُ أَرُثِي سِوَى نَفْسِي إِلَى نَفْسِي... وَحَاوَلَ الْكَلَامَ فَقَطَعَتْهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهَا: لَسْتُ مُغْتَبِطَةً بِسَفَرِكَ، وَبِوَدِّي أَنَّكَ لَا تَذْهَبُ، بَلْ بِوَدِّي أَنْ تَرُدَّ عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَتَعْتَرَلَ. فَلِي مِنْ أَمْوَالِي الْكَثِيرَةِ وَدُنْيَايَ مَا يُغْنِيكَ عَنْ أَمْوَالِهِ وَدُنْيَاهُ، وَلَكَ مِنْ سَيَادَتِكَ وَنَشَبِكَ مَا يُغْنِيكَ عَنِ التَّسَوُّدِ بِهِ.

إِنَّهُ يُرْهِبُنِي! إِنِّي لَا أَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ، وَبِهِ تُحِيطُ عِصَابَةٌ لَا أَذْرِي لِمَذَا أَنْعَتْهَا...

إِنْتَزَعَتْهَا مِنْ لِسَانِهَا كَلِمَةً: إِنَّهَا دَمَوِيَّةٌ تَجْرِي وَرَاءَ شَهَوَاتِ حُمْرَاءَ، ثُمَّ لَا يَحُولُ بِهَا عَنْهَا شَيْءٌ مِنْ عَارِفَةٍ أَوْ قَانُونٍ.

قَالَ: هُوَ ذَاكَ؛ وَلَكِنِّي لَا أَذْرِي كَيْفَ أُرْذُ عَلَيْهِ. إِنَّ هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَصِيرَاتُ الْمَدَى، أَعُودُ إِلَيْكَ عَلَى أَثَرِهَا، وَأَصِيرُ إِلَى رَغْبَتِكَ بِاعْتِزَالِ عَمَلِهِ... وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ تَرْغَبُ إِلَيْهِ أَنْ لَا يَزْحَلَ، وَحَانَتْ مِنْهَا لَفْتَةٌ فَرَأَتْ أَفْرَاسَ الْبَرِيدِ جَاءَتْ تَحْمِلُهُ؛ فَلَمْ تُطِقْ تَرَاهُ يَسِيرُ، فَذَهَبَتْ تَدْفِرُ وَجْهَهَا فِي رَاغِبَتِهَا، وَتُجْهِشُ كَأَنَّمَا هِيَ مُنْخَرِطَةٌ فِي نَشِيجِ مَرِيرٍ، وَرَدَّدَ عَبْدُ اللَّهِ، وَقَدْ تَمَادَى بِهِ الْمَسِيرُ، وَلَفَّهُ قَتَامُ الرُّكْبِ.

وَكَمْ تَشَبَّهَتْ بِي يَوْمَ الرَّحِيلِ ضُحَى وَأَذْمَعِي مُسْتَهْلَاتٍ وَأَذْمَعُهُ  
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمَرًا بِالْكَوْخِ مِنْ فَلَكَ الْأَزْوَارِ مَطْلَعُهُ  
وَدَّعْتُهُ وَبَوْدِي لَوْ يُودِّعُنِي صَفْوُ الْحَيَاةِ، وَأَنِّي لَا أُودِّعُهُ...

\*

كَانَ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ، بَعْدَ أَيَّامٍ لَمْ تَكُنْ طَوِيلَةً، فِي غَيْرِ حِسِّ أَرْيَنِبَ وَحِسَابِ  
عَبْدِ اللَّهِ، فَتَلَقَّاهُ بِالْأَلْطَافِ وَالْأُنْسِ النَّاعِمِ، فَعَجِبَ كَثِيرًا وَفَكَّرَ كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ  
لِوَجْهِ الْأَمْرِ، وَتَحَيَّرَ بِهِ تَقْدِيرُهُ، فَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَى أَيِّ وَجْهِ أَنْصَرَفَ إِلَيْهِ. يَتَدَّ أَنْهُ مَعَ  
ذَلِكَ كَانَ مُغْتَبِطًا، وَتَزَايَدَ بِهِ الْاِغْتِبَاطُ إِزَاءَ مَا يَلْقَى مِنْ حَفَاوَةٍ وَاحْتِرَامٍ وَرِعَايَةٍ مَقَامٍ،  
حَتَّى لَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ بِشَيْءٍ إِلَّا أَنَّهُ مَخْلُوقٌ جَدِيدٌ لَا عَهْدَ لَهُ بِالزَّمَنِ.

لَمَسَ صِدْقًا فِي كُلِّ مَا يَلْقَاهُ مِنْ مَظَاهِرٍ، وَبَاتَ آمِلًا بِشَيْءٍ لَمْ يَذَرِ كُنْهَهُ، إِلَّا  
أَنَّهُ وَجَدَ بُشْرَى عَلَى أَيِّ حَالٍ. لَمْ يَكُنْ يُرَى إِلَّا مَدْعُوًّا إِلَى مَجَالِسِ أُنْسٍ مُعَاوِيَةَ،  
وَأُنْدِيَةِ السَّمَرِ الْعَزَلِيَّةِ، وَإِلَّا مُنْتَشِيًا عَلَى مِثْلِ الطُّيُوشِ فِي لِيَالِي الْقُصُورِ الشَّرْقِيَّةِ  
الْمَاجِنَةِ، الَّتِي كَانَتْ ذَاتَ نَسَبٍ قَرِيبٍ بِلِيَالِي أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيمَا بَعْدُ، الْغَارِقَةِ فِي أَحْلَامِ  
الشَّهَوَاتِ الْمُعْرَبَةِ.

إِسْتَيْقَظْتُ فِي نَفْسِ ابْنِ سَلَامٍ صَبُوءٌ لَمْ يَكُنْ يَعْهَدُهَا، صَبُوءٌ مِنْ نَوْعِ  
الصَّبُوءِ الْحَادَّةِ، فَلَمْ يَعْذُ يُفَكِّرْ فِي مَدَى انْطِلَاقِهَا إِلَّا بِإِزْوَائِهَا، وَدَارَتْ فِيهِ نَهْمَةٌ  
كَأَنَّهَا أَنْفَطَرَتْ مِنْ طَبِيعَةِ الظَّمَأِ. فَقَدْ هَبَطَ مِنْ فِرْدَوْسِ الْحُبِّ الْقَلْبِيِّ السَّعِيدِ،  
أَنْبَعَثَتْ حَيَاشَةٌ عَلَيْهِ، نَزَوَاتٌ كَانَ يَكْبُثُهَا الْقَلْبُ فِي نَشْوَاتِهِ الْعَبَقَرِيَّةِ الْإِلْتِهَابِ،  
الْمُتَلَطِّئَةِ بِالشُّعْلِ الْحَمْرَاءِ.

كَانَ فِي هَذَا الْجَوْ الحَمَرِيِّ اللَّذَاتِ الْمَهْوُودِ بِخَمَائِلِ الشَّهَوَاتِ، مَا أَحَالَ  
أُرَيْنَبَ، فِي جَوْ نَفْسِهِ، إِلَى ذِكْرِى مِنَ الصَّبَابِ لَمْ تَزَلْ تَتَلَبَّدُ وَتَحْتَجِبُ، وَعَادَ لَا  
يَذْكُرُ إِلَّا مَا هُوَ فِيهِ، وَتَمَنَّى لَوْ طَالَ أَمَدُ هَذِهِ الْمُتَعَةِ اللَّازُورْدِيَّةِ فِي لِسَانِ اللَّهَبِ،  
وَتَشْهَى أَنْ لَا تَنْقُضِي، وَكَانَ مِنْذُ قَرِيبٍ لَا يَسْتَطِيعُ سَاعَةً بُعَادٍ عَنْ أُرَيْنَبَ مَهَاتِهِ  
النَّابِضَةِ بِالطُّهْرِ فِي وَثَبَاتِ الْحُبِّ الْقَلْبِيِّ الْخَالِصِ...

إِنَّهُ أَسَفٌ مُنَحْدِراً إِلَى مُحِيطٍ مِنَ الْحَمَاءَةِ الْبَعِيدِ الْقَرَارِ، وَأَضْفَتْ عَلَى نَاطِرِيهِ  
الْوُحُولُ فَلَمْ يَعْذُ يَرَى، وَأَتَمَّا بَاتَ يُحِسُّ فِي طَرَاوَةِ الْوُحُولِ نُعُومَةَ الزُّبْدِ، فَرَاخَ يَهِيْمُ  
فِي خَيَالِ الْوُحُولِ.

إِنَّ الْحُبَّ فِي حَقِيقَتِهِ رَغْبَةٌ بِالْإِسْتِحَالَةِ، وَيَتَغَيَّرُ آخَرُ رَغْبَةٍ فِي التَّحَوُّلِ،  
وَلِمَكَانِ الشُّعُورِ بِوُجُودِ الذَّاتِ يَذْهَبُ الْكَائِنُ، إِذَا صَدَّمَ مَشَاعِرَهُ أَنْفِعَالٌ خَدِرٌ  
كَأَنْفِعَالَاتِ اللَّذَّةِ عَلَى أَنْوَاعِهَا، يُحَاوِلُ الْإِسْتِحَالَةَ بِهَذَا الْإِنْفِعَالِ إِلَى وُجُودِ شُعُورِيٍّ  
آخَرَ، وَلَا يَزَالُ يُبَالِغُ، تَحْتَ تَأْثِيرِ هَذَا الْإِنْفِعَالِ الَّذِي يَتَزَايَدُ وَضُوحاً، رَغْبَةً بِالْإِسْتِحَالَةِ  
حَتَّى يَطْلُبَ مُلَاشَاةَ كِيَانٍ فِي كِيَانٍ، حِينَمَا تَسْتَوِي هَذِهِ الرَّغْبَةُ فِي الْأَعْصَابِ،  
وَكُلَّمَا زَادَتْ تَمَكُّناً وَآسْتَوَاءً زَادَ الْكَائِنُ نَهْمًا، وَهَذَا الشُّعُورُ هُوَ الَّذِي أَنْطَقَ ابْنُ  
الرُّومِيِّ بِقَوْلِهِ:

أُعَانِقُهَا وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إِلَيْهَا، وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِي؟

وَأَلَيْتُمْ فَاها كَي تَزُولَ صَبَابَتِي فَيَسْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيْمَانِ

كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ تَمْتَرِجَانِ

فالحُبُّ البقائِيُّ، أو الزَّوْجِيُّ، رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةِ في الولَدِ، والحُبُّ الاستِغلايُّ رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةِ في العَاطِفَةِ في الذَّاتِ العَلِيَّةِ؛ في الرِّبَّانِيَّةِ في اللَّهِ، والحُبُّ الشَّهْوِيُّ رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةِ في الشَّهْوَةِ.

وإذا كانت رَغْبَةُ الاستِحَالَةِ في كُلِّ الوجودِ، ففي طَبِيعَةِ الوجودِ إذا طَبِيعَةُ الحُبِّ، بَلِ البَقَاءُ لِحَظَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ مِنْ رَغْبَةِ الاستِحَالَةِ، وَاسْتِحَالَاتٍ بِالْفِعْلِ، فإذا انْقَطَعَتْ تَقَلَّصَتْ أَسْبَابُ البَقَاءِ، وَذَهَبَ مُضْمَحِلًّا.

تَمَلَّكَ آبَنَ سَلَامٍ، في لَيَالِي القَصْرِ المَشْحُورِ، أَنْفِعَالَاتٍ حُبِّ شَهْوِيٍّ طَلَبَ مَعَهَا التَّمَادِيَّ في دُنْيَا الشَّهَوَاتِ، وَآمَتَلًا رَغْبَةً بالتَّعَرُّفِ إلى كُلِّ فُنُونِهَا وَفُتُونِهَا، وَشَتَّى أَلْوَانِهَا.

في لَيْلَةٍ مَاتِعَةٍ مِنْ لَيَالِي القَصْرِ الزَّاهِيَةِ العَبِقَةِ، أَذْنَاهُ مُعَاوِيَةُ مِنْهُ، وَعَاطَاهُ حَدِيثًا مُذَهَّبَ الْأَطْرَافِ، مُغْرِي الْبَدَوَاتِ، وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ:

هَلْ لَكَ زَوْجَةٌ؟

قَالَ: نَعَمْ... فَضَرَبَ يَدًا عَلَى يَدِهِ، وَأَصَابَ وَجْهَهُ بِبَعْضِ يَدِهِ، فَمَالَ عَلَى أُذُنِهِ عَمَرُو، وَقَدْ أَظْهَرَ أَنَّهُ آغْتَمَّ مِنْ إِجَابَتِهِ، وَسَارَّهُ:

يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ الْمَلِكَ أَرَادَ أَنْ يُزَوِّجَكَ ابْنَتَهُ لِمَا عَرَفَ مِنْ شَرَفِكَ، «وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ بَنَاتِ الْمُلُوكِ لَا تَدْخُلُ عَلَى ضَرَائِرَ».

فَقَالَ لِعَمَرُو: كَيْفَ الْحِيلَةُ؟

قَالَ لَهُ: إِذَا دَخَلْتَ غَدًا وَسَأَلْتَكَ، «فَقُلْ لَيْسَ لِي زَوْجَةٌ فَقَدْ طَلَّقْتُهَا»



وَأَشْهَدْتُ أبا هُرَيْرَةَ وأبا الدَّرْدَاءِ... بَاتَ لَيْلَتُهُ أَرْقًا، فَقَدْ اسْتَيْقَظْتُ ذِكْرِي أُرِينَبَ  
الْغَايَةِ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ قُوَّةٌ عَنِيفَةٌ، وَأَخَذَتْهُ طُيُوفُهَا الْبَادِيَةُ كَالْمَلَائِكِ فِي أَثْوَابِ  
طَهَارَتِهَا...

فَرَاخَ يُتَمِّتِمُ: أَنَا أَخُونُهَا. أَنَا؟ كَلَّا يَا مَلَكَ! لَنْ أَفْعَلَ مِنْ أَجْلِ شَهَوَاتِ  
رَغْنَاءٍ تَذُوبُ لَذَائِهَا سَرِيعًا، وَتَبْقَى آلَامُهَا مُسْتَطِيرَةً مُسْتَفْجِلَةً... وَإِذَا بِهِ يَبْدُو  
مُبْتَسِمًا، فَقَدْ بَارَكَهُ طَيْفُهَا، وَلَكِنْ لَا يَلْبَثُ حَتَّى تَسْتَجِيشَ بِهِ شَهَوَاتُ مَوَارَةِ، تُرِيهِ  
الدُّنْيَا وَالسَّعَادَةَ، بَلْ وَالْخُلْدَ فِي حُدُودِهَا، وَتُطْلِعُ لَهُ رُؤُوسَ فُتُونِهَا، فَيَسْتَرْخِي وَهُوَ  
يَرَى السُّلْطَانَ وَالْجَاهَ وَكِبْرِيَاءَ الْحُكْمِ تَغْنُو أَمَامَ قَدَمَيْهِ، إِذَا اسْتَجَابَ إِلَى مُعَاوِيَةَ،  
وَرَضِيَ مِنْهُ بِالْإِقْتِرَانِ إِلَى آبَتَيْهِ... وَتَمَّتَمَ:

حَسْبُ أُرِينَبَ يَكُونُ خَالِدًا، وَأَنَا إِذَا طَلَّقْتُهَا فَلَمْ أَفَارِقْهَا وَإِلَى الْأَبَدِ، فَصِلَةُ  
بَيْنِنَا أَبَدًا وَلَيْدُنَا الْعَزِيزُ... وَصَمَتَ قَلِيلًا، وَعَادَ يُنَاجِي نَفْسَهُ:

وَأَنَا إِذَا فَعَلْتُ، أَلَسْتُ أَخُونُ خَالِدًا أَيْضًا فَوْقَ خِيَانَتِي أُمِّهِ؟ أَلَسْتُ أَكُونُ قَدْ  
دَفَعْتُهُ إِلَى الْحَقْدِ عَلَيَّ؟ وَكَيْفَ أَطِيقُ هَذَا، وَلَوْ فِي التَّصَوُّرِ وَالْخَيَالِ؟ إِنَّنِي لَا أَطِيقُ...  
وَبَدَا لَهُ طَيْفٌ وَلَدِهِ خَالِدٍ فِي طُفُولَتِهِ السَّاذِجَةِ بِالْحُبِّ، كَأَنَّهُ يَزْجُو أَنْ لَا يَفْعَلَ،  
وَسَاوَرَتْهُ عَاطِفَةُ قَلْبِهِ مُسَاوَرَةً، فَصَرَخَ مَعَهَا:

لا. لا. لَنْ أَفْعَلَ... وَاسْتَغْرَقَ فِي لَحْظَةٍ تَهْوِي أَنْكَشَفَتْ لَهُ فِيهَا زَوَايا الْمَجْهُولِ  
مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ، ثُمَّ اسْتَفَاقَ وَعَلَى لِسَانِهِ:

أَلَيْسَ فِي هَذَا التَّسَوُّدِ الشَّامِخِ مَا يَخْدِمُ وَلَدِي فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِ؟ فَلَا شَكَّ فِي  
أَنَّهُ يَغْفِرُ لِي خِيَانَتِي، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ أُرِينَبَ تَغْفِرُهَا لِي أَيْضًا. فَأَصْبَحَ وَقَدْ عَزَمَ  
عَلَى الْخِيَانَةِ يُعَلِّلُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَخُنْهَا خِيَانَةً قَلْبٍ وَلِذَلِكَ هُوَ لَنْ يَنْسَاهَا، وَحَمَلَ  
الْهَوَاءَ قُبْلَةَ وَدَاعٍ مِنْ بَعِيدٍ، فَهَذَا آخِرُ الْعَهْدِ بِأُرِينَبِ...



وَتَعَرَّضَتْ لَهُ أَطْيَافٌ رَاقِصَةٌ مِنْ بَدَوَاتِ الْأَطْمَاعِ الْكُبْرَى، فَسَارَ فِي بَهْجَتِهَا  
كَأَنَّهُ يَجْنَحُ طَائِرًا، وَكَانَ يَجْتَهِدُ أَلَّا يَذْكُرَ شَيْئًا، يَجْتَهِدُ أَنْ يَشْعُرَ أَنَّهُ مَخْلُوقُ الْيَوْمِ،  
وَلَيْسَ لَهُ عَهْدٌ سَابِقٌ بِالْوُجُودِ.

سَارَ غَيْرَ مُثْقَلٍ بِأَيَّةِ ذِكْرٍ مِنَ التَّارِيخِ، وَأَيَّةِ فِكْرَةٍ تَتَّصِلُ بِمَاضِيهِ، إِنَّهُ وَلِيدٌ  
مُصَادَفَةٌ جَدِيدَةٍ، وَلِيدٌ بِهَجَّةٍ جَدِيدَةٍ، يُقْبَلُ عَلَيْهَا بِمَا تَشَاءُ مِنْ بَهْجَاتٍ، فَكَانَ مِنْهُ  
مَا أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ:

«أَدْخُلَا عَلَى ابْنَتِي فَأُعْلِمَاهَا بِالْأَمْرِ عَلَى وَجْهِهِ»... فَتَظَاهَرَتْ لَدَيْهِمَا  
بِالْاهْتِمَامِ وَالشُّرُورِ، وَصَرَفَتْهُمَا لِتَسْأَلِ عَنْ دَخِيلَةِ أَمْرِهِ «وَأَنْتَ عَلَى ابْنِ سَلَامٍ».

وَلَكِنْ آبَنَ سَلَامٍ شَعَرَ، فَوَرَ طَلَاقَهُ أُرَيْيَبَ، أَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَعُدْ لَهُ كَمَا كَانَ،  
بَلْ غَدَا يَلْقَاهُ بِفُتُورِ نَفْسٍ، وَأَنْكِمَاشٍ تَرْجِيْبٍ، فَأَوْجَسَ شَرًّا «وَأَسْرَعَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ  
وَصَاحِبِهِ يَسْتَحِثُّهُمَا» فَاتِيَا ابْنَةَ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَتْ:

«إِنَّهَا سَأَلَتْ عَنْهُ فَوَجَدَتْهُ غَيْرَ مُوَافِقٍ لِمَا تُرِيدُ»... فَلَمَّا بَلَغَاهُ جُنَّ جُنُونُهُ،  
وَأَسْقَطَ فِي يَدِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ ذَهَبَ ضَحِيَّةً خِدْعَةً لَيْمَةٍ لَيْسَ يَدْرِي غَايَتَهَا.

إِنْقَلَبَ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِنُزُولِهِ، فَوَجَدَهَا تَعُجُّ بِالْأَشْبَاحِ الْمُخِيفَةِ، وَتَزْأُرُ  
فِي مِثْلِ تَجَاوِبِ الذُّنَابِ، فَاسْتُطِيرَ دُغْرًا، وَمَشَى فِي أَنْفَاسِهِ هَلْعٌ نَكِيرٌ، فَفَرَّ يَغْدُو إِلَى  
الْحَلَاءِ وَقَدْ أَنْطَبَعَتِ الْأَشْبَاحُ فِي عَيْنَيْهِ، وَالتَفَّتِ الْأَصْوَاتُ تَمُورٌ فِي أُذُنَيْهِ. فَرَاخَ  
يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ وَكَفَّاهُ عَلَى أُذُنَيْهِ يَجْرِي، إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ لَا يَرَى وَلَا يَسْمَعَ، يُرِيدُ غَفْوَةً فِي  
الذُّهُولِ وَلَا هَذِهِ الْيَقَظَةُ الْمَجْنُونَةِ. وَمَا اسْتَرْخَتْ كَفَّاهُ عَنْ أُذُنَيْهِ حَتَّى اسْتَعْوَى بِهِ  
صَوْتُ:

خَائِنٌ! خَائِنٌ! وَعَلَى يَدَيْكَ دِمَاءُ الْجَرِيْمَةِ، تَمْشِي عَلَيْهَا أَرْوَاحُ ضَحَايَا ثَلَاثٍ:  
قَلْبُ زَوْجَةٍ هِيَ تِمْنَالُ الْإِخْلَاصِ فِي الْحُبِّ، وَقَلْبُ غُلَامٍ هُوَ تِمْنَالُ طُفُولَةِ الْأَحْلَامِ

البريئة البيضاء، والثالثة هي قلبك أنت...

بعد ذلك أضحى ينطلق كالذي فار في خياله جنون، ينقل الواقعة، ويثبت الشكاة، ويثر الطعن نثراً دون رهبة أو وعي. وتسامع الناس بالخبر، وعلقوا عليه بأشمزاز ونفور، وبات الكثير ينظر بعضهم إلى بعض في شفاء مقلوبة وتنكير، «وهكذا ذاع أمره وشاع، وتناقله الناس إلى الأمصار، وتحدثوا به في الأسفار». ورثوا كثيراً لما انتهى إليه حاله، فكنت لا تسمع في كل مكان إلا من يقول:

أتبلغ القحة بهذه العصابة حد التآمر بسعادة أسرة هائنة، تترخ في حب وتترخ في وارف إخلاص، أما يسرها يوم، أما تحلو لها حياة، إلا إذا ولغت في دم أو عبثت بكرامة، لقد عدوا أقدار أنفسهم، فلا يرون إلا راقصين على الأشياء، لاهين بالجماجم.

وتناهت بعد الله الحال إلى حيرة يائسة وذهول شقي يائس، تلاحقه طيوف وتتنكر له أشباح، وتتفوز من حوله الآلام، وكان لا يفتأ يقول، يناجي نفسه: لوددت أني أفر إلى أرينب، ولكن هيهات! أنا الذي نكبتها وأشقيتها، أزيدها شقاءً بوجهي الذي غدا يمثال الخيانة الزوجية على أفبح صورها؟ فلا تجرع آلام قلبي وغصص ضميري ومرارتي وحيداً منعزلاً! كيف أعذر إليها؟ كيف أستغفر وليدي الصغير؟...

رحمك ربي وحنائك! أبق اللهم على قلبي لا يتمزع!

\*

ظلت أرينب، منذ غادرها زوجها الحبيب، لا تشيع على شفيتها إلا ابتسامة متماوتة إذا ألحت عليها أحاديث وصيفاتها بالابتسام.

وكان الاكتئاب يتزايدها، يوماً بعد يوم، في إحساس يلح عليها بهول

غامضٍ تَشْعُرُ به في أَعْمَاقِهَا يُنْذِرُ بالوَيْلِ.

وكانَ لها في كُلِّ يَوْمٍ جَلْسَةٌ، تَارَةً عِنْدَ مَقْعَدِ أَصْطِباحِهما في أَفْياءِ البَواري  
المُخَيِّماتِ، وتَارَةً في شُرْفَةِ المِساءِ تُودِّعُ النَّهارَ، وتَسْتَقْبِلُ كَوَاكِبَ اللَّيْلِ تَبْشُّها نَجْواها  
وزَفَراتِها، وتَتَوَلَّه في وَقْفَةٍ إلى ذَوْبِ الشَّفَقِ الَّذي كَأَنَّهُ ذَوْبُ قَلْبِها.

وفي يومٍ، على عادَتِها وهي في شُرْفَةِ المِساءِ، رَأَتْ عِنْدَ أَقْصى الصَّحراءِ،  
الَّتِي تَسْتَرْخِي مُتَّكِئَةً على عَتَبَةِ دارِها وفي فِنائِها، قَافِلَةً كَأَنَّها مُقْبِلَةٌ مِن جَانِبِ  
الشَّامِ، فَلَيْثَ تَنَشَّدُ فيها أَمَلِها، وإنْ لَمْ تَطْمَحْ به فلا أَقْلَ مِن أنْ تَرُسَمَ هَذِهِ القَافِلَةُ  
في نَفْسِها رُسوماً مُبْهَمَةً، إِلَّا أَنَّها مُفْرِحَةٌ أَيْضاً، تَتَنَفَّسُ في فُؤادِها بِنَدَى رَوِي.  
مَرَّتِ القَافِلَةُ تَحُبُّ تَحْتَ شُرْفَتِها، وكانَ حادي الإِبِلِ يُشْجِي الرِّكَبَ بِصَوْتِهِ  
العَذْبِ النِّعَماتِ:

أَرَيْنِبُ لَيْتَنِي وُسِدْتُ قَبْراً      ولم أَفْعَلْ، ففِي الأَحْشاءِ نارُ  
«نَدِمْتُ نَدَامَةً الكَسِيِّ لَمَّا      عَدْتُ مِنِّي مُطْلَقَةً نُوارُ»  
يَطِيفُ على فُؤادِي رُوحُ آه      وذَوْبُ أَسَى، وفي كَبْدي أَنْفَطارُ  
أَرَيْنِبُ، أَنْتِ ذِكْرِي مِن نَعِيمٍ      وَمِنْ طَهْرٍ، وَمِنْ عَبَقِ يُثَارُ  
أَرَيْنِبُ، هَلْ تَرِفُ عَلَيَّ دُنْيا      مِن الأَحْلامِ، هَلْ ثَوْبُ يُعارُ؟  
ذَكَرْتُ وفي فُؤادِي نَوْحُ باكٍ      هَوانا، والضَّمِيرُ بِهِ أوارُ  
وَهَلْ قَدَرُ يُطالِعُنا بِفَجْرِ      ويَمْرُخُ في مَسارِحِهِ النَّهارُ  
فَتَسْعَدُ، والأَصِيلُ لَهُ أَفْتِراؤُ      ونَنْشَى، والغُدُّ لَهُ آزْدِهاؤُ

فَسَقَطَتْ على نَفْسِها هَلْكَى. ولمْ تَكْ إِلَّا أَيَّامٌ مِن حُلُولِ الرِّكَبِ حَتَّى شاعَ  
خَبَرُ عَبيدِ اللَّهِ في العِراقِ، وتَناهى إلى سَمْعِها، فلمْ تَعُدْ تَعِي. وكانَتْ لا تُرى إِلَّا

مَوْلَاهُ حَتَّى عَنْ وَحِيدِهَا الْمَفْدَى. وَكَانَتْ لَا تُرَى إِلَّا مُعْتَنِقَةً لَهُ، تَشُدُّهُ إِلَيْهَا مُدْلَهَةً،  
كَأَنَّهَا تَطْلُبُ فِيهِ رِيًّا، وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ ظِمَامَى، وَظَلَّتْ كَأَنَّهَا لَاهِئَةٌ تَطْلُبُ النَّدى  
وَالرَّيَّ.

لَمْ تُطِقْ بَقَاءً فِي الْعِرَاقِ بَعْدُ، فَقَدْ آسَوْدَّتْ نَوَاحِيهِ فِي نَوَاحِي نَفْسِهَا،  
فَانْطَلَقَتْ بِحَشَمِهَا وَذَوِيهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، تَطْلُبُ فِيهَا دُنْيَا جَدِيدَةً، تُغْرِى خَيَالَهَا فِي  
أَنَّهَا أَصْبَحَتْ مَخْلُوقًا جَدِيدًا آخِضَرِ فِي نَفْسِهِ الْمَاضِي، وَالذُّكْرِيَّاتُ. رَثَّتْ لَهَا نِسَاءُ  
الْمَدِينَةِ، وَذَهَبْنَ يُوَاسِيْنَهَا بِكُلِّ مَا عِنْدَ الْمَرْأَةِ مِنْ خِصْبٍ عَاطِفَةٍ، وَالنِّسَاءُ يُحْسِنْنَ،  
بِالْمَآسِي بَنُوْعٍ خَاصٍّ، مُكَبَّرَةً ذَاتَ مُبَالِغَاتٍ، وَفِي شُعُورِهِنَّ شُيُوعٌ، فَهُنَّ يُحْسِنْنَ  
بِأَنْفُسِهِنَّ فِي كُلِّ مَأْسَاةٍ تَقَعُ، وَيَجِدْنَ قُلُوبَهُنَّ فِي التَّكَبَّاتِ، وَهَذَا الشُّيُوعُ فِي  
الشُّعُورِ جَعَلَهُنَّ يَشْعُرْنَ بِأَحْدَاثِ الْآلَامِ قَبْلَ وَقُوعِهَا، وَجَعَلَهُنَّ أَصْدَقَ تَطْلُعًا،  
وَأَرْهَفَ حِسًّا بِالْجَانِحَاتِ الصَّاعِدَاتِ مِنْ أَعْمَاقِ الْمَجْهُولِ، وَالْغَارِبَاتِ الْهَاطِطَاتِ  
إِلَى أَعْمَاقِهِ.

فَتَجَاوَبَتِ الْمَدِينَةُ بِمَأْسَاةٍ أَرِيْبٍ، عَلَى مَا أَضَافَ إِلَيْهَا النِّسَاءُ مِنْ رُوحِهِنَّ  
الْآسِيَّةِ، فَكَانَتْ لِادِّعَاةِ الْوَقْعِ، وَقِيْدَةِ الْأَثَرِ، شَائِكَةً فِي نَوَاحِي الضُّمِيرِ...

أَرْسَلَ مُعَاوِيَةَ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَأَبَا هُرَيْرَةَ، رَسُولَيْنِ مِنْ قَبِيلِهِ، يَخْطُبَانِ أَرِيْبٍ عَلَى  
أَتْنِهِ يَزِيدَ، فَذَهَبَا إِلَى الْعِرَاقِ، فَبَلَغَهُمَا أَنَّهَا آتَتْ قَلَّتْ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَتَنِيَا رَوَاحِلَهُمَا إِلَيْهَا.

وَكَانَ الْحُسَيْنُ، إِذْ ذَاكَ، قَبَسَ الْهِدَايَةَ، وَمِشْكَاتَةَ الطُّهْرِ، وَنَمُوذَجَ الْأَخْلَاقِ  
الْفَاضِلَةِ، وَقِبْلَةَ الْأَنْظَارِ، وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ، مَفْرَعُ الْهَارِبِينَ مِنْ وَجْهِ الظُّلْمِ، وَفِي  
رَحَابِهِ يَنْتَصِفُ مَهْضُومُو الْحُقُوقِ الضُّعَفَاءُ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَيُحِسُّ فِي أَعْمَاقِهِ أَنَّ  
وَاجِبًا عَلَيْهِ أَنْ يَخْشَعَ بِالْمَثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ، بَلْ يَشْعُرُونَ، فَوْقَ ذَلِكَ، أَنَّهُ رَأْسُ  
الْوَاجِبَاتِ. فَلَمْ يَجِدْ كُلُّ مَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَصَاحِبِهِ، حِينَمَا هَبَطَا الْمَدِينَةَ، بُدْءًا مِنْ أَنَّ  
يَبْدَأُ بِزِيَارَتِهِ قَبْلَ أَيِّ وَاجِبٍ آخَرَ، مَهْمَا سَمَتْ بِهِ قِيَمَتُهُ، فَلَمَّا مَثَلَا بَيْنَ يَدَيْهِ يُقَدِّمَانِ

إليه أنواع الاخترام بمناسبة قدوميهما، أنس إليهما وقابلتهما بحفاوته التي تعودها الناس منه، على اختلاف منازلهم، وكانت فيه خليقة وطبيعة.

لكنه أحس، مع ذلك، أن في مقدميهما المفاجيء حدثاً هاماً، فقال لهما:  
الأمير قد مثما؟

قالا: نعم.

قال: وما هو؟ فما كتماه أن معاوية وجههما في خطبة أرينب على أبيه يزيد. فأبتسم الحسين أبستامة من قد أدرك كل شيء، ومن قد فهم غاية المناورة وبالغة المداورة التي بات معاوية يحبك خيوطها، ويتسجها كالعنكبوت حول فريسته... ونفى إلى نفسه «خدعة معاوية حتى طلق أمراته، وإنما أرادها لابنه. فبش من اشتراه الله أمر عباده، ومكنه في بلاده، وأشركه في سلطانه، يطلب أمراً بخدعة من جعل الله إليه أمره»... وواصل: لن تهناً لي حياة إلا بإعادة مياه حياتهما إلى مجراها، ولن تفر عيناى وأسعد، إلا إذا قرئت عيناها بالعودة وسعدا، ففي سعادة قلبين مخلصين ينبضان بالحب، ويخفقان بالعاطفة البريئة سر سعادتي. فعلي أن أهدم على معاوية أحاييله، وأصيده بشباكه. أف للغاشمين الذين يزفون على الأشلاء، ويبتسمون في دموع الناس ويتشون كما لو بها يغتسلون؟ لقد استغواه فبات ابن سلام طعماً في جبالته.

فقال الحسين لهما: لقد «كنت أردت نكاحها، وقصدت الإرسال إليها، فأخطبا علي وعليه، وأعطياها من المهر مثل ما بذل عن أبيه ولتخير»...

إشتاذناها بالدخول، وبعد أن استوى بهما مقعدهما، قال أبو الدرداء:

أي بنية! إنك لم تزالي شابة في غنوان الشباب وميعة النشاط، وأنا بك جد ضنين أن تذهبي نهبا للخواطر، وتذهب نضارتك شعاعاً في اكتئاب. وإذا



سَاءَكَ مِنْ آبْنِ سَلَامٍ مَا لَيْسَ مِنَ الْوَفَاءِ وَمَا لَمْ تَكُونِي بِهِ جَدِيرَةً، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ لَكَ فِي سِوَاهُ بَدَلٌ خَيْرٌ.

قَالَتْ: مَعَاذَ اللَّهِ يَا أَبَتِ، فَقَدْ خَبَرْتُ الرِّجَالَ وَبَلَوْتُ عَاطِفَةَ قُلُوبِهِمْ فَمَا حَمِدْتُهَا، وَبَحَسْبِي فَتَايَ أَرْعَاهُ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَمَنَّيْتُ لَوْ كُنْتُكَ، وَفَعَلْتُ مَا يُشِيرُ بِهِ أَبُو الدَّرْدَاءِ... فَأَبْتَسَمَتْ وَهِيَ لَا تَنْتَظِرُ مِنْ مِثْلِهِ مُدَاعَبَةً، وَوَاصِلَ: وَهَلْ مِثْلُ أَبِي الدَّرْدَاءِ يُرَدُّ وَيُخْتَلَفُ عَلَيْهِ... وَلَمْ يَزَالَا بِهَا، وَتَعَرَّضَتْ لَهَا خِيَانَةُ عَبْدِ اللَّهِ فَمَالَتْ إِلَى النُّكَايَةِ، وَرَغِبَتْ بِالْإِنْتِقَامِ.

فَقَالَتْ: وَبَعْدُ... فَعَرَفَا بِذَلِكَ إِجَابَتَهَا.

فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: أَرَادَكَ لِنَفْسِهِ «أَمِيرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَآبْنُ مَلِكِهَا، وَوَلِيُّ عَهْدِهِ وَالْمَلِكُ مِنْ بَعْدِهِ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ. وَكَذَلِكَ أَرَادَكَ الْحُسَيْنُ بْنُ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، وَسَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَقَدْ جِئْنَاكَ خَاطِبَيْنِ عَلَيْهِمَا، فَأَخْتَارِي أَيُّهُمَا شِئْتَ»... وَهِيَ مَا سَمِعَتْ أَسْمَ مُعَاوِيَةَ وَيَزِيدَ حَتَّى وَجَمَتْ، وَكَظَمَتْ بُرْكَانَ حَفِظَتِهَا، وَهَلْ هَدَمَ سَعَادَتَهَا، وَهَنَاءَ مَا كَانَتْ فِيهِ إِلَّا هَذَانِ وَعِصَابَتُهُمَا؟! وَهِيَ الَّتِي طَالَمَا حَدَرَتْ شَقِيقَ قَلْبِهَا مِنْ شَبَابِكِهِمَا، وَوَدَّتْ لَوْ آعْتَزَلَ عَمَلُهُمَا، فَهَلْ تُلْقِي نَفْسَهَا، بِكُلِّ اخْتِيَارٍ وَطَوَاعِيَةٍ، فِي قَبْضَتَيْهِمَا الْقَاسِيَةِ الرَّهْيِيَةِ، فَتُغْتَصَرَ لَا! لَا! إِنِّي لَسْتُ فَاعِلَةً وَلَوْ أَوْطَأَنِي يَزِيدُ الدُّيَاجَ وَأَحَاطَنِي بِمِثْلِ زَعْبِ النَّعَامِ!

لَيْتَ شِعْرِي! كَيْفَ أَرْضَى بِهِ، وَهَلِ آجَتَوَيْتُ الْحَيَاةَ إِلَّا بِسَبِيلِ مِنْهُمَا؟ وَهَلْ فَرَزْتُ وَتَشَرَّدْتُ إِلَّا عَنْهُمَا؟ لَوَدِدْتُ أَنْ أَعِيشَ فِي دُنْيَا لَا تَعْرِفُ عِصَابَتَهُمَا أَوْ لَا يَعْرِفُونَهَا. وَطَالَ بِهَا الصَّمْتُ وَهِيَ فِي مَعْرِضِ خَوَاطِرِهَا، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:

عَلَامَ عَوَّلْتَ؟ وَأَيُّهُمَا آخَرَتْ؟ فَقَدْ خَيَّلَ لِي صَمْتُكَ أَنَّكَ غَدَوْتَ دُمِيَّةً لَا



تَنْطِقِينَ... فَأَنْقَطَعَتْ سِلْسِلَةُ خَوَاطِرِهَا، وَكَرِهَتْ رَدَّ وَسِيلَتَيْهِمَا، فَقَالَتْ:

وَمَنْ تَخْتَارُ أَنْتِ؟

قَالَ: الْأَمْرُ إِلَيْكَ.

فَقَالَتْ، مُخْرِجَةً لَهُ وَعَلِمَتْ أَنَّهُ لَنْ يُفْضَلَ يَزِيدَ بِحَالٍ: لَوْ أَنَّ «هَذَا الْأَمْرَ جَاءَنِي وَأَنْتَ غَائِبٌ، لَأَشْخَصْتُ فِيهِ الرُّسْلُ إِلَيْكَ وَآتَبَعْتُ فِيهِ رَأْيَكَ، فَيَكْفِ وَأَنْتَ الْمُرْسَلُ. فَقَدْ فَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ»، فَأَخْتَرَتْ لِي أَرْضَاهُمَا.

فَقَالَ: أَيُّ بُنْيَةٍ! إِنَّ «أَبْنَ رَسُولِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ وَأَرْضَى عِنْدِي، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِخَيْرِهِمَا إِلَيْكَ»... فَأَنْبَعَتْ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

نَعَمْ. نَعَمْ. وَأَنَا وَاللَّهِ «لَا أُقَدِّمُ أَحَدًا عَلَى صَاحِبِ فَمٍ قَبْلَهُ رَسُولُ اللَّهِ»، فَيَا لِيُغْبِطَ لِكَ بِهَذَا الْفَمِ وَهَاتَيْنِ الشَّفَتَيْنِ! لِيَتَنِي كُنْتُ أَرِيْبَ، إِذَا لَسَالُ لُعَابِي! وَتَلَمَّظَ... فَقَالَتْ وَهِيَ تَضْحَكُ مِنْ قَوْلِهِ:

قَدْ آخَرْتُهُ.. فَتَزَوَّجَهَا الْحُسَيْنُ وَسَاقَ لَهَا مَهْرًا عَظِيمًا، وَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ فَتَعَاظَمَهُ، وَلَا مَهْمَا أَشَدُّ لَوْمٍ، وَقَرَّعَهُمَا أَعْنَفَ تَقْرِيعٍ، وَلَكِنَّهُ أَنْقَلَبَ مَعَ ذَلِكَ يُرَدِّدُ: «إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا».

كَانَ جُحْدُ الْحُسَيْنِ، بَعْدَ ذَلِكَ مَعَهَا، أَنَّهُ يُوَاسِيهَا، وَإِذَا ذَكَرَتْ أَبْنَ سَلَامٍ وَمَا سَمَّتهُ خِيَانَةً زَوْجِيَّةً، أَثْنَى عَلَيْهِ وَهَوَّنَ فِعْلَتَهُ، وَأَفْهَمَهَا إِسَاحًا عَلَى غَيْرِ الرَّجَاءِ الَّذِي رَاحَتْ تَفْهَمُهَا عَلَيْهِ، وَأَبَانَ لَهَا أَنَّ الْحَادِثَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا هُوَ عَظِيمٌ نَكِيرٌ، فَإِنَّمَا هُوَ إِقْدَامٌ مِّنْ هَيَأَ لَّهُمَا أَسْبَابُ الشُّقَاءِ. ثُمَّ أَلَمَ تَقُولِي فِي بَعْضِ كَلَامِكَ إِنَّهُ طِفْلٌ، فَلَا عَجَبَ إِذَا اخْتَلَبُوا فِيهِ عَقْلُهُ، وَاسْتَبَدُّوا بِهِوَاهُ. فَإِذَا هِيَ تَنْظُرُ إِلَى مَا أَقْتَرَفَ أَبْنُ سَلَامٍ مِّنْ أَفْقٍ جَدِيدٍ، وَإِذَا هِيَ تَرَى فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا ضَحِيَّةَ أَغْرَاضٍ وَأَهْوَاءٍ وَشَهَوَاتٍ مِثْلَهَا، وَإِذَا بِهَا تُذَرِّكُ أَنَّ مِنْ وَاجِبِهَا أَنْ تُوَاسِيَهُ جُهْدَهَا، وَقَدْ بَاتَ شَقِيًّا. فَبَدَأَتْ تُحِينُ

إليه، وبدأت تُعاوِدها ذِكْرُها في رَغِيبة قَلْبٍ، وكانَ الحُسَيْنُ يُحسُّ هذا مِنْها، فيفيضُ  
بِشْراً وتَتَنَظَّرُ تقاسيمُ وَجْهِه بِشاشَةً وإِشْراقاً، فقد نَجَحَ وأدنى قَلْباً باتَ نفوراً، مِنْ  
قَلْبٍ باتَ وقد تَشَطَّرَ وَيلاً وثُبوراً.

\*

أما عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فقد ظَلَّ في الشَّامِ يَزْمِي الهَيْئَةَ الحَاكِمَةَ بِكُلِّ شَنارٍ  
وعارٍ، وَيَطْعُنُ فيها أَبْلَغَ ما وَسِعَهُ الطَّعْنُ، وهو لا يُيالي غَضَباً ولا رِضىً، إِنَّه مَفْجوعٌ  
مؤتور.

فأَطْرَحَهُ مُعاوِيَةُ لِمَكَانٍ هذا الطَّعْنِ والتَّعْرِيضِ بالشَّنيعِ، وَعَزَلَهُ عَنْ إِمَارَةِ  
العِراقِ، وَقَطَعَ عَنْهُ رِوافِدَهُ، فَقَلَّ ما في يَدَيْهِ قِلَّةً باتَ مَعَهَا مُعْذِماً، وغداً مَثَلاً  
للبُؤْسِ الحَيِّ والشَّقَاءِ الشَّاخِصِ.

وتَحَتَّ إلِحاقِ البُؤْسِ عَلَيْهِ، تَذَكَّرَ أَنَّهُ كانَ قَدِ اسْتَوْدَعَ أَرِيئَبَ مالاً عَظِيماً،  
وتَذَكَّرَ أَنَّها أَضَحَتْ في عِصْمَةِ الحُسَيْنِ، وهو لَنْ يَدَعَ لها سَبِيلاً لِلانْتِقَامِ «فَتَجَحَّدهُ  
إِياه لِطَلاقِها مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»، فانتَقَلَ إلى المَدِينَةِ وَلَقِيَ الحُسَيْنَ وَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، وهو  
في شَكْلِ الضَّحِيَّةِ الشَّقِيَّةِ، والفَرِيسَةِ الطَّرِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ آثارُ أَثْيَابِ السَّبْعِ بارِزَةً  
فيها، راسِمةً أَنْكَرَ آياتِ وَحْشِيَّتِها، فَرُئِيَ لِمِزَّاهُ، وَرَقَّ لَهُ كَثِيراً وواساهُ كَثِيراً. فَدَخَلَ  
الحُسَيْنُ عَلَيْها وَحَضَّها على رَدِّ مالِهِ إِلَيْهِ، فَقالَتْ:

ها هو بِطابِعِهِ لَمْ أَمْسِسْهُ... وَقَصَدَ حُسَيْنٌ أَنْ يُدْخِلَهُ عَلَيْها بِشَقائِهِ، فلا بُدَّ  
أَنْ تَتَلَقَّاهُ بِشَفَقَتِها وَحِنايَها دُونَ غِلْظَةٍ أو جَفْوَةٍ. وَكَذلِكَ كانَ، فَتَلَقَّيا وَاسْتَصْبِرا  
طَوِيلاً في ذُھولٍ وَوُجومٍ، وَغَفَلا عَنْ وُجودِ الحُسَيْنِ بِقُرْبِهما، فَتَوافَقَتْ نَظَرائُهما  
ناطِقَةً بِالْحُبِّ والدَّمْعَةِ طافِيَّةً، يُخَيِّلُ لِنَ رَأُهما أَنَّ مِنْ وِراءِ عَيْنَيْهما قَلْبَيْنِ يُطَلَّانِ،  
وقَدْ تَدانِيا كَثِيراً حَتَّى رَسَما دائِرَةً تَدورُ فيها لَحْظَةُ حُبٍّ نَشوى.

وكانت عينا الحسين تشعان بالشرور؛ وأخذ طريقه إلى الهيكل وقد أنصرف  
عنهما زوجين، كي يشتمل عليه الحراب من جديد، إنه جدُّ مُغْتَبِطِ الروح.

\*

حطت فراشة بيضاء كأنها الزهرة على كيف غصن يمس، وكانت ناعمة  
تلهم بأغاني سعادتها...

فبصر بها عنكبوت صغير، ودَّ لو يزوي بهناءتها شهوات نفسه الحزى...  
وما لبث حتى جاء قزم العناكب يُادر، وراح ينسج شباكه من حولها...  
وإذ ذاك حوّم بلبل غريد كان ينشر بألحانه في الأزواح نشوات منعشات،  
وحطَّ حيث انتصبت أشراك المأساة...

فنقد القزم نقدة، ومضى يُغرّد تغريداً كان معناه: «ومكروا ومكر الله، والله  
خير الماكرين...».

\*

ظنَّ «الصغير» أن القوة هي كل شيء، وفوق كل شيء...  
وظنَّ «الكبير» أن الحيلة هي كل شيء، وفوق كل شيء...  
ولكن حين وقع الحق في شخص الإنسان الكامل، «بطل ما كانوا يعملون،  
فغلبوا هنالك وأنقلبوا صاغرين»!...

\* \* \*

## تقوى

كَانَ يَوْمًا أَرْدَهَتْ فِيهِ دَمَشْقُ بِكُلِّ أَفَانِيْنِهَا، وَبَرَزَتْ فِيهِ بِكُلِّ قُتُونِهَا، هَذَا  
الْيَوْمُ الَّذِي أَطْلَعَ مَعَهُ الرَّبِيعُ فِي آيْتِسَامَةِ الْأَزْهَارِ وَعَبَقِ آيْتِسَامَتِهَا، مُرْصَعًا بِخُيُوطِ  
الشَّمْسِ الْمُقَنَّعَةِ بِقِنَاعٍ مِنَ الْمُزْنِ الرَّقِيقِ الشَّفَافِ.  
كَانَ عَادَةً، عِنْدَ نَاسِهَا، آسْتِقْبَالُ الرَّبِيعِ بِأَشْيَاءِ الْأُنْسِ وَالْحَقَاوَةِ، وَبِمَا تُوحِيهِ  
الْمُتَعَةُ الْمُسْتَبْشِرَةُ، فَكَانَ يُخَيَّلُ لِلْمُشَاهِدِ أَنَّهُمْ نَسُوا حَتَّى الزَّمَانَ فِي وُجُودِهِمْ، ثُمَّ لَمْ  
يَذْكُرُوا إِلَّا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ اللّٰهُ الْعَابِثِ الْبَرِيِّ، فَيُقْبَلُونَ عَلَيْهِ بِلَهْفَةِ الظَّامِ  
عَلَى الْيَنْبُوعِ، وَيُنْطَلِقُونَ فِي مَدَى كُلِّ مَعْنَى نَضِيرٍ، وَيَنْتَثِرُونَ أَنْتِثَارَ الطَّيْرِ فِي كُلِّ  
فَضَاءٍ.

فَمِنْ هُنَا تَنْبَعُ ضَحِكَاتٌ، وَمِنْ هُنَاكَ تَنْطَلِقُ زُقْرَاتٌ مِنْ غَنَى الطُّفُولَةِ،  
وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ جَمْعٌ يَحْلُمُونَ فِي أَنْسٍ وَمُتَعَةٍ شَرُودٍ، وَعَلَى ذَاكَ الْوَجْهِ قَوْمٌ يَنْعَمُونَ  
فِي مِثْلِ وَثْبِ الطُّبَاءِ وَخَطَرَاتِ الْوُعُولِ، وَتَلَفَعَتِ الْآفَاقُ، فِي حِسِّ هَوْلَاءِ اللَّاهِيْنَ،  
بِكُلِّ مَنْ أَلْقَى فَرْحَةً كُبْرَى.

وَكَانَ هَذَا الْيَوْمُ كَأَنَّهُ، فِي حِسِّ الْفَلَكَ، سَاعَةً مِنْ لَاوَعِي الزَّمَنِ، يَسْبُحُ مِنْهَا  
فِي عَرَبْدَةٍ حَالِيَةٍ أَوْ أَحْلَامٍ مُعَرَّبَةٍ. وَعَزِيزٌ عَلَى الْحَيِّ الشَّاعِرِ، أَنْ تَطِيفَ بِهِ هَذِهِ  
السَّاعَةُ مِنَ لَاوَعِي الزَّمَانِ، وَلَا يَغْرُقُ مَعَهَا فِي خِضَمِّ النَّسْيَانِ مِنْ قِيُودِ الْوَعْيِ  
وَالْفِكْرِ.

في هذا اليومِ كانَ مُعاوِيَةُ في قَصْرِه المَشِيدِ، وفي الجَنَاحِ الغَارِقِ بالمتَّعِ،  
يَقْطِفُ مَعَ جَمْعٍ مِنْ حاشِيَتَيْهِ زَنْبَقَةً زَهْوِ اليَوْمِ. وكانَ بُدَيْحُ مَوْلى عَبدِ اللَّهِ بنِ جَعْفَرٍ  
يُؤَنِّسُهُم بِطرائِفِ أَخبارِهِ ومُلَحِ نَوادِرِهِ، فانتَهَى به الحديثُ إلى أَخبارِ صابِئَةَ الإغريقِ  
الحَرَائِيينَ، وعَجائِبِ ما شَاهَدَ بَينَهُم، وكانَ فيما قالَ:

كَأَنَّ نِساءَهُم خُلِقْنَ مِنْ طَبِيعَةِ الجَمالِ، إِنَّ لَمْ تَكُنْ فِكْرَةُ الجَمالِ صِغَةً مِنْ  
طَبِيعَتِهِنَّ، بَلْ لَعَلَّهُنَّ فِي بَحرِ الجَمالِ لالِئُهُ. فَقَدْ أَفْتَرْنَ فِيهِنَّ إبداعُ الخَلْقِ حَدًّا  
أَبْرَزَهُنَّ مَثَلًا ناطِقَةً بالفنِّ... فَأَيُّهُ تَقاطِيعَ في أَيِّ وَجْهِهِنَّ؟... ودارَ بِهِ ناظِرُهُ كالَّذي  
تَذَكَّرُ صَبابَةَ قَدِيمَةٍ طَبَعَ عَلَيَّهَا الإخفاقُ، فَأَرْسَلَ آهَةً طَوِيلَةً آخَتَنَقَتْ في خَلْقِهِ قَبْلَ  
نِهايَتِها...

قالَ بَعْضُ مَنْ خَضَرَ: لَكَانَ لَكَ بَينَهُنَّ ذِكْرَى طَرِيقَةً بِمَوْقِعِها على قَلْبِكَ، وَإِنْ  
قَدَّمَ بِها العَهْدُ... فراحَ يُحاوِلُ الإخفاءَ على شَتَّى مَذاهِبِهِ وأَساليبِهِ، وَلَكِنْ كانَ في  
عَينِيهِ ما يُفْصِحُ بِكُلِّ خَبَرٍ قَلْبِهِ، فَقَدْ غَدَتَا تُغْفِيانِ تَحْتَ هَباءَةٍ كَثِيفَةٍ مِنَ الدُّهُولِ،  
حَتَّى لَيَظُنَّ النَّاظِرُ إلى مُقَلَّتَيْهِ أَنَّهما جَمَدَتَا في غَيرِ حَياةٍ، لولا بَصيصُ رَفِيعِ الحُيُوطِ  
كانتا تُرْسِلانِهِ قَلِقاءً، على أَنَّهُ ما لَ يَتَخافُ فيما تَمَوَّهَتْ بِهِ عَيناهُ مِنْ دَمْعِ رَقِيقٍ،  
لَمَّا يُؤْذَنُ لَهُ فَيَتَحَدَّرُ.

وَبَينا هُم على تَرسُلِهِم وَتَبَشُّطِهِم، اسْتَأْذَنَ الحاجِبُ، وأَعْلَمَ المَلِكَ أَنَّ كَبِيرَ  
النَّحَّاسِينَ أَتى بِجاريَةٍ فائِقَةٍ «يَوَدُّ عَرَضُها» فَقَدْ كانَ مُتَعارِفاً أَنَّهُ يَبْدَأُ بالقَصرِ،  
فَيَعْرِضُ عَلَيهِ ما يَهْبطُ بِهِ مِنَ الإِماءِ والغُلَّمانِ، فَأَذِنَ المَلِكُ، وأُجْرِيتِ «مَراسيمُ»  
الدُّخُولِ.

وكانَ عَجَبُ الحُضُورِ كَبيراً حينَما مَثَلَتْ بَينَهُم، فَهي تَتَمَتَّعُ بِأكْبَرِ قِسطٍ مِنْ  
جَمالِ الرُّؤى فَوْقَ الخَوالِبِ مِنَ القَسَماتِ، حَتَّى لَقَدْ كانَ يَتَرأى لِلكَثيرينَ مِنْهُم  
أَنَّهُم يُنْصِرُونَ مَنظَراً مِنْ جَمالٍ فَنِّ خَيالِيٍّ، يَجِيءُ مِنْ دُونِهِ كُلُّ ما في طائِقَةِ الحَياةِ

مِنْ فَنِّ الْجَمَالِ.

هَبَطَتْ عَلَى جَمْعِهِمْ هُبُوطَ الْبِرَّةِ عَلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ فِي الْغَابِ مَعَ ظِلَامِ الْمَسَاءِ. فَاهْتَزَّتْ أَغْصَابُهُمْ كَالْأَوْتَارِ، وَنَطَقَتْ بِلَحْنِ الْحَنِينِ الْمَوَاجِ، فَحَامَتْ فِي مَدَى بَدَوَاتِ هَذَا الْإِبْدَاعِ. كَانَتْ عَلَى أَغْصَابِهِمْ صَدْمَةٌ جَمَالٍ فَعَلَتْ فِيهَا مِثْلَ مَا تَفْعَلُ صَدْمَةُ الضُّوءِ، أَوْ النَّعَمِ، الَّتِي يَتَجَاوَبُ مَعَهَا فَضَاءُ النَّفْسِ الْخَلَاءِ بِنَوْعِ اهْتِزَازِهَا، فَتَمِيدُ أَوْ تَذْهَلُ، وَالصَّدْمَةُ الشُّعُورِيَّةُ كُلَّمَا كَانَتْ أَشَدَّ تَمَكَّنَّا مِنَ الْأَغْصَابِ كَانَتْ أَكْثَرَ تَأْثِيرًا، وَأَدْوَمَ أَمْدًا.

وهذه الفتاة الكاعبة تَرَكَتْ فِيهِمْ أَثْرًا أَخْذًا حَادًّا لَمْ يَزَلْ يَتَزَايَدُ، حَتَّى بَاتُوا مِنْهَا مِثْلَ النَّحَالِ، وَقَدْ عَرَضَ لَهَا مِصْبَاحُ كَثِيرِ التَّوَقُّدِ وَالْأَلْقِ فِي لِسَانِ الشُّعَاعِ. وَكَانَ فِي هَذَا الدُّهُولِ الَّذِي عَرَاهُمْ، مَا جَعَلَ أَحَدًا لَا يَفْطَنُ إِلَى مَا آسْتَبَدَّ بِإِدْيَاحٍ مِنْ أَضْطِرَابٍ، وَمَا تَمَلَّكَهُ مِنْ تَلَهُّفٍ، كَمَا لَمْ يَفْطَنُ أَحَدٌ أَيْضًا إِلَى مَا سَاوَرَهَا مِنْ خَلَجَاتٍ عَنِيفَةٍ كَظَمَتِهَا، فَعَرَبَدَتْ عَلَى قِمَمِ مُقْلَتَيْهَا نَاطِقَةً بِاللَّحْظِ الْوَثَائِبِ. كَانَ لِنَاضِرٍ أَنْ يَقْدَرَ أَنْ بُدِيحًا أَكْثَرُهُمْ أَخْذًا بِهَا لِأَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ تَذَوُّقًا لِلْجَمَالِ، وَأَمَّا أَنْ يَقْدَرَ أَنَّهَا بِالذَّاتِ نَفْسٌ فَاتْنِيَتْهُ الَّتِي آخُتَفَظَ بِهَا ذِكْرِي نَدِيَّةً بِالْغَرَامِ، وَعَرَضَتْ لِنَفْسِهِ مُنْذُ هُنَيْيَةِ فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ، فَهَذَا مَا لَمْ يَكُنْ يَقَعُ فِي مَذْهَبِ الْخَاطِرِ الْمُرْسَلِ.

لَقَدْ قَطَعَ هَذَاةَ وَجُحُومِ الْإِنْجِدَابِ، مُعَاوِيَةُ بِقَوْلِهِ مُخَاطِبًا كَبِيرَ النَّحَّاسِينَ: لَشَدِّ مَا أَذْهَشْتَنَا حَوْرَاؤُكَ، فَمِنْ أَيْنَ هِيَ؟ وَمَا أَسْمُهَا؟

قَالَ الرَّجُلُ: «إِسْمُهَا هَوَى»... فَاتَّبَعَتْ بُشْرُ بْنُ أَرْطَاةَ أَنْبِعَاثًا يَقُولُ:

«هِيَ وَاللَّهِ كَأَسْمِهَا هَوَى»، تَخْفِضُ مِنْهُ وَتَرْفَعُ، وَتُطِيلُ بِهِ وَتُقْصِرُ، وَتَنْشُرُ مِنْهُ وَتَطْوِي.



قال عمرو بن العاص: وماذا يكون الهوى إن لم تكنه؟ وكان بُدِيح قد  
ضبط أروشيّة قلبه الفائر بالذكرى والحب، والآلام والبعد والقرب، أو القرب الذي  
كان في معناه نُقْطَةُ الغور في البعد السحيق. شعر الآن فقط أنها نأت عنه وإلى  
الأبد، أما غرِضت على الملك ونالت استِحسانه وحطيت بإعجابه، فهو لا محالة  
سيضئها إلى جملة وصائف القصر ولائده، فكان في حس نفسه كأنه يعص  
على جانب قلبه يعضه.

كيف لم يبتعه القدر إلى الخروج منذ هنيهة ويتلقاها عرضاً، فقد كان  
يحول بينها وبين الدخول ويحظى بها لنفسه، وهو الذي ظلّ يتمنى حياته لحظة  
لقاء منها. لقد مدّه القدر ساعة لقاء عفواً، ولكن فيها مرارة النكاية والتلويح  
اليأس، ففاضت نفسه حسرات، بيد أنه ظلّ يعالج مشاعره، ويحتمي وراء براقع  
صفيقة من التجلّد، فقال:

مثلما هي براعم الأزهار كانت حقاً للجمال والعبير في الزهرة، فللعواطف  
الحية حقائق أو براعم، تتفتق عن زهرة جمال أيضاً، وعن زهرة هوى أحياناً، وعن  
زهرات معانٍ أخرى أيضاً.

وهذه الغادة كما أراكم تحشون - برعمة الهوى في دنيا القلب الشاعر -  
تننفس بأريجيه مع السحر الندي كما تننفس الورود. وفي حسي أن الأزهار  
تعبّر عن العواطف المجتمعة في قلب الطبيعة الصامتة، كما تعبّر هذه الغانيات عن  
العواطف المجتمعة في ضمير الطبيعة الحية، وقلب الإنسان.

وفي غابر أيامي، مع نزوة من نزوات شباب القلب، أحدثت هوى وأحدثت  
فيه بهذا المعنى شعراً:

يا وزدة في رياض الحب يانعة تزجي الهوى، كلما مرّ الهوا فيها  
هيا أنشري عطرك الغاني الذي أمتزجت به الدموع، وروثه مآقيها

فَسِرُّ عِطْرِكَ هَذَا، أَدْمُغُ سُكِبَتْ عَلَى جُذُورِكَ فِي نَجْوَى لَيَالِيهَا  
ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَيْراً مِنْ طَهَارَتِهَا فَتَوَهَّى بِالْهَوَى مَا شِئْتَ تَنْوِيهَا  
فَأَنْتِ ذِكْرِي مُحِبٌّ طَالَمَا اخْتَبَسْتُ أَنْفَاسُهُ، ثُمَّ خَانَتْهُ خَوَافِيهَا  
كَمْ مِنْ صَرِيحِ هَوَى، قَدْ عَاجَ مُنْتَحِيّاً إِلَى ظِلَالِكَ شَاقَّتُهُ مَغَانِيهَا  
فَرَاخَ يَنْظِمُ آهَاتٍ مُقَطَّعَةً وَرَاخَ يَنْثُرُ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا  
حَتَّى أَنْتَهَى، فِي خِضَمِّ الدَّهْرِ مِثْلَ صَدَى وَأَنْتِ ذِكْرِي هَوَاهُ بَتَّ تُحْيِيهَا<sup>(١)</sup>

وَكَانَ بُدَيْخُ يُنْشِدُهَا بِصَوْتِ زَافِرِ الرِّثَائِ، خَافَتِ الْمَقَاطِيعَ وَالْكَلِمَاتِ، وَبَوَّجَهُ  
سَاهِمِ النَّظَرَاتِ بَادِي الدُّهُولِ، حَتَّى لَقَدْ خُيِّلَ لكَثِيرٍ مِمَّنْ حَضَرَ أَنَّهُ اسْتَحَالَ صَدَى،  
كَمَا رَاخَ يُنْشِدُ وَيَقُولُ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَكَأَنِّي بِكَ، يَا بُدَيْخُ، أَخَذْتُ بِهَا هَوَى جَدِيداً.

قَالَ بُدَيْخُ: بَلْ إِنَّمَا تَعَلَّقْتُ بِأَسْبَابِ هَوَى قَدِيمٍ، وَاسْتَيْقَظَ فِي قَلْبِي رَسِيسُ  
حُبِّ ضَاقَ بِهِ النَّسِيَانُ. وَأَنْقَطَعَ بِهِمْ عَارِضُ الْحَدِيثِ، فَعَادَ النَّخَاسُ إِلَى مَقَالِهِ:

وَهِيَ صَابِئَةُ الْمُنْبِتِ وَالنَّجَارِ، تَرَقَّى إِلَيَّ أَنَّهَا أُعِدَّتْ لِتَكُونَ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِ  
رَبَّةِ الْجَمَالِ عِنْدَهُمْ، وَالصَّابِئَةُ يَتَخَرَّوْنَ فِي مِثْلِهَا أَنْ تَكُونَ نَسَقاً فِي الْمَلَامِ  
وَالْتَّقَاطِيعِ وَالشَّكْلِ مَعَ آلِهَتِهِمْ، لِتُبَرِّزَ لَهُمْ فِي الْمَوَاسِمِ وَالْأَعْيَادِ، وَكَأَنَّ رَبَّةَ الْجَمَالِ  
بَرَزَتْ لَهُمْ أَوْ تَقَمَّصَتْهَا، فَانْتَهَتْ بِهَا صُرُوفُ الْأَقْدَارِ إِلَى حَيْثُ تَرَى.

وَالْعَجَبُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَنَّهَا ذَاتُ فَلَسَفَةٍ فِي الْحَيَاةِ رَغِبَتْ بِهَا عَنْ مُتَعِ  
الْحَيَاةِ، أَلَقَتْهَا فِي مِثْلِ الزُّهْدِ.

---

(١) من قصيدة لي في وردة كُنْتُ غَرَسْتُهَا «أَيَّامَ زَمَانٍ»، كما يقولون، حين كانت لي دارٌ وكانت لي  
حديقة... كما هو الشأن في المقطعات الشعرية الأخرى المبتوثة في أقصوصة «مع أَرِينَب».

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّهَا سَكَنَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَطْمَأْنَنْتْ إِلَيْهِ فَأَعْتَنَقَتْهُ،  
وَأَتَتْ فِي فَهْمِهِ بِالْعَجَبِ الْعُجَاب...

قَالَ مُعَاوِيَةُ نَاشِطًا: كَيْفَ تَقُولُ؟

قَالَ: نَعَمْ هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ... فَضَمَّهَا إِلَى قَصْرِهِ، وَقَدْ بَذَلَ فِيهَا «مِائَةَ أَلْفِ  
دِرْهَمٍ». وَوَاصَلَ: لَقَدْ صَدَقَ وَاللَّهِ بُدَيْخٌ فِي مَا مَضَى يُحَدِّثُكُمْ بِهِ...

وَلَكِنْ لَمْ تَبْعُدِ الْوَصَائِفُ بِهَا، حَتَّى آسَتْوَى وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ:

«لِمَنْ تَصْلُحُ هَذِهِ الْجَارِيَةُ؟»

قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: مَنْ «سِوَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تَصْلُحُ لَهُ؟» وَكَذَلِكَ «قَالَ  
آخَرُ وَآخَرُ»، وَمُعَاوِيَةُ يَقُولُ لَا، وَيَبْتَسِمُ كَالَّذِي يُعَايِيهِمْ.

وَبَعْدَ أَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ الشَّوْفُ مَأْخَذَهُ، وَتَزَايَدَهُمُ التَّلَهُّفُ - وَالرَّاعِبُ يَكُونُ  
أَمِلًا أَبَدًا - فَكَانَ أَكْثَرُهُمْ تَشَوُّقًا بُدَيْخَ، فَقَدْ عَرَضَ فِي خَاطِرِهِ أَنْ مُعَاوِيَةَ قَرَأَ قَلْبَهُ.  
وَبَعْدَ أَنْ نَطَقَتِ التَّظَنُّةُ الْبَادِيَّةُ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَيْضًا، وَبَعْدَ لَأَيٍّ، قَالَ لَهُمْ  
مُعَاوِيَةُ:

إِنَّهَا بِرُوحِيَّتِهَا وَكَمَالِهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلْحُسَيْنِ، «فَإِنَّهُ أَحَقُّ بِهَا، لِمَا لَهُ مِنَ  
الشَّرَفِ، وَلِمَا كَانَ قَدْ شَجَرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَبِيهِ»... فَأَزْتَسَمْتُ عَلَى وَجْهِ الْحُضُورِ آثَارُ  
مَشَاعِرَ مُخْتَلِفَةٍ مُتَنَاقِضَةٍ. أَمَّا بُدَيْخُ فَكَانَ مَحَلًّا لَأَنْوَاعِ شَتَّى مِنَ الشُّعُورِ، فَقَدْ  
أَنْشَرَخَ وَأَكْتَأَبَ، وَطَرِبَ وَحَزِنَ، فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَنْفِعَالِ. إِنَّهُ أَمَلَ أَنْ يَكُونَ  
مَوْضِعًا لِسُقُوطِ هَذَا النَّدَى، وَتَمَنَّى، وَهُوَ الظَّامِيءُ بِالْهَوَى، أَنْ تَكُونَ رِيَّةُ هَذِهِ  
الْغَادَةِ الَّتِي هِيَ غَادَةُ قَلْبِهِ، وَلَكِنْ خَابَ أَمَلُهُ فَأَكْتَأَبَ. يَبْدَأُ أَنَّهُ مَشَى فِي حَوَاشِي هَذَا  
الْاِكْتِئَابِ عِنْدَهُ أَنْشِرَاخٌ، مَصْدَرُهُ أَنَّ الْحُسَيْنَ، وَهُوَ الْمُنْتَشِي بِرَحِيقِ الْهَيْكَلِ  
وَالْمُسْتَعْرِقُ فِي التَّأَمُّلِ الْإِلَهِيِّ، أَضْحَتْ صِنُوقُ مَقَامِهِ بَيْنَ آلِ أَبِي طَالِبٍ، هُوَ يَتَشَهَّى

أَنْ تَكُونَ قَرِيبَةً مِنْهُ وَكَفَى، إِنَّهُ يُرِيدُهَا مُتَعَةً قَلْبٍ وَقَدْ سَقَطَ عَلَى أُمِّيَّتِيهِ مِنْهَا.

فَفَارَ فِي نَفْسِهِ يَنْبُوغُ بِشَرٍّ، ضَحِكَ مَعَهُ ضِحْكًا خَفِيًّا فِي الْخَيَالِ، وَزَادَ بِهِ حَتَّى أَنْفَجَرَ يَضْحَكُ كَالْمُعَزِّدِ الْغَرْدِ، مِمَّا جَعَلَ الْحُضُورَ يَرْمُقُونَهُ بِاسْتِغْرَابٍ، وَطَافَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ: مَا بَالُ بُدَيْحٍ؟... وَلَكِنْ قَطَعَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ:

إِنَّهَا سَتَكُونُ مُفَاجَأَةً لَذَّةِ الْوَقْعِ عَلَى الْحُسَيْنِ، لَا سَيِّمَا وَقَدْ كَانَتْ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِ رَبَّةِ الْجَمَالِ، وَهُوَ الْحَالِمُ الْهَائِمُ بِالْجَمَالِ الْمُفْعَمِ بِهِ ضَمِيرُ الْوُجُودِ.

بَعْدَمَا تَنَاوَلَتْهَا الْوَصَائِفُ بِالتَّطْرِيبِ وَالْهَنْدَمَةِ مَعَ أَشْلُوبِ الْقَصْرِ، بَرَزَتْ كَالرَّبَّةِ الَّتِي تَحْلُمُ، وَالْبَحِيرَةُ تَضْطَفِقُ بِأَمْوَاجِهَا الرَّقِيقَةِ عِنْدَ الشَّاطِئِ.

كَانَتْ سَاحِرَةً اللَّفْتَةِ صَارِخَةً الْفِثْنَةِ، مُغْرِيَةً الْجَمَالِ، وَلَكِنَّمَا تُرَى، مَعَ ذَلِكَ، كَالْهَائِمَةِ مَعَ ضَمِيرِهَا. فَلَمْ تَكُنْ بِمَنْظَرِهَا تُشِيرُ أَصْدَاءَ الشَّهَوَاتِ، بَلْ تَنْشُرُ أَحْلَامًا نَشَوَى مِنْ أَحْلَامِ الرُّوحِ، تُلْقِي النَّاطِرَ قَسْرًا فِي مِثْلِ الْمِحْرَابِ الَّذِي يُشِيعُ فِي الْقَلْبِ مِثْلَ مَعْنَى صَلَاةٍ خَاشِعَةٍ.

وَهَذَا اللَّوْنُ مِنَ الْجَمَالِ غَيْرُ مُحَبَّبٍ إِلَّا لِلْهَائِمِينَ فِي دُنْيَا ضَمَائِرِهِمْ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ الَّذِينَ يَهَيِّمُونَ فِي دُنْيَا أَغْصَابِهِمْ وَيَنْطَلِقُونَ فِي مَدَى رُسُومِهَا، فَإِنَّهُمْ يَنْفِرُونَ مِنْ هَذَا الْجَمَالِ الَّذِي يُغْرِيهُمْ بِمَعْنَى مُبْهَمٍ لَا يَتَذَوَّقُونَهُ، فَيَطْعَمُونَ فِيهِ مَرَارَةً الْفَقْدِ، ثُمَّ لَا يُحَرِّكُ أَيْ وَتَرٍ مِنْ أَوْتَارِ قَيْثَارَةِ خَيَالِهِمْ الْمُرَكَّبَةِ تَرْكِيبًا لَا تَنْطِقُ مَعَهُ بِمِثْلِ هَذَا الْجَمَالِ، أَوْ تَنْطِقُ بِنَعْمَاتٍ مُتَنَافِرَةٍ تُوحي بِالْمَرَارَةِ.

إِنَّ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ الْمُعْنَوِيَّةَ مُرَكَّبَةً تَرْكِيبًا نَعْمِيًّا (مُوسِيقِيًّا) لِأَنَّهُ مُتَنَافِعٌ بِطَبِيعَةِ تَأْلِيفِهِ الْغَضَبِيِّ، وَهِيَ - عَلَى نَسَقِ أَوْتَارِهَا الْمُتَحَرِّكَةِ بِرِيشَةِ الْبَوَاعِثِ، إِذَا صَحَّ هَذَا التَّعْبِيرُ - مُتَنَوِّعَةٌ الْأَلْحَانِ وَالْإِيحَاءِ. فَمِنْهَا مَا يُوحي بِالشَّهْوَةِ، وَمِنْهَا مَا يُغري بِالتَّأَمُّلِ، وَمِنْهَا مَا يَجيشُ بِالْدمَاءِ، وَمِنْهَا مَا يَمُورُ بِالْحَنَانِ وَالْحُبِّ، وَمِنْهَا مَا يَدْفَعُ إِلَى

الاستغلاء. إِنَّ اللَّذَّةَ، فِي حَقِيقَتِهَا، أَنْطِبَاعَاتٌ وَأَرْتِسَامَاتٌ، فَإِذَا مَرَّتْ بِالنَّفْسِ  
نَمَازِجُهَا آسْتَجَابَتْ إِلَيْهَا، وَتَحَرَّكَتْ مَعَهَا حَرَكَةً أَنْسِجَامٍ لاذَّةً.

أَمْضَتْ فِي الْقَصْرِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، كَانَتْ لَا تَفْتَأُ خِلَالَهَا تُفَكِّرُ فِي مُصَادَفَةِ هَذَا  
الَلِّقَاءِ مَعَ بُدَيْحٍ، وَهِيَ الَّتِي بَاتَتْ فِي يَأْسٍ مِنْ لِقَائِهِ، وَقَدْ بَاعَدَتْ بَيْنَهُمَا أَسْبَابٌ  
وَأَزْمَانٌ.

وَذَهَبَتْ تُنَاجِي نَفْسَهَا: وَيَحْ بُدَيْحُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ فِي مِثْلِ يَقْظَةٍ عَوَاطِفِهِ لَيْلَةً  
لِقَائِنَا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، بَيْنَ أَرْوَاقِ هَيْكَلِ فِينُوسَ. وَيَحْ بُدَيْحُ! لَقَدْ كَابَدَ فِي سَبِيلِي كَثِيراً،  
وَتَجَرَّعَ أَمْرَ الْغُصَصِ وَالْآلَامِ مِنْ أَجْلِي، ثُمَّ تَنَاهَى بِهِ بُعَادٌ يَغْتَصِرُ عَلَيْهِ قَلْبُهُ، فَكَمْ ذَا  
يُقَاسِي؟

يَا مَا أَلَذَّ وَقْفَةً أَنْتِظَارٍ، فِي لَحَظَاتِ تَوَلُّهِ وَتَلَهُّفٍ، كُنْتُ أَقْفُهَا عِنْدَ بَعْضِ  
أَعْمِدَةِ الْهَيْكَلِ، وَبُدَيْحُ مُقْبِلٌ تَحْتَ رِداءِ اللَّيْلِ يُمْتِغِنِي بِنَفْسِهِ فِي جَلْوَةِ قَلْبٍ مُغْرَمٍ،  
أَضْفَتْ عَلَيْهَا خُلُوءَ الْأَحْلَامِ! يَا مَا أَقْدَسَ تِلْكَ الرَّعْشَاتِ، وَأَعْدَبَ وَقْعَهَا!!

إِنِّي لَأَذْكُرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَقَدْ هَبَّتْ فِيهَا الْأَعَاصِيرُ، وَلَعِبَتْ فِي مَسْرِحِهَا  
الْعَاصِيفَةُ، وَكَانَتْ الْآفَاقُ تَزْأَرُ زَيْراً مُخِيفاً، وَالْغَمَامُ يَهْطُ مَعَ جُنْحِ الظُّلَامِ كَثِيفاً  
كَثِيفاً، كَأَنَّهُ شَاءَ أَنْ يَطْمُرَ الْأَرْضَ بِمَا هُوَ مُنْزَرَعٌ فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ وَالْأَحْيَاءِ، وَكَانَتْ  
الرَّمَالُ تَتَعَالَى وَتَتَعَانَقُ فِي شَكْلِ الْأَقْوَاسِ، وَذُعِرَتْ فِيهَا حَتَّى طُيُورُ اللَّيْلِ،  
فَانْكَفَأَتْ مُنْكَمِشَةً مُنْخِيسَةً... فِي الْمَغَاوِرِ وَالْحَفَائِرِ، وَقَدْ أَمْسَكَتْ حَتَّى الرُّكُزَ  
وَالْهَمْسَ مِنْ نَأْمَتِهَا.

وَإِنِّي لَتَمَنِّيْتُ، وَأَنَا وَاقِفَةٌ عِنْدَ عَمُودِ الرِّوَاقِ الدَّاخِلِيِّ، أَنْ لَا يَأْتِيَ فِي لَيْلَةٍ  
بُزُكَانِ السَّمَاءِ. وَبَيْنَا أَنَا وَاجِفَةُ اللَّبِّ بِالسَّخُوفِ وَالتَّرْقُبِ، أُحْرِقُ قَلْبِي لِلرَّبَّةِ قُرْبَاناً  
كِي تَحُوطَهُ وَتَرْعَاهُ، إِذَا هُوَ مُقْبِلٌ كَأَنَّمَا رَمَى بِهِ الْإِعْصَارُ فِي الْعَرَاءِ، وَتَمَحَّضَتْ عَنْهُ



العاصِفَةُ وَوَضَعَتْهُ فِي التَّيَّارِ الدَّائِرِ فِي جُنُونٍ.

أَسْرَعْتُ إِلَيْهِ أَعْتَنَقُهُ دُونَ الْهَيْكَلِ، وَهُوَ يَلْفُنِي كُثْلَةَ طُفُولَةٍ، حَذَرًا عَلَيَّ مِنْ طَيْشِ هَذَا اللَّيْلِ، وَفِي الْهَيْكَلِ آسْتَنَدَ إِلَى صَدْرِي كَالَّذِي خَرَجَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ ظَافِرًا، يُجَدِّدُ حَيَاتَهُ فِي حِسِّ مَخْلُوقٍ جَدِيدٍ، إِنَّهُ خَرَجَ ظَافِرًا مِنْ مَعْرَكَةِ الْعَنَاصِرِ، وَقَدْ آسْتَدَارَتْ عَلَيْهِ بَضْرَاوَتِهَا. إِسْتَنَدَ إِلَى صَدْرِي وَأَطْمَأَنَّ كَأَنَّهُ يَجِدُ فِيهِ يَنْبُوعَ حَيَاةٍ، فَهُوَ يَسْتَمِدهُ بَعْضَ مَا آتَتْهُبَتُهُ الْعَاصِفَةُ، وَهُوَ يُصَارِعُ الْإِعْصَارَ.

قُلْتُ لَهُ، وَأَنَا أَدْعِدُّ جَبْهَتَهُ وَأَعْبَثُ بِشَعْرِهِ الْمُتَطَلِّلِ<sup>(٢)</sup> الَّذِي كَمَنْتُ فِيهِ أَصَابِعُ الْعَاصِفَةِ: لِمَاذَا رُكُوبُكَ الْإِعْصَارَ إِلَى مِخْرَابِ حُبِّنَا؟ لَكَأَنَّكَ مِنْ عَدَمِ مُبَالَاتِكَ مُحِبِّ فَوْقَ بُرْكَانٍ... فَابْتَسَمَ وَأَخَذَ وَجْهِي بَيْنَ كَفَّيْهِ يَقُولُ:

أَعْرِفُ أَنَّكَ تُصَلِّينَ فِي مِخْرَابِ الْحُبِّ وَلَا أَسْعَى إِلَيْكَ بِأَجْنِحَةِ الطَّيْرِ، كَيْ أَشَارِكَ تَرْنِيمَةَ الْهَوَى وَتَرْنِيلَةَ الْهَيْامِ؟ إِنَّكَ لَتَقْسِينِ عَلَيَّ فِي الظَّنِّ بِي.

قُلْتُ: عَفْوُكَ! أَرَدْتُ أَنْ تَتَّخِذَ لِنَفْسِكَ مِخْرَابًا فِي الذُّكْرِ، وَلَا تَتَجَسَّمْ هَذِهِ الْأَخْطَارَ إِلَيَّ.

قَالَ: إِنَّ مِخْرَابَ الذُّكْرِ يُغْرِي بِالظُّلْمِ فِي الْحُبِّ وَيُضَاعِفُ سُعُورَهُ، وَأَمَّا الرَّيُّ فِي الْحُبِّ فَإِنَّمَا يَهْبِطُ فِي مِخْرَابِ هَذَا الصَّدْرِ الَّذِي يَمْرُخُ فِي فَضَائِهِ قَلْبٌ يَمْدُ بِنَدَى الْغَرَامِ.

إِلَيْهِ غَادَةَ أَحْلَامِي! لَيْسَتْ الْعَاصِفَةُ الرَّعُوبُ هِيَ الَّتِي تَشْهَدِينَ فِي حَوَاشِي هَذَا اللَّيْلِ، وَإِنَّمَا هِيَ عَاصِفَةُ الْقَلْبِ وَقَدْ فَارَتْ فِيهِ فَائِزَةُ آلِتِياعٍ، بَلْ تِلْكَ، بِجَنْبِ هَذِهِ، زَغَرْدَاتُ وَأَبْتِسَامَاتُ وَزَقَزَقَاتُ تُرْسِلُهَا الطَّيْرُ مَعَ السَّحْرِ... قَسَمًا لَوْ حَالَتْ دُونَكَ أَرْضُ زُرْعَتْ فِيهَا كُلُّ الْبَرَاكِينِ، لَتَخَطَّيْتُهَا إِلَيْكَ مُعْتَبِطًا مَسْرُورًا.

(٢) نَعْنِي بِالْمُتَطَلِّلِ الْمُتَّخِذَ سُكُلَ الْأَطْلَالِ، وَتَفَعَّلَ بِهِذَا الْمَعْنَى قِيَاسِيًّا.



فَقُلْتُ مُعْتَرِضَةً: لَا تُبَالِغْ، فَإِنَّ هَذَا بَيْنَ الْبَشَرِ لَا يَكُونُ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ طِبَاعِ  
الرَّبَّاتِ وَالْأَرْبَابِ... فَذَهَبَ ضَاحِكاً يَقْصُ عَلَيَّ قِصَّةَ ذَلِكَ الْعَاشِقِ الْكُرْدِيِّ الَّذِي  
طَلَبَتْ مِنْهُ فَتَاهُ هَوَاهُ وَزِدَّةَ حَمْرَاءَ وَأُخْرَى صَفْرَاءَ، وَكَانَتْ حَدِيقَةُ الْوُرُودِ فِي يَقْظَةِ  
حُرَّاسٍ أَشِدَّاءَ، وَفِي عَيْنٍ أَسْوَدَ غَضَابٍ، وَيَفْصِلُ دُونَهَا نَهْرٌ يَعُجُّ بِالتَّيَّارَاتِ، فَانْطَلَقَ  
الْعَاشِقُ فِي مَدَى رَغْبَتِهَا يَخْوِضُ النَّهْرَ، وَتَقَلَّبَ فِي حَدِيقَةِ الْوُرُودِ يَبْحَثُ عَنِ  
الْوَزْدَةِ الْحَمْرَاءِ فَلَمْ يَجِدْهَا. فَعَادَ مُبَلَّلَ الثِّيَابِ يَقُولُ لَهَا مُبْتَهِجاً: لَقَدْ أَتَيْتُكَ  
بِهِمَا... فَإِنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ فِي يَدِهِ الْوَزْدَةَ الصَّفْرَاءَ، وَأَمَّا الْوَزْدَةُ الْحَمْرَاءُ فَكَانَ يَحْمِلُهَا  
فِي صَدْرِهِ تُغَرَّةً فَوَّارَةً بِالدِّمَاءِ، فَقَدْ أَصَابَ سَهْمُ الْحُرَّاسِ قَلْبَهُ فَشَطَرَهُ...  
قُلْتُ لَهُ مُفْجَعَةً: أَيْكَونُ ذَلِكَ حَقًّا؟!

قَالَ: لَيْسَ هُوَ بَعِيداً عَنْكَ، أَلَا فَامْتَحِنِي فِي الْعَاشِقِ الْكُرْدِيِّ. أَقُولُ لَكَ وَأَنَا  
أَعْنِي مَا أَقُولُ، لَوْ تَحَدَّثَنِي كُلُّ أَرْبَابِ الْأُولِيبِ كَمَا تَحَدَّثُ هِرْقُلَ لَقَاوَمْتُهَا فِي سَبِيلِكَ  
سَاحِرًا بِقُوَّتِهَا... فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْاسْتِمْرَارِ، وَقُلْتُ لَهُ:

يَحَقِّي لَا «تُجَدِّفْ» عَلَى الْأَرْبَابِ، وَأَيْضاً فِي هَيْكَلِ رَبَّةِ الْجَمَالِ فِينُوسَ، إِنِّي  
أَخَافُ عَلَيْكَ... فَانْقَلَبَ يُقَهِّقُهُ قَائِلاً:

لِمَاذَا لَا تُفَكِّرِينَ أَنَّكَ أَنْتِ الرَّبَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَأَمَّا فِينُوسُ فَرَبَّةٌ خَيَالِيَّةٌ أَثِيرِيَّةٌ  
فَقَدَتْ حَرَارَتَهَا، وَيَا بُرَايَا كَاهِنَتُهَا فِي هَيْكَلِهَا، يَمْدُونُ وَجُودَهَا الْبَارِدَ فِي الْخَيَالِ،  
بِحَرَارَةِ أَنْتِ تَنْشُرِينَهَا وَتُوزِّعِينَهَا. فَوَضَعْتُ يَدِي مُتَوَلِّهَةً عَلَى فَمِهِ أَقُولُ:

لَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ تَجْدِيفاً. آهٍ لَقَدْ فَجَعْتَنِي، أَأَنْتِ أَيْضاً يَا بُدَيْحُ  
تَتَكَلَّمُ بِ «الْهَرَطَقَاتِ»؟...

لَقَدْ كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ مُؤْمِنَةً بِقُدْرَةِ الرَّبَّاتِ، وَأَنَا أَرْغَبُ عَلَى مَنْ أُحِبُّ  
بَأَنْ يَكُونَ مِثْلِي رَأياً وَإِيمَاناً، لَكِنِّي عَرَفْتُ، بَعْدَ ذَلِكَ، أَنَّ بُدَيْحاً كَانَ أَعَمَّقَ مِنِّي

مَعْرِفَةً وَأَهْدَى تَفْكِيراً.

لَقَدْ كُنْتُ مُفْعَمَةً بِالْإِيمَانِ، فَصَوَّرَهُ لِي حَدِيثُهُ صُورَةً مُنْكَرَةً تُوْحِي بِالشَّرِّ الْكَرِيهِ، فَانْقَبَضَتْ عَنْهُ وَذُعِرْتُ مِنْهُ، وَبَالَغَ بِي هَذَا الدُّعْرُ فَكَرِهْتُهُ، وَغَدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَحَاشَاهُ وَأَنْفِرُ مِنْهُ، أَوْدُ أَنْ لَا أَرَاهُ. وَكُنْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي: أَيْكُونُ بُدَيْحٌ مُجَدِّفاً وَهُوَ فِي نَفْسِي صُورَةٌ مِنْ مَلَائِكَةٍ؟ كَلَّا لَا أَوْدُ أَنْ أَخْنُقَ بِيَدِي بُدَيْحاً الْعَائِشَ فِي خَيَالِي، أَوْدُ أَلَّا تَتَشَوَّهَ صُورَتُهُ فِي نَفْسِي، وَأَنَا، إِذَا اجْتَمَعْتُ إِلَى بُدَيْحٍ سَتَمْتُدُّ يَدَهُ إِلَى تَشْوِيهِ مَا آسْتَوِي فِي خَيَالِي عَنْهُ. وَلَكِنْ بُدَيْحاً الْخَيَالِي مُحَبَّبٌ إِلَيَّ الْحُبُّ كُلُّهُ، وَأَتَمَنَّى أَنْ أَظَلَّ مُتَمَتِّعَةً بِهِ، مُنْتَشِئَةً بِمِثَالِيَّتِهِ، وَمِثْلِي كَاهِنَةً رَاضَتْ نَفْسُهَا عَلَى الْأَحْلَامِ، إِنَّمَا تُحِبُّ فِي أَحْلَامِ الرُّوحِ دُونَ حُبِّ فِي أَحْلَامِ الْأَعْصَابِ، فَكَانَ طَبِيعِيّاً أَنْ كُنْتُ أَتَوَارَى كُلَّمَا تَعَرَّضَ لِي بَعْدَ ذَلِكَ. وَهَذَا مَا يَقَعُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ فِكْرَةً فِي النَّفْسِ، بَلْ كَانَ عُقْدَةً فِي الرُّوحِ؛ أَوْ أَرْزَمَةً فِي الْوُجْدَانِ. وَكُلَّمَا كَانَ إِيمَانُ الْمَرْءِ عُقْدَةً فِي الرُّوحِ تَكُونُ عَوَاطِفُهُ قَاصِرَةً عَلَى مَنْ يُشَارِكُهُ هَذَا الْإِيمَانُ دُونَ سِوَاهُ، بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ فَتَسَاوِرُهُ نَزَغَاتُ يَتَحَرَّكُ مَعَهَا تَعَصُّبُهُ.

أَمَّا الْفِكْرُ الْمُجَرَّدُ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ تَعَصُّباً، وَإِنَّمَا التَّعَصُّبُ فِي مَكَانِ الْوُجْدَانِ مِنَ النَّفْسِ، فَهِيَ، أَيْ نَزَوَاتُ النَّفْسِ، تَتَحَكَّمُ بِالْعَوَاطِفِ وَتُكْسِبُهَا لَوْنَهَا. وَكُلَّمَا كَانَ الْفِكْرُ أَكْثَرَ ضَيْقاً، وَالْوُجْدَانُ أَكْبَرَ عُقْداً، فَهُنَاكَ يَوْجَدُ شَرُّ أَنْوَاعِ التَّعَصُّبِ، وَعِنْدَهُ يَسْتَضِيْقُ الْمَرْءُ حَتَّى بُوْجُودِ مَنْ لَا يُشَارِكُونَهُ عَقِيدَةَ الْإِيمَانِ عَلَى لَوْنِ مَا وَنَحْوِ مَا. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا بَعْضُ مِنْ طَبِيعَةِ الْأَنَانِيَّةِ فِي الْبَشَرِيِّ وَلَا أَقُولُ الْإِنْسَانَ، فَإِذَا كَانَ فِي التَّدْيِينِ فِكْرَةُ إِيمَانٍ فَهُنَاكَ تَدْيِينٌ صَحِيحٌ عَلَى نَهْجِ إِنْسَانِيٍّ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي التَّدْيِينِ أُنَانِيَّةُ إِيمَانٍ فَهُنَاكَ أخطرُ شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ اللَّإِنْسَانِيَّةِ الْتُّكْرَاءِ.

فَنَزْعَةُ التَّدْيِينِ الصَّحِيحَةِ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُنَا نَحْكُمُ الْإِيمَانَ بِالْفِكْرِ، دُونَ الْعَكْسِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ مِنْ أَرْزَمَةِ نَفْسٍ وَيُوَلَّدُ أَرْزَمَةَ نَفْسٍ وَحَيَاةٍ أَيْضاً. أَمَّا الْفِكْرُ فَلَيْسَ يَقْبَلُ

عُقْدَةً، بَلْ مِنْ وَظِيفَتِهِ أَنْ يَحُلَّ الْعُقْدَ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ... وهو إذا قَبِلَ الْعُقْدَ أَحْيَانًا فَإِنَّمَا يَقْبَلُهَا فِي ضَرْبٍ مِنَ الْامْتِحَانِ، وَفِي ضُرُوبٍ خَفِيَّةٍ مِنَ الْاِزْتِيَابِ، فَالْفِكْرُ يُرَادِفُ الْامْتِحَانَ أَوْ النَّقْدَ الْمُجَرَّدَ. وَتَقَدُّمُ الْإِنْسَانِ مَعْنَاهُ تَقَدُّمُهُ فِي الْفِكْرِ الَّذِي يُنْتِجُ حَلًّا أَكْبَرَ مِقْدَارٍ مِنَ الْعُقْدِ. وَفِي ظَنِّي الْيَوْمَ أَنَّ تَقَدُّمَ الْفِكْرِ لَيْسَ مَعْنَاهُ الْقُدْرَةُ أَوْ الْغِنَى فِي التَّفَكِيرِ، بَلْ مَعْنَاهُ الْكِفَاةُ عَلَى التَّفَكِيرِ بِدُونِ أَغْصَابٍ، أَيْ بِتَجَرُّدٍ لِلْفِكْرِ، وَمِنْ ثَمَّ لَا نُحِبُّ أَوْ نَكْرَهُ وَفَقَّ مَا نَعْتَقِدُ وَنَهْوِي، وَلَا يَضُرُّ بِنَا الْقُرْبُ أَوْ الْبُعْدُ، بَلْ تَمَحِّي فِكْرَتُهُمَا ثَمَّ لَا تَتَصَرَّفُ بِعَوَاطِفِنَا تَبَعًا لِهَمَا.

لَيْتَنِي كُنْتُ أَعْرِفُ هَذَا مِنْ قَبْلُ، إِذَا لَمَّا جَفَوْتُهُ وَنَفَرْتُ مِنْهُ، وَظَلَلْنَا فِي مُتَعَةِ الْحُبِّ الْخَالِيدِ... لَقَدْ رَأَى بُدَيْحٌ مِنِّي ذَلِكَ الْإِعْرَاضَ فَلَمْ يُطِيقِ الْحَيَاةَ وَاجْتَوَاهَا، فَذَهَبَ عَلَى وَجْهِهِ، لَا أَدْرِي أَيْنَ رَمَتْ بِهِ يَدُ الْأَقْدَارِ؟

وَلَقَدْ أَحْسَسْتُ وَاللَّهِ، بَعْدَ مَا فَقَدْتُهُ، بِالْأَسَى الْوَاحِزِ الْأَسِيفِ، فَطَلَبْتُ السُّلُوءَ فِي الشُّرُودِ بِالْمَعْرِفَةِ، فَأَنْدَفَعْتُ إِلَى فِكْرِ جَدِيدٍ؛ وَهَجَرْتُ الْهَيْكَلَ وَابْتَدَأْتُ رِخْلَتِي وَرَاءَهُ مِنْ نُقْطَةِ هَائِمَةٍ، فَأَنْتَهَيْتُ بِي قَرَاصِنَةُ الرُّومِ إِلَى حَيْثُ مَكَانِي، وَكَانَ قَدْرًا مَاتِعًا، فَقَدْ رَأَيْتُ بُدَيْحًا...

بَعْدَ مَقَامٍ قَصِيرٍ فِي الْبِلَاطِ «حُمِلْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ مَشْفُوعَةً بِأَمْوَالٍ عَظِيمَةٍ وَهَدَايَا كَثِيرَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَمُحَاطَةً بِكُوكَبَةٍ مِنَ الْفُرْسَانِ، وَزَوَّدَ الْمَلِكُ رَئِيسَ الرُّكْبِ كِتَابَهُ إِلَى الْحُسَيْنِ، جَاءَ فِيهِ:

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اشْتَرَى جَارِيَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَأَتَرَكَ بِهَا».

أَدْخِلْتُ عَلَى الْحُسَيْنِ وَهُوَ مُنْصَرِفٌ إِلَى قُرْآنِهِ، سَابَحَ فِي مَدَى تَأْمُلَاتِهِ يَقْرَأُ «وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَايَ، هَذَا غُلَامٌ. وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ».

وكان في الجوّ الذي يكتنف الحسين ما أعاد إليها ذكرى الهيكل، ونقلها إلى مثل المحراب، وزاد بها هذا الشعور، فأعتقدت يقيناً أنها لم تعد في شيء مما يتصل بدنيا الناس، فحفظتها سكينه، ولقتها هداة روح، وغرقت في خضم بعيد القرار. وأحسّت أنها مثل غزني (طير الماء) تترجّح به الأمواج الحالمات، وكانت سكرى بما يساقط إلى سمعها من نغمات مسخورة، تشعّر بها في مدى روحها عذبة نديّة.

كانت لها هداة طويلة لم تُفق منها إلا على صوت الحسين يستقبل رئيس الركب، وراح هذا يُخبره بكل خبرها، ويروي له كل ما ترقى إلى سمعه من أنبائها. فالتفت الحسين إليها في ابتسامة مواسية يقول:

لظني بك، وأنت جديدة عهد بالاغتراب، أنك موحشة النفس، وبودي أن تتداركك حال تأنسين بها وتطمئنين.

قالت له هوى: كنت خليقة بالوحشة في غير مكانك. ولكنني، وأنا فيه، فإني جديدة بأطمئنان في النفس والضمير...

شاعت على وجه الحسين ابتسامة هادئة هائلة، وقال دهشاً: لقد سبق إلى ظني أنك لا تجدين العريّة على نسق ما أسمع، ولكن أماً وأنت مثل أصيلة في اللسان، فلن تكوني غريبة عن حياة بيتنا العريّة، إن لم تتذوّقها مثل أصيلة فيها أيضاً...

فابتسمت في استحياء وإغضاء وقالت: بل يا مولاي - لأحس في كنفك أنني عريّة صليّة، عريّة الهوى والقلب في مواقع رغباتها وميولها، ولقد حبّب إلي لسان العرب أنه يتمتع بأكبر قسط من وحي الطبيعة والفطرة، ففيه صور وأصداء، ومناظر تامة صادقة أنزعّت من الطبيعة مباشرة، وشكبت في قوالب

الألفاظ بِدَقَّةٍ وَحَقِيقَةٍ، بَلْ لَقَدْ أَفْرَغَتِ الطَّبِيعَةُ أَشْيَاءَ ذَاتِيَّتِهَا فِي الْكَلِمَاتِ، كَأَنَّهَا طَلَبَتْ حَرَكَتَهَا الْحَيَّةَ فِي اللُّغَةِ.

وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ أَيْضاً مَشَاعِرُ وَأَحَاسِيسُ إِنْسَانِيَّةٌ وَحَيَوِيَّةٌ، لَمْ تَتَحَرَّفْ وَتَتَكَسَّرْ بِتَحَكُّمِ الْفِكْرِ وَآخْتِلَاقِهِ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ تَشْوِيهِهِ. فَهَذَا اللِّسَانُ طَبِيعَةٌ وَحَيَاةٌ وَإِنْسَانِيَّةٌ فِي أَصْدَقِ أَلْوَانِهَا، وَمُقَرَّدَاتُهُ كَلِمَاتُ الطَّبِيعَةِ أَوَّلَ مَا تَحَرَّكَتْ وَنَطَقَتْ، فَقَدْ تَصَيَّدَهَا الْعَرَبِيُّ وَانْتَحَتَهَا، وَهُوَ بَعْدُ يَتَوَجَّهُ بِالْقَرِيحَةِ النَّقِيَّةِ، دُونَ آلِتَوَاءَاتِ الْفِكْرِ وَالتَّفَافَاتِهِ، فَهِيَ أَنْقَى مَا تَكُونُ لُغَةٌ فِي مَذْهَبِ التَّعْبِيرِ.

وَلَقَدْ عَمَدْتُ إِلَى كَهْفِ رُوحِي فَوَجَدْتُهُ قَاتِماً حَالِكاً، وَرَأَيْتُ مُضْبَاحَ فِكْرِي خَائِياً، وَهُوَ إِذَا تَوَقَّدَ وَشَعَّ، فَلَا يُضِيءُ كَهْفَ رُوحِي، وَأَظْلَمُ مِنْهُ فِي دَيْجُورٍ، فَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُمَا بِسُدُودٍ كَثِيفَةٍ صَفِيقَةٍ، لَكِنِّي وَجَدْتُ دِينَكُمْ الْجَدِيدَ قَدْ حَاوَلَ، وَنَجَحَ إِلَى أَكْبَرِ حَدٍّ، فِي رَفْعِ هَذِهِ السُّدُودِ الْقَائِمَةِ فِي دُرُوبِ النَّفْسِ، وَأَذَكَى شُعْلَةَ الْفِكْرِ، فَاتَّصَلَ مَا بَيْنَ الْفِكْرِ وَالرُّوحِ بِالشُّعَاعِ وَبِتُّ مُتَأَلِّقَةً الْمَعْنَى، فَسَكَنْتُ إِلَى دِينِكُمْ، وَطَعِمْتُهُ أَيْضاً فَتَعَشَّقْتُهُ، إِنَّهُ رَفَعَ السُّدُودَ فِي دُرُوبِ رُوحِي، وَكَانَتْ هَائِمَةً مُتَخَبِّطَةً بَيْنَ سَدٍّ وَسَدٍّ، وَأَطْلَالٍ خُرَافَاتٍ وَأَسَاطِيرِ.

قَالَ: لِلَّهِ أَنْتِ! أَكُنْتِ حَكِيمَةً أَمْ أَدِيبَةً؟ هَلْ «تُجِيدِينَ الْقُرْآنَ» تِلَاوَةً؟

قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ: فَأَقْرَأِي عَلَيَّ، إِنَّ شِئْتِ... فَرَأَحَتْ تَتْلُو «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ. وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ، وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ



حَفَظَةً، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا، وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ»... وَكَانَتْ تَتَوَاجَدُ فِي تِلَاوَتِهَا تَوَاجَدَ مَنْ قَدْ أَخَذَ بِنَشْوَةِ مُفَعَّمَةٍ.

قَالَ لَهَا: يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّكَ أَكْثَرُ وَعِيًا لِهَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ، لِمَا رَأَيْتُ عَلَيْكَ مِنْ سَبَحَاتِ الْحَشْيَةِ.

قَالَتْ: يَوَدِّي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ ظَنِّ مَوْلَايَ بِي. وَلِمَ لَا يَعْرُونِي مَا قَدْ عَرَانِي؟ وَأَنَا أَتْلُو هَذِهِ الْآيَاتِ الْقَوَارِعَ الَّتِي تَجَعِّلُنِي فِي مُحِيطِ عِلْمِ اللَّهِ وَكَأَنِّي كُلُّ مَا فِي الْمُحِيطِ أَوْ لَيْسَ غَيْرِي فِيهِ، عَلَى أَنَّنا مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ فِي مَسْرَحِ نَقُومٍ عَلَيْهِ بِأَدْوَارِنَا، وَلَسْنَا نَذَرِي أَمْحُسِنُونَ نَحْنُ فِي أَدْوَارِنَا أَمْ مُسِيئُونَ، ثُمَّ هَلْ هُنَاكَ أَنْقَى تَصْوِيرًا لِعَلَاقَةِ اللَّهِ السَّبَبِيَّةِ فِي الْوُجُودِ، وَلِعَلَّاقَةِ اللَّهِ الْأَدَبِيَّةِ بِالْإِنْسَانِ؟ أَمَا فِي كُلِّ هَذَا مَا يَبْعَثُ عَلَى الدَّهْشَةِ وَالْحَشْيَةِ جَمِيعًا؟ أَمَا فِيهِ مَا يُغْرِي الرُّوحَ بِلَحْظَةِ سَكِينَةٍ وَهَذَاهُ تَأْمُلٍ؟

وَكَانَ الْحُسَيْنُ يُقَاطِعُهَا بِقَوْلِهِ: إِيه! إِيه! أَيُّ بُنْيَّةٍ، فَقَدْ أَحْسَنْتِ وَاللَّهِ!...

وَوَاصَلَتْ تَقُولُ: أَمَا يَجِدُ مَوْلَايَ فِي الْوُقُوفِ عِنْدَ هَذَا التَّعْبِيرِ «مِفَاتِحُ الْغَيْبِ» مَا يَبْعَثُ عَلَى التَّأْمُلِ الطَّوِيلِ، وَيَنْشُرُ فِي الْقَلْبِ وَجَمَّةَ تَفْكِيرٍ مَدِيدٍ؟ هَذَا التَّعْبِيرُ الَّذِي يَرُسُّمُ الْغَيْبَ فِي الْخَيَالِ عَلَى هَيْئَةِ أَدْرَاجٍ قَامَتْ عَلَيْهَا الْأَغْلَاقُ، وَفِي كُلِّ أَشْيَاءِ الْوُجُودِ وَالطَّبِيعَةِ غَيْبٌ مَسْتَوْرٍ، أَوْ فَضَاءٌ وَدُنْيَا مِنْ عَالَمٍ غَيْبِيٍّ مَحْجُوبٍ، فَالْشَّيْءُ مِنَ الْوُجُودِ دَرَجٌ غَيْبِيٍّ يَسْبُحُ فِيهِ عَالَمٌ خَفِيٍّ مَدِيدٍ، وَعِنْدَ اللَّهِ مِفْتَاحُهُ، وَمَا مُحَاوَلَاتُنَا الْحَشِيَّةُ فِي اسْتِكْنَاهِهِ إِلَّا غَوْصٌ وَوُقُوفٌ عِنْدَ الشَّاطِئِ بِإِزَاءِ هَذَا الْمَجْهُولِ الْمُنْتَظَرِ وَضُوحُهُ بِكَلِمَةِ «مِفَاتِحِ» الدَّائِرَةِ فِي حَرَكَتِهَا عَلَى الْأَغْلَاقِ.

قَالَ: لَقَدْ زِدْتِ عَلَى الْإِحْسَانِ، أَيُّ بُنْيَّةٍ... وَأَضْفَى صُمُوتٌ طَوِيلٌ كَانَ

مَسْرَحَ خِوَاطِرَ شَتَّى، وَلَكِنَّ الْحُسَيْنَ قَطَعَهُ بِقَوْلِهِ:

أَلَا تَزُوِين «شَيْئاً مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ» وَأَدْبِهِمْ؟

قالت: بلى... وكانت لم تزل في إثارة من صوفيَّتها، فأنشدته أبياتاً جاء

بينها:

أَنْتَ نِعَمَ الْمَتَاعِ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

ولذاها الإنشاد في هذا اللون المبطّن بالروح ولقّات الإِشراق، فأنشدته شعراً  
سبق لها أنها أنشأته مُعَبَّرَةً عَنْ شُعُورِ نَفْسِهَا «فِي مَجْلِسِ مُعَاوِيَةَ»، وما قد كَوَّنَتْهُ مِنْ  
نَظَرَةٍ إِلَى الْحَيَاةِ وَقِيَمَتِهَا وَجُهْدِ الْحَيِّ فِيهَا:

رَأَيْتُ الْفَتَى يَمْضِي وَيَجْمَعُ جُهْدَهُ رَجَاءَ الْغِنَى، وَالْوَارِثُونَ قُعُودُ

وَمَا لِلْفَتَى إِلَّا نَصِيبٌ مِنَ الثُّقَى إِذَا فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ يَعُودُ

فلم يَمْلِكِ الْحُسَيْنُ إِلَّا أَنْ يَتَوَاجَدَ، وما هُوَ إِلَّا أَنْ فاضَ فِي قَلْبِهِ يَتَبَوَّعُ حَنَانِ،  
تَنَدَّثَ مَعَهُ مُقْلَتَاهُ، وَتَبَلَّوَرَ فِيهِمَا مِثْلُ الدَّمْعِ، وَإِلَّا فَهُوَ عُصَارَةُ شُعُورِ بَعَبَقِ الثَّقْوَى.  
ثُمَّ قَالَ لَهَا: إِذْهَبِي «فَأَنْتِ حُرَّةٌ، وَمَا بَعَثَ بِهِ مُعَاوِيَةُ مَعَكَ فَهُوَ لَكَ»، عَلَى أَنَّكَ  
عِنْدِي أَبَدًا مِثْلُ كَرِيمَةٍ عَزِيزَةِ الْمَكَانِ فِي هَوَى أَهْلِهَا...

وما هو حَتَّى أَقْبَلَ بُدَيْحَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَوْفَدَهُ مَوْلَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ  
إِلَى دَعْوَةِ الْحُسَيْنِ، وَلَكِنَّهُ مَا إِنْ مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَى مَهَابَةَ قَلْبِهِ مَرَّةً أُخْرَى، يَبْدُو  
أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَانَ أَغْنَفَ شُعُوراً بِهَا، فَقَدْ جَدَّدَتْ عَهْدَ هَوَاهُ فِي دِمَشْقَ، وَقَدْ  
أَحَالَتْ قَلْبَهُ الَّذِي كَانَ كَشِلُو تَنَاهَى فِي حُبِّ ضَامِرٍ قَدِيمٍ، إِلَى قَلْبٍ جَدِيدٍ حَيَاةٍ،  
أَنْصَبَ فِيهِ جَدِيدُ حُبٍّ مَا فَصَلَ عَنْهُ أَمْسٌ وَغَدٌ. فَتَاهَتْ حُرُوفُ كَلِمَاتِهِ فِي فَمِهِ،  
وَاحْتَضِرَتْ مُضْطَرِبَةً عَلَى لِسَانِهِ، وَقَسَراً وَجَمَ فِي ذُهُولٍ طَالَ بِهِ مَدَاهُ...

وتداركها مثلُ شعوره وغصّة قلبه فأنخطفَ لونها، والحسينُ يرى فأطرقَ  
إطراقةً مائجةً بالإيحاء. مرّ في خاطره معها أن بُدّيحاً ينتهي إلى مثلِ غزبتها، فغيرُ  
بعيدٍ أن تكون ذات هوى به وضرب الزمان بينهما، فباعدهما قدر عاد في دورة  
أخرى يضمّهما... وجدير بي أن أكون خطّ النهاية في دورة القدر المبهمة،  
فالتفت إلى بُدّيح وقال:

كُنْتُ على أهبّة أن أَسْتَقْدِمَكَ إِلَيَّ يَا بُدّيحُ، فَسَقَطْتُ مِنْ نَفْسِي عَلَى مَوْعِدٍ،  
أَنْتَ عِنْدِي مِثْلُ كَرِيمٍ عَزِيزٍ، وَهِيَ عِنْدِي مِثْلُ... فَاسْتَخَفَّ بِبُدّيحٍ عَاصِفُ فَرْحَةٍ  
كُبْرَى، حَتَّى كَأَنَّهُ دُفِعَ إِلَى الْخُلْدِ مِنْ نَافِذَةٍ، بَعْدَ أَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَابِ طَوِيلًا.  
وَلَمْ يُزِ إِلَّا مُكَبِّبًا عَلَى يَدِ الْحُسَيْنِ يُقَبِّلُهَا، فِي مَوْضِعٍ تَلَاقَى عَلَيْهِ نَغْرَان: نَغْرُهُ وَنَغْرُهَا.  
وَكَانَ فِي مَنْظَرٍ وَضَعِيهِمَا مَا أَفَعَمَ قَلْبَ الْحُسَيْنِ بِغِبْطَةِ الرُّوحِ «فَفَاضَتْ مُقْلَتَاهُ»  
بَدَمْعِ الشُّرُورِ، الشُّرُورِ غَيْرِ الْمَحْدُودِ. وَبَذَلَ لُهُمَا «أَلْفَ دِينَارٍ، وَقَامَ إِلَى صَلَاتِهِ»  
هَانِيءَ الْقَلْبِ رَيَّانَ، نَاعِمَ الضَّمِيرِ نَشْوَانَ...

\*

جَاؤُوا يَفْتَنِيصُونَهُ بِغَانِيَةٍ مِنْ فُتُونِ الدُّنْيَا...  
لَعَلَّهُمْ يَهْبِطُونَ بِهِ إِلَى مِثْلِ حَضِيضِهِمْ وَرُغَامِهِمْ...  
يَبْدَأُ أَنَّهَا مَا آسْتَهْوَتْهُ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ آسْتَهْوَاهَا...  
فَقَدْ مَسَّهَا بِشُعْلَةٍ مِنَ الْإِشْرَاقِ، غَدَتْ بِهَا خَلْقًا آخَرَ...

\*

وَجَدَ قَلْبًا حَائِرًا يَبْحَثُ عَنْ قَلْبٍ تَائِهٍ...  
وَكُلَّمَا أَوْشَكَ أَنْ يَلْتَقِيَا، يُضِيعَانِ الطَّرِيقَ مَرَّةً أُخْرَى...

فَكَانَ هَمُّهُ أَنْ يَصْنَعَهُمَا سَعِيدَيْنِ.. فَضَمَّ قَلْبًا إِلَى قَلْبٍ، وَمَزَجَ نَفْسًا  
بِنَفْسٍ!....

\* \* \*

## إشارة

أَفَاقَ مَنْ فِي الْبَلَاطِ الْأُمَوِيِّ، عَلَى حَرَكَاتٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ، أَمْتَاَزَتْ بِالنَّشَاطِ فِي تَجْمُّعَاتِ تَشَاوُرِ هَامِسٍ، وَكَانَ جَوْ هَذَا التَّجْمُّعِ مَطْبُوعاً بِطَابَعِ الْاهْتِمَامِ وَالْجِدِّ، فَقَدْ أَرْمَعَ أُسَاطِينُهُ إِحْدَاثَ أَنْقِلَابٍ خَطِيرٍ يَمَسُّ الْقَاعِدَةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِلْحُكْمِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ أَرْمَعُوا عَلَى أَخْذِ الْعَرَبِ بِحُكُومَةِ الْفَرْدِ، بَعْدَ أَنْ رَاضُوهُمْ عَلَيْهَا أَمْدًا لَيْسَ بِالْقَصِيرِ، وَبِأَسَالِيبِ كُلِّهَا الْعُنْفُ وَالْاِغْتِسَافُ فِي فِتْرَةٍ طَالَتْ ذُؤَابَتُهَا، فَكَانَتْ تَارِيخًا أَمْتَلًا بِشُهَدَاءِ الْحُرِّيَّةِ وَالشَّعْبِيَّةِ فِي مَذْهَبِ الْحُكْمِ.

وَكَانَ قَدْ سَبَقَ الْمَلِكُ وَوَجَّهَ دَعْوَةً عَامَّةً إِلَى أُمَرَاءِ الْأُمَصَارِ، فَاجْتَمَعُوا لَدَيْهِ يَنْتَظِرُونَ سَمَاعَ الْمَفَاجَأَةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِ هَذَا الْاهْتِمَامِ أَنْ يَنْطَوِيَّ عَلَيْهَا. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَكَلَّمَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَكَانَتْ السَّنُّ قَدْ تَنَاهَتْ بِهِ، فَلَمْ يَكُنْ صَوْتُهُ يَبِينُ، فَقَالَ: تَعْرِفُونَ أَنَّكُمْ الشُّعُورُ دُونَ الدِّثَارِ عِنْدَ الْمَلِكِ، فَعَلَيْكُمْ يَعْتَمِدُ، وَأَنْتُمْ الْبِطَانَةُ الَّتِي عَلَيْهَا يَتَّكِلُ، فَمَصَالِحُكُمْ مُرْتَبِطَةٌ، وَأَمْرُكُمْ بِأَمْرِهِ مُتَّصِلٌ، وَقَدْ آتَجَّهَ رَأْيِي الْمَلِكِ إِلَى أَمْرِ خَطِيرٍ أَحَبُّ أَنْ يُفَاوِضَكُمْ بِهِ، وَيَسْتَشِيرَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْتَزِمَهُ وَيَعْقِدَهُ... فَاشْرَأَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ وَتَطَلَّعُوا فِي إِضْغَاءٍ مُرْهَفٍ، وَوَاصَلَ الْمُغِيرَةَ:

رَأَى الْمَلِكُ أَنْ لَا يُشْرِكَ النَّاسَ، بَعْدَهُ، سُدَى «كَالضَّأْنِ لَا رَاعِي لَهَا»، وَقَدْ اخْتَارَ آبَتَهُ الرَّشِيدَ يَزِيدَ، وَمَنْ أَكْفَأُ بِأَعْبَاءِ هَذَا الْأَمْرِ مِنْهُ؟ وَرَمَاهُمْ بِنَظَرَةٍ فَاحِصَةٍ



مُتَحَدِّيةً، وراحوا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَلَفَّهُمْ صَمْتُ طَوِيلٍ قَطَعَهُ زِيَادٌ بِقَوْلِهِ:

«إِنَّ عِلَاقَةَ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَضْمَانَهُ عَظِيمٌ، وَيَزِيدُ صَاحِبُ رِسَالَةٍ وَتَهَاوُنٍ، مَعَ مَا قَدْ أُوْلِعَ بِهِ مِنَ الصَّيْدِ، فَرُوَيْدَنَا بِالْأَمْرِ... فَأَقِمْنِ أَنْ يَتِمَّ لَنَا مَا نُرِيدُ. وَلَا نَعْجَلْ، فَإِنَّ دَرْكَاً فِي تَأْخِيرٍ، خَيْرٌ مِنْ تَعْجِيلٍ عَاقِبَتُهُ الْفَوْتُ»، فَقَذَفَهُ الْمَغِيرَةَ بِنَظَرَةٍ شَرَّةٍ صَاعِقَةٍ، وَقَالَ:

أَكُنْتُ تَظُنُّ أَنَّ الْمَشُورَةَ هُنَا مَعْنَاهَا إِبْدَاءُ الرَّأْيِ؟ وَهَلْ نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى رَأْيِ أَمْثَالِكَ؟ إِنَّ الْمَشُورَةَ هُنَا مَعْنَاهَا السَّمَاعُ وَالتَّنْفِيدُ وَالطَّاعَةُ فَقَطْ حَسَبُ. فَهَبْ عُيَيْدُ بْنُ كَعْبٍ التَّمِيمِيُّ، وَكَانَ مُسْتَشَارَ زِيَادٍ، يَشْرَحُ كَلَامَهُ وَمَا قَصَدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ:

نَعَمْ. هُوَ مَا تَقُولُ، فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَزِيَادٌ «لَمْ يُرِدْ أَنْ يُفْسِدَ عَلَى الْمَلِكِ رَأْيَهُ وَيُمَقِّتَ إِلَيْهِ آبَنَهُ. وَإِنَّمَا قَصَدَ أَنْ يُخَوِّفَ يَزِيدَ مِنْ خِلَافِ النَّاسِ لِهَنَاتٍ يَتَقِمُونَهَا عَلَيْهِ، فَتَسْتَحْكِمَ لِلْمَلِكِ الْحُجَّةَ عَلَى النَّاسِ، وَيَسْهَلُ لَهُ مَا يُرِيدُ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: نَعَمْ مَا قُلْتَ، وَنَعَمْ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ زِيَادٌ».

وَلَمْ يَكُنْ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتَّى أُعْلِنَ ذَلِكَ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ عَلَى النَّاسِ، وَكَانَ مُعَاوِيَةُ قَدْ حَفَلَ لَهُ، وَطَلَبَ الْوُفُودَ مِنْ كُلِّ الْأُمُصَارِ، «وَقَرَأَ عَلَى الْجُمُوعِ عَهْدَهُ، وَفِيهِ عَقْدُ الْوِلَايَةِ لِيَزِيدَ»، فَأُصِيبَ بَعْضٌ بِمِثْلِ الذُّهُولِ، وَبَعْضٌ بِمِثْلِ الطَّيْشِ، وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ صَنَائِعُ ذَهَبُوا يُطَرَّبُونَ وَيُزَيَّنُونَ، «فَقَامَ الصَّحَّاحُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ وَالٍ بَعْدَكَ، وَالْأَنْفُسُ يُغْدِي عَلَيْهَا وَيُرَاحُ، وَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»، وَلَا تَذَرِي مَا يَخْتَلِفُ بِهِ الْعَصْرَانِ. وَيَزِيدُ آبَنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فِي مُحْسِنٍ مَعْدِنِهِ وَقَصْدٍ سِيرَتِهِ، مِنْ أَفْضَلِنَا حِلْماً وَأَحْكَمِنَا عِلْماً، فَوَلِّهِ عَهْدَكَ، وَاجْعَلْهُ لَنَا عِلْماً بَعْدَكَ. فَإِنَّا قَدْ بَلَوْنَا الْجَمَاعَةَ وَالْأُلُفَّةَ، فَوَجَدْنَاهَا أَحَقَّنَ لِلدَّمَاءِ وَآمَنَ لِلْسُّبُلِ وَخَيْرَآ فِي الْعَاقِبَةِ وَالْآجِلَةِ».

وقال عمرو بن سعيد:

«أيها الناس: إن يزيد أمل تأملونه، وأجل تأملونه، طويل الباع، رحب الذراع، إذا صرتم إلى عدله وسعكم، وإن طلبتم رفته أغناكم. جذع قارع، شويق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فقرع. خلفاً من أمير المؤمنين، ولا خلف منه...» فقال معاوية: إجلس، أبا أمية، فلقد أوسعت وأحسنيت.

فقال الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين: «أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلايته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله رضى ولهذه الأمة، فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك، فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة». فأحمس يزيد بن المقتفع، فوثب مزعداً مبرقاً، وقال:

«أمير المؤمنين هذا» وأشار إلى معاوية «فإن هلك فهذا» وأشار إلى يزيد، «فمن أبى فهذا...» وأشار إلى السيف.

فقال معاوية: آجلس فإنك سيّد الخطباء.

وقام المشكين الدارمي الشاعر، فأنشد:

إذا المنبر الغربي خلاه ربّه فإن أمير المؤمنين يزيد  
وتهياً معاوية، فدعا الناس إلى المبايعة «فقال رجل: اللهم إني أعود بك من شرّه.

قال معاوية له: تعوذ من شر نفسك فإنه أشد عليك، وبايع.

فقال: إني أبايع وأنا كاره للبيعة.

قال له: بايع أيها الرجل، فإن الله يقول: فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً».

وما هو إلا أن حمَلَ النَّاسَ على البَيْعَةِ في الشَّامِ والعِرَاقِ، فَتَوَجَّهَ مُعَاوِيَةُ لِإِعْدَادِ الرَّأْيِ الْعَامِّ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ أَجْلِ الْبَيْعَةِ. «فَكَتَبَ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، وَكَانَ عَامِلُهُ عَلَى الْمَدِينَةِ، أَنْ آذِغِ النَّاسَ عِنْدَكَ إِلَى بَيْعَةِ يَزِيدَ، فَإِنَّ أَهْلَ الشَّامِ والعِرَاقِ قَدْ بَايَعُوا. فَحَظَبَهُمْ مَرْوَانُ فَحَضَّضَهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ وَحَذَّرَهُمُ الْفِتْنَةَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى بَيْعَةِ يَزِيدَ، وَقَالَ هِيَ سُنَّةُ أَبِي بَكْرٍ الْهَادِيَةِ الْمَهْدِيَّةِ».

فَكَانَ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ وَقَعُ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ، وَسَرَتْ بَيْنَ الْجُمُوعِ نَأْمَاتُ اسْتِنْكَارٍ، وَأَصْوَاتُ تَسْخُطٍ، وَتَزَايِدَ بِهِمْ هَذَا الاسْتِنْكَارُ وَهَذَا التَّسْخُطُ، فَأَنْدَفَعُوا يَطْعَنُونَ وَيُقَذِّعُونَ فِي الطُّغْنِ، وَمَضَوْا يَنْثُرُونَ الْاِخْتِجَاجَ نَثْرًا دُونَ رِعَايَةِ وَحَذَرِ.

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: «مَا صَدَقْتَ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَرَكَ الْأَهْلَ وَالْعَشِيرَةَ، وَبَايَعَ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ رَضِيَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَآخْتَارَهُ لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ... وَتَرَادَا طَوِيلًا، وَانْتَقَلَ بِهِمَا التَّجَاوُبُ إِلَى التَّنَاوُشِ وَالْمُهَاتَرَةِ مِنْ قِبَلِ مَرْوَانَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ «هَذَا الْمُتَكَلِّمَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ: «وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْ، أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي» فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَفِينَا تَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ؟»...

وَقَطَعَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا، إِذْ هَبَّ وَاقِفًا، وَعَلَى سِيَمَائِهِ مَشَتْ غَضَبُهُ مَكْظُومَةٌ رَاحَتْ تَنْطَلِقُ، وَقَدْ وَجَدَتْ سَبِيلَهَا:

«إِلَى النَّارِ تَذْفَعُونَ النَّاسَ بَعْدَ الْعَارِ»، لَقَدْ حَمَلُوا أَطْمَاعَكُمْ مُتَبَرِّمِينَ، وَتَرَكَوْا لَكُمْ أَنْتِهَابَ الدُّنْيَا كَمَا شِئْتُمْ وَشَاءَ الْهَوَى، وَلَكِنْ آخِلَوْا فِي أَفْوَاهِكُمُ الْمُسْتَوْخِمَ فَتَحَطَّيْتُمُ الدُّنْيَا إِلَى الْعَبَثِ بِالْدِّينِ، فَأَخْرَجْنَا أَنْ نَذْفَعَ النَّارَ بِالنَّارِ.. وَمَا هُوَ حَتَّى هَبَّ النَّاسُ يُنْكِرُونَ وَلَايَةَ يَزِيدَ فِي مِثْلِ الزَّئِيرِ الدَّامِي.

فَكَتَبَ مَرْوَانُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِذَلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي أَلْفٍ، فَلَمَّا قَارَبَهَا تَلَقَّيْتُهُ

الجموع عند مآتيها ومدخلها، وما أخذ نظره الحسين حتى قال: مرحباً بـ «سيد شباب المسلمين»، قربوا دابة لأبي عبد الله. وقال مثل ذلك أو قريباً منه لعبد الرحمن ابن أبي بكر، ولابن الزبير. ثم انطلق بهم حتى أتى مكة فقضى حجه، ولما أراد الشخصص أمر بأثقاله فقدّمت، وأمر بالمئبر فقرب من الكعبة، وهنا بدأ مفاجأته الانتخاية دون تقييد بعرف أو قانون، فأرسل إلى الحسين وعصبة، وهؤلاء لم يخف عليهم ما يعتلج في نفسه، فاجتمعوا وتدبروا الأمر من كل وجهه، وتركوا المردة والمداراة لابن الزبير، فأقبلوا على معاوية، فرحب بهم، وقال:

«قد علمتم نظري لكم وتعطفي عليكم وصلتي أرحامكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم. وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة، وتكونوا أنتم الأمرين الناهين بين يديه». فرد ابن الزبير:

«عندنا إحدى ثلاث، أيها أخذت فهي لك رغبة وفيها خيار، إن شئت فاصنع فينا ما صنع رسول الله (ص)، قبضه الله ولم يستخلف، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم. وإن شئت فما صنع أبو بكر: عهد إلى رجل من قاصية قریش، وترك من ولده ومن رهطه الأذنين من كان لها أهلاً. وإن شئت فكما صنع عمر: صيرها إلى ستة نفر من قریش يختارون رجلاً منهم، وترك ولده وأهل بيته، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلاً».

قال معاوية: هل غير هذا؟ قال: لا. ثم قال للآخرين: ما عندكم؟ قالوا: نحن على ما قال ابن الزبير. فقال معاوية: إني أتقدم إليكم وقد أعذر من أنذر، «فأنا قائم فقايل مقالة، وأقسم بالله لئن رد علي رجل منكم كلمة في مقامي هذا، لا ترجع إليه كلمته حتى يضرب رأسه...» وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان سيفيهما، وخرج وأخرجهم معه حتى رقي المئبر، وحف به أهل الشام، واجتمع الناس.

فقال، بعدَ حمْدِ اللهِ والثناءِ عليه: «إنا وَجَدنا أحاديثَ النَّاسِ ذاتَ عُوارٍ، قالوا: إنَّ حُسَيْنًا، وآبَنَ أَبِي بَكْرٍ، وآبَنَ عُمَرَ، وآبَنَ الزُّبَيْرِ لم يُبايعوا ليزيدَ، وهؤلاءِ الرُّهْطُ سادَّةُ المُسْلِمِينَ وخيارُهُم لا تُبرِّمُ أمراً دونَهُم، ولا تُقْضي أمراً إلاَّ عَنْ مشورَتِهِم، وإنِّي دَعَوْتُهُم سامِعِينَ مُطِيعِينَ، فبايعوا وسلَّموا وأطاعوا»... ثُمَّ قُرِبَتْ رَواحِلُهُ فَرَكِبَ وَمَضَى إلى الشَّامِ، تارِكاً النَّاسَ في دَهْشَةٍ المُفاجَأَةِ يَنْظُرُ بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ، على أنَّهم أَنهالوا أخيراً على الحُسَيْنِ وأَصْحابِهِ يَسْتَشْبِتُونَهُم، فَأجابوا: «كَادَنا بِكُمْ وَكَادَكُمْ بنا».

كَذَلِكَ أَنتَهَتِ المُفاجَأَةُ الَّتِي حَبَكَها مُعاوِيَةُ، وَطَلَعَ بها على النَّاسِ، غَيْرَ عابِيءٍ بِأنَّه أَقامَ وِلايَةَ وَلَدِهِ على البُرْكَانِ، وَوَضَعَ القُنْبُلَةَ في أُسُسِ البِناءِ.

فإنَّ الحُسَيْنَ - الَّذِي شَهِدَ المَثَلَ الأَعْلَى للحُكْمِ أَزْمانَ جَدِّهِ وأبيه وَمَنْ يَبْنِيهِما، وَتَقَلَّبَ في الثُّورَةِ على الحُكْمِ الشَّاذِّ، وَخاضَ مَعْمَعَةَ البُطْشَةِ الكُبرى الَّتِي كَالها والدُّهُ في كُلِّ مَكَانٍ تَأَشَّبَ عَلَيْهِ أَعداءُ الشَّعْبِ وَخُصُومُ حُرِّيَّتِهِ، وَرافَقَ حَرَكَةَ التَّطْهيرِ الَّتِي بَدَلَ فيها مِنْ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ - يَجِبُ أَنْ يَغْضَبَ، وَأَنْ يَتَنَمَّرَ، وَأَنْ يَنْدَفِعَ مُتَلَطِّياً، وَأَنْ يَثُورَ مُبْعِثِراً فَبِناءِ.

فإنَّ البِناءَ على الفَسادِ تَزمِيمٌ للفَسادِ، وَأَصْطِناغٌ لِفَسادٍ آخَرَ جَدِيدٍ. بَيَدَ أَنَّهُ في صُورَتِهِ الجَدِيدَةِ فسادٌ مُرَكَّبٌ، وَهُوَ أَعْقَدُ أَمْراً، وَأَكْثَرُ حَيَوِيَّةً، وَأَطْوَلُ بَقاءً وَنِضالاً.

لِذَلِكَ كانَ عَمَلُ المُصْلِحِينَ الحَقِيقِيِّينَ هَذاً وَبِناءً، وَلِذَلِكَ كانَ الشَّطْرُ الأوَّلُ دائِماً أَرْوَغَ وَأَشَقَّ وَأَقْدَسَ، فَهُوَ كِفاخٌ وَتَضْجِيَّةٌ وَتَغْبِيدٌ.

وبهذا، وَلَهُ فَقَطْ، رَأَيْنَا الحُسَيْنَ يُولِي وَجْهَهُ قَبْلَ الثُّورَةِ، قَبْلَ الانْتِشاءِ والحَلْقِ مِنْ جَدِيدٍ.

\*

قَلَمًا يَنْزُرُ الْأَسَدُ، إِلَّا عِنْدَمَا تَتَنَاوَحُ الْأَرْجَاءُ بِالْعَوَاصِفِ...  
كَأَنَّهُ يَأْبَى عَلَيْهَا أَنْ تُبَدَّدَ أَمْنُ الْغَابِ وَشُكُونُ جَلَالِهِ...  
وعندما آخَتَدَمَتْ عَوَاصِفُ الْأَهْوَاءِ، أَنْطَلَقَ أَسَدُ الْإِنْسَانِيَّةِ يَدْفَعُ الْعَادِيَاتِ  
عَنِ الْإِنْسَانِ...

\*

الْبُزُكَانُ نَذِيرٌ بِالْإِنْقِلَابِ...  
وَكَانَ الْحُسَيْنُ بُزُكَانَ الْإِصْلَاحِ...  
وَقَدْ مَضَى كُلُّ مُضْلِحٍ بِقَبَسٍ مِنْ ذَلِكَ الْبُزُكَانِ، يُرْسِلُهُ مَنَارًا يَهْدِي فِي  
الْحَلَاكِ!...

\* \* \*



## إِلَهُ اللَّهِ

فِي صَبِيحَةِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ سِتِّينَ، أَفَاقَ النَّاسُ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى أَصْوَاتِ  
الْغِلْمَةِ، يَمْرُحُونَ فِي الْأَرْقَةِ، وَهُمْ يَتَنَاشِدُونَ مَقَالَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِلَالِ السَّلُولِيِّ:

إِصْبِرْ يَزِيدُ... فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا مِقَّةٍ وَأَشْكُرُ حِبَاءَ الَّذِي بِالْمُلْكِ حَابَاكَ

لَا رُزْءَ أَعْظَمُ فِي الْأَقْوَامِ، قَدْ عَلِمُوا مِمَّا رُزِئْتَ، وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَ

فَأَذْرَكُوا أَنَّ مُعَاوِيَةَ قَدْ قَضَى، وَأَنَّ يَزِيدَ قَدْ خَلَفَهُ، فَانْقَلَبُوا وَبَعْضُهُمْ يُحْرِقُ  
الْأُرَمَ، وَيَتَمَيَّزُ حَنَقًا، وَبَعْضُهُمْ يَشُدُّ غَضُونَهُ تَجَهُّمًا، وَيَدْعُ وَجْهَهُ يَتَمَدَّدُ وَيَتَقَلَّصُ  
دَهْشَةً وَرُغْبًا. وَمَشَى الْخَبَرُ كَمَا يَمْشِي النَّعْيُ، حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى الْحُسَيْنِ فَغِينَ عَلَيْهِ  
حَتَّى الْإِغْمَاءِ، كَأَنَّ الْأَرْضَ دَارَتْ بِهِ دَوْرَتَهَا سَرِيعَةً سَرِيعَةً، وَالْمَّ بِهِ إِطْرَاقٌ عَنِيفٌ،  
كَانَ مَزِيحًا مِنَ اللَّوْعَةِ الْمُرَّةِ، وَالْأَسَى الْحَادِّ، وَالتَّنْمِيرِ الْغَضُوبِ. عَلَى أَنَّهُ طَفِقَ يُنَاجِي  
نَفْسَهُ، وَقَدْ تَبَدَّتْ لَهُ مَاضِيَاتُ الثَّبُوءِ وَدُنْيَا الْقُرْآنِ وَجَلَائِلُ الْعَدْلِ الْإِسْلَامِيِّ:

إِلَهِي! مَاذَا أَسْمَعُ؟ أَيْكُونُ يَزِيدُ خَلِيفَتَكَ فِي عِبَادِكَ، وَهُوَ مَنْ عَرَفْتَهُ صَارِمًا لَا  
يَشْعُرُ بَغَيْرِ وُجُودِهِ، أَوْ يَشْعُرُ بِوُجُودِ الْآخَرِينَ، وَلَكِنْ فِي مَذْهَبِ نَهْمِهِ الدَّامِي  
الْمُقْتَرِسِ، مِثْلَمَا تَشْعُرُ الذُّنَابُ بِوُجُودِ فَرَائِسِهَا الَّذِي هُوَ مُبَالِغَةٌ فِي عَدَمِ الشُّعُورِ بِغَيْرِ  
وُجُودِهَا فَقَطْ، إِنَّهُ يَشْعُرُ بِهِمْ شُعُورَ الْإِمْتِصَاصِ وَإِزْوَاءِ نَهْمِ الذَّاتِ، إِنَّ ظُلُمَاتَهُ  
تَطِيفُ بِهِمْ مُحَاوَلَةً لَوْ تُحِيلُهُمْ قَطْرَةً تُنَدِّي بِهَا لُعَابَهَا.

أَيَكُونُ يَزِيدُ الْقَائِمَ عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِكَ؟ وَشَرِيعَتُهُ ذَوْبٌ رَحْمَةٍ فِي ذَوْبِ  
عَدَالَةٍ وَرَفَقَةٍ، وَهَيْهَاتَ أَنْ تَجِدَ مَكَانَهَا فِي غَيْرِ ضَمِيرٍ فِيهِ مِنْ مَغْنَاهَا، وَفِيهِ مِنْ  
رُوحِهَا؛ وَإِلَّا فَهِيَ عَافِيَةٌ كَالطَّلَلِ، وَذَاوِيَّةٌ كَالْهَشِيمِ يَغْبَثُ بِهَا الْهَوَى، وَيَتَقَاذَفُهَا  
مِثْلَ أَوْرَاقِ الْخَرِيفِ، فِي أَوْدِيَةِ الشَّهَوَاتِ، وَبَيْنَ الْمَغَاوِرِ وَالْكُهُوفِ الضَّاجَّةِ بِالْفُسُوقِ.  
إِنَّ الشَّرِيعَةَ، كَكُلِّ تَعْلِيمٍ، كَائِنُ يَزْدَوِجُ بِالْحَيَاةِ، فَيَنْفَعِلُ بِهَا لِيَحْيَا، وَيَفْعَلُ فِيهَا  
لِتَرْقَى. فَإِذَا لَمْ يَتِمَّاسًا ظَلَّتْ الْحَيَاةُ جَامِحةً فَاجِرَةً، وَظَلَّتِ الشَّرِيعَةُ مِثْلَ شَرَارَةٍ  
مَخْزُونَةٍ لَمْ تَنْقَدِخْ فِي فَمِ الْمِصْبَاحِ فَتَحْيَا بِهِ وَيَنْطِقُ بِهَا، صَادِعًا بِلِسَانِ الضِّيَاءِ،  
وَمُغْلِنًا بِنِدَاءِ النُّورِ.

إِنَّ شَرِيعَةَ رَسُولِكَ وَجَدَتْ حَيَاتَهَا فِي حَيَاتِهِ، وَاسْتَمَدَّتْ رُوحَهَا مِنْ رُوحِهِ،  
فَتَرَامَتْ بِالضِّيَاءِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، وَطَبَعَتْ بِحَقِيقَتِهَا مَادَّةَ الزَّمَانِ، فَسَعِدْنَا حِينًا بِدُنْيَا  
الْقُرْآنِ.

عَلَى أَنَّهُ عَادَ إِلَى آسْتِغْرَاقِهِ، وَكَانَ أَيْضًا عَمِيقًا، وَلَكِنْ لَمْ يَجْرَحْ حَتَّى سَاوَرَهُ  
غَضَبٌ مَكْظُومٌ أَشْتَعَلَ فِي عَيْنَيْهِ، وَرَاحَ يُنَاجِي نَفْسَهُ فِي نَبْرَاتٍ حَادَّةٍ كَأَنَّهَا  
تَلْتَهَبُ:

نَعَمْ. نَعَمْ. نَحْنُ بَايَعْنَا اللَّهَ عَلَى التَّقْوَى، وَلَنْ نُبَايِعَ إِلَّا عَلَيْهَا، أَوْ نَمُوتَ فِي  
سَبِيلِهَا. أَلَا إِنَّهُ آخْتَارَنَا لِحَمْلِ أَمَانَتِهِ الْعَظْمَى، وَأَنْتَظَرُ مِنَّا الْوَفَاءَ وَالْإِفْدَاءَ بِكُلِّ  
عَظِيمٍ. وَمَنْ نَذَرَ نَفْسَهُ لِلَّهِ فَقَدْ أَرْخَصَهَا لَهُ.

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، يُقَاتِلُونَ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى  
بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

إِنَّ السَّمَوَّالَ - وَهُوَ جَاهِلِيٌّ لَمْ يَتَأَنَسْ قَلْبُهُ بِالْإِشْرَاقِ - عَاهَدَ إِنْسَانًا،  
وَاسْتَجَابَ حِينَ دَعَاهُ الْوَفَاءُ، وَكَانَ دَامِيًا.

إِسْتَجَابَ جَاهِلِيٌّ لِلشَّرَفِ، فَكَيْفَ لَا أَسْتَجِيبُ لِلإِيمَانِ؟ إِنِّي إِذَا لَنَكِلُ  
خَوَارٍ...

«أَلَمَوْثُ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْعَارِ...»

وَالْعَارُ خَيْرٌ مِنْ دُخُولِ النَّارِ...

وَاللَّهُ مِنْ هَذَا وَهَذَا، جَارِي...»

فَكَيْفَ إِذَا بِالْعَارِ وَالنَّارِ، أَجْمَعُهُمَا عَلَى نَفْسِي فِي دُنْيَا الظَّالِمِينَ...!  
وَبَيْنَمَا الْحُسَيْنُ فِي سَبْحَاتِهِ الْقُدْسِيَّةِ وَنَجْوَاهُ الْمَائِجَةِ بِرُوحِ الاِصْطِفَاءِ، تَبَدَّى  
لِنَاضِرِيهِ، فِي وَجْهَةِ قَلْبِهِ، أَطْيَافٌ يَشْتَمِلُهَا الرِّضَا، وَتَلْفَعُهَا نَشْوَةُ الاِغْتِبَاطِ، وَهِيَ  
تُبَارِكُهُ وَتَشُدُّ عَزْمَهُ، وَتُهَيِّبُ بِهِ إِلَى الْوَثْبَةِ، إِلَى الْوَثْبَةِ الْكُبْرَى، فَهَتَفَ مُسْتَبْشِرًا:  
رَبَّاهُ! مَاذَا أَرَى؟ إِنَّهَا أَطْيَافُ جَدِّي الْمُصْطَفَى، وَأَبِي الشَّهِيدِ، مِنْ وَرَائِهِمَا  
الْمَلَائِكُ، تَدْعُونِي إِلَى اللَّهِ، إِلَى التَّضْحِيَةِ الْعُظْمَى.

كَانَ الْكَبْشُ، فِي يَوْمٍ، فِدَاءَ نَبِيِّ «فِي حِكَايَةِ إِبْرَاهِيمَ وَأَبْنَيْهِ»...

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ الْأَعْظَمَ، إِنَّمَا يَكُونُ لَهُ الْفِدَاءُ الْأَعْظَمُ...

وَحَبِيبٌ إِلَى نَفْسِي أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الْفِدَاءَ... «فِي حِكَايَةِ الْاِسْتِشْهَادِ يَوْمَ  
كَرْبَلَاءَ».

\*

كَانَ الْحُسَيْنُ لَمْ يَزَلْ فِي نَجْوَاهُ، حِينَ «أَسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، رَسُولُ  
الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ يَدْعُوهُ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ أَمِيرَ الْمَدِينَةِ. فَأَمَرَ الْحُسَيْنُ بِالْاِنْقِلَابِ إِلَيْهِ، وَقَامَ  
الْحُسَيْنُ، وَجَمَعَ بَعْضًا مِنْ غِلْمَانِهِ وَمَوَالِيهِ، وَأَمَرَهُمْ بِحَمْلِ السَّلَاحِ، فَانْتَهَى إِلَى  
الْوَلِيدِ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ:

إِذَا دَخَلْتُ فَأَجْلِسُوا عَلَى الْبَابِ، وَإِنْ دَعَوْتُكُمْ أَوْ سَمِعْتُمْ صَوْتِي قَدْ عَلَا،  
فَاقْتَحِمُوا عَلَيَّ بِأَجْمَعِكُمْ، وَإِلَّا فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ. فَدَخَلَ الْحُسَيْنُ عَلَى  
الْوَلِيدِ - وَمَرَوَانَ عِنْدَهُ - وَجَلَسَ، فَأَقْرَأَهُ الْوَلِيدُ الْكِتَابَ، وَنَعَى إِلَيْهِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ  
الْحُسَيْنُ:

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ. أَمَّا الْبَيْعَةُ فَإِنَّ مِثْلِي لَا يُعْطَى بِبَيْعَتِهِ سِرًّا، وَلَا أَرَاكَ  
تَقْنَعُ بِهَا مِنِّي كَذَلِكَ... قَالَ: أَجَلٌ. قَالَ: فَإِذَا خَرَجْتَ إِلَى النَّاسِ فَدَعَوْتَهُمْ إِلَى  
الْبَيْعَةِ دَعَوَتَنَا مَعَهُمْ، فَكَانَ الْأَمْرُ وَاحِدًا. فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: عَلَى أَسْمِ اللَّهِ، حَتَّى تَأْتِينَا  
مَعَ جَمَاعَةِ النَّاسِ.

قَالَ مَرْوَانُ لَمَّا وَلَّى: عَصَيْتَنِي وَاللَّهِ، لَا قَدَرْتَ مِنْهُ عَلَى مِثْلِهَا أَبَدًا، حَتَّى  
تَكْثُرَ الْقَتْلَى بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ... وَكَانَ مَرْوَانُ قَدْ أَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ آبِثًا إِلَى الْحُسَيْنِ، فَإِنْ  
بَايَعَ، وَإِلَّا فَأَضْرِبْ عُقْقَهُ.

قَالَ الْوَلِيدُ: وَيَحَكَ! أَتُشِيرُ عَلَيَّ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ؟ وَاللَّهِ إِنَّ الَّذِي يُحَاسِبُ بَدَمَ  
الْحُسَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَخَفِيفُ الْمِيزَانِ عِنْدَ اللَّهِ.

رُغِمَ مَا يَغْتَلِجُ فِي قَلْبِ الْحُسَيْنِ مِنْ عَاصِفٍ يَكَادُ يَنْطَلِقُ، وَبُؤْسٍ كَانَ يَكَادُ  
يَثُورُ، أَبْدَى فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْحَرَجِ الدَّقِيقِ أَقْصَى مَا يُتَصَوَّرُ مِنْ ضَبْطِ الْأَعْصَابِ،  
وَحُسْنِ التَّائِي الْفَائِقِ فِي تَصْرِيفِ الْأُمُورِ، وَاللِّبَاقَةِ الْبَالِغَةِ فِي الْحِوَارِ السِّيَاسِيِّ.

خَرَجَ الْحُسَيْنُ مِنْ مَكَانِ الْوَلِيدِ مُزْمِعًا عَلَى خُطَّةٍ، وَإِنْ تَكُنْ رَهْبَةً، خَفَقَ لَهَا  
قَلْبُهُ، وَاسْتَجَابَ إِلَيْهَا بِكُلِّ مَشَاعِرِهِ، حَتَّى لَبَدَتْ عَلَى سِيَمَائِهِ وَجَرَتْ عَلَى لِسَانِهِ،  
وَهُوَ قَاصِدٌ إِلَى مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، فَقَدْ سَمِعَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيُّ يَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ يَزِيدَ بْنِ  
رَبِيعَةَ بْنِ مُفَرِّغٍ:

لَا دَعَرْتُ السَّوَامَ فِي فَلَقِ الصُّبِّ حِجِّ مُغِيرًا، وَلَا دُعَيْتُ يَزِيدًا  
يَوْمَ أُعْطِيَ مِنَ الْمَهَانَةِ ضَيْمًا وَالْمَنَايَا يَرُضِدْنِي أَنْ أَحِيدًا

وما هو حتّى هبطَ بأهله مَكَّةَ لثلاثِ مَضِينٍ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ سِتِّينَ، وَلَبِثَ فِيهَا  
حَتَّى يَوْمِ التَّرْوِيَةِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ...

\*

فِي مَكَّةَ، حَيْثُ الذِّكْرِيَّاتُ الْمُلهِمَاتُ الَّتِي تَضْفُو عَلَى كُلِّ مَكَانٍ مِنْ أَرْضِهَا  
وَسَمَائِهَا، وَعِنْدَ مُعْتَنَقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، حَيْثُ يَقَعُ الْأَفُقُ الْمُكَلَّلُ بِالْوَحْيِ، لَبِثَ  
الْحُسَيْنُ يَزْنُو، وَقَدْ ذَابَتْ فِي نَظَرَاتِهِ أَوْهَامُ النَّاسِ فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ.

إِنَّ نَظْرَهُ آغْتَلَقَ بِالْأَبَدِ الْفَسِيحِ الَّذِي تَبْدُو الدُّنْيَا، بِكُلِّ أَشْيَائِهَا مِنْ آفَاقِهِ،  
صَدَفَةً حَقِيرَةً فِي لُجِّ الْفَنَاءِ.

وَقَدْ رَأَى هُنَاكَ أَنَّ الْأَحْيَاءَ يَعِيشُونَ فِي عَالَمِ أَعْمَالِهِمْ عَلَى حَقَائِقِهَا،  
وَالْأَعْمَالُ فِيهِ لَيْسَتْ مَاتِي فَقَطْ تَتَقَضَّى مَعَ آيَاتِهَا وَحِينِهَا، بَلْ هِيَ مَوَالِيدُ يَحْيَاهَا  
الْمَرْءُ فِي خَلَاوَتِهَا وَمَرَارَتِهَا، وَفِي نُورِهَا وَظِلَامِهَا. وَالْمَرْءُ هُنَاكَ لَا يُحِسُّ بِالْأَلَمِ أَوْ  
اللَّذَةِ، وَالْقُبْحِ أَوْ الْجَمَالِ، إِحْسَاساً مِثْلَمَا هُوَ شَأْنُ إِحْسَاسِ الْفَنَاءِ، بَلْ تَحْيَا فِيهِ  
كُلِّيَّاتُ هَذِهِ الْمَعَانِي حَيَاةً جَوْهَرِيًّا.

وَكَانَتْ تِلْكَ الذِّكْرِيَّاتُ الْخَالِدَاتُ لَا تَفْتَأُ تَتَنَادَى بِهِ إِلَى آسْتِئْنَافِ الْجِهَادِ،  
آسْتِئْنَافِ الْجِهَادِ الْأَوَّلِ الَّذِي بَدَأَهُ جَدُّهُ الْمُصْطَفَى، مُكَافِحاً وَحِيداً وَبَطْلاً فَرِيداً،  
حَتَّى أَمَالَ دُنْيَاً وَأَثَبَتْ دُنْيَاً، وَمَا قَعَدَ بِهِ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ إِلَّا بَ، وَهُوَ  
وَحْدَهُ الَّذِي يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ الرَّبِّ.

إِنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ فِي فَمِ الْإِنْسَانِ تَنْتَشِرُ مِثْلَ شُعَلَاتِ.

تُحْرِقُ فِي مَدَاهَا كُلَّ مَا لَيْسَ مِنْهَا.

فَإِذَا لَهَا عَلَى الْأَرْضِ ضِيَاءٌ، كَمَا لَهَا فِي السَّمَاءِ ضِيَاءٌ.

«اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

كَانَتْ تَمُرُّ بِهِ هَذِهِ التَّصَوُّرَاتِ، وَقَدْ مَسَحَهَا جَوْ مَكَّةَ بِمَا فِيهِ مِنْ أَقْدَاسٍ  
وَذِكْرِيَّاتٍ عَزِمَ لَا يُقْهَرُ، فَهَبَّ نَاشِطاً فِي مِثْلِ الزَّيْرِ الَّذِي يُبَادِرُ الْإِنْطِلَاقَ، غَيْرَ  
ثَابِتٍ أَمَامَ نَاطِرِيهِ إِلَّا «وَلَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ».

وَأُسُوتِي بِهِ، أَنْ أُجَالِدَ جِلَادَهُ، وَأَنْ أُنَافِحَ مُنَافَحَتَهُ، وَأَنْ أَنْتَهِيَ لَهَايَتِهِ.

أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ غَلَّ الْبَغْيَ وَالْبَاغِي، وَدَكَ دُنْيَا الْأَوْثَانِ بِمَا فِيهَا، وَإِنَّ الْبَاغِي  
الْيَوْمَ يُحَاوِلُ الْإِنْفِلَاتَ، وَأَوْثَانُ الْآلِهَةِ آسْتَوْلَدَتْ أَوْثَانُ النَّاسِ. فَكَيْفَ أَتَلَبَّثُ دُونَ أَنْ  
أُغْلَّ ذَاكَ، وَأُعْتَصِرَ هَذَا، وَمَا أُبَالِي أَكَانَتْ فِيهِ مَنِيَّتِي أَمْ كَانَتْ فِيهِ أُمْنِيَّتِي...

وَإِنَّ مُحَمَّدًا أُخْرِجَ مُهَاجِرًا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ فِي مُبَالِغَةِ الْغِيُونِ وَالْأَرْصَادِ، فَكَيْفَ  
لَا أُخْرِجُ دَاعِيًا إِلَيْهِ غَيْرَ مُبَالٍ بِالْحَيَاةِ، وَلَا مُكْتَرِثٍ بِالمَوْتِ فِي سَبِيلِهِ؟

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْرَعِي

وَكَفَى بَعْمَلِي عِنْدَ اللَّهِ رِضًا، أَنْ يَكُونَ الْهِجْرَةُ الثَّانِيَّةَ.

إِنَّ الْهِجْرَةَ الْأُولَى، هِجْرَةُ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَتْ، وَغَايَتُهَا الْبِنَاءُ.

وَإِنَّ الْهِجْرَةَ الثَّانِيَّةَ، هِجْرَةُ سِبْطِ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَتْ، وَغَايَتُهَا الْحَافِظَةُ عَلَى  
ذِيَالِكَ الْبِنَاءِ.

وَمَا هُوَ حَتَّى تَسَامَعَ النَّاسُ بِعَزْمِ الْحُسَيْنِ، وَمَا هُوَ حَتَّى مَشَى الْكَثِيرُونَ بَيْنَهُ  
وَبَيْنَ غَايَتِهِ، يَزْغَبُونَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَفْعَلَ، وَيُثَبِّطُونَ مِنْهُ وَيُوهِنُونَ مَا آسْتَوَى عَلَيْهِ  
عَزْمُهُ. فَقَالَ آبْنُ عَبَّاسٍ، وَقَالَ آبْنُ الزُّبَيْرِ، وَبَدَّهَهُ هَذَا، وَثَنِي ذَاكَ، إِلَى كَثِيرٍ كَثِيرٍ،  
وَكُلُّهُمْ قَوْمٌ عَشِيرٌ، وَفَخِرُ قَبِيلٍ.

وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ وَكَأَنَّهُ بَطْلُ الْمَعْرَكَةِ الْمُنتَظَرِ، يَرَى فِي تَحَامِي



الفرسان جُبناً أكبرَ عاراً، فيزيده تَلْطِياً وَحِمِيَّةً، وفي تَقَهُّقِ الشُّجَعَانِ خَوْراً أَبْلَغَ غَوَراً  
وأَعَمَّقَ أثراً، فيوقِّده عَزْماً وَيَضْطَئِبُهُ شَكِيماً.

### إحتضارُ نَسْرِ... في هَمَسِ كالزَّئيرِ

مَرَّ نَسْرٌ يُحَلِّقُ فَوْقَ الآكَامِ، فَتَكْنَفَتْهُ بُغَاثُ النُّسُورِ- أي ضِعَافُهَا - مِنْ كُلِّ  
مَكَانٍ...

تُهِيبُ بِهِ أَنْ لَا يَمْضِيَ بَعِيداً، فَهُنَاكَ صُقُورٌ تَعِيثُ فَسَاداً وَتَبْثُ رُغْباً.  
ولكنَّ النَّسْرَ شَدَّ جَفْنَيْهِ طَوِيلاً، كَأَنَّهُ لَا يُصَدِّقُ أَنَّ هَذِهِ لُغَةُ نَسْرِ...  
على أَنَّهُ مَضَى، وهو يَقُولُ: إِنَّ النَّسْرَ شَيْءٌ فِي الْمَعْنَى، وَلَيْسَ شَيْئاً فِي  
الشَّكْلِ...

فَإِذَا آسَتْحَالَ الْمَعْنَى شَكْلاً فَقَطْ، فَهُنَاكَ مُسَوِّخٌ لَا نُسُورًا...  
ثُمَّ أَنْطَلَقَ يَهْوِي غَيْرَ مُبَالٍ بِمَا سَوْفَ يَغْتَرِضُهُ.

\*

وما هو حَتَّى وَاثَبَتْهُ جَمَاعَةُ الصُّقُورِ، فَنَالَ مِنْهَا كَثِيراً وَنَالَتْ مِنْهُ مَقْتِلاً...  
على أَنَّهُ كَانَ مُغْتَبِطاً أَيْضاً، فَقَدْ هَمَسَ فِي أَنْفَاسِ الْمُحْتَضِرِ...  
سَوْفَ يَظَلُّ فِي الْأَجْيَالِ أَنَّهُ هُنَا يَرْقُدُ نَسْرٌ وَجَدَ حَقِيقَتَهُ...  
وهُنَاكَ تَحْيَا نُسُورٌ فَقَدَتْ حَقِيقَتَهَا...

إِنِّي أَقْضِي، وَيَبْقَى فِي ضَمِيرِ الْوُجُودِ أَنَّ اقْتِحَامَ الطَّرِيقِ، دَائِماً فِي  
الْإِمْكَانِ...

مُتَّ مَوْتَ هَذَا النَّسْرِ، عَيْنٌ فِي مُقْلَةِ الشَّمْسِ وَجَنَاحٌ لَهُ فِي الْآفَاقِ...

وَلَمْ تُمْتْ مَوْتَ الْبَهْمِ عِنْدَ الشَّفُوحِ، لَتَظَلَّ عَلَى لِسَانِ الدُّهُورِ وَتَعَاقِبِ  
الْعُصُورِ، أَشْطُورَةً تُرَوِّى...  
\*

إِنْطَلَقَ الْحُسَيْنُ مُودِّعًا الْكَعْبَةَ، بَيْتَ اللَّهِ، حَامِلًا رُوحَهَا بَيْنَ جَنْبَيْهِ، وَشُعَلَتِهَا  
بِكِلْتَا يَدَيْهِ...  
\*

تُوَاصِلُهُ الْمَلَائِكُ وَتُبَارِكُهُ، وَتَطْيِفُ بِهِ كَأَنَّهَا حَذِيرَةٌ عَلَيْهِ...  
فَإِنَّهُ الْبَقِيَّةُ مِنْ إِرْثِ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ!...  
\*

رَغِيًّا لِذِكْرِكَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَقَدْ أَحْسَسْتُ بِرُوحِ الْأَخْلَاقِ فِي رُوحِ الْوُجُودِ...  
فَأَرَدْتُ الْحَيَاةَ دُنْيَا مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْحُبِّ...  
وَأَرَادَهَا الْآخِرُونَ دُنْيَا مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالرَّذِيلَةِ وَالْأَحْقَادِ...  
أَرَدْتُهَا كَوْنًا مِنْ لَذَّةِ الرُّوحِ، وَلَوْ فِي شُعُورِ الْأَعْصَابِ بِالْأَلَمِ...  
وَأَرَادُوهَا كَوْنًا مِنْ لَذَّةِ الْأَعْصَابِ، وَلَوْ فِي شُعُورِ الرُّوحِ بِالْأَلَمِ...  
فَاسْتَحَالَتِ الْآلَامُ الْكُبْرَى، فِي حِسِّ النَّاسِ، لَذَّةً كُبْرَى فِي حِسِّكَ!...  
\*

حَتَّى لَقَدْ شَعَرْتُ حِيَالَ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ، أَنَّهُ شَفَقٌ مِنْ شُعَاعِ الرُّوحِ...  
وَرَأَيْتُ، فِي مُحْمَرَّةِ الدَّمَاءِ، لُؤْلُؤَةً جَمَالِ الْحُسْنِ...  
وَلَا يَدْعُ، فَقْدِيمًا قِيلَ الْمَثَلُ السَّائِرُ: «إِنَّ الْحُسْنَ أَحْمَرُ»...  
\* \* \*

مُنْبَهَةٌ... لهذه الطّبعة ..... ( ز ) - ( ل )  
الْفَاتِحَةُ ..... ( م ) - ( س )  
مُقَدِّمَةٌ ..... ( ف ) - ( ث )

يوم المدينة ..... ( ٢٥ ) يوم الميلاد ..... ( ٦٧ )  
يوم القرآن ..... ( ٤١ ) مشاهد ..... ( ٧٧ )  
يوم الايمان الشامخ ..... ( ٥٥ ) يوم الدولة ..... ( ٨٩ )  
دموع ..... ( ٩٩ )

### من أيّام العهد الراشدي

مع خليفة ..... ( ١٠٩ ) في الثورة ..... ( ١١٩ )  
جهاد الشباب ..... ( ١١٣ ) في الزوبعة ..... ( ١٣٩ )  
إلتياح ..... ( ١٦١ )

### من أيّام الحسين السبط (ع)

في الهيكل ..... ( ١٧٥ ) تقوى ..... ( ٢٢٧ )  
في وجه الظلم ..... ( ١٨٣ ) استشارة ..... ( ٢٤٥ )  
مع أرينب ..... ( ١٩٧ ) إلى الله ..... ( ٢٥٣ )

... فمُحمَّد لم يصنع أُمَّةً بَير الأُمَم ، بَلْ صَنَعَ  
أُمَّةً فِي عِدَادِ الرُّسُلِ إِلَى كُلِّ الأُمَم ، وَأَكْبَرُ ظَنِّي  
أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَنْطَلِقُ فِي جِسمِ العَالَمِ المُتَدَاعِي ، كَمَا  
تَنْطَلِقُ العُصَاةُ ، وَفِيهَا الحَرَارَةُ والحَيَاةُ والحَرَكَةُ.



9 782910 355005

ISBN: 2-910355-00-4

Thanks to  
[assayyad@maktoob.com](mailto:assayyad@maktoob.com)

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)